رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

حديث السنين

سيرة ذاتية

الدكتور ابراهيم السامرائي

دار عمار

دار البارق

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

حديث السنين

سيرة ذاتية

حقوق الطبع محفوظة

الطَّبْعَة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

موافقة دائرة المطبوعات والنشر
رقم الاجازة المتسلسل ١٦٥/٢/١٩٩٨م

رقم التصنيف	:	٨١٨
المؤلف ومن هو في حكمه	:	ابراهيم السامرائي
عنوان الكتاب	:	حديث السنين سيرة ذاتية
الموضوع الرئيسي	:	١ ـ الأدب العربي
		٢ ـ السيرة الذاتية
رقم الايداع	:	٢٠٢/٢/١٩٩٨
بيانات النشر	:	عمان : دار عمار

* ـ تم اعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

دار البيارق

لبنان: بيروت ـ ص.ب: ٥٩٧٤/١١٣ ـ الحمراء
الأردن: عمّان ـ ص.ب ٨٦٤ ـ الرمز ١١٥٩٢

دار عمار

عمان ـ ساحة الجامع الحسيني ـ سوق البتراء
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ ـ ص. ب ٩٢١٦٩١ عمان ـ الأردن

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

حديث السنين

سيرة ذاتية

الدكتور ابراهيم السامرائي

دار عمار
دار البيارق

بسم الله الرحمن الرحيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تقديم

هذه تجربة مني، أرمي بها أن يكون لي في أدب السيرة شيء مما دعي في عصرنا «السيرة الذاتية». لقد عدت في هذا الذي أبسُطه اليوم، في أوراقي إلى مخزون الذاكرة، وإلى ما كان لديّ من جزازات، كان لي فيها شيء أو أشياء، تدخل في هذا الضرب من الأدب الخاص.

وإني لأرفض مصطلح «السيرة الذاتية» ذلك أن أصحاب هذا المصطلح، من الدارسين العرب، لا يُعملون الفكر، فيهتدون إلى شيء يلتمسونه في ثقافتنا، بل إنهم يعوّلون على ما يكون لدى الغربيين، فيقتبسونه ويسيرون في هديه.

إن «السيرة الذاتية» ترجمة لما هو autobiographie، وهذا، النوع من الأدب التاريخي، عرفه العرب في تراثنا، وجهله المعاصرون، وظنوا أننا اقتبسناه مما هو لدى الغربيين.

لقد فات الدَّارسين العربَ أن «كتاب الاعتبار» لأسامة بن منقذ «سيرةٌ ذاتية» كالتي تُعرفُ في عصرنا، ومثل هذا كتاب «النكت العصرية» لعُمارة اليمني.

وقد رأيت أن أجعلَ سيرتي بعيدةً عن السَّرد الذي يتابعُه صاحبُه، ومن شأن هذه الطريقة السَّردية أن تجعلَ القارىءَ بعيداً عنها؛ لأنه يسأمُ أن يجدَ فيها أسلوبَ القاصِّ القديم. لقد أدركت ما لديَّ فأدرته في حوار بيني وبين صاحبي، فيكون الرأيُ، ويكون النقدُ للرأي، في هذا الحوار الذي أذهب

فيه أنا وحاجتي إلى إضافات، قد تنأى عن المتحدّث، لو كان وحده يسرد مما كان له.

وأريد أن أُنبّه القارىءَ إلى أني رميتُ أن أثبتَ، في أثناء السِّيرة، الكثير من حديث الكتب وما يتَّصِلُ بالنَّاس، وابتعدت عما لدى كثير من أصحاب هذا الأدب، كأن يكون في السِّيرة شيء من «اعترافات»، مستفيدين ذلك مما أُثِرَ من اعترافات الكتّاب الغربيين القُدَامىٰ والمُحْدثين.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

في الوصول إلى السبيل

الدار وأهلها

سألني غير واحد من أصحابي أن أعود إليهم، فأتحدّث عن أوائل أيّامي، وألَحُّوا في سؤالهم، حتى إذا كان لي أن أشرعَ في هذا وجدتني أبدأ رحلةً طويلة لا أملكُ من أسبابها الكثيرَ. وليس لي من زاد أتبلَّغُ به في رحلتي هذه، ولا أجدُ فيه متاعاً لنفسي ولا لصحبي الذين ألَحّوا عَلَيَّ بالسُّؤال.

لا عليك، أخي السائل الأثير، فإني عقدتُ العزمَ، ووطَّنْتُ النفسَ على أن أعودَ إلى أشتاتٍ من الذكرى، هي كلُّ ما بقي لي، وكأني به أضغاث أحلام.

تعالَ معي أصحبْكَ إلى ديار، في حاضرة جنوبية عراقية، هي «العمارة»[1]، تلك التي نزح إليها جدّي مع طائفةٍ من النازحين من سَامَرَّاءَ، تفرقوا في حواضر العراق.

وأعود إلى هذه الناحية، فأجدُها اشتملت على ديار لأولئك الذين حملوا معهم خبرتهم الحضارية، فشيّدوا وبنوا، وكان فيهم كلُّ سمح جواد. وكان من هذه دارٌ لنا واسعةٌ، اشتملت على حُجُرات، عمرت أربعة أطرافها. وإني لأذكرُ فيما أذكرُ، أن حُجْرَة أبي كانت في الرُّكن القِبْليِّ من الدار، وهي كسائر الحُجُرات التي تحيطُ بباحة الدار الواسعة التي ما إن علا

(١) العمارة من حواضر جنوبي العراق على الجهة اليسرى من نهر دجلة.

الضُّحى حتى عمَّت شمسُه تلك الباحة الواسعة التي فرشت بالطابوق المربَّع.

قد يكون من رغبتك أخي القارىء أن تعرَف هذه الدَّار وساكنيها، لتقفَ على طريقة العيش فيها، وما ينجمُ عنها من شجون في السُّلوك والمعايشة.

وإني لأكفيك هذا، وأقول: إن نفراً من عمومتي شغلوا الحُجُرات الأخرى مع أزواجهم وبنيهم، فهل تستطيعُ أن تدركَ ما يكونُ بين هذه الأُسَر المجتمعة المتفرِّقة من مشكلات، بسبب أولادهم، وبسبب اجتماعهم على الإفادة من مرافق الدار التي يفيد منها جمعٌ غيرُ قليل. ولم تكن هذه المرافقُ مشتملةً على ما هو ضَروريٌّ في عالمنا المعاصر، فحسبُك أن تعلمَ أن القليل من الدِّيار، في بداية هذا القرن، في العراق، تخلو مما هو مغتسلٌ مما يدعى «حمّاماً». وليس هذا في هذه الحاضرة التي وُلدتُ فيها ونشأتُ، ذلك أن عامةَ الدِّيار في الحواضر العراقية، في تلك الحِقْبة، كانت تفتقرُ إلى المرافق الضرورية على النحو الذي يتوفَّرُ في المساكن، في عصرنا.

لا يَهُولَنْك - أخي القارىء - هذا الذي أخبرتُك به عن ظروف العيش في العراق في مطلع هذا القرن، فإنك واقفٌ على شيء من هذا، في كثيرٍ من بلاد العرب، تلك البلاد التي عرفت شَظَفَ العيش الذي قاساه جمهرةُ الشعوب.

ودع عنك هذا، ولكني سأجعلكَ في حيرة، إذا أخبرتُك أن جمهرة الفرنسيين الذين قضيتُ في بلادهم سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، يقصدون الحمَّامات العامة للاستحمام، ذلك أن قدراً كبيراً من مساكنهم

يخلو من هذه المرافق الضَّرورية. وليس عجيباً أن ترى في باريس، في تلك الحقبة هذه الحمَّامات موزعةً في الأحياء السكنية.

وأعود إلى دارنا وساكنيها، فأقولُ لك: إنها اشتملتْ على عشيرةٍ كاملةٍ، تتوزَّعُ الحُجُرات هم وبنوهم، قد تسألُ: كيف تكون هذه الحُجُرات المعدودةُ مأوىً لهذا الجمع الكثير؟ والجواب عن هذا في القول المأثور: المكانُ الضَّيِّقُ يَسَعُ ألفَ صديق، فما بالُك بمن ارتبطوا بوشائجَ من رَحِمٍ مبلولة وأواصرَ موصولةٍ؟

لقد كان في دارنا هذه، ممن أدركتُ من عمومتي، اثنان، يتقاسمان مع أبي هذه الدَّار مع بنيهم وبينهم إخوة لي، وقد كان فيهم من له زوجٌ وبنون وبناتٌ. ولكني لا أخلي هذه الدارَ من أزواجِ عمومتي الذين ماتوا قبل أن أولدَ، وليس لهم من عَقِبٍ إلا واحد منهم.

قلت: جاءت أسرتُنا، وأوّلهم جدّي، مع الوافدين السَّامرائيين إلى العمارة، فمنهم من اشتغل بعمارة الدور، ومنهم من ذهب إلى الأرض، فغرس الشَّجَرَ في بساتينَ، لم تكن مدينة العمارة تعرفُها، وآخرون وجدوا في المهن الأخرى، من بيع وشراء، وسيلة رزقهم. وعلى هذا لم يكونوا أصحابَ ثروةٍ كبيرة، بل كانوا من وجوه البلد الذين وجد فيهم أهل العمارة ذوي أصولٍ عربية،فركنوا إليهم، وعقدوا معهم صِلاتٍ، فيها مَوَدَّةٌ ورحمةٌ.

ومن أجل ذلك كانت دارُنا بجوار ديارٍ أخرى، يمتلكها سامَرَّائِيُّونَ، وكان بيننا جميعاً صِلاتُ نسب ومصاهرة. واشتهر هؤلاء بمكارمهم وشجاعتهم حتى أطلق اسمُهم على حيٍّ كاملٍ، فيه مئاتُ المنازل، فسُمِّي «محلة السوامرة»[1].

(١) و«السوامرة» جمع من هم منسوبون إلى سامرّا.

ولو عدتَ إلى هؤلاء «السوامرة» وجدتهم من عشائر عدَّة، عرفهم السامرائيون في سامَرَّاءَ، وبقي من أرحامهم جماعاتٌ في سامراء، فهم: من العشائر السامرائية المعروفة: «البوعباس، والبونيسان والبورحمان، والعشاعشة والبودَرَّاج وغير هؤلاء. غير أن السامرائيين العماريين نسوا هذه الفواصلَ العشائرية، فاختلطوا، وامتزجوا في المصاهرة والعمل، وكانوا أهل كلمة واحدة، حتى كان من بينهم من ارتضى أن يكونَ له، وهو سنّي المذهب، صلةُ مصاهرة بالأسر الشيعية.

إن أولئك السامرائيين في العمارة، لم يتخلُّوا عن اللون العشائري، وإنهم بقوا متَّصِلِين بأصولهم في سامراء، ولهم فيها أقاربُ وصلاتٌ.

ولن أنسى الشيخة جدتي أمّ أبي وأعمامي، واسمها «عبودة» وكان لي مما عرفتُ عنها أنها بغدادية، اقترن بها جدّي، وحملها معه إلى العمارة في هجرته. وكانت ذات تقوى وصلاح، يقصدُها الناسُ للمشورة وفي إصلاح ذات البين.

وأنا أختمُ هذه البسطة بذكر أَبَوَيَّ أمّي وأبي، أذكرهما، وأرثيهما، وأبكيهما، فقد علمتُ من شقائهما وما عرفاه من خطوب، من المرض وأحداث الزّمان. ولم يكنْ لي غيرُ سنواتٍ معهما، وأنا حَدَثٌ، أدركتُ في حداثتي كيف يشقى الأكرمون. لقد ذهبا، فعوِّضت منهما بأمٍّ رؤوم، هي خالتي التي لا أعدلُ في حياتي تلك بها أحداً، لقد حَدَبَتْ علينا ونحن صبيةٌ صغارٌ، وكان لها أن شَقِيَتْ بشقيقة لي، أصيبتْ بالسُّلِّ، والسّلُّ يومئذ داءٌ وبيلٌ قتّالٌ. وكان لي أن صحبتها مع خالتي إلى لبنانَ، إلى مصحّ هملين، وكنت في طريقي إلى فرنسا بعض أعضاء البعثة العلمية العراقية.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

في زمن الطفولة

وكأني بك تسألني: هل لك أن تمضي في رحلتك، وما أراك إلاّ في أوّل الطريق؟ وكأنك تريدُ أن يكونَ مني أن أبسطَ بين يديك الصفحاتِ المؤلمة المظلمة من صباي.

قال صاحبي: ما أراها مظلمةً، وأنت تسكبُ فيها من فيض الكَلِم الذي عَزَف عنه أهلُ الأدب في عصرنا.

قلت: أنّى ليَ بهذا، وقد عَزَبت عني عهود، وتحوّلتُ إلى عصر آخر، شقيت بخطوبه، فلم أجد حاشية في أسفاري أبسطُ فيها بعض أضغاث أحلام، أو توشكُ أن تكونَ ذلك.

قال صاحبي:

كان لي أن سعدتُ بأفانينَ من شعرك، ولكني لم أجدْ فيها هذا الذي يكون لك أن تبسطَهُ في تَرَسُّلِكَ، تسردُ فيه الكثيرَ من حديث النفس الذي لا تقوى القوافي على بَسْطِهِ.

قلت:

أجل، لم يكن للمرء أن يُفْضِي بالكثير في الموزون المُقفّى، وما أرى النَّفَر الآخرَ من المتأدّبين قد أدركوا، أو استدركوا على أصحاب الموزون المقفّى ما فاتهم، فليس في أدبهم الجديد على طول ادِّعائهم أن يبسطوا بين أيدي القُرّاء أدباً، فيه حديث النفوس.

قال صاحبي:

فهل لك أن تُحَدِّثَني الليلةَ من أمرك، وأنت طفلٌ، ذُهِبَ بك إلى «الكُتّاب»، وما الذي كان لك مع الشيخ، ومع أقرانك الذين كانوا معك، وما الذي تزوَّدتَ به قبل الذهاب إلى «المدرسة»؟

قلت:

أذكر أني كنتُ في «الكُتّاب» مع ثلاثين آخرين، فيهم من هو بسني الصغير الذي لا يتجاوز ستّ السنوات، وفيهم من كان أسنَّ مني. وكان الشيخُ يدعونا «صنّاعه»، و«الصانع» منّا هو «التلميذ» في لغة المدرسين.

بدأنا قراءة القرآن مبتدئين بـ«جزء عَمَّ يتساءلون» على أن تكونَ سورةُ الفاتحة قبل هذا.

وكانت قراءةُ القرآن تفي بحاجة المبتدىء إلى تعلّم القراءة، وقراءةُ القرآن يتعلَّمُها المبتدىءُ تعلُّمَ تلقين، فيبدأ بهجاء كل حرف، فيخرج الصوت، ويتقنُه مضبوطاً بشكله في الرسم، فيكونُ من جماع الأصوات في الكلمة معرفة بإخراج الكلمة موصولة بأخرى قبلها وكلمة أخرى تليها.

وقد يكون أن أقول لك: إنّ معلّمي الصبية أو شيوخ الكتاتيب في تلك الحقبة، يعلمونَ الصِّبية «الصُنّاع» تهجئةَ الكَلِم بالأسلوب الفارسي، فكنتُ أُرَدِّدُ ومعي أصحابي «الصُنّاع» كلمات سورة الفاتحة مثلاً، فأرفع صوتي على النحو الذي يتلوه الشيخ، وهو:

أَلِفْ لامْ زَبَرْ أَلْـ، حَ ميم زَبَرْ حَمْ = الحَمْ، ثم الدال الأخيرة وهي دال پيش دُ، فيكون من هذا كلِّه كلمة «الحَمْدُ». ثم تقول: لام زَيْر لِـ لام أَلِفْ لا، هَـ زَيْر هِـ فيكون من هذا «للهِ» ونكون قد أتممنا شيئاً من أوّل

الفاتحة وهو «الحمد لله».

وقد يأخُذُكَ عَجَبٌ، كيف كان لي ولجملة الصِّبْية أن يتعلموا القرآنَ.

أقول: لا يَهُولنَّكَ ذلك متعلّم هذه الطريقة الصوتية في هجاء الأصوات وإخراج الكَلِم تصبحُ ميسورةً للمتعلّم الصغير، فهو يسمعُ الصوتَ، ويراه في الكلمة المكتوبة، وهكذا يضبطُ الكلمات صحيحةً في لغة القرآن. وقد رأيتُ نفراً من الصِّبْيَة الذين قَضَوْا في «الكتّاب» سنةً أو أكثرَ، قد أتمّوا قراءة المصحف الشريف.

قال صاحبي:

فكيف حالكم مع القراءة الأخرى لنصوص، مما خلا القرآن، وكيف تَعَلَّمْتُمُ الكتابةَ؟

قلتُ:

لك أن تسألَ هذا، ذلك أن نفراً من المُتَعَلِّمين الصِّبْية الشُّدَاة، لم يأخذوا عن الشيخ في الكُتّاب غَيْرَ القرآن، يقرؤونه ويُرَتِّلونه على طريقة خاصة، فيها بعض التَّطْريب، ولكنهم لم يستطيعوا مثلاً أن يقرؤوا الجريدة اليومية، ولا يعرفون من الكتابة سوى كتابة أسمائهم.

ولكنّ نفراً آخر من الشيوخ المعلمين، يكونُ من طريقته تعليمُ القراءة، وهي غيرُ تعليم قراءة القرآن، وهذه يجعلها مما يعرفُه الصِّبْيَةُ وهم يتعلمونَ قراءةَ القرآن. ومن شأن هذا أن يكون موصولاً بتعلم رسم الحرف وصولاً إلى الخَطِّ، على أنه صنعةٌ فنيةٌ، يتعلَّمُ فيها الحرف ورسمه وما يُشْكِلُ من أمور الرسم، كرسم الهمزة والألف الأخيرة، المقصورة التي تُرسَمُ ألفاً قائمةً أو ياءً.

وقد كان مما تعلمتُه مبادىءُ الحساب، وطَرَفاً من الأدب الدِّيني فيه

الصَّلاةُ، والوضوءُ والطهارة وما يكونُ من تمام هذه التربية الدينية.

قال صاحبي:

وماذا بعد هذا كُلِّه؟

قلت:

كأنك تسألُ عن نهاية هذه الرِّحلة التعليمية؟

قال صاحبي:

هو ذاك، وهل يَنال الصِّبْيَةُ المتعلمونَ شيئاً من دَرَجَةٍ، وهل تُسَمَّى، إن وُجدتْ، «شهادة» أو «إجازة»؟

قلتُ:

لم يكن شيءٌ من هذه الرسوم، ولكننا نفوزُ بما يكونُ لنا من إتمام تعلُّم قراءة المصحف الشريف وإجادة معرفته.

وكان هذا الإنجازُ يُدعَى «خَتْمة»، وللختمة حقُّها وملاكُها وذلك:

أن يُحتفل «بالصانع» الحَدَث بهذه المكرمة، فيكون الاحتفالُ الذي يشهدُه النَّاسُ وهم مارُّون في طريقهم.

قال صاحبي:

هل لك أن تصفَ لي هذا المشهد الذي لم أسمع به، ذلك أني لم أدركْ تلك الحقبة التي كان فيها «الكُتّاب» القديم مشاركةً في التعليم؟

قلت:

يأمر «الشيخ معلم الكُتّاب» الذي كنا نسميه إجلالاً واحتراماً «مُلاَّ» وهي كلمة فارسية، عُرِّبت في اللسان العامي في العراق وفي بلادِ

أخرى[1]، أن يخرج «صُنّاعه» أي التلاميذ من بيت الدرس إلى الطريق، في صفّين طويلين، يتقدّمهم «الصانع» المحتفَى به الذي أتمَّ «ختمته». وهم يرتدون أحسنَ ما لديهم من لباس، وبينهم من يحملُ «الرحلة» وهي حاملٌ من خشب، فيها المصحفُ الشريفُ، وهم يُرَتِّلون أنشودةً، يبدؤونها بقولهم:

الحمدُ للهِ الذي تَحمَّدا
حمداً كثيراً ليس يُحْصَى عَدَدا.

وشيءٌ آخر من هذه الرَّجَز، فيه الحمدُ والشكرُ لله الذي أعان الوَلَدَ فرزقه الفهمَ فعرف المصحفَ الشريف، بل خَتَمَه، وأتقنَ تجويدَهُ. وفي هذه الأرجوزة مما أنا ما زلت أحفظه هو:

يا أُمَّنَا قومي افرُشي الحَصِيرا
وهلِّلي وكَبِّري تكبيرا

وينتهي هذا الترتيل من الرجز وغيره من الآي الكريم، من سورة يَس، وسورة يوسف، يُتْلى مرتَّلاً مجوَّداً.

قال صاحبي:
كأنك لا تُفرِّق بين الترتيل والتجويد؟

قلت:
الترتيل تلاوة مع إحْسَان الأداء، وهو شيءٌ غيرُ بعيد عن «التجويد»، ولكننا، ونحن صبيةٌ، كنا نقلِّد القرّاءَ الذين يُجَوِّدُون فنذهبُ بالتِّلاوة إلى ما يتجاوزُ الترتيل، فنميلُ إلى «التطريب»، وهذا التطريبُ هو القراءةُ

(١) «الملاّ» كلمة فارسية عرفها العراقيون كما عرفها أهل بلدان الخليج.

بالألحانِ، يعرفُها المُغَنُّون في تلك الحقبة، وهي «المقامات» التي ندعوها «البغدادية».

قال صاحبي:

كأنك تقولُ: إن «التجويد» بلزومه للمقاماتِ والألحانِ ضربٌ من الغناء، وأنا أعرف فيما قرأت، أن نفراً من أهل العلم منعوا هذا، بل حرَّموه. وكأن الناس في عصرنا، تحكمهم آذانُهم قبل أن تَعِيَ قلوبُهم. إن عامة المقرئين في عصرنا، في كل البلاد الإسلامية، يدفعهم اللحنُ، فيجورون على الأداء السليم في التلاوة.

ثم ماذا من شأن هذا الاحتفال البهيج؟

قلتُ:

يمضي الموكب، ويتقدّمهم المحتفى به إلى داره، وفيها أسرتُه، فنجد أبويه وذوي قرابته، وأهل الحي فرحين بما أحرز ولدهم، فَيُحضرون الطعامَ الشِّهِيَّ داعين إليه من حضر من الجمع، وفي مقدمتهم الشيخ و«خَلْفَته» وهذا هو المساعِدُ له في العمل، بل يشاركُهُ في تعليم «الصُّنّاع» وهو صانعٌ قديم، أتمَّ «ختمته» وأداها مرّات عدَّة، فحق للشيخ أن يبوِّئه هذه المنزلة.

قال صاحبي:

لقد أفدتُ أنا المعنيَّ بالتربية والتعليم، في مفهوم عصرنا، مما بسطتَه، وما أحسبُ أنَّ أحداً ممن أرّخَ للتعليم في العهود المتأخرة قد عَرَض لشيء من هذا، فهل لك أن تبسطَ لنا بعض ما كنت فيه، في هذا الدأب القديم؟

قلتُ:

لا عليك، فقد أثرتني ودفَعتَني إلى أن أُجِيلَ الخاطر، فأقتنصَ ما عَزَبَ عن بالي، فأذكر أنّني كنتُ مع أصحابي في «الكُتّاب» في حُجْرة واسعةٍ، لا يُبَدِّدُ ظلامُها إلاّ حين يرتفعُ الضحى، فتملؤها أشِعَّةُ الشمس، تنفذُ إليها من باب واسع وكُوىً في جُدُرها. ولك أن تفكّر كيف حالنا في الشتاء، والبرد في العراق قاسٍ أيّما قسوة.

قال صاحبي:

لعل للشيخ الاستعانة بالخشب، يوضع في موقد واسع من المعدن، يسكبُ فوقه شيئاً من النفط، فَيَتَّقِد الخشبُ، فتسخُن الحجرةُ كحال الجَبَليِّينَ من الكُرْد، في شمال العراق.

قلت:

هو ذاك، ولكنك لا تدري كيف الأمرُ في أيّام الحَرِّ، بل في حَمارّة القيظ، وما حيلة الشيخ ليدرأ بها غائلة الحَرِّ الشديد، إنه يعمدُ إلى قِطعةٍ كبيرة من قُمَاشٍ غليظٍ، تُعَلَّقُ في سقف الحُجْرة، وفي أسفل طرفها حبلٌ طويلٌ، يكلَّفُ بجرِّه أحدُ الصنّاع الذي لم يحضرْ واجبَه، ولم يستظهِرْ ما قرأه، ويتأخَّرُ في حضوره إلى الكتّاب، وهو يقوم بهذا العمل، أو يكلّف به عقاباً له، لأنه مقصِّرٌ، حتى إذا قضى ساعة، استُبدِل به آخر من المُقَصِّرين، وهكذا يؤدِّي المقصِّرون هذا العملَ الشَّاقَّ.

قال صاحبي:

كأن هذه القطعة الغليظة تقوم مقام «المروحة»، وأذكر أني رأيتُ نَظَائِرَها في دكاكين الحَلاَّقين وغيرِهم، في القُرَى، قبل منتصف هذا القرن. لقد ذكرت أن من يقوم بجرِّ الحبل لتحريك قطعة القماش الغليظ هم نفرٌ من المتعلمين، يُؤَدُّون هذا العمل عقاباً لهم على تقصيرهم. فهل لك أن تذكُرَ

شيئاً من أساليب العقاب الأخرى.

قلت:

لعلك مَعْنِيٌّ بما ندعوه «الثواب والعقاب» في المنهج التربوي في عصرنا، وإني لأبسطُ إليك شيئاً منها كان معروفاً في «الكتاتيب» وهو ما يُدعى في العراق «الفَلْقَة» وهذه «الفلقة» أداةٌ من خَشَبٍ، تقومُ على قائمتين، وفيها فتحةٌ تُدخَل فيها رِجلا الصَّبِيّ الذي يُرادُ تأديبه، ليقومَ بضربهما «الشيخ» أو «الخَلْفة» أي خليفته ومساعده. والضربُ مُؤْذٍ بهذه الصُّورة، يخشاه «صُنّاع» الشيخ.

وكان من أساليب أصحاب الكتاتيب في التأديب، أنهم يعمدون في أشهر الصيف الذي يُهْرَعُ فيه الصِّبْيَةُ إلى السِّباحة في النهر، وكثيراً مّا يحدثُ الغرق، إلى ختم السيقان للأولاد وسواعدهم بختم الحبر الأزرق ليحذَّروا بهذا من السباحة.

وكان من ألوان العقاب حَجْزُ الأولاد في «الكُتَّاب» ساعةً أو أكثرَ من ذلك، بعد انتهاء أصحابه وانصرافهم إلى أهليهم.

قال صاحبي:

لم أكنْ على علم بحديث هذه «الفَلَقَة»، وإن كنت أعلَمُ الكثيرَ عن الضَّرْب وحجز الطلبة، بعد انتهاء دوام الطلاب، غير أني أعرفُ منذ سنين في بغداد مجلة هزلية نقدية، دعاها صاحبها «الفلقة» كان لها قراؤها الذين استساغوا طريقة كتابها في النقد والتجريح والغمز واللمز، ولم أكن أعرِفُ ما «الفَلَقة»، وقد بدا لي أنها من مادَّة «الفَلْق» وهو من قولهم: «فَلَقَ الحبَّة» أي فكَّها، فصارت فِلْقَتَين.

قلتُ:

ألم تسمعْ بقول أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب، في شيء من خُطَبِه ورسائله وأقواله:

«أما والذي فَلَق الحبَّةَ وبَرَأ النَّسْمةَ...».

قال صاحبي:

قد علمتُ الآن ما كنت أقرؤُه في باريس أيّام الطَّلب من حديث «الفلاّكَة»، وهم جماعة الثائرين في تونس على الحكم الفرنسي، فقد دُعي هؤلاء بهذه الشُّهرة، وأظنُّهم كانوا أشدَّاءَ على الفرنسيين الذين كانوا يُدْعَوْنَ في تونس «المعمِّرين» يضربونهم، ويكيدون لهم، إن ظفروا بهم وكثيراً ما كانوا يُوقعون القتلَ والطعنَ بالفرنسيين، كان ذلك في أواخر منتصف هذا القرن، وانتهى جهادُهم باستقلال تونس، بزعامة الحبيب بورقيبة.

وهؤلاء «الفلاكَة» من «الفلق» الذي ورد في قول المتأدِّبين من ذوي الأساليب الرَّفيعة:

«إنه يفلقُ الهَامَ ويبيدُ الطَّغَامَ...».

قلت:

ومن المفيد أن أستحضرَ لك لوناً من أدب هذا التعليم القديم كنا ونحن صبيةٌ نتلقَّاهُ في تَعَلُّمنا للخَطّ.

لقد كان الشيخ يكتب في «اللَّوْح» الذي دُعي في لغة المدارس «السَّبّورة» أبياتاً من الشعر منها:

لا تَرْبُطِ الجَرْبَاءَ حول صحيحةٍ   خوفاً على تلك الصحيحة تجرُبُ

ومنها:

عليٌّ الدرُّ والذهب المُصَفَّى   وباقي النَّاسِ كُلُّهُمُ تُرابُ

وما هو من نحو هذا من الشعر والنثر.

من نعيم البؤس

قلتُ:

كأني لم أستوف تلك الأيامَ الخالية وما تقتضيه منّي وأنا أعرض، وكان علي ألا أَدَعَ السنين تغلبُني، وأنا أعودُ إلى ما مضى بعد أكثرَ من نصف قرن. وقد يكون لاستدراكي هذا فائدةٌ أخرى، ذلك أن ما أثبتُه هنا، يتجاوزُ تلك المرحلة، فقد شغلتني همومي، وأنا صغيرٌ حَدثٌ، فوعيتُها، وصاحبتني طوالَ المراحل اللاحقة.

قال صاحبي:

كأني أدركتُ أن الأحداث جاءَتك سِراعاً، وأنك استحضرتَها، فلم يكنْ منكَ ما تستعينُ به على كبحها وضبطها. وها أنت ذا تعودُ إلى شيء أو أشياءَ، عزبتْ عنك آملاً أن يكون منها ما يدعوك إلى غيرها، وقد صدق رسول الله في قوله: «قَيِّدوا العلمَ بالكتابِ».

قلت:

لا جَرَم أنك الحليمُ الرشيدُ، لقد كان لي منك، أنت صاحبي، وزيرٌ، شددتُ به أزْري، وأشْركْتُهُ في أمري، وصرفت إليه نَجْواي، وهل أحدٌ أسمعه ما بيني وبين قلبي غيرك؟

قال صاحبي:

وهل لي أن أصلَ إلى شيء من «نعيم البؤس»؟ لقد غُمَّ الأمرُ، فما أعرفُ، بين من عرفتُ من أصحابي البائسينَ، مَنْ أشرقَ في قلبِهِ وميضٌ من نعيم.

قلت:

تعال إليَّ أصحبْك إلى أيامي الخاليات وأيّام عامّة الناس، قبل أكثر من نصف قرن. كنت وكان معي جمهرة، تعمل وَتكِدُّ، ولا تُحِسُّ أنها مظلومةٌ، فقد وجد الناسُ أنفسَهم على ما هم فيه، يعملون ويرجون حُسْنَ العاقبة. إنهم مثلُ قوم مَضَوْا، ألفوا أن الدنيا يمرُّ بها الخلْقُ، ليعملَ ويسعى علىما هُيِّىء له، أفلا ترى أن هذا هو النعيمُ، وأن البؤسَ فيه ليس بالقَدْر الذي نشقى بهمِّه، حلّ أو ارتحل في حاضرنا؟

قال صاحبي:

نعم، لقد كان لي شيءٌ من هذا، ذلك أني لم أشعرْ أن جاري الذي أوتي سعة في الرزق، لم يكن أسعد منّي، ولم أشعرْ أني شقيتُ بسببه، أو أنه ظلمني، فسلبني ما كان ينبغي أن يكون لي، وتلك سعادة ألا يحفلَ المرءُ بهمٍّ يسعى إليه، حتى إذا كان له بعضُ ما هو لجاره، جدَّ له همٌّ آخر، لا يفارقُه، وإن خفي ظلّه وزال أثَرُهُ.

قلت:

لقد غبر عنا زمانٌ، كنّا لا نجدُ فيه من طعامِنا إلا مُسْكَةً، نتبلَّغُ بها، لا تتجاوزُ الخبزَ القَفَار إلا بما نأدمُه من إدامٍ، فيه بعض الخضر، ولكننا ما كنا مبتئسين بما نصيب، وما لنا نحدِّث أنفسنا بالنفيس. لقد عصمنا نفوسنا أن تذهبَ في سوءٍ، يسعى إليه جمهرة، ارتضت الدنيا حقلاً ترتبعُ فيه. لقد كان لي ولصحبي الكثيرين أن نتبلّغَ كُلَّ صَباح بالكُسَيرة اليابسة، نستعينُ على ابتلاعها بشرب الشاي، ثم نسرعُ إلى المدرسة، نحثُّ الخُطى، فنبدأ سَعْينا راضين، يعمرنا أمل أن ستشرق شمسُ غد بخير ومتاع للناس، وسينعمُ الناسُ بذَرءٍ من نعيم.

قال صاحبي:

لقد كان هذا، وكانت قناعةٌ، ولم يكن النَّاسُ يشعرون أن الغَنِيَّ والتاجرَ وغيرهما، ممن أوتوا سَعَةً في العيش، قد سلبوهم حقَّهم، ولكنها دنيا، عرف كيف يستثمرها هؤلاء، فيدر ضَرْع ويشرقُ زرع، فتكون خيراً لهؤلاء. ثم إن أولئك المُتْرَفين لم يحتجنوا لأنفسهم متاعاً عزيزاً، لا يملكه جمهورُ الناس، ذلك أن دنيا الأمس غيرُ حافلة بهذه الطيِّبَات التي قذف بها عصرنا، وقد افتَنَّ الغربُ بقذف كل جديد، في كل يوم، فراح الناسُ حراصاً لأن يكونَ لهم هذا الذي يأتيهم.

قلت:

لقد كان هذا، وقد جَدَّت حياتُنا، وحفلت بكل طريفٍ، كُنَّا نحسبُ شيئاً منه من فضول عيش، ولكنَّه تحوّل، فصار مما ليس فينا غنىً عنه. ومن هنا اختلفنا نحن، ولم يكن لنا ما كان مما نحسَبُه قناعةً نغنى بها عن مُتَعٍ جديدة، سدَّت علينا المسالكَ، فصرنا نسعى إلى الحصول عليها. ألا ترى أن النفوسَ قد سُلبت أصالَتَها، فانتقلنا إلى دنيا ملكت علينا كُلَّ شيء.

قال صاحبي:

لقد رثّت أحوالُنا بما ساءت، من سعينا في الاستحواذ على ما هو نافعٌ وضروريٌّ، تجاوزناه إلى الرديء والسافل، مما هُرع إليه الناس، ألا ترى أن السرقة عمَّت، وتجاوزت حدَّ اللُّصوصِ الذين كانوا يسرقون البيت، يتسوّرونه ليلاً، فيذهبون بما ظفروا به، مما نالته أيديهم، وحدّ الآخرين الذين نُعتوا بـ«النشالين» يتصيّدون غفلةَ السَّابِلة وأصحاب الدكاكين، فيكون لهم بعضُ بضاعةٍ، لا توفرُ لهم ما يحلمون به. لقد تجاوزنا هؤلاء، فراح الموظف الصغير والكبير، ولا أستثني الكبير المدير والوزير، يسلب كل منهم حقَّ الناس فيستولي بحذق ومهارة على ما ائتمِنَ عليه، وقد أحسَّ الناسُ هذا، فشاركوا في الشَّرِّ، وقدّموا الرُّشَىٰ، وأفسدوا هذا وذاك، فعم

الفسادُ، وساء النظامُ، فكيف العملُ، وإلى أين المصيرُ.

قلت:

لقد أدركتَ ووصلت إلى ما نحن فيه من خطوب، فهل لي أن أذهبَ إلى أنّا كنا بخير، حين كنا راضين مطمئّينَ، نتبلَّغُ بالكُسيْرة والإدام الذي يشتركُ فيه الفقيرُ ومَنْ كنا ندعوه الغنيّ الذي أوتي السَّعَةَ؟

لقد كان لنا ثراءٌ من خُلُق ودين، يعصمنا أن نجنحَ إلى ما وصلنا إليه في عصرنا، وكان بين الناس تراحمٌ وتعاطفٌ وتواصلٌ. وإني لأذكر جارَنا اليهودي موشي الذي كان يمدُّ غيرَ واحد من أهل الحيِّ ببعض حاجتهم، من قمحٍ وسمنٍ، من متجره في أوَّل رمضان، ليستعينوا به على قضاء ما يقتضيه الصَّوْمُ.

قال صاحبي:

لقد كان هذا، وكان بين الناس أهل مروءة ونَصَفَة، ولكنِّي لا أنفي أنا كنَّا مع رضانا وقناعتنا نشكو صابرين، يعمرُنا رجاءٌ، أن غداً قريبٌ، وأن حالَنا لا بدَّ أن تتغيَّرَ. وكأنّا قد أسرفنا في حسن ما ظنّناه وتوقعناه، فلم يكنْ لنا ما كنا نرجوه.

قلت:

نعم، لقد غالتنا خيبةٌ، فذهبنا في التماس الخير الذي سدَّ علينا فيه أولو الشَّرِّ مسالِكَنا، فلم يكنْ لنا إلا أن رأينا أن الشَّرَّ الذي كُنَّا نراه، ونغضُّ الطَّرْفَ مدفوعين بما سيكون من صلاح، قد استشرى خطبُه.

قال صاحبي.

لقد عرفنا الشَّرَّ، والشَّرُّ قديمٌ، وإن النفسَ لأمارةٌ بالسُّوء منذ وُجِد الإنسانُ. وإني لأتأسّى بقوله - سبحانه -:

﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴿٣٦﴾ . . . ﴾ [البقرة].

وها نحن أولاء ما زلنا أهل دنيا، ملكت علينا أمْرَنا، وإن كان لنا بقيةٌ من مروءة، عشنا بها زمناً، بل أزمنة، استطعنا فيها أن نكبح شيئاً من جِماح الشَّرِّ.

قلت:

كأني، وقد عُدْت إلى أيامي الخاليات، قد أدركت أنِّي تعجَّلت المسيرة، وهالني ما كنت ألقاه في الدَّرس الذي استحضرته في فكري وخيالي، فكان من هذا أن شُغلت بخطوبٍ وشجونٍ، مضت بي، وأغفلتني عن أشياءَ كثيرةٍ.

قَالَ صاحِبي:

ولم يكن لك ولي أن نذهبَ في غير ما ذهبنا فيه، ولكني أقرُّ أني ربَّما دفعتُك إلى أن نباشرَ شيئاً مما دعوتَه «بُنَيَّات الطريق» فذهبت فيها، ثم عدتَ إلى ما عزمت عليه، فاستقام الأمرُ، واستوينا على الطريق.

قلت:

وكأني، وقد عدتُ إلى هذه الأسطر، في بسط ما كان من أيامٍ خلت، وما كان من شجونها التي رافقتني في مراحل السَّيْر، بعد أن ذهبت أيام الصِّبا، أحسستُ أن واجبَ الرِّثاء يدعوني إلى ما أنا فيه، في هذه السُّطور، وبكاء الماضي شيء، يفرضه عليّ هذا الحاضر الأليم. لقد رأيتُ أني غدوت آلَمُ من وحدة، ذهب معها الرَّفيق والصَّديق، ورحت أتلو قول أبي عبادة:

وأرى لِدَاةَ أبي تتابعَ كُثْرُهم عنّي فَكَرَّ الدَّهرُ نحو لِدَاتِي

قال صاحبي:

أقْصِرْ، أستاذي الجليل، وتَأَسَّ، بل تَعَزَّ بما كان لك ويكون من جدك، فقد أجدتَ البناءَ، وأعليتَ الصَّرْحَ، وأنت من المُصْطَفَيْنَ الأخيار؟!!

قلت:

حسبُك أن قلتَ ما قلتَ، ولكن كيف السبيلُ وقد قُطع الدربُ، وسُدَّت المسالكُ، وهلك الأهلُ والصديقُ، وأوذيت رَحِمٌ، وَرَثَّ زمانٌ، فأين الدِّيارُ، وكيف المصيرُ.

قال صاحبي:

ولك ولنا جميعاً أن نمضي في مسيرتنا، فنزوَّد زاداً نغنى به في هذه الأيّام السُّود.

قلت:

ولي أن أفيدَك شيئاً، لم تُدركه، لأنك ابنُ جيل، بيني وبينك فيه أمدٌ طويل، ولكنك أدركتَ بفطنتك أن القناعَة كنزٌ لا يَفنى، وأن أهلنا في أجيالٍ مضتْ، سبقتْ ما أنت فيه، غَنُوا بقناعة أفادوا منها.

لقد سعدوا بما أعدّوا للغد الذي توقّعوا فيه الشَّرَّ، فكانوا يحرزون في بيوتهم موادَّ عيشهم حتى إذا أقبلت عليهم سنةٌ، فيها جدْبٌ وضيْقٌ، استعانوا بما لديهم.

قال صاحبي:

ألم تخبرني مرّة أنك كنت تذهبُ بالقمح إلى المطحنة، لتعودَ بالكيس أو الكيسين طحيناً دقيقاً، وكنت تذهبُ بالأرز غير المقشور إلى الماكنة، لتعودَ به «مهبَّشاً» هُيِّىء للطبخ.

قلتُ:

نعم، لقد كان هذا زادُنا فيما مضى، فخبزُنا اليوميُّ يُخْتَبَزُ في تنُّور الدَّار، نأكلُه مع بعض إدام عند الغَداء، ويبقى منه إلى العَشَاء وفطور اليوم التالي. ولنا في المساء الرُّزُّ، نطبخُه، ونسكبُ عليه بعض السَّمن الساخن مع ما بقي من الإدام الذي أعددناه لغدائنا.

نعم:

كان هذا هو عيشُنا، وكلُّ امرىء فيه يُحْرِزُ فيما يُعدُّه لغده على قَدْر طاقته. ولقد كان من سعادتنا أن نُوَفِّرَ من عيشنا مما رزقنا اللهُ، كما قال الشاعر القديم:

إذا ما الخبزُ تأدمُهُ بلحمٍ   فذاك أمانةَ اللهِ الثَّريدُ

قال صاحبي:

كان ذاك هو العيشَ، فإن كان مما تفكَّهتُم به، فليس إلا التَّمْرُ. وما أظن أن فاكهة عصرنا قد عرفتها الأجيالُ التي مضت.

قلتُ:

كانوا يرون الفاكهةَ، ويحسبونها زيادةً، لا تَفِي بها النَّفقةُ، ولكنهم رَضُوا وقنعوا بما أصابوا، فليس لهم أن يطمحوا بزادٍ، لا سبيلَ إليه.

قال صاحبي:

لقد سعدتم بذلك العصر، ولكنكم شقيتم وأنتم تَرَونَ أن المرءَ يَتَطلَّبُ البرتقالَ والتفاحَ والعنبَ وغير هذا، فإن لم يكنْ، سَعَتِ الحكومةُ ومعها التُّجَّارُ إلى استجلابها من أمكنةٍ بعيدة.

قلت:

قاتل اللهُ التُّجّارَ الذين أُثر فيهم «يُحشَر التاجرُ يومَ القيامة فاجراً إلّا من اتّقَى الله»، وأين هذا الذي يتّقي الله، وهو يقدِّم الأعنابَ في الشِّتاء، يأتي به من بلدٍ بعيدٍ، ليغرق ذوي السَّعَة، وأنّى لغيرهم أن يكونَ له هذا؟

قال صاحبي:

وقد تجاوزنا هذا الحدَّ، فصار التاجرُ يأتي بالفضول من العيش، كأطايب الحلوى وغيرها، من أقاصي الديار. أيكون من هذا، ونحن لا نملك القمحَ الذي نأكلُه خبزاً، بل نأتي به مجلوباً من أمريكا وكندا وغيرهما.

قلت:

إننا أهلُ قوم، ظلموا أنفسَهم، فحقَّ علينا العقابُ.

غير أني أجدني وأنا أوّدعُ تلك الحقبةَ مشوقاً إلى أن أثبتَ هنا شوقي لأيام، على شدائدها وما لقيتُ فيها من ضيق. لقد رأيت أسىً ثقل عليَّ، وأنا أرى أبويّ وما كانا فيه.

لقد ذَهَبْتْ أمّي وهي تصارعُ السُّلَّ، رأيتها وقد بُحّ منها الصوتُ، فلا تكادُ تسمع من تردّ عليه، وتنفثُ من صدرها دماً، وكان لها أن قَضَت نحبها. ثم كانت فجيعتي بأبي الذي حمل إلى البصرة كسير السَّاق، فتوفّيَ غريباً، ودفن هناك.

غيرُ أني ومعي كثير من أصحابي، لم نكن مبتئسين مما نحن فيه من ضيق، كنا مؤمنين أن بجدّنا ستنجلي غمراتٌ، وستشرق شمسُ غدٍ بخير وَفِيرٍ.

قال صاحبي:

لقد كان لي أن أدركتُ أعقابَ تلك الحقبة التي تحدثتَ عنها، وما زلت

أذكر أني كغيري، لم نكن كما نحن في حاضرنا. كنا على رأينا نكدُّ ونسعى، يحدونا أملٌ واسعٌ فيما نستقبلُ من أيامنا.

وإني لأذكرُ أن جارنا كان من أهل السَّعَة، ولكننا نتواصلُ، وقد كان رفيقي الذي آلفُه هو ابنَ ذلك الذي كنت أعدُّه غنياً غير أني لا أنفسُه، ولا أحسدُه عما هو فيه، مع علمي أنّ إناءه غيرُ إنائي، وأن قميصَه مما لم أكنْ قد ارتديت نظيرَه. لقد ذهبت بنا الأيامُ، وإني لأحسبني الآن خيراً منه، لأنه لم يَشْقَ شقائي.

قلت:

هو ذاك ما كان لكثير من لِدَاتك المستضعفينَ في الأرض، وإن هي إلا ساعات وأيام ثقيلة، صَلَينا نارَها، ففزنا بعدها بما نحن فيه، ولو كنا لا نملكُ الأثاثَ والرِّياشَ من فضولِ العيش غير أني أتوجَّسُه إلى أيامي راثياً باكياً، أبصِرُها من موقفي في حاضري، فأجدني قد فرَّطت فيها أني لم أحسنْ بناءَ الأمل فيما أستقبله من يومي وأيامي الآتيات.

كأني أقول: رحم اللهُ أيامِيَ الخاليات حيث كنا صِبيةً، نقول ما قاله فيها الشاعر القديم:

إن الشَّبَابَ المرح التَّصَابي   روائحُ الجنَّةِ في الشَّبابِ

قال صاحبي:

وكيف أنسى أمير الشعراء الذي قال:

ألا حبذا صِبْيَةُ المكتبِ   وأحببْ بأيّامِها أحبِبِ
ويا حبذا صبيةٌ يلعَبون   عنانُ الحياة عليهم صَبي

ثم أقول:

ألم يظلم عميدُ الأدب والأستاذُ العقاد ذا الأميرَ، حين نالا منه، أنراهما

نَفَسا عليه لقب «أمير الشعراء»؟

قلت:

لعل هذا قد كان، وكأني أتصوَّر أن لو مدَّ اللهُ في أجلهما، لكان لهما في أميرِ الشعراء غير ما كان لهما؛ لأنهما سيبتئسان من انحطاطِ الشعر في عصرنا. ولن أنسى أن أحمد لك قولك: إنك ما كنتَ تنفسُ جارك أو تحسدُه على نعمائه، بل رحتَ رفيقاً له، وهل لي أن أستدرك، فأثبت أن أصحابي من لِداتي الفقراء قد ذهب بهم ما كان في غيرهم، من مَيْلٍ إلى اللَّعب بالكرة، ولكنهم لم يَملكوا الكرة، وليس في طوقهم اشتراؤها كالتي لدى أخٍ لهم ممن حُملت إليه هديةً من بغداد، فماذا كان منهم:

لقد عمدوا إلى طي خِرَقٍ باليةٍ بعضها على بعض، فَكوّروها، وراحوا يلعبون بها، يضربونها بأقدامهم. وسعى آخرون إلى غير هذا، لقد أخذوا من مَثَانة الضَّأن ما يُشبِهُ الكرةَ، بعد ملْئها بالهواء ونفخها وشدِّها من أعلاها، وهكذا ابتكر الصبيةُ وَسَائِلَهم، وهم فَرِحون فيما اهتدوا إليه، فطوبى للفقراء.

قال صاحبي:

أقصِرْ، رضي اللهُ عنك، فقد ذكرتَ ورثيتَ وبكيتَ ووفّيتَ، وأنت صِنْوُ مروءة ووفاء.

في المدرسة

قد تتعجل أنت صديقي وصاحبي، فتودّ أن تعرف متى دخلت المدرسة، وما كان لي فيها، فأقول:

لقد أنجزت حقيبتي في «الكتّاب» وختمت المصحفَ الشريفَ قراءةً وترتيلاً وتجويداً، ولكني حُرمتُ من متعة الاحتفال برسوم «الختمة» كما شرحتُها وذلك أني قد رزئت بوفاة أبي، فحزنت أشدَّ الحزن، وحزنت الأسرةُ كُلُّها، ومن أجل هذا لم يكنْ لنا أن نظهرَ شيئاً من رسوم الفَرَح.

إنّ وصولي إلى ما وصلتُ إليه كان نهايةَ مرحلة تعليميةٍ، في ذلك العهدِ، عرفها المتعلِّمونَ في بدايات هذا القرن. وكانت تلك النهايةُ تؤهِّلُ المتعلِّم أن يبدأَ التعليمَ النظاميَّ المدرسيَّ. لقد كان لي أن أسعدَ بالانتساب إلى المدرسة الابتدائية. لقد أخذني أخي الأكبر إلى مدرسة قريبة من دارنا، سمِّيتْ «مدرسة الكحلاء»(١). سُجِّلت في الصف الأول الابتدائي، مع أني قضيتُ عامَين في «الكتّاب» وحصلتُ فيه على معرفة بقراءة القرآن، وكنت مع صِبْية صغار أنا أكبرهم.

قال صاحبي:

كيف كان بدءُ الدراسة في أوّل يوم كنت فيه في المدرسة التي وسمت بـ«الكحلاء». وإني لأعلم أن اليوم الأوّلَ من حضورِ التلاميذِ في المدرسة

---

(١) هي مدرسة كانت تشتمل على السنوات الأربع من الدراسة الأولى، سميت باسم نهر الكحلاء الذي يتفرع من دجلة عند مدينة «العمارة».

الابتدائية كأنه يومُ عيد، بحسب ما لديَّ مما أذكره من أيامي الخاليات، ذلك أن جمهرةَ التلاميذ في لباسٍ جديدٍ مختلفٍ ألوانُه.

قلتُ:

نعم! هو ذاك، ولكني أذكرُ من أيامي الأولى أن جمهرة أصحابي قد جاؤوا بصحبة آبائهم وأمّهاتهم، كلٌّ مزهوٌّ بجلبابه [أي الدشداشة]، فيبدو جمعهم كأنهم بعيدٍ احتفالي. علىألا ننسى أننا قد نجدُ بين أولئك المتعلِّمينَ الأحداث من جِيءَ به يبكي، لأنه لم يُوَطَّنْ على مبارحة داره وأهله وذويه.

وأعود إلى هذه المدرسة التي وجدتُ فيها حجرةَ الدرس التي تُدعَى في العراق «الصَّف» الذي يقابل «الفصل» في بلاد عربية أخرى. إن هذه الحُجْرة غيرُ حجرة «الكتّاب» التي شقيتُ بها عامين كاملين، وكنت قد أطلتُ الكلام عليها. إن في هذه الحجرة مقاعِدَ لجلوس التلاميذ، تشتملُ في جزءٍ منها على ما يُشبهُ الصندوق، يوضع فيه الكتاب والدفتر والقلم...

وأذكر أننا جلسنا على مقاعدنا، ننتظرُ مجيء المعلم، وأذكر أنه جاء، ورحَّب بنا قائلاً «أهلاً وسهلاً»، وكتب هذه العبارة على لوح كبير أسود مربّع، قد أثبتَ على الجدار، وهو غيرُ اللوح الذي عرفته في حجرة «الكتّاب»، وهو يدعى هنا «السّبورة».

قال صاحبي:

وهل باشر المعلِّمُ عملَه في تلكَ السّاعة الأولى؟

قلت:

لا، ولكنه أتى على شؤون، تَتَّصِلُ بعمله، منها أنه سألنا أسماءَنا

وأسماء آبائنا وأعمال آبائنا.

وأظنُّه في هذا أراد أن يعرفنا، ليدعوَ كلَّ واحد باسمه، فيكون منّا ونكون منه.

قال صاحبي:

وماذا بعد هذا مما شُغل به المعلّم، وما كان عمله؟

قلت:

ما كان لنا شيءٌ نتعلمه من «كتاب»، وإنما كان المعلمُ يكتبُ على اللَّوح حرفَ الزاي، وينطِقُ بصوته فيقول: «إز إزّ. . .» ويطيلُ ويُردِّدُ الصوتَ للزاي ليشعر الصِّبية بهذا الصوت. وهو حين يرسمُه على اللَّوح «ز» يسبقُه في نطقه ببعض من همزة، يستعينُ بها إلى الوصول إلى الصوت المقصود.

قال صاحبي:

وماذا يكونُ من الصِّبْية المتعلمين، أيكتفون بترديد ما ينطق به المعلمُ، أم ماذا؟

قلتُ:

يأمر المعلمُ الصبيةَ بإخراج كلٍّ منهم دفْتَرَهُ وقَلَمَه اللذين أتَى بهما في محفظة من نسيج كالكيس، ليكتبوا في دفاترهم ما رسمه على اللَّوْح، ويكرِّروا الاسم، ويأتي هو ليرى كيف كان ذلك من كلٍّ منهم. وقد يكون لك صاحبي أن تسألَ: وما الذي بعد هذا؟

إنه يُتبعُ رسمَ الزاي في درس آخر برسم آخر هو الياء، فيكون له من ذلك: زِي ويردِّدُ الصبية هذا التركيب من الزاي والياء، ثم يكتبونه في دفاترِهِم. ثم يتبعُ المعلمُ رسمَ زاي أخرى فتتمُّ كلمةٌ هي «زيز».

قال صاحبي:

ولِمَ اختار المعلمُ هذه الكلمة التي لا معنى لها، لتكونَ أوّلَ ما يتعلّمُهُ حَدَثٌ صغيرٌ مبتدىءٌ؟

قلتُ:

لم يكنْ هذا من صنعة المعلم، بل كان هذا مما بُدِىءَ به في كتاب تربويّ قديم، صنعه الأستاذ ساطع الحصري المعروف الذي قدِمَ إلى العراق، بعد قيام أوّل حكومةَ مَلَكِيَّة، كان الملك فيصل الأول مؤسِّسَها الأول.

قال صاحبي:

هو الكتابُ الذي دعوناه «القراءة الخَلْدُونية» منسوباً إلى صاحبه أبي خلدون ساطعِ الحُصري. ذلك الكتاب الذي أذكرُ أنّا ونحنُ صبيةٌ نردِّدُ منه في لهونا وطيشنا: زيز، زيزان زيزي...

قلت:

لم يفطُن الصِّبْيَةُ لهذا الصَّوْت، ولم يهتد المَعْنِيُّون بالتَّرْبية وشؤون التعليم إلى السِّرِّ في اختيار هذا الصَّوْت. لقد أراد المؤلفُ، وهو الحاذقُ في هذه الصنعة، أن يبدأ بهذا الصَّوت، ليشعرَ المبتدىء المتعلّم بقوَّة هذا الصَّوْتِ، ثم يتبعُه بالياء ليفطنَ المبتدىءُ إلى مدِّ الزاي بصوت المدّ الذي هو الياء، ثم يعود إلى الزاي لتتمَّ الكلمةُ من ثلاثة أصوات، هي «زيز».

قال صاحبي:

كأنكَ تحملني على أن أدرك أن المؤلف صاحب صنعة في تعليم القراءة، بالأسلوب الصوتي، وأن هذا الأسلوب التربوي الذي تنكَّرَ له أهلُ

التربية الذين قدموا من أمريكا، واستبدلوا به أسلوباً آخر، ملاكه أن الطفل المبتدىء يُبَدأ به بتعلّم الجُمَل. وكان من ذلك أن وضع الدكتور متى عقراوي مع معلِّم، شغل نفسَه بتعليم الصغار المبتدئين، وأذكر أنه يُدعَى «رجل الله»، كتاباً وُسِم بـالقراءة الجُمَلية». لقد كان فيه صفحاتٌ كثيرة أولها:

«نوري كَتَبَ الدرس».

وهذه الجملةُ وأمثالُها كثيرةٌ في الكتاب، يُفاجَأُ بها المبتدئون الصِّغار، فيحفظونها عن ظهر قلب، والمعلمُ في كل صفحة يحملُ الصغارَ على الوقوف عند كلمة واحدة، فيشعرُ بأجزائها من الأصوات.

قلت:

إن هذه «الطريقة الجملية» قد بُدِىءَ بها في مدرسة خاصة، بعد أن غَبَر زمان طويل على استعمال «الخلدونية» التي ألفها الصِّغار المبتدئون. وكأن التجربةَ لم تنجحْ، وعاد الأمرُ في تلك المدرسة إلى النهج الذي جرى عليه الآخرون.

وكان الذي حدا أصحاب هذه النظرة أنهم وجدوا نفراً من الأمريكيين، من رجال التربية، قد كتب في النظرة الفلسفية لدى الطفل الذي ينظر إلى كُلِّ الشيء جملةً، قبل النظر إلى أجزائه، فأشاروا إلى أن يكونَ هذا النظرُ محقَّقاً في تعليم الطفل القراءة، ومن ثَمَّ الكتابة.

قال صاحبي:

وقد عرفت «القراءة الخلدونية» وشقيتُ بما اختارَهُ صاحبُها أبو خلدون ساطع الحصري من موادَّ، إلى جانبها صورها. وما أذكر أني أتقنتُ بعدَها القراءةَ على خير وجه، ولم أستعِنْ بما حصلت عليه من معرفة في

ذلك الكتاب، في قراءة السُّوَر، في جزء «عمَّ يتساءلون» في المصحف الشريف.

قلتُ:

لك أن تقولَ ذلك، لأن المحصول اليسيرَ من مادة «الخلدونية» لا يساعدُ على قراءة لغة التنزيل.

ومن أجل ذلك كان في موادِّ التعليم الأول مادَّةُ القرآن، ومادَّة الدين، ولكنّ المتعلمين لم يتخذوا من مادَّة القرآن معيناً لهم في تعلُّم الصغار للقراءة.

قال صاحبي:

ولي أن أضيفَ شيئاً فأقول: إن المبتدىء ليس له أن يتعلم القراءةَ والكتابةَ على نحوٍ مقبولٍ إلا بعد قضاء السَّنَة الرابعة في المدرسة الابتدائية، كان هذا قبل أربعينَ سنةً، فكيف حالُنا اليوم؟

قلتُ:

لعل من الفَجوَات التي لا تسدُّ العملية التربوية، أن التلاميذَ قد ينهون المدرسَة الابتدائية بنجاح، ولكنهم لا يستطيعونَ قراءة السُّوَرِ قراءةً حَسَنَة، ذلك أن النصيبَ اليسيرَ لتعليم القرآن الذي أتيح للمبتدىء، لا يضمنُ هذه النتيجة.

وقد كان لي أن ألْحَظَ أثرَ هذا لدى طلاب الجامعة، في كلية الآداب، فأجد الذي أتمَّ معرفة القرآن في «الكتاب» قادراً على القراءة الحسنة، في حين لم يصلْ إلى هذا الطالبُ الآخر الذي لم يمرَّ بهذا الدرس العتيق.

قال صاحبي:

غير أني أجدُ شيئاً آخر في التعليم المدرسي، يُعينُ على تقويم النفس

وتربية المهارات التي تنقل الطفل إلى أن يَتَّصِل بالحياة.

قلت:

كأنك تومىءُ - صاحبي الكريم - إلى الفلسفة القائلة: «إن التربية حياة، والتربية نموّ» هذه المقولة التي أوعبها الفيليسوفُ الأمريكي «جون ديوي» في كتابه «التربية والديموقراطية». وليس لنا أن نردّ هذه المقولة، أو أن نقدحَ فيها، فهي حقٌّ، يؤيدُه العلمُ. ثم إن نُظُم التعليم كافة طوال العصور، انتهت إلى شيء من هذا.

قال صاحبي:

لعلي أرى في «التربية» مصطلحاً جديداً، كاد أن ينسيَنَا مصطلحَ «التعلُّم» ومصطلحَ «التعليم»، ولعل من هذا أن ذهبنا مع المبتدئين في فهمٍ واسعٍ، وجعلنا من منهجنا أن نقوِّم المبتدىءَ. إن تقويمَ الحَدَث المبتدىء يتجاوزُ الاقتصارَ على بذل العلوم. ومن هنا كان مصطلحُ «التربية» أكثرَ تحقيقاً للأغراض الجديدة في العملية التعليمية.

قلت:

وكان بسبب هذا الذي بسطتُه أن استبدلَ بمصطلح «المعارف» مصطلح «التربية». وذهبنا إلى هذه التسمية الجديدة، فكانت لنا «وزارة التربية» التي حَلَّتْ مَحَلَّ «وزارة المعارف». وكأنك لم تلمحْ الذي دعا إلى هذا هو المصطلح في اللغات الغربية وهو education، وهذا يعني التربيةَ والتقويم أكثر مما يكون علوماً ومعارف.

قال صاحبي:

وإني لألمح هذا في اهتمام المنهج الجديد بالنَّشَاط الرِّياضي الذي تجاوَز ما كان لنا من فرق «الكشافة القديمة».

قلت:

إنك لتذكرُ أشياءَ، كان أهلُ عصرنا قد نَسُوْها، ومن هذه الحركة الكشفية التي كان التلاميذُ يقبلون عليها، لما فيها من الظهور للجمهور بألبستهم الخاصة التي تشيعُ الرضا في نفوسهم.

قال صاحبي:

ما زلت أذكر ما يكونُ لنا، ونحن صبيةٌ صغار، من رسوم، تُؤَدَّى صباحَ كلِّ يوم، إذ كان التلاميذ في صفوف وأرتال، بحسْب موضعهم في سني الدراسة، فيؤمَرون بترتيل نشيد من الأناشيد الوطنية، يخلف ذلك قيام المعلم الذي يشرفُ على هذه المُهِمَّة بالتفتيش عن نظافة الطلاب، في ملابسهم وأحذيتهم وأجسامهم، حتى إذا انتهى من ذلك، أمرهم بالذهاب إلى غرف الدرس.

يقضي التلاميذُ في غُرَفِ الدَّرس ما يقربُ من ساعة، فيُضربُ الجرس إيذاناً بانتهاء حِصَّة الدرس، ليخرجوا بعدها، لدقائقَ معدودةٍ، التماساً للراحة، ليستأنفوا بعدها حِصَّةً أخرى، وهذه هي حالُ الدارسين إلى الظهر، وفيه يتركون المدرسة إلى بيوتهم.

قلت:

لم يكن الجهدُ المدرسيُّ مقصوراً على ساعات عدَّة، يقضيها المتعلِّمون من الصباح إلى الظهر، بل كنا نعودُ إلى المدرسة، بعد الظهر من بيوتنا، لنستأنف العملَ المدرسيَّ لثلاث ساعات أخرى.

وكان لنا في الساعات المدرسية تلقّي موادَّ تعليمية هي:

القراءة، وكنا قد عرضنا فيها للقراءة الخلدونية، وكيف نقرأ الكلمةَ، بل نردِّدُ أصواتَها بعد أداء المعلم لها. وهذا الدرسُ في القراءة يصحبُه

محاولةٌ، في الكتابة، أي أننا نرسمُ في دفاترنا ما كان قد رسمه المعلّم في اللَّوْح. كانت كلُّ صفحة من ذلك الكتاب قد خصت بصوت من الأصوات، مع شيء من أصوات المدِّ، تؤلِّف معه الكلمات، كما أوضحت ذلك في صوت الزاي الذي أعقبه رسمُ الياء، وبعده زاي أخرى، ليكونَ من هذه الثلاثة «زيز».

لم يفكّر المؤلف الحصري بالمعنى، بل كان جُهْدُه مُنْصَبّاً على الصَّوْت الشَّديد مقروناً بالرسم، في حَيِّز هذه الكلمة. وكان بعد هذا يأتي بـ«زار» وفيها صوتٌ آخر من أصوات المد هو الألف، ثم «زيزان»، و«زير» و«زيران». وقد فطن المؤلفُ لمعنى «الزير» فرسم وعاء ذا عروتين، تعرفه ربّات البيوت، في تلك الحقبة، يوضع فيه السمن ونحوه.

وأنت تجدُ في صفحة ثانية «دار» و«دُور»، وفي هذين يعرف المتعلم صوت الألف للمدّ الذي عرفه في الصفحة الأولى، مع الزاي والراء والنون، ثم صوت المدِّ الآخر في الواو في «دور».

ثم صفحة أخرى فيها، «باب» و«بابان» و«زاب» و«زابان» و«زارَ» و«يزور» والمتعلِّمُ مدفوعٌ أو قل مأخوذٌ بيده، ليعرفَ الجديدَ في هذه الصَّفحات، فيجدُ مثلاً «أبواب» التي اجتمع فيها الألف وفوقه همزة، وهو بداية لتعلم رسم الهمزة فوق «الألف» الذي تعلمه المتعلم حرفاً للمدِّ، وإذا هو الآن شيء آخر مع رسم الهمزة، فيؤدي الرسمان صوت الهمزة، ثم إنه يقفُ على جديد آخرَ هو رسمُ الواو في «أبواب» والتلميذُ الصغيرُ ممتحنٌ بوجود واوٍ للمدِّ، وأخرى لها صوتٌ آخر في «أبواب».

وهكذا تنتهي رسومُ الأصوات في أحياز الكلمات الكثيرة التي تؤيّد بالصُّورة، فتتمُّ جملةُ الأصوات (الحروف) أي حروف الهجاء.

قال صاحبي:

وقد فاتنا أن نشيرَ إلى عنصر آخر هو «الحركات» للفتحة والكسرة والضمة. وهذه من الموادِّ المهمَّة التي لولاها ما اتَّصَلَ الحرفُ بالحرف، فهي أدواتٌ لوصْلِ الكافِ في «كَتَبَ» و«كُتِب» بالتاء، ووصل التاء بالباء.

قلت:

لعلك لم تحسنْ صاحبي بقولِك: إنّها أدواتٌ، ذلك أنها أصواتٌ ذاتُ قيمةٍ صوتية كبرى في تأليف الكَلِم. غير أن هذه الأصوات قصيرةٌ بالقياس إلى الأصوات الأخرى الطويلة، فالفتحة بعض المدِّ في الألف، والكسرةُ بعضُ المدِّ في الياء، والضمَّةُ بعض المدّ في الواو، فإذا أطال النَّاطقُ أيّاً منها، ذهب به النطق إلى الألف والياء والواو.

قال صاحبي:

ولكننا في الرسم لا نقرُّ بالقيمة الصَّوْتية الكبرى، لما دعوناه «الحركات»، ذلك أننا نراها في الكتب المدرسية للسنوات الثلاث التي يقضيها المتعلّم المبتدىءُ، حتى إذا تحوَّلَ إلى السنة الرابعة، وجد كتابَه خِلْواً من هذه الرُّسوم.

أقول: لعله كان ينبغي أن تكونَ لهذه الحَرَكات رسوم، تندرجُ في سلسلة رسوم الأصوات الهجائية. ليكون جهدُ المعلِّم والمتعلِّمِ أيسرَ ممّا هو الآن.

قلت:

لك أن تقولَ هذا وأكثرَ منه، وقد تعجبُ لِمَ لم يفطن العربُ ولا سيِّما أهلُ العلم والتربية لهذا النَّقْص الذي يجعلُ تعلُّم المبتدىءِ شاقّاً عسيراً. ولِمَ لم يفطنوا، فيثبتوا هذه الرسومَ للحركات في كتابة الكلمات كما هي

الحالُ في لغة التنزيل العزيز؟

قال صاحبي:

لم يكن العربُ وحدَهم ممن أهملوا هذه الرسومَ في كتابتهم، ذلك أن جملة الأمم التي دعوناها الأمم السَّامِيَّة، ومعها الشعوبُ الإسلامية غيرُ العربية، قد عانى أهلُها هذا النقص في الرسم، فأنت تجد هذه الرسوم (أي الحركات) في النصوص الدينية العبرانية، ولكنك لا تجدُها في الكتب والصحف.

قلتُ:

ومن مشكلات الرسم في العربية، أن المتعلِّمَ المُبتدىء يقعُ في حَيْرة من وجود رسم واحد، يصرف لِصوتين مختلفين، فالألفُ القائمةُ قد ترسَمُ، ويرادُ بها الهمزة، والياء ترسمُ، ويراد بها صوت المدِّ تارةً، والصوت الشجري كما في «نَسِي» تارةً أخرى، وهذه الياءُ الشجرية يكونُ لها رسمٌ خاصٌّ في أول الكلمة، وفي داخل الكلمة، كما في «تيسير»، والواو ترسم، ويراد بها صوت المد، ثم تكون صوتاً شفوياً كالباء، كما في وَجَدَ.

إن التخفّفَ من إثبات رسوم الحركات، قد عقَّد عمليةَ التعليم، ثم كان منه نتائجُ خطيرةٌ، فقد أضاف إلى اللُّغَة مادةً كثيرةً، جعلت معجمنَا كبيراً، لا يُطيقُهُ أهلُ العلم، لقد كان من هذا أن صار للكلمة الثلاثية صورتانِ، الأولى مثلاً بكسر العين والثانية بفتحها، وقد تكونُ الكلمة مثلّثةً، أي أنهم أثبتوها بفتح العين وكسرها وضمّها. وحسبُك أن تجدَ الأوائلَ من أهل العربية قد نبّهوا على هذا، وصنّفوا الكتبَ التعليميةَ، لإفهامِ المتعلِّم بهذا الخَلْط الذي صار من ملاك العربية.

قال صاحبي:

وليس هذا وحدَهُ من مشكلات العربية في الرسم، فلنا أن نشيرَ إلى تشابه الرَّسْم، فالباء مثل التاء ومثل الثاء، في الرسم، وقد يشتبه بالنون في آخر الكلمة، والدال قد تختلط بالراء في الرسم أو في عدم إجادة الرسم، والجيم والحاء والخاء قد يكون فيها هذا الخلطُ، لتشابه الرسم. والراء والزاي متشابهان، وكذا السين والشين، فالصاد والضاد، والفاء والقاف والعين والغين...

وحسبُك من ذهاب الصوت إلى الآخر، كما في مشكلة الضاد والظاء التي اضطُرّ أهلُ العربية إلى تصنيف الكتب التعليمية التي حصرت مواقعَ الضاد في الكَلِم، كما حصرتْ مواقعَ الظاء.

ثم إنك لا تعرف أن «النقط» قد اخترع في حقبة متأخرة في تاريخ الرسم، وكان الكتاب يرسمون الأحرف على تشابهها معتمدين على أن القارىء القديم صاحبُ فهم وتمييز، ولكن أين هذا القارىء صاحب الفهم؟

لم يوجد هذا القارىء، فقرىء ما هو بالغين، فكان لنا «عَشَاوة» وغِشَاوة «كما في قراءة المصحف، وكان لنا «حَصَب وحَضَب»، ومن هذا الكثير الكثير.

قلت:

وقد فاتك أن تعلم أن كتب «المؤتلف والمختلف»، وكتب «المشتبه» كانت بسبب من هذا التشابه في الرسم. وحسبك أن تعلمَ أن الكثيرَ من المخطوطات العربية القديمة قد عرض لها هذا، بسبب أن الناسخَ قد أهمل النقطَ كما أهملَ رسمَ الحركات، فجدَّت لنا مشكلاتٌ، اندرجت في

العربية، فكان لنا سَعَةٌ، حملت الضَّيْمَ على عربيتنا.

ولكني أعودُ للعملية التعليمية فأقول: كيف يكونُ للمتعلِّم أن يُلِمَّ بهذا، فهل له طاقةٌ في إصلاح الفاسد وإقامةِ الصواب الذي ابتعدَ عن الراشدين من المتعلمين؟!

قال صاحبي:

لك أن تقولَ ذلك وأكثرَ من ذلك، وحسبنا أن نَجِدَ عامَّة المُتَعَلِّمين يضبطون الفعل «يأملُ» بفتح الميم؟ والصواب ضمُّها، وأن عامتهم لا تعرف أن مضارع لَمَسَ هو «يَلْمِسُ» بكسر الميم و«يَلْمُسُ» بضمها.

ولعلنا لا نجدُ بين أهل العربية، في كل مكان، من يعرف أن مضارع «قَدِمَ» هو «يَقْدَم» بفتح الدال.

فكيف نضمن أن نصل إلى العلم في تعليم المبتدىء الناشىء، وهو يأتي إلى المدرسة مزوّداً بزادٍ لُغويٍّ غيرِ الذي يقرؤُه ويسمعُه في المدرسة؟ إنه يأتي يعرب بعامِّيَّة قد تختلف عن عامية رفيقه الذي يجلسُ إلى جانبه في مقعد الدرس!!

قلتُ:

إن هذا وغيره من مشكلات التعليم التي ما أرانا قد سلكنا السبل إلى تذليلها وإصلاح أمرنا ونحن مقبلون على علوم جديدة في عصرنا هذا.

ثم ماذا؟

قلت: لم نُفِدْ من تعليم القرآن في تعليم المبتدىء القراءَةَ والكتابَةَ، وكان فينا حاجةٌ إلى مثل هذا.

قال صاحبي:
ولدينا مشكلات ما زلت أنا، وقد بعدتُ عن صِبَاي وشبابي، أعانيها وهي أني ومثلي كثيرون، لا نعرفُ رسم الهمزة، وكيف توضعُ في الكَلِم، لأني أجدُ من يكتب «الشئون» ومن يكتب «الشؤون»، ومن يكتب «أهنِّئك» ومن يكتب «أهنّؤك»، ومثل هذا الكثير الكثير.

وأجتزىء بالذي أفضتُ فيه، فأقول لا بُدَّ أن نعودَ لما نحن فيه، لنسمعَ كيف كنت، وانت قد بدأت هذه الرحلة المضنية.

قلت:
من المفيد أن أحدثك عما كان لنا من تعلّم، تجاوز فيه أهل القراءة والكتابة، وذلك أننا طُلِب إلينا أن نستظهرَ شيئاً من رجز منظوم، وسموه بـ«المحفوظات».

كان لنا أوّل شيء، من ذلك في السنة الأولى، أن نتلو:

أنـتِ الكُـرة كـالسُكَّـرهْ
هذي يدي هيا اصعدي

وأذكر أننا كنا نردِّدُ هذا، ولا نعرفُ «السُّكَّرةُ» وما المراد بها؟

قال صاحبي:
وكيف كان ذلك؟

قلتُ:
لقد تحوَّل عامَّةُ أولئك الصِّبْيَة الصِّغَار من بيوتهم، وقد كانوا في بيوتهم يدرجون بلغة الأطفال التي تَعَلَّمُوها من ذويهم، ولم يكنْ في عاميتهم «سُكَّرَة» وكأنها حبّة «السُّكَّر، ذلك أن الطفلَ في تلك الحقبة، وما زال هو

هو في يومنا هذا في العراق، يعرف الكلمة «شَكر»، والكلمةُ فارسية، أخذها العراقيون بلفظها الفارسي، فكيف يعرفون «حبّة السُّكر»؟

ويمضي الصِّبْيَةُ يردِّدون الرجزَ، ولا يدركون ما فيه.

وأذكر أنّا قد كنا نُنْشِدُ الأناشيدَ، ولا نفهمها، ولم أرَ يوماً أن المعلِّم قد شُغِلَ بهذا، كُنا ننشد أناشيدَ نظمت في تلك الحقبة كان منها:

بُشرَى إليكم أهل العراق
فيصل مليك هذي البلادِ

ومن هذه الأناشيد شيء غير يسيرٍ، نظمه معروفٌ الرُّصَافيُّ وعبد الرحمن البَنَّاءُ وغيرهما، ومن ذلك ما كنا ننشده، ولا نفقهه، أنشودة في الوطن، جاء فيها:

لا تهُـنْ يـا وَطَـنُ   سوف يصفو الزَمَنُ
ضمِـنَ النصْـرَ لنـا   هِمَـــمٌ لا تَهِـــنُ

وكنّا ننشد «لا تَهِن» وليس الأمرُ كذلك، ولكن المعلم يجهلُ هذا العلمَ بالألفاظ، فكان يُنشدُ معنا «لا تهِن»، والصواب: «لا تَهُن» من الهوان، وأما الفعل الآخر في البيت الثاني فصحيح وهو مضارع «وَهَنَ».

وكانت تلك الأناشيدُ بلحن شرقيٍّ جميل، لا يخلو بعضُها من تطريب ورنَّةِ أسىً. وكان الناسُ يدعون تلك الاناشيدَ «شرقي» فقد يقول الرجل لولده: اقرأ «شرقي».

قال صاحبي:

لم أعرف «القراءةَ الخلدونية» لأني دخلتُ المدرسةَ، وكنت أقرأُ وأكتبُ، فرسموا لي «الصف الثاني».

لقد عرفتُ في هذا الصَّفّ. . «القراءةَ الرشيدةَ»، وهي كتابٌ مصريٌّ، نجدُ فيه شيئاً من بيئة مصرية، ومصطلحاً مصريّاً، فكلمة «الصف» العراقية هي «فصل» في الاستعمال المصريّ، والحديث عن الأهرام والنيل كثير. وقد عرفتُ في هذا الكتاب شيئاً من أسماء الحواضر والمواضع، كالصَّعِيد وأسْوان والإسكندرية وغيرهما.

قلت:

لقد عرفتُ هذا الكِتاب، وجيء به إلينا في مدرسة الكحلاء، وقد عرفت شيئاً يتَّصِلُ بالقطن وزراعته وعمل الفلاَّح المصري في أرضه. ولو أننا كنا نملكُ كتاباً عراقيّاً، لكان لنا فيه معرفة بالبيئة العراقية ومواضعها، كالحديث عن النخيل وبساتينها، ولا سيَّما في البصرة، ولكان لنا أن نعرف فوائدَ جغرافيةً، تتَّصِلُ بالنهرين دجلةَ والفُرات ومنابعهما ومصبِّهما عند مدينة القُرْنَة، حين يلتقيانِ في شطِّ العرب الذي يعرفه البصريون.

ولم يكن شيء من هذا، وكان حَرِيّاً بأهل التربية أن يستدركوا هذا، فيشرعوا بتصنيف كتبٍ مفيدةٍ. وإني لأذكرُ الآن ما كنت أحفظه، مما في هذا الكتاب الأرجوزة المضحكة وهي:

ضفدعة في الغدرانْ
صاحت شبّت كالغربان
يا ويلْ منها يا ويلْ
أزعجتني طول الليل

انتهى هذا كلُّه، ولكنِّي لم أعرِضْ لما كان من أمر الكتب وما يندرجُ فيه، مما يحتاجُه التلاميذُ عامّةً، من دفاترَ وغيرها، وفي هذا كُلِّه ما ينبغي لنا أن نعرضَ له.

قال صاحبي:

كأنك أومأت إلى المشكلة، فدعني أخوض فيها ممّا كان لي، فأقول: ما كان من الميسور لنا، قبل عدّة عقود من السنين، أن نحصلَ على الكُتُب، وأخصُّ حين أقولُ: أهل المدن الصغيرة والقرى التي ليس فيها مكتبات، ولا من يُعْنَى بالكُتُب من البَاعَة، فكان على أولياءِ أمورِنا، ممن يستطيعُ الإنفاق، أن يأتيَ بالكتاب والدفتر والقلم، من الحاضرة الكبيرة.

قلت:

نعم كان هذا كان حتى في بعض الحواضر التي لم يكنْ فيها إلا بائعُ كتبٍ واحدٌ يجلبُ الكتابَ بحسب قدرته التجارية، فلا يمكن أن يوفِّر العدد الكبير الذي يحتاجُ إليه.

وإني لأذكر أن مدينة العمارة كانت تنقطعُ عن الاتِّصال ببغداد أو البصرة، إما بسبب الأمطار، وإما بسبب فيضان دجلة الذي يغمر الأرَضين، فيعزُّ الوصولُ إليها بالسيارة. وبسبب من هذا تكاد تنفصلُ انفصالاً تامّاً عن سائر الحواضر إلاّ عن طريق الملاحة النهرية.

لقد كان لي ولصحبي الذين أدركوا تلك الحقبة، أن يَشْقَوْا، فيعمدوا إلى نسخ الكتاب المدرسي، فيكون هذا الكتاب المنسوخ ملكاً لجماعة ثلاثة أو أربعة يدرسون فيه. وقد يعزُّ الحصولُ على الدفاتر، فكنا نشتري دفاترَ لدى العطارين، هي سجلاتٌ رسمية، يزولُ استعمالها في الهند، فتصدر في «بالات» إلى العراق وبلدان الخليج، ليفيدَ منها العطَّارون وغيرهم في بيع بضائعهم.

وكنّا نكتب بهذه الدفاتر التي تشتمل في أعلى كل صفحة منها على اسم المكتب الهندي، بلغة انكليزية. ولندعْ هذا الشيءَ الجميلَ المحزنَ من

حديث الأيام، ولنطو صَفَحاتِ سِجِلّ، أمسى من وثائقِ عهدٍ مضى، ولننظر إلى ما يحزبنا في المدرسة العتيقة.

قال صاحبي:

كأن مادةَ اللُّغة العربية قد شَغَلت حَيِّزاً مما نحنُ فيه، فهلا بقي لنا من ذلك شيءٌ آخر؟

قلتُ:

لك أن تقولَ ذلك، ولكن الأمرَ يفرضُه علينا كونُ العربية تشغلُ معارَف عِدَّةً. إنها تجاوزت القراءة والكتابة، فالمتعلِّم الصغيرُ يواجِهُها في أسماء موادَّ عِدَّة.

كان مما تعلمتُه غيرَ رسم الحرف وقراءته الكلامَ بالعربية، وتعلُّم ألفاظ، لم أكن قد سمعتها في داري، من أبويَّ وإخوتي. إنها ألفاظٌ فصيحةٌ في مادَّة، سميت «المحادثة».

قال صاحبي:

كان لي أن أبسطَ شيئاً، تَعَلَّمْتُهُ أنا والصِّبْيَةُ معي في هذا الدرس. وملاك الأمر فيه أن المعلِّم يأتي لنا بصورة ذات سَعَة، تحتلُّ من اللَّوْح مساحةً مناسبة، فنبصرُها، وفيها فلاح، يحرثُ الأرضَ بِمِسْحَاتِه، وينثرُ الحَبَّ. وكان فيها مع الفلَّاح امرأتُه التي مضتْ إلى البقرة تحلبها، حتى إذا كان لها قَدْرٌ مما حلبتْ، مضتْ إلى مخدعٍ صغير كالمطبخ، لوضع الحليب. وهكذا كانت أعمالٌ عِدَّةٌ، قد أدّاها الفَلَّاحُ وامرأتُه. لقد كان في هذه الصُّورة مادةٌ كثيرةٌ، كان المعلّم يحكيها لنا بلغة فصيحة، وهو يرمي من ذلك أن يضيفَ إلى لغتنا قَدْراً من معرفة لألفاظ فصيحة، ما كنا نعرفها فيما ندرجُ فيه من عامِّيَّتنا.

قلت:

وليس هذا الذي صنعه المُعَلِّمُ في «درس المحادثة» هو كلُّ الموادِّ التعليمية التي يستهدفُ فيها تقويم المبتدئين وتربيتهم، فقد كان لنا «درس الأشياء» مما قد كنتُ، وكان معي أقراني قد تعلموا فيه أشتاتاً من معرفة بالإنسان والحيوان، وكيف يكونُ من الإنسان إفادةٌ من الحيوانات. لقد تعلمتُ فيه، أن المرء يأكلُ طعامَهُ، ويشربُ الماءَ، فيمضغُ الطعامَ، ويقطِّعُهُ بأسنانه، ثم يكونُ في المَعِدة عملٌ آخرٌ من الهضم، مع عصارات في المَعِدة، تُعِينُ على الهضم، ثم ما يكونُ ما يكون للطعام والماء في الأمعاء.

في هذا الدرس الذي وسم بـ«الأشياء» عرفت بدايةً لعلم طبيعي، كما عرفت شيئاً، يندرج في باب ما عرفته في مرحلة ما بعد السنوات الأولى والثانية والثالثة من «علم الصحة». لقد كان لنا في كلِّ ذلك زيادةُ معارفَ، تَتَّصِلُ بنا، ونُفيدُ منها، وكان من ذلك أن اتّسعت معارفُنا بعربية، لا نعرفُها فيما عرفنا من فوائِدَ تربوية، ثقفناها في الدار.

قال صاحبي:

ومن هنا كان من حقِّ علماء التربية الذين عرفناهم، بعد أن أنجزنا دراستنا في المرحلة الثانوية والمرحلة العالمية، أن ينقلوا إلينا فلسفةَ الغربيين في أن التربية حياةٌ ونموٌّ.

قلت:

وليس لنا أن ننسى المعارفَ المفيدةَ التي عرفناها في سعتها وتفصيلها، في كتب الجغرافيا والتاريخ. وفي هذه الكتب فوائدُ عن الأمم قديمها وحديثها وما يكونُ من حضارتها التي ساعدت البيئةُ على تكوينها.

قال صاحبي:

لك أن تذهب إلى هذا، في قولك: إن مادتَي الجغرافية والتاريخ تضيفان إلى معارف المتعلمين فوائد، يكون منها بناء عقولهم وتنويرها، وحثهم على معرفة المجهول.

قلت:

ألا ترى إن في جماع ذلك كله تربيةً لغويةً، أدركتَها أنت، وأدركتُها أنا مع رفاقي في الدرس، منذ أوّل مرحلة تعليمية. وما أحسبُ أننا أتينا على جملةِ ما في هذه المرحلة من فوائدَ أخرى، كانت من منهج الدرس.

ألا ترى أن المنهج قد احتوى ما كنّا قد مررنا به، في صفحات مرّت على «النشيد» الذي كان مادّةً من الموادّ التي تلقيناها، فعرفنا فيه الكَلِم المنظوم البديع، مع الألحان الجميلة. وهذا شيءٌ أضيف إلى معارفنا، بل ذهبَ بنا في تربيةٍ فنيةٍ، تجاوزنا فيها «درس المحفوظات» الذي كان لنا فيه معرفةٌ بالشعر والنثر.

قال صاحبي:

لقد عرضتَ إلى التربية الفنية التي تطوّرت في أيامنا، فكان لها شبهُ اختصاص، وذلك أن معلّم هذه التربية كان يحملُ معه آلةً موسيقيةً، إمّا العُود، وإما القيثارة، وكنا نحن الصِبيةَ نسمع الكَلِمَ جارياً في اللّحن، فتعمرُ به نفوسُنا ومشاعرُنا.

قلت:

ونتجاوزُ هذا الحدَّ من التربية التي كان لنا منها فوائدُ لغويةٌ وأخرى من معارفَ شتّى إلى تربية أخرى، هي فنيةٌ أيضاً، ولكنها عمليةٌ. كانت هذه في درس، استهدف فيه بعث المهارات، كنّا قد عرفناه بما سُمِّي «عَمَل

يَد».

لعلك تذكرتَ هذا الدرس وكيف كان الصِّغارُ فيه «يعملون في الوَرَق المُلَوَّن من صُوَر وأشكالٍ. وعرفت في هذا الدرس بداية ما سُمِّي بعد ذلك بحقبة طويلة «الفنون التشكيلية» من رسم ونحت، وفي تلك الحقبة بدأت صلتُنا بالوَرَق، نستعملُه لرسم الصُّورة، وليس للكتابة، كما بدأت صلتُنا بالطِّين والموادِّ الأخرى، نصنعُ منها صوراً مجسمة.

قال صاحبي:

لعلّنا أدركنا الكثيرَ مما كنا قد تَعَلَّمناه في المدرسة، وبقي لنا طائفةٌ من المعارف تَتَّصِلُ بـ«العلوم».

قلت:

نعم لنا أن نتوجَه إلى «الحساب» الذي بدأناه بتعلُّم العَدَد ورسومها، من الواحد إلى العشرة، ثم زاد هذا، فعرفناه في العشرات إلى المئة، وهكذا وصلنا في العدِّ إلى الألف. لقد كان المعلمُ يستعملُ ما كنَّا ندعوه «المحسبة»، وهي أداةٌ من عمودين من خشب، وُصل بينهما بأسلاك وكان في كل سِلْك كُرَاتٌ، هي مادَّةُ هذا الدَّرْس في العدِّ والإحصاء. ثم تبع هذه المرحلة، فتعلمنا عملية ما كنا ندعوه «الزائد والناقص».

إن الزائدَ هو ما كنا ندعوه «الجمع»، والناقص هو «الطرح» وثقفنا علامة الجمع وعلامة الطرح، بعدهما علامة النتيجة، فنرسم مثلاً:

٣+٣=٦

قال صاحبي:

لقد زادت هذه المعرفةُ في السنة الثالثة، فعرفنا الضرب والقسمة، فتمَّ بذلك معرفة بالأعمال الأربعة». ثم كان من بعدها أن ذهب المعلّمُ في

السنة الرابعة، يدخلُ هذه الأعمال الأربعة في مسائلَ، لا تخلو من إشكال لحفز مهارة المتعلم الصغير ودفعه إلى التفكير في الوصول إلى الحلِّ.

قال صاحبي:

ولا يفوتُني أن أذكرَ من «مسائل» الحساب ما شقيتُ به أيَّما شقاءٍ فيما كان يشقُّ به المعلم علينا في قوله:

حَنَفيّتانِ فُتِحتا، ليُرسلَ كلٌّ منهما الماء إلى حوض، تسكبُ الأولى في الدقيقة كذا من الماء محسوباً بالألتار، وتسكب الثانية شيئاً آخر، فكم من الوقت يكون لكليهما أن يملأ الحوضَ الذي سَعَتُهُ كذا...؟

قلتُ:

لعلّي أقول: إنَّ كثيراً من مسائل الحساب، كانت شيئاً من المُعاياة التي شَقِيَ بها المتعلّمون، ونحن فيهم، منذ صغرنا. وكان من ذلك نتائجُ سلبية في التَّعَلُّمِ. لقد ضاق الصبيةُ الشُّداةُ، وأنا منهم، بهذه «الفذلكات» التي كانوا يعانونها.

قال صاحبي:

لقد قرأتُ منذ أيّام، في سيرة جلال الدين السُّيُوطي، ما كتبه هو نفسه، مما ذكره في كتابه «حسن المحاضرة» جاء فيه:

لقد تعلّمت العلوم كافة، وأحسنت الإفادة منها، وقد صنَّفت في هذه العلوم كلها، ولكن لم يأتني شيءٌ كثير من معرفة، تدفعني إلى التصنيف في «علم الحساب». ثم ماذا؟

قلت:

لا بدّ أن نعرضَ لشيء آخر، يتَّصِلُ بـ«الحساب» وهو مادَّة «الهندسة» التي عرفناها في السنة الخامسة، فكان لنا درسٌ في الأشكال الهندسية،

كالدائرة ومحيطها وقطرها، وكيف تَصِلُ إلى مساحتها، ثم «المربَّع» وقريبٌ منه «المستطيل» و«متوازي الأضلاع» و«المعيَّن» و«المثلّث» و«الهرم».

قال صاحبي:

وكأننا حين انتقلنا إلى «الهندسة» وعرفنا استعمالَ أدواتها، من مسطرة وفرجالٍ وغيرهما، أحسَسْنا أننا في حيِّز علم دقيق.

قلتُ:

ولا بدّ أن أختمَ الكلام على هذه المرحلة التعليمية، فأعرض لمادة تثقيفية، عرفناها في السنة السادسة الابتدائية، تلكم هي مادَّةُ «المعلومات المدنية». كانت هذه المادَّة في كتابٍ، شارك فيه طالب مشتاق، وآخر كان لنا فيه علم في الأخلاق والأنظمة الاجتماعية، وشيء عن الدستور الذي كان يُدعَى القانون الأساسي.

وقد خرجنا من هذا بشيء، يَتَّصِلُ بالحياة والسُّلوك وواجب الفرد إزاء نفسه وإزاء غيره وإزاء السلطة الحاكمة. وعرفنا واجباتِ الحكومة في مرافقها المختلفة، من وزارات ومديريات، تتوزَّعُ العملَ في تسيير دِفَّة الحكم.

قال صاحبي:

وماذا عن النشاط اللاصفي الذي بدأ شيئاً من عمل، لا يدخلُ في منهج الدرس؟

قلت:

لقد كان من هذا مادَّة، دخلت منهجَ الدَّرس، والمتعلّم يؤدي فيها تجربةً خاصّةً، سمِّها إن شئتَ اختباراً. تلك هي مادَّة «الرياضة» التي تحوَّلت في السنوات الأخيرة إلى «تربية رياضية». إنَّ هذه التسميةَ الجديدة تبعدُها عن

«الرياضيات» التي كانت تطلقُ في التعليم الابتدائي على الحساب والهندسة، ثم تزدادُ في المرحلة الثانوية، فيكونُ فيها الجبرُ والمثلثاتُ.

قال صاحبي:

ولعل الرحلاتِ والعرض الرياضي ونحو هذا، مما يقوم به تلامذةُ المدرسةِ كلّهم، كان من ألوان النشاط الذي سعدنا به في بداية تعلّمنا.

قلت:

ولي أن أُحَدِّثَكَ عن شيءٍ، لم تدركْهُ، وقد فاتك الحديثُ عنه، لأنك تحوّلتَ بعد السنة الرابعة إلى لون آخر من التعليم، فيمّمتَ وجهَك شطرَ علوم الدين، ورحت تتحوَّلُ من شيخ إلى آخر، فدرستَ علوم القرآن وعلومَ الحديث والفقه، وأصول الفقه، وشيئاً عن العقائد وأصول الدين.

ولكني عرفت هذا الذي شغلك في أوقات فراغي، فعكفت على استدراك هذه الشؤون في قراءاتي التي أستعين فيها بالسؤال من أهلِ المعرفة. لقد كنت مُحبّاً للكتاب، وبقي معي هذا الحبُّ الذي أورثنيه إيّاه زمانُ الطَّلَب الأوّل.

قال صاحبي:

لقد انتهيتُ أنا بعد سنوات خمس في هذا التعليم الأوَّل إلى أن أجدَ طريقي في الدروس الدينية، فكيف كان من أمرك حين وصلتَ إلى السنة السادسة؟

قلتُ:

كان لي امتحانٌ في نهاية السَّنَة السادسة، يُسمَّى «البكلوريا»، وكان عليَّ وعلى صحبي أن نؤدِّيَهُ في مدينة البصرة، لقضاءِ ستة أيام فيها، هي مدَّةُ الامتحان. فعزَمنا على السفر نحن التلاميذ بصحبة أحد المعلمين، وحملنا

معنا كتبنا والأفرشة والأغطية.

وقد تسأل: كيف كان الرحيلُ إلى البصرة؟

كان ذلك في سفينة مسقوفة، تسيرُ بمحرِّك، اتّسعت لنا ونحن ثلاثون تلميذاً، ومضت بنا تمخرُ ماءَ دجلَة منحدرةً متّجهةً إلى البصرة.

لقد كانت أوّل رحلة لي تركت فيها العمارة، والشمسُ رَأْدُ الضحى، ومضت بنا السفينة، يدفعها المحرّكُ، فتدفَعُها ريحٌ شماليةٌ غربيةٌ، ودجلة كالمتعب المكدود في أوّل حزيران، وانطلقت حتى إذا وصلت الجسر، في آخر حي «السنيّة» من أحياء العمارة، وقفتْ ريثما يحين موعد افتتاح الجسر عند الظهر، ليتأتّى للسُّفن والقوارِب أن تجتازَ في طريقها إلى الجنوب، في مواقعَ وقُرًى عدّة، آخِرُها البصرة.

قال صاحبي:

وإني لأثِقُ بما كان لتلك الرحلة من فوائدَ غير السَّعْي إلى الحصول على الشهادة التي هي درجةُ البكلوريا. وإني لأعلمُ أنك رجلٌ طُلَعَةٌ، تسعى إلى المعرفة، تأخذُها من أيِّ وِعاءٍ يكون بين يديك.

قلتُ:

لك أن تظنَّ ما تظنُّهُ من حالي، ولك أن تتصوَّرَ دهشتي وأنا أنظرُ إلى النهر، وعلى جانبيه النخلُ، لها طلعٌ نضيدٌ. وأن مياه النهر تقتربُ في بعض المواضع قبيل «قلعة صالح» بمياه الهور، وأن الأرَضينَ على مشارِفِ الهور تُزهَى بزراعة الرُّزِّ الذي يُدعَى في تلك الجهات بـ«الشِّلِب».

ولعلك تسأل أنت البعيد عن هذه «البطائح» من أين كان هذا الهور، وأنا أجيبُك بما أجابني عن ذلك أهلُ المعرفة، من ربَّان السَّفينة وأصحابها. وذلك أن جملة جداول وتُرَع، تأخذُ مياهَها من دجلة، فيفيدُ

منها الفلاحون الذين يقطنون تلك الجهات، وهي لا بدَّ أن تنتهي إلى هذه الوهادِ، فيكون من ذلك الهورُ.

وكنت أسمعُ بالهور، ولكني لا أملكُ في نفسي صورةً عنه. إنه كالبحيرات الكبيرة التي وجدناها في درس الجغرافية.

رأيت على شاطىء النهر جماعات الفلاحين، قد غمروا حقول الرُّزِّ، وأدركت وأنا الصَّبِيُّ الحَدَثُ شقاءَهم في كَدِّهم، فذكرتُ ما كان المعلِّمُ قد شرحه من قول أحمد الصافي النَّجَفِي في مقطوعته في «الفلاَّح» التي مطلعُها:

رفقـاً بنفسِـك أيهـا الفـلاَّحُ تسعى وسعيُك ليس فيه فَلاَحُ

والتي أفاض فيها في وصف شقاء الفلاَّح وظلم مالك الأرض له الذي يستوفي فوائدَه، فلا يتركُ لهذا الأجير إلاّ القليلَ القليلَ.

قال صاحبي:
وأيُّ شيءٍ آخر في الهور غيرُ هذه الحقول؟

قلت:
إنَّ هذه البحيرات تحوي ما ينبتُ في مثيلاتها، في بلاد أخرى. إنها المصدر الرئيسيُّ للقَصَب ونباتِ البَرْدِي، كما إنها موطنُ الأسماك التي نعرفُها في الأنهار. غير أن الهور مما تسعى إليه الأسماك من أجل تكاثُرها، فتلقي فيه بيضها، وهذا البيضُ يجدُ في قاع الهور ومياهِ المكانَ الملائمَ.

قال صاحبي:
لقد كان لي منذ زمان غير بعيد، أن قرأتُ مما تُرجِمَ عن هذه البطائح

الجنوبية، مما كتبه الإنكليزُ الذين قصدوا المعرفة كما قصدوا أشياءَ أخرى: أن جنوبَ العراق ولا سيَّما ما كان منه بين العمارة والبصرة، مما يحاذي الحدودَ الإيرانية، ويَدخل فيها بحيراتٌ شاسعة، دُعيت الأهوار، ومن ذلك هور الحُوَيْزة، والهور الآخر الذي يستمدُّ مياهَهُ من الفرات، عن طريق الأنهر الصغيرة والجداول هو هور الحَمَّار.

وقد ذكر أولئك الكُتَّاب أن لهذه الأهوار تأثيراً في مياه النهرين، في الجهات الجنوبية، فذكروا أن الملوحةَ في مياه الفرات عند لواء المُنْتَفِق (مدينة الناصرية) واضحةٌ، وكذا الحال في مياه دجلة قبيل مدينة القُرْنَة.

ثم ذكروا فيما ذكروا أن تلك الأهوار الجنوبية أَجَمات واسعة، يعلوها القَصَبُ والبَرْدِي ونباتات أخرى مما جعلها موطنا للخنزير الوحشي المفترس، ولحيوانات أخرى، وجدت فيها مأوىً مناسباً، إلى جانب أصناف من السَّمَكِ والحوتِ لا حَصْرَ لها.

قلت:

نعم، كان ذلك مما رأيته في رحلتي هذه، فعرفتُ أن أهل الأهوار قومٌ شدادٌ، عرفوا موطِنَهم، وأفادوا مما فيه، فلم يقتصروا على زراعة الرُّزِّ، بل راحوا يُفيدون من القَصَب، في صنعة مُحَلِّيَّة، هي صناعة الحُصْر من القَصَب، وذلك أن نساءَ الأهوار ربّاتُ هذه الصناعة، فيعمدن إلى دقِّ القَصَب وأخذ عيدانه، ليجعلنَها أصولَ «الحُصُر» التي تُدعَى «بواريَ» جمع «بارية» فيُشبِّكنَ العيدانَ بضرب من السَّفِّ كما تُسَفُّ الحُصُر من خوص النخل.

إن هذه البواري تُصَدَّر إلى حواضر جنوب العراق، كالعمارة والناصرية وغيرها، فتستعمل في البيوت، في الفرش، كأن تكون وِقاءً لما يُفرش من

سجّاد وغيره، تحفظه من رطوبة الأرض. وهي تدخل في عمارة البيوت، فتفرشُ فوق الأخشاب أو الجذوع التي تسقفُ بها الحجرات.

قال صاحبي:

وقد رأيت السِّلالَ المصنوعةَ من القَصَب، وكذلك المقاعدَ وغيرها. ولهم مثل ذلك في الإفادة من البَرْدي. وعلى هذا كانت الأهوارُ مصدَر رزقٍ عظيم لساكني هذه المواطن الذين عرفوا باسم «المِعدان» كما يقول أحد الكتاب الإنكليز الذين عرفوا هذه الجهات الجنوبية.

قلت:

وقد عُرِفَتْ مناطقُ جنوب العراق بزراعة الرُّزِّ، واشتهرتْ هذه الزراعةُ، فكان العراقُ يزوِّدُ البلادَ المجاورةَ بالرُّزِّ، وللرز العراقيِّ الذي يُزرعُ في مناطق الفرات الجنوبية شهرة عظيمة.

وأعود إلى مواصلة الرِّحْلَة، فأقولُ: عرفت فيها أن دجلة يتوزَّعُ هنا وهناك في جداول، فيها نهر المجر الكبير، ونهر المجر الصغير، وعلى كلٍّ منهما بليدة صغيرة. ثم تجاوزنا هذا إلى «قلعة صالح» وهي بليدةٌ قديمةٌ، مَصَّرها فيما يقال رجل اسمه صالحٌ، نجديُّ الأصلِ، عُرفت بنخيلها ذات الأجناس العالية.

قال صاحبي:

لقد كان لي في بغداد رفاق في المدرسة صابئة، كانوا من سكان قلعة صالح، وآخرون من يهود هذه المدينة.

قلت:

من المفيد أن نعلم أنَّ هذه الجهاتِ الجنوبية، وهي العمارةُ وما يتبعُها من مراكزَ صغيرةٍ، هي موطنُ الصابئة في العراق، ومثل العمارة مدينة

الناصرية وملحقاتها. على أن في العمارة وقلعة صالح أقليّة يهوديةً، سكنت منذ تمصير هذه الحواضر.

وكان من أصحابي نفرٌ من أولئك اليهود والصابئة، ما زلت أحفظُ لهم ذكريات إنسانية، تتّسمُ بالإخاء والمَودَّة. ولا تنسَ أن في هذه الجهاتِ الجنوبية أشتاتاً من نصارى سريان وكلدان وغيرهم، ولهم فيها صوامعُ وبيَعٌ.

قال صاحبي:

لقد عرفت فيما عرفت من قراءة كتب الإنكليز ويوميات الحُكّام الذين جاؤوا في جيش الاحتلال، أن العراق شيعة، وسُنّة، ويهود، ونصارى، وصابئة، ولكنهم جميعاً آمنوا بالمواطنة، فليس اليهوديُّ ولا النصرانيُّ غريبين عن أهل هذه البلاد. ولكن اليهود بعد أن نشطتِ الصُّهيونية، دبَّ فيهم الولاء إلى الأصل المزعوم، فهاجروا.

وكان اليهودُ والنصارى من العناصر التي اعتمد عليهم الإنكليز في تسيير دفَّة الحكم، فكان منهم المترجم والكاتب والوكيل، ذلك أن بين اليهود والنصارى من يعرف اللُّغات الغربية، فاستعين بهم، وكان منهم من عُدَّ من الأصدقاء.

وأما الصابئةُ فهم أهل صنعة صياغة الفِضَّة، وفيهم أهلُ الحدادة في صنعة المناجل والسكاكين ونحو ذلك، وفيهم أهلُ صنعة القوارب الخفيفة التي تدعى «المَشَاحيف». غير أن هذه الأقليات توجهتْ منذ قيام الحكم في العراق، بعد سقوط الدولة العثمانية، إلى العلم والتزوُّد بالمعارف الجديدة، فدخلوا المدارسَ، وكان منهم أوائلُ أهل العلم.

قلت:

ولِمَ لم تعرض لما يأتلفُ في جمهرة المسلمين، في العراق، وما يختلفُ فيها؟

قال صاحبي:

أفأنت تريدُ أن أبسطَ من أمر السُنَّة والشِّيعة؟

قلت:

لم أردْ هذا، ولكن كان لي قبل أن يكونَ لنا حديثٌ عن اليهود والنصارى والصابئة، مما ذكرت فيما قرأتُ في كتب الإنكليز الذين عرفوا جنوبيّ العراق، حين كانوا رجالاً يحكمون البلاد، قبل أن تكونَ حكومة وطنية.

قال صاحبي:

أنت بذلك أدرى مِنِّي، وهل يأتيك مثلُ خبير؟

قلت:

لك أن تعرف أن هذه المراكز الحضرية الاستيطانية، من مراكزَ، هي ناحية فقضاء، فلواء[1] في جنوب العراق، ولا سيّما إذا وقعت في الجهة الشرقية، جاورت الحدود العراقية الإيرانية، فكان من ذلك شيء من صلات، وشيء آخر يحدث في هذه الصِّلات، وهو الخصومات والمعارك.

---

(١) أقول: الناحية والقضاء واللواء هي أسماء التشكيلات الإدارية في العراق، ولعلها أخذت مما اهتدى إليه العثمانيون في إفادتهم من العربية. غير أن «اللواء» وهو أعلى هذه التشكيلات قد غُيِّر إلى «المحافظة»، وليس من توجيه أو تعليل لهذا التغيير.

قال صاحبي:

ولو كان هذا وحده، لهان الأمر...

قلت:

كأنك أدركت ما أُريدُ، وذاك أن هذه المراكز الحضرية، قد دخل إليها الأكرادُ الفيلية وهم من أهل الجبال، وقد قطنوا في بعض هذه المراكز والمدن الحدودية، وغلبوا على العرب فيها، ومن هذا بليدة تدعى «بدره» وهي قديمةٌ تاريخياً، كان اسمها «بادرايا»، ومنها «جَصّان»، و«كوت الأمارة» و«شيخ سعد»، و«علي الغربيّ»، و«الشرقي» فالعمارة. ويمكن أن ترى أثر هذا في السكان حتى مدينة البصرة. ولم يقتصر الأمر على هؤلاء الأكراد، بل كان في المراكز جماعاتٌ من العَجَم الإيرانيين، وقد دخل هؤلاء في حياة المدن، وظهروا في التجارة وسائر أهل الصناعات.

قال صاحبي:

والذي أثار عَجَبِي، أني رأيتُ في العمارةِ سوقاً كبيرة، سُمِّيتْ «سوقَ العجم».

قلت:

نعم هو ذاك، لأن هذه التسمية إنما كانت لغلبة العَجَم أهلِ البيعِ والتجارة على هذه السوق. غير أني أستدركُ قليلاً، فأقول: إن جمهرة الفلاحين في جنوب العراق تركوا قراهم الزراعية، لأنهم لم ينالوا عَيْشَهم الضَّرُورِيَّ في نظام الزراعةِ الإقطاعي، فنزحوا إلى الحواضر، وملؤوها، واتَّخذوها مقاماً لهم. ولم يكنْ منهم إلا العمل في السوق والأعمال الأخرى في البناء، ولدى الحكومة، فكانوا فرَّاشين وشرطة وحُراساً وجنوداً.

قال صاحبي:

لقد زرتُ العمارة قادماً من بغداد، فوجدتُ فيها تجمُّعات من أكواخ، هي حصر وقصب، وأخرى ليست أحسنَ حالاً من الأكواخ، كانت من طين. ومن غير شكٍّ أن هذا الذي جدَّ في المدينة، بدأ يظهرُ في البصرة وبغداد.

قلت:

لقد شُغلتُ عمّا أنا فيه، من وصف رحلتي إلى البصرة، وأنا الحَدَث الصغير الذي قصدها، ليؤديَ الامتحان الوزاري للدراسة الابتدائية (البكلوريا).

أقول: لقد شغلني عن هذا «بُنَيّات الطريق» فذهبتُ يَمْنَةً ويسرةً حتى كان لي ولك من ذلك مشاركةٌ مفيدة، وإن انحرفنا قليلاً أو كثيراً عن السبيل. ولكني لا أرى في انحرافنا ضَيْراً، فقد سعدنا، وأفدنا، وكنا مع النَّاس في دنياهم.

قال صاحبي:

لقد عرفنا مما أشرت أن آخر محطة في الرحلة كانت «قلعة صالح»، ثم كان لنا ونحن في هذه الحاضرة، أن نبتعد قليلاً عن المسار، فنعرض للطوائف.

قلت:

نعم، كان لنا ذلك، وقد مضت سفينتنا ذات المحرك، تشقُّ الماءَ، وتتجاوزُ السفنَ الشراعية المتجهة إلى القُرْنة والبصرة والمشاحيف وغيرها، وكلها وسائلُ للسفر ونقل المحاصيل الزراعية وغيرها.

وأذكر أني أفدت في هذه الرحلة مما سمعته، من حكايات وأخرى

نسمعها من أصحاب السفينة، وما كان من معاناتهم، ومن الآخرين ممن سافروا معنا من الناس رجالاً ونساءً وأولاداً.

ومن الفوائد أننا في خلال ثلاثة أيام، عدنا إلى موادِّنا، فوقفنا على المشكل فيها، في الحساب والهندسة واللغة العربية. وكان من حسن حظنا أن رَافَقَنا مُعلِّمُ اللغة الإنكليزية، فكان لنا من علمه فوائد جمّة، لقد بسط لنا أهم التراكيب في الإنكليزية، واستعمال الفعل، وبعض ما يراه من أنه قد يكون في سؤالات الامتحان.

لقد وصلت بنا السفينةُ عند بليدة العزير، فتوقفت قليلاً، كان ذلك قبيلَ ساعات الفجر حتى إذا آذن الليلُ بالرَّحيل، وبدأت طلائعُ الفجر، بدأ البشير من بعض أشعة الشمس، ولن أنسى ما نعمت به من رؤية النور، يضرب سَعَف النخيل، ثم يهبطُ على الأعذاق فيكون امتلاءً بالحياة التي نحياها ولا ندركُ من أمرنا وأمرها إلا القليلَ القليلَ.

أقول: سميت هذه الحاضرة أو هذه البليدة بمدينة «العُزَيْر» من أنبياء بني إسرائيلَ الذي ورد ذكره في القرآن، في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۝٣٠﴾ [التوبة].

وللعُزَيْر مزارٌ مشهورٌ معروف، لساكني تلك الجهات، من المسلمين واليهود، يؤمُّه الزُّوَّارُ، يحيُّونه، ويُسَلِّمون عليه، ويقدِّمون فيه النذورَ. وقد نزلت مع جملة المسافرين، وزرنا وقرأنا الفاتحة، ثم عدنا إلى السفينة بعد أن تزوَّدْنا بزادٍ يسير من خبز وبيض.

ومضت، وما هو إلا بعض يوم حتى لاحتْ لنا بليدةُ «القُرْنة».

قال صاحبي:

وهذه القُرْنَةُ التي عرفتها في جغرافية العراق التي يلتقي بها دجلةُ

بالفرات، وهي تقعُ عند التقائهما، وسُمِّيت «القرنة» بدلالاتها اللُّغوية من الاقتران.

قلت:

إنَّ التسمية أخذت من العربية الدارجة التي فيها «القرنة» بمعنى رأس الشيء البارز من مادة «القَرْن» في فصيح العربية.

إنها مدينةُ النخيل والأنهار التي تخرجُ أو تصبُّ في النهر العظيم الذي بدأ سيرُه من هذه المدينة، وأطلق عليه شطّ العرب الذي تقعُ عليه في آخره مدينة البصرة.

ولي أن أوجزَ هذه الرحلة المُضنية الممتعة، فأصل فيها إلى نهاية المطاف، في حاضرة البصرة.

لقد وصلنا، وكان في استقبالنا موظف من أسرة التعليم، ذهب بنا إلى المدرسة الثانوية، فنزلنا فيها، ورتّبنا أمرنا في حجراتها، فكانت مثوانا. لقد وصلنا يوم الخميس، فبتنا في المدرسة، وقضينا الجمعة، نتهيَّأُ فيها إلى السبت، لليوم الأوّل من الامتحان.

وكان الامتحانُ في ستة أيام، قضيناها في البصرة، ولم أحتمل فيها مشقَّةَ الامتحان، وأنا مغتربٌ أوَّل مرّة بعيداً عن أهلي، فقد أصبتُ بحمّىً شديدة، تعقبها قُشَعْرِيرةٌ، قيل: هي الملاريا.

قال صاحبي:

ذلك هو الوباءُ الذي عُرف في البصرة الذي قلَّ أن ينجوَ منه من دخل البصرة، وكأنَّ أهْلَ البصرة قد ألفوه، ووطّنوا أنفسَهُمْ عليه.

قلت:

لقد عدتُ مع رفقتي إلى العمارة عوداً غيرَ أحمد، ولكن ما العَمَل؟

لقد راجعت الطبيبَ، وكذلك صنع رفاقي، ولم يكن من دواءٍ إلاّ مادَّةُ الكينين المحلولة في شراب، نشربه مُرّاً زُعَاقاً. ثم انتهى الخطبُ، ورُحْنا ننتظرُ نتائجَ الامتحانِ، وما هي إلا أشهرٌ وبعض شهر حتى جاءت النتائج وكنت أوَّلَ الناجحينَ فيها.

قال صاحبي:

لا بد أن كنت أنت وصحبك قد تحوَّلتم إلى «المدرسة المتوسطة»، وهذه مرحلةٌ تعليمةٌ، أمدُها ثلاث سنوات، توسَّطت بين المدرسة الابتدائية والمدرسة الثانوية التي هي سنتان. ولكنّي لم أرَ هذا، فقد تحوَّلت عن هذه المراحل إلى الدرس الديني كما قد سبق الكلام على هذا.

قلت:

نعم، لقد تحوَّلت إلى المدرسة المتوسطة، فدخلت في السنة الأولى الصف الأوّل. وكان بعضُ رفاقي معي في هذه المدرسة، غير أنَّ آخرين قد التحقوا بدار المُعلمين الريفية ببغداد، بعد أن تخرَّجوا في المدرسة الابتدائية، ليقضوا في هذه «الدار» أربعَ سَنَوات، ليكونوا معلِّمين في القرى والأرياف. ثم التحق نفر آخر بمدرسة الصناعة.

وتعجَّل آخرون، فوجدوا سبيلَهم إلى مدرسة اللاَّسلكي العسكرية.

وأعود إلى مدرستي المتوسطة، في صفّها الأول، فوجدتُ شيئاً من موادَّ، بدأتُها في المدرسة الابتدائية، وهذه هي العربية والإنكليزية والقرآن والدين والجغرافية والتاريخ، ومادة أخرى هي «مبادىء العلوم»، وهذه تجمع ذرءاً من الكيمياء والفيزياء والحيوان والنبات.

قال صاحبي:

وأيُّ جديد واجهته في هذه المدرسة، نجدُ من الفائدة أن يكون لنا فيه كلام مفيد؟

قلت:

أقولُ: إن الجديد في هذه المرحلة أننا صرنا مُطَالَبين بأجر، يُستوفى كُلَّ ثلاثة أشهر، يكون فيه الطلابُ ثلاثةَ أصناف: الصنفُ الأول: الطلَّابُ الأغنياء، وعليهم أن يدفعوا عشر رُبّيات، والصنفُ الثاني: المتوسطون في دَخْل آبائهم، وعليهم أن يدفعوا خمس رُبّيات، والصنف الثالث: الفقراء الذين يُعْفَوْنَ من الدَّفع، بشرط أن يُقَدِّموا وثيقةً خطيةً، يشهدُ فيها لهم مجلسُ البلدية ومختارُ المحلّة.

قال صاحبي:

أظن أن الطلبة في هذه المرحلة التعليمية طُلِبَ إليهم ارتداءُ الزِّيّ الموحَّد، وإني لأذكرُ أنهم يخرجون من المدارس مرتدين البِزَّة الإفرنجية الرَّمَادية اللَّوْن.

قلت:

لم يكنْ لي ولا لرفقتي، في المدرسة الابتدائية، أن ارتدينا غير الجلابيب (أقصد الدشاديش)، إلى أن تحوَّلْنا إلى المدرسة المتوسطة التي أُمرنا فيها أن نطرحَ «الدَّشاديش» لنرتدي اللباس الإفرنجي الذي ذكرتَه.

كان لهذا اللباس ضَرْبانِ من القماش، كلاهما رماديُّ اللون، الأولُ من نسيج صوفيٍّ غالي الثمن، من صناعة إنكليزية جيدةٍ دقيقةِ الخيوط صقيلة خاصّة بالأغنياء، والثاني من نسيج قطني معه الكِتَّان، من صناعة يابانية رخيصة الثمن، يؤثِرُها الفقراءُ، لرخص الثمن.

قال صاحبي:
وماذا من أمر الكتب المدرسية؟

قلت:

صرنا نجدُ الكُتُب في المكتبات التي زاد عددُها عما كانت عليه حين دخلنا المدرسة الابتدائية. لقد كان لنا في اللُّغَة العربية «كتابُ النحو الواضح» الذي خَلَف كتاباً عراقياً، وجده المدرّسون صعباً، لا يُطيقونه هم، فكيف للطلابُ؟! هو كتاب «قواعد اللغةِ العربية» لمحيي الدين الناصري. لقد حل «النحو الواضح» محلَّ الكتاب الأول، وهذا الأخيرُ الذي صنَّفه علي الجارم ومصطفى أمين، في ثلاثة أجزاء، جُعلت للسنوات الثلاث في هذه المرحلة من التعليم.

قال صاحبي:
وهل كان «النحو الواضح» أيسرَ خَطباً من كتَاب النَّاصِري؟

قلت:

نعم، إنه أيسرُ في مادَّته وفي شواهده التي اختيرت مما يعرفه الطُّلاَّبُ، ليس فيها شيءٌ من شاهد نحويٍّ قديم. وكأن هذا الكتاب في أجزائه الثلاثة اشتمل على الكثير من مادتي النحو والصرف.

وقد كان لنا كتاب للقراءة، دُعي «المطالعة» في أجزاء ثلاثة، للسنوات الثلاث في هذه المرحلة التعليمية. وكلٌّ من هذه يشتملُ على نصوص أدبية، من شعر ونثر، تجمعُ القديم والجديد، كنا نسعد بقراءتها وحفظها.

قال صاحبي:
وهل لنا من طُرَفٍ وفوائدَ، قد وقفتَ عليها؟

قلت:

كان من هذا، أن مستوى المدرّس في العلم جيدٌ، وقد يكون من المدَرِّسين من افتقر إلى العلم، وأذكر من هؤلاء أن مدرّساً بدا لي، أن أسأله، لأني رأيته مَزْهُوّاً بعلمه، حين قال: إن الفعل الماضي سُمِّي ماضياً لأنه انتهى ومضى، فعَنّ لي أن أسأله: لِمَ سُمِّي الفعل الآخر مضارعاً. لقد أصابه بعض الحَيْرة، لأنه لم يعرف الجواب، ولم يكنْ منه إلاّ أن سألني: ما اسمُك؟ فقلت: إبراهيم، فقال: لما كان اسمك إبراهيم، فهذا الفعل سُمِّي مضارعاً، وهكذا وجد هذا الحلّ الفاسد، وظنَّ أنه يُقنعُني. وأذكر أن أحد الطلاب قال في إعراب الاسم «العُلى» في قول الطغرائي:

إن العُلَى حدّثتني وهي قائلة فيما تُحدِّث أن العِزَّ في النُّقَلِ

«العُلَى»: اسم إنّ منصوب وعلامة نصبه الفتحة المقدَّرة على الألف «مُنعَ» من ظهورها التعذّر.

فقال: «مُنعَ»، وقد كنَّا في الصف الثاني المتوسط، والطالبُ ممن درَّسهم هذا المدرس، فكأنه تحمّل هذا الخطأ من المدرس.

قال صاحبي:

وفي مادة النحو عبارات، كنا نستظهرها، ولا نفهمُ معناها، ومن ذلك قولُنا في الجملة: «قرأت كتابي»:

إنَّ «كتابي» مفعول به منصوبٌ، وعلامةُ نصبِه الفتحةُ المقدَّرَةُ على ما قبلَ الياء مَنَعَ من ظهورها حركةُ المناسبة.

إن «حركة المناسبة» كنت ممن يقولُها ولا يفهمُها، ولم أدركْ معناها إلا بعد زمان طويل.

قلت:

وكانت المشكلاتُ الكبرى في مادة اللُّغة الإنكليزية التي كان المدرس فيها هندياً لا يحسن العربية، وهو ذو نقص في نُطْق بعض الأصوات، ومن ذلك أن الثاء في نطقه قد تحوَّلت إلى التاء فهو يقول مثلاً «تِنْك» ويريد بها «ثِنْك» أي الفعل Think بمعنى يفكّر أو يظنّ. وهو يجعل الذالَ دالاً فينطق أداة التعريف The (ذَ) فيجعلها (دَ) في قولنا: The book فتكون لديه «دَ بوك».

وكثيراً ما كنا نسمعه يردِّدُ في إنكليزيته الهندية، وهو يزيدُها هذا النقص في النُّطْق ويقول: «سودات» يريد بها «so that».

وقد تحضرني طُرفة، وكثيراً ما يجدُ الطُّلَّابُ طُرَفاً بديعة، يستخلصونها من كلام المدرسين وعاداتهم وسلوكهم؛ ومن ذلك قول أحد الطُّلَّاب الظرفاء:

إن أستاذنا مولَعٌ بالسَّوَاد، ألا ترونه يكثر من «سودات»!!

قال صاحبي:

وأيّ شيء جدَّ في الدرس، في هذه المرحلة؟

قلت:

هو أننا في بعض موادِّ كتاب «مبادىء العلوم» نعرفُ مسائل في الكيمياء، وأخرى في الفيزياء، تجعل المدرس يستعينُ بالتجرِبة، فكان علينا أن نقصدَ المختبر، فنرى كيف يكونُ بخار الماء، ونعرفُ الكربون، وما معنى الأوكسيد في ثاني أوكسيد الكربون، وما معنى الكتلة والقُوَّة، وما معنى الضغط وغير هذا مما كنا لا نعرفُه.

قال صاحبي:

وهل من فائدة أخرى، يحسنُ أن يكونَ لنا بها علمٌ؟

قلتُ:

لقد عرفنا نظامَ الكشّافة في التعليم الابتدائي، وشيئاً آخر في هذه المرحلة، يتجاوزُ الحركة الكشفية، فيكون بعضاً من التدريب العسكري في الحركات، وما يقتضي ذلك من فنٍّ، فيه شدَّة وقوَّة، ينتهي بمعرفة السِّلاح مقصوراً على استعمال البندقية وتجربة الرمي فيها. كانت هذه الممارسة تدعى «نظام الفتوّة» وأذكر أن هذا قد بدأ في سنة ١٩٣٣.

قال صاحبي:

لقد قيل فيما قيل: إن هذا التوجُّهَ العسكَرِيَّ كان بسبب التأثُّر بالنظام النازي، في ألمانيا الهتلرية، قبل أن ينتهيَ باندلاع الحرب الثانية التي أشعل نارَها هتلرُ، حين تفسَّح في البلاد المجاورة له، وكان ما كان من سيطرته وغزوه لأوروبا عامَّة.

وقد قيل إن الدكتور «غروبه» الألماني سفيرَ ألمانيا في العراق، قد أسس قاعدةَ هذا التوجُّه، يساعده عراقيّون وعَرَبٌ، تقبَّلوا هذا الفكر الاعتدائي.

قلت:

أذكرُ هذا حين عمَّ المظهر العسكري في اللِّباس، للطلاب والمُعَلِّمين والمدرسين، ثم شمل رجالَ وزارة المعارف.

لقد أنهيت هذه المرحلة بامتحان وزاري (بكلوريا)، ذهبتُ بعدها إلى الصفِّ الرابع الثانوي، ثم من بعده الصف الخامس. وقد جدَّ في هذه الحقبة التوجُّه العلمي، فكان لنا الجبر والمثلثات والهندسة غير المستوية

التي تتناول الأحجامَ. كان هذا في الفرع العلمي،وهو خلافُ الفرع الأدبي الذي أغلبُ موادّه علومٌ إنسانيةٌ، مع مادَّةٍ دعيتْ الرياضيات العامّة، وهذه فوائدُ من حساب وهندسة.

إنَّ نهاية هذه الدراسة في السنة الخامسة، بعد امتحان نهائي عامٍّ، تُجريه الوزارةُ للطلبة، في عامّة البلاد، تُؤَهِّلُ الطالبَ لحمل الشِّهادة الثانوية التي منها يذهبُ إلى الكليات في التعليم العالي، قبل أن تؤسسَ «جامعةُ بغداد» التي هي أوَّلُ جامعة عراقية.

قال صاحبي: وكيف كان من أمرك في هذا الدرس.

في دار المعلمين الابتدائية

قلت:

لم أكمل هاتين السنتين، بل توجهتُ بعد السنة الرابعة إلى دار المعلمين الابتدائية في بغداد، في مدينة الأعظمية شمالي بغداد، فدخلت طالباً في السنة الثانية، فكان في هذا الدرس الخاص توجُّهٌ نحو التعليم وأصول التدريس وطرائق التربية.

غير أني انتهزتُ الفرصةَ، فرحت أهيِّيء نفسي للمشاركة في امتحان البكلوريا، للفرع العلمي، طالباً خارجياً، مع الاستمرار في دار المعلمين الابتدائية. لقد شاركتُ في الامتحان الوزاري، وكنت متقدِّماً في نتائجي، ولولا اشتعالُ نار الحرب العالمية الثانية، لكان لي نصيبٌ في الانضمام إلى البعثة العلمية، ذلك أن نتائجي تُعِينُ على هذا.

قال صاحبي:

كأني أراكَ لم تُفْد من حُصُولِكَ على شهادة الثانوية، فأكملت دار المعلمين، وتخرّجت فيها.

قلت:

نعم! هو كما ظننتَ، فقد تخرجتُ من دار المعلمين، وفزتُ بالدرجة الأولى على الدفعة، وتمَّ اختياري معلّماً في مدرسة تطبيقات دار المعلمين الابتدائية النموذجية. وكنت وحيداً، لم تكن معي أسرة، فكان علي أن أبقى في القسم الدَّاخلي مراقباً لطلاب دار المعلمين، في ساعات المطالعة المسائية، وعند ذهابهم إلى ردهات نومهم. وقد كانت لي غرفةٌ خاصةٌ،

فيها سريرٌ ومكتبةٌ صغيرةٌ.

قال صاحبي:
وأي مادَّة قد كُلِّفتَ بها في المدرسة؟

قلت:

ليس في التعليم الابتدائي اختصاصٌ للمعلِّم، فهو مهيَّأ أن يكلفَ بالمواد كافَّةً ما عدا الرياضة والنشيد، وذلك لأنّ هاتين تتطلَّبُ معلّماً، وُجِّه إلى كل من هاتين المادتين، وعلى هذا كلفت بتدريس مواد اللغة العربية، من خطٍّ ونحوٍ وقراءةٍ وإملاءٍ. وقد كان لي في هذه المواد سَعَةٌ.

وكنت أعدُّ لطلبة دار المعلمين دروساً نموذجية، أجتهدُ أن أفيدَ من أصول التدريس الطرائق الخاصة بإيصال هذه المواد للتلاميذ. وكان طلابُ دار المعلمين يشاهدونني كيف آتي للمادة، فأبسطُها للتلاميذ، وكيف أحرِّك فيهم نشاطَهُم فأدفعهم إلى أن يتوجّهوا بسؤالاتهم، فأجيبُهم عنها، وأجعلُهم يُدركون المادَّةَ.

قال صاحبي:

فهل كانت لك مشاركةٌ في تعليم اللغة الإنكليزية؟ ذلك أني أعرفك قد سعيت للوصول إلى هذه اللغة، في نحوها وما يَتَّصِلُ باستعمال كلماتها، وكنت تحاول أن تجد للاستعمالات الإنكليزية نظائر في العربية.

قلت:

لقد طلبت أن يكون لي في السنة الثانية، أن أتحوّل إلى اللغة الإنكليزية، ولم يكن لنا في تلك الحقبة كتب إنكليزية للتعليم الابتدائي، وكان عليَّ أن أحضر صورة كبيرة، اشتملت على موزع للبريد، ومعه رسائلُ، قد ألصِقَت عليها طوابعُ، وفي جانب من هذه الصورة صندوقٌ،

توضع فيه الرسائلُ. وكان فيها كل ما يَتَّصِلُ بالبريد. لقد كان عليَّ أن أصوغَ الجُمَلَ، أحكي فيها بإنكليزية سهلةٍ ما كان في الصورة، وأعيد كل جملة، وأحمل التلاميذ على إعادتها مرَّات عدة.

فإذا انتهيت من هذا، كتبتُ كلمةً من هذه الكلمات بأحرف كبيرة على اللوح، وجعلت الطلاب يرسمون ما بسطتُه لهم منبِّهاً لهم أن الحرف الأول هو كذا، ويقابل في العربية نظيراً له، وهكذا وصلتُ وإياهم إلى معرفة الحروف بنطقها وأسمائها.

قال صاحبي:

عرفتُك أوَّل ما عرفتُك صاحبَ كتابٍ، ولعلك ورثتَ هذه الصحبة المحبّبة منذ أيام صباك، فقد عزّ الحصولُ على الكتاب، كما حدَّثتني، ورحتَ أنت وصحبُك تعالجون من أمركم، فعكفتُم على نسخ القراءة الخلدونية وغيرها، فكان من ذلك فيكم حرصٌ على الكتاب وشَوْق إليه.

في الطريق إلى دار المعلمين العالية

قلتُ: وأيُّ شيء قَادَك إلى هذا؟

قال صاحبي:

كأني لمحتُ أنَّك لن تَرْضى بما أحرزتَه، بعد أن صرتَ مُعَلِّماً، وأدركت أنك تسعى إلى مزيدٍ من الكَسْب، وقد حيل بينك وبين الذَّهاب في رحلة للدرس، بسبب اندلاع الحرب الثانية. وإني بيقينٍ أنك طُلَعَةٌ، تسعى بجَهْدِك وبما أوتيتَ من سَعَةٍ، لتكونَ غَيْرك اليوم.

قلت:

لقد سعيتُ إلى أن أتزوَّدَ بالعلم منذ صِباي، ولا أكتُمك أني كنتُ في صبايَ أقصد أهل العلم في أشهرِ الصيف، حين تغلقُ المدارسُ أبوابَها، فدأبت أتزوَّدُ بعلم الحساب والهندسة لدى أحد الشيوخ الذي كان إمامَ مسجد في الحَيِّ، هو الشيخ أمين الفلكي. لقد انعقدت بيني وبين الشيخ صِلَةٌ من مَوَدَّة، أساسُها رعايةٌ منه، لعلمه أني وصلت إليه بزاد التقوى، فأحببتُ أن أفيدَ منه في غير العلوم الدينية. كما قصدتُ غير واحد من أولئك الأساتيذ، أطلبُ النحو، فكان لي قراءاتٌ في «الآجُرُّومية»، لمحمد بن محمد بن آجُرُّوم الصِّنْهاجي، وفي «شرح الألفية» للسُّيوطي.

ثم تحوَّلت من هذا الدرس القديم إلى ما كتبه الأساتيذ في مطلع هذا القرن، فقرأت روايات جرجي زيدان، وكتبَ مصطفى لطفي المنفلوطي، مما صنَّفه ومما ترجمه، وكان من هذا كتاب «النظرات» وكتاب «العَبَرات» وكتاب «ماجدولين» وكتاب «في سبيل التاج».

قرأت فيما قرأت كتب الرافعي، وفيها «وحي القلم» و«تحت راية القرآن» وغيرهما.

أقول: دفعني هذا الزادُ القديمُ والحديثُ إلى أن أتجاوزَ ما أنا فيه من صنعة التعليم، ففكرّت أن أعودَ طالباً في دار المعلمين العالية، لحبي إلى العلم. وقد كان لي سببٌ آخر، دفعني إلى أن أهجر التعليمَ، ذلك أن الوزارة حوَّلتني معلماً في مدرسة، في طرف جنوبيّ من بغداد، فكان علي أن أنفق قدراً من راتبي الشهري، وهو عشرة دنانير، للذهاب إلى المدرسة والعودة منها، وكان عليَّ أن أجد لي سَكَناً آوِي إليه، وهذا يستهلكُ من ذلك الراتب شيئاً آخر، فلم يبقَ في يدي إلا القليل القليل، أستعين به على شجون أخرى.

قلت في نفسي: إني لأربح راتبي هذا حين أنتسبُ طالباً في دار المعلمين العالية، ذلك أنّ النّظام في الدار يقدِّم للطالب العَيْشَ والسكن، وأنا بما كنت قد ادَّخَرته أستدركُ ما بي حاجة إليه، من أمور أخرى. لقد تمَّ هذا، وعدتُ طالباً في قسم اللغة العربية.

قال صاحبي:

ولعلك قد عدتَ وأنت مزوَّدٌ بزادٍ ذي سَعَة، ولنعم ما توسَّعْتَ فيه من زاد.

قلت:

لقد كان لي من قراءتي في النحو القديم أيَّما فائدة، ومما كان في نصيبي من اللغة الإنكليزية ما أعانني في قراءة المصادر، ولا سيما كتب التربية غير المترجمة.

قال صاحبي:

وأظن أن ما ثقفته من دروس التربية وعلم النفس، في دار المعلمين الابتدائية، قد منحك معرفة، تستطيعُ بها أن تتقدَّم للمادة الجديدة التربوية.

قلت:

نعم! هو ذاك، إن المصادر التي كانت بين أيدينا والتي كان أساتذة التربية يطلبونها، هي مصادرُ بالإنكليزية، وكان من العسير على كثير من الطُّلَّاب أن يستوعبوها، غير أني بما كنت قد ألممت به من إنكليزية، قد ذلّلت هذه المشكلة.

إن الموادَّ التربويةَ كانت مادَّةً في علم النفس التربوي، وأخرى في تاريخ التربية، وثالثة في طرائق التدريس، ورابعة في فلسفة التربية، وكانت جملةُ هذه المواد موزعةً على السَّنَوات الأربع إلا مادَّةَ طرائق التدريس، فقد أعطيت لنا في سنتين، وانتهينا منها في السنة الرابعة، فكانت أصول تدريس العربية.

ثم كان لنا أن ندرس بعد هذه المعرفة التربوية مواد اللغة العربية التي هي مواد الاختصاص، وهذه تشتملُ على النحو والصرف وتاريخ الأدب في عصوره المختلفة، من العصر الجاهلي إلى الأدب الحديث. ثم مادَّةُ القرآن والحديث فمادَّة النقد الأدبي قديمه وحديثه.

ولا بُدَّ لطالب اللغة العربية أن يُلمَّ بالتاريخ العربي قديمه وما كان منه في العصور الإسلامية. وأنت لا تعدمُ أن تجدَ مَوَادَّ لا تدخلُ في منهج الدرس، تَتَّصِلُ بالموسيقى والتربية البدنية.

وكان في دار المعلمين تنظيمات، يرادُ فيها زيادة معارف الطلاب، منها جمعية الكتاب، تعنى بالمكتبة وتصنيف الكتب، وجمعية الثقافة العربية،

وتضطلعُ بإقامة الندوات وإلقاء المحاضرات التي يكلفُ بها أساتذة من الدار ومن خارج الدار، وجمعية العلوم الاجتماعية، ومهمتها الدرس الاجتماعي، وهو نشاطٌ، يقوم به الطُّلّابُ، فيعرفون ما يُسمّى مكافحة الأمية، وتعليم الراشدين ونحو هذا. ولا تعجبْ أن ترى بين الموادِّ الجغرافية التي تتَّصِلُ ببلاد العرب؟ وعلم الصحة ومعرفة الأمراض، وفي هذا كان الغرض اطّلاع الطالب بمعرفة شاملة عملاً بالفلسفة القائلة: «إن التربيةَ حياةٌ ناميةٌ».

قال صاحبي:

لا بُدَّ أن تكونَ قد ركنت إلى جمعية الثقافة العربية، لأنَّكَ مَعنِيٌّ بشجون ما يَتَّصِلُ بمشكلات العربية وإني لأذكر جملةَ مقالات، أفدتُ منها، كنتَ قد نشرتَها في مجلة المعلم الجديد.

قلت:

نعم، كان ذلك منِّي، فهل تراني أُعنى بغير هذا، وقد هيّأتُ له نفسي حتى إذا كنت في دار المعلمين العالية، وجدتني قد أدركتُ جملةً صالحةً من الدَّرْس النحوي، وحفظتُ المتون، مما كان يسمَّى الأصول للمتعلّم لدى الدارسين في غير الدراسة المدرسية.

قال صاحبي:

لا بد أن كانت لك تجارِبُ في العلم، وأنت تبدأ هذه المرحلةَ من التعليم العالي.

قلت:

نعم، كان لي ملاحظاتٌ وتجارِبُ، أفدتُها من الدرس، فمن ذلك:

ما وجدت لدى المدرسين الذين أعطونا موادَّ التربية، فالذي اتَّصَلَ

بتاريخ التربية، وجدتُ فيه أن أساتذتي لم يكن لهم زادٌ وافٍ فيها، علمتُ هذا مما أنا أقلِّبُ في الكتب التي ألَّفها العربُ، في مكتبة الدار التي وقفت فيها على كتاب في تاريخ التربية، لعبد الله مشنوق، من الأساتذة اللبنانيين، وفيما صنّفه أحمد سامح الخالدي الفلسطيني، في هذا العلم التاريخي، وفي كتب ومباحث أخرى، في مجلات التربية كمجلة التربية المصرية وما كان فيها من مباحثَ للأستاذ أحمد فؤاد الأهواني وأمير بقطر وغيرهما.

وليس لنا أن ننسى مجلة التربية والتعليم التي بدأها الأستاذ ساطع الحصري، في وزارة المعارف العراقية، والتي نشر فيها مباحثَ في طرائق التدريس مستفيداً من مشاركات العلماء الفرنسيين في هذه المعرفة. كان أساتذتنا في الدار يجدون مادتهم في هذه المصادر العربية.

قال صاحبي:

لقد قرأتُ كتاباً في علم النفس التربوي، لأحد الأمريكيين، هو «وودورث» وقد ترجمه فريد نجار، من اللبنانيين الذين عملوا في العراق مع آخر من العراقيين، ووجدت فيه علماً جيداً.

قلت:

نعم، لا بُدَّ من أن يكون العالم الأمريكي المؤلف قد عرف الدراسات النفسية العامّة، ليتحوَّلَ منها إلى ما يَتَّصِلُ بالحقل التربوي، فكان لهذا مُلِمّاً بما يكتب وبما كان له في كتابه. ولكني لم أجدِ الأساتذة العَرَبَ، من أصحاب التربية، قد أدركوا هذه الدرجة من العلم. إنهم جاؤوا إلى علم النفس التربوي دون أن يكون لهم معرفة بـ«علم النفس العام» الذي اضطلعَ به الغربيون، من إنكليز وفرنسيين وألمان وغيرهم.

قال صاحبي:

فكيف كان من أمرك في موادِّ التربية، وأنت تتلقَّاها من أساتذتِك؟

قلت:

لقد عرفت موادَّ التربية أوَّل مرَّة، في دار المعلِّمين الابتدائية، وعرفت من المدرسين عدداً غير قليل، فيهم اللبنانيون والسوريون والمصريون والعراقيون، ولكني لم أَفُزْ من كثير منهم بزاد وفير، ذلك أنهم لم يكونوا قد تفقَّهوا في هذه العلوم. ولما كان من تحوُّلي إلى دار المعلمين العالية، لم أجد في كثير من الأساتذة في هذه الاختصاصات علماً ذا قواعدَ وأصولٍ.

وقد يحسنُ لي أن أعودَ لما أنا أذكره، ولن أنساه، مما كان لي من تجارِبَ، ومن ذلك: ما كان لنا نحن الطلابَ من دروس، أسموها «مشاهدة» وملاك الأمر فيها أن نذهب إلى إحدى المدارس الابتدائية أو المتوسطة، فنحضر الدروسَ التي يعطيها المعلمون والمدرسون في تلك المدارس. وربما كانت تلك الدروسُ مما يكلَّفُ أحد الطلاب في السنة الرابعة من القيام بها، لنرى كيف يؤدّي هؤلاء جميعاً المادة التعلمية، وكيف يكونُ منهم من الإفادة من فنون التربية وأصول التدريس.

وإني لأذكر ما كان لي وللطلاب في دار المعلمين الابتدائية، وليس ما في هذه الدار مختلفاً في العلم مستوىً وفنوناً عما هو في دار المعلمين العالية.

لقد كنت «مراقباً» في دار المعلمين الابتدائية، و«المراقب» في مصطلح التربية في العراق «عريف الفصل» في بلدان أخرى. وكنت أنا أصحبُ الطلابَ إلى «المشاهدة» ثم يتبعنا «المدرِّسُ»، وأذكر أنّي صحبتهم إلى

مدرسة عتيقة، من المدارس الأهلية التي يكون فيها الشيخُ هو صاحبَها ومعلِّمَها وليس له مشاركٌ في عمله غير «الخَلفة» الذي تحدَّثتُ عنه في حيّز سابق من هذا الكتاب.

لقد وسم شيخ هذه المدرسة على بابها، فسمّاها «المدرسة الأحمدية» ورسم تحت هذا الوسم قوله: «درجتها كتاتيب». كانت تلك المدرسة في «حي السفينة» من قصبة الأعظمية، وهذه المدرسةُ قريبة من دار المعلمين الابتدائية.

أقول: لم يكن في منهاج المشاهدات أن نذهبَ إلى «الكتاتيب»، ولكني رأيتُ هذا، وعزمت على أن يكونَ، وأنا أحسبُ أن المدرس وهو «فريد النجار» الذي لم يعلم بهذه الكتاتيب، لن يبتئسَ مما قمتُ به. ولا بدَّ له أن يبحثَ عنا ويسألَ فيتبعنا، وكان الذي ظننته.

لقد دخلنا هذه المدرسة الأحمدية، فاضطرب الشيخُ، لأنه لم يكن متوقّعاً هذه الزيارة التي ما أظنُّه قد تقبَّلها بقَبُول حسنٍ. لعله حين رآنا، ظنَّ أننا مبعوثون من لدن وزارة المعارف، لنكشفَ من أمر المدرسة التي انصرف ظنُّهُ إلى أننا جئنا لنشيرَ على الوزارة بإغلاقها. غير أن الشيخ قد عاد له هدوءُه، واطمأنَّ حين رآنا نتوجهُ إليه وإلى «صُنّاعه» أي التلاميذ، في مصطلح الشيخ، بالسؤالات العلمية، وعما أفادوا، وما وصلوا إليه في قراءة القرآن، وفي الخَطِّ والكتابةِ.

ولقد كنا نحن في هذا الدَّرْس الجاد، نستمعُ إلى الأولاد، ينطِقون الكلمةَ في هجاء لأصواتها، فيقولون مثلاً: بَـكَسرة بِـثم س م كسرة = «بسم» وهذه أوَّلُ البسملة لأيّةِ سُورة في المصحف الشريف.

وبينا نحن في هذا الجِدِّ، دخل مُدَرِّسُنا الأستاذُ فريدٌ النجارُ، واستمع

معنا إلى الأولاد، كما استمع إلى سؤالاتنا إلى الشيخ، وهكذا قضينا ساعةً ونصفاً، فكان فيها فائدةٌ عظيمة.

قال صاحبي:

وكيف كان حالُ المُدَرِّس، وما الذي قال؟ وهل وافق على ذهابكم إلى هذه المدرسة؟

قلت:

كان فرحُهُ عظيماً، لأنه وجد الطُّلاَّب مستمتعين بالفوائد التي أحسُّوا فيها، أن هذا الضرب من التعليم قد أعطى المتعلِّمين الصِّغار ما لا يحصلون عليه في المدرسة النظامية، في تعلّم القرآن، وإتقان الكتابة، وإحسان الخط.

وقد تقدّم، فشكر لي ما صنعتُ، وطلب أن نعاود الكَرَّة في مدارس أخرى من كتاتيب.

قلت: لم يكن أساتيذُ التربية وعلم النفس في دار المعلمين العالية أسعدَ حظّاً من أولئك الذين عرفتهم في دار المعلمين الابتدائية. لقد خبرتهم عن قرب، فرأيتهم يقبسون علمهم من كتب، وضعها مؤلفون عرب. وإني لأقولُ من هذا، أن كبيراً منهم قد عرفه العراقيون أكبر من دار دفّة وزارة المعارف، ثم كان وزيراً خطيراً للخارجية، ومن الكبار المعروفين في المحافل الدولية. كان هذا من أساتيذنا في مادة «فلسفة التربية» ولكننا لم نُفْدِ منه إلا القليل، ذلك أن «فلسفة التربية» ينبغي لصاحبها المتصدِّر لتدريسها أن يكونَ من رجال الفلسفة، وأن يُلِمَّ بتاريخ الفلسفة لدى الأمم القديمة، ثم ما كان منها في القرون الوسطى حتى يصل فيها إلى الفلسفة الحديثة.

إن هذا الدرس مسيرة طويلة، لا يمكن أن يدركَها إلاَّ من سار على الدرب، ولزم الجادَّة، فوصل إلى نهاية المطاف.

وإذا كان هذا الدارسُ من العرب أو المسلمين، كصاحبنا هذا، لا بُدَّ أن يعرف مشاركة قومه في هذا البناء الفلسفي. وكيف لعربي أو مسلم يتصدَّى للفلسفة، لا يعرف ما كان للإمام الغزالي من مشاركة في كتابه «أيها الولد». وكيف له إن كان لا يعرفُ ابن رشد الذي أعاد بناء الفلسفة، وصحح شيئاً مما أُثِرَ عن أرسطو وأفلاطون وأفلوطين فكان أستاذاً لابن الهيثم وتوما الأكويني.

ولكني أقول: من مَلَك فقد استولى.

وما زلت أذكر أحد أصحابنا من الطلاب، من مدينة فراتية جنوبية، لعلها سوق الشيوخ، قد أدرك أن أساتذتنا لم يملكوا ناصيةَ العلم، فجرّب ألاعيبه معهم، وفاز فيها، كما ظنَّ هو. إن هذا الطالب كان ممن يملكُ قدرةً في الكلام، فإذا انطلقَ في شيء، ذهب فيه بعيداً حتى تحوَّل فيه إلى مسائلَ عِدَّة.

إنه كثير السؤال، وسؤالاته طويلةٌ، فيها حذلقة وتعقيدٌ وإغماضٌ، وهو في هذا كلِّه يوحي إلى مَن يسألُه من الأساتيذ أنه يقرأ كثيراً، ذلك أنه قد يستَشهدُ بأقوال لأهل المعرفة، فيبدأ بشيء منها، وينتهي إلى أن يكونَ فيها شيءٌ تزيَّدَ فيه، أو أضافه. إنه يعلمُ أن المسؤول لا يعرفُ هذا، ومن هنا كان يسعى إلى أن يخطَفَ ما لدى المسؤول من تمييز، فيكثرُ المشكلات، فيضطرُّ هذا إلى أن يطلبَ إليه إعادة السؤال، حتى إذا أعاد، أدخل في النَّصِّ المعاد جديداً من المشكل المُعْضِل، فأضاع السبيل على المسؤول، وقد يؤدِّي هذا إلى انتهاء وقت الدرس، فيشيرُ الأستاذ الخطير إلى أنه

سيعودُ إلى الجواب.

وقد يحدثُ كثيراً أن الأستاذ لا يأتينا في وقته، بعد انقضاء أسبوع أو أكثر، لأنه كثير الأسفار والمشاركة هنا وهناك من دنيا العرب وغيرها، وتضيعُ المسألةُ.

غير أن هذا الأسلوبَ لدى هذا الطالب، لا يمكنُ أن يكون مع كل أستاذ، فهو يحاولُ مثلاً أن يدّعي قولاً، ينسبه إلى عَلَم مشهور، لا وجود له، ينعته بالفيلسوف الألماني، ويمضي في سرد أقوالٍ له: صنع هذا مع الأستاذ الدكتور عزت راجح المصري، فأجابه على الفور: إني لا أعرف هذا الأستاذ المزعوم، وطلب إليه أن يُحْضِر الكتاب الذي وردت فيه هذه الأقوال.

وأمضي فأذكر مما لديّ من أشياء مفيدة، تَتَّصِلُ بالتربية وأساتيذها، وأخشى أن أكونَ قد طمعتُ في حسن لقائك وأدبك، فأكثرتُ عليك مما كان معي، مما يخصُّني ويخصُّ غيري، وأنا به زعيم.

قال صاحبي:

لا تثريبَ عليك أستاذي الجليل الذي منحتني هذه الصحبة التي لا تتيسرُ إلّا بين الأخلّاء غير أولئك الذين جاء فيهم قوله عزّ من قائل -: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف].

قلت:

وأراني محمولاً على أن أشاركَ في سلوك درب، ما كنتُ أرتضيه، لولا معرفتي أن الذين أتوجهُ إليهم لا يعرفون الكثير الذي ينبغي لهم أن يعرفوه. ولا تحسبَنَّ أخي القارىء أني اقترفتُ إثماً، فظلمت نفسي في ارتكاب ما ليس لي هوىً فيه.

ولا أطيلُ، بل أوجز، فأقول: إنَّ دار المعلمين العالية في عهدنا، قبل أكثر من خمسين سنة، تشترط في المتخرِّج فيها أن يتقدَّم برسالتين، إحداهما في اختصاصه العلمي، والأخرى في التربية. وقد رأيت الطلاب يومئذ يَشْقَوْن كثيراً في الرسالة التربوية، في حين إنهم أو أغلبهم لا يجدُون ضيقاً ونَصَباً في الرسالة الخاصَّة باختصاصهم. لقد كانوا في الرسالة التربوية يُعَوِّلون على الموضوعات التربوية، كالفروق الفردية لدى الطلاب، وشؤون الامتحانات، ومشكلات التعلّم والبيئة، والكتاب المدرسي، وتعليم الصغار وغير هذا. وكان عملهم هذا يقتضيهم أن ينظروا في المصادر والكثير منها في اللغة الإنكليزية، فيضطرُّهم الأمرُ إلى أن يترجموا قولاً أو رأياً أو ما أشبه هذا، وليس هذا بالأمر السهل. وإنهم مع هذا غيرُ مطمئنين، أن الأستاذ سيرضى عما كان لهم فيه، وقد يكون هذا أو لا يكون. إنهم أبداً ممتحنون يضيقون ذَرْعاً بما طُلِبَ إليهم، لأنهم لم يُعوَّدوا على البحث والتنقيب، ولم يكن الأساتيذُ مساعدين لهم، يقودونهم، ويسعفونهم.

وهم ليسوا كذلك في الرسالةِ الأولى التي قد تكونُ درساً في سيرة شاعر، لم ينل نصيبه في دراسة الدارسين في عصرنا، والتي قد تكونُ شيئاً في النحو والصَّرْف أو نحوٍ من هذا وذاك. وهم في ذلك مطمئنُّونَ إلى عملهم، ما داموا قريبين من أساتذة هذه المواد.

غير أنهم في الدرس التربوي، وهم يواجهون المصادر في اللغة الإنكليزية، لا ينالون في الأغلب الأعمّ عَوْناً من أستاذ التربية، واقعون في حَيْص بَيْص.

لقد سقت هذا، وقد أكونُ أطلتُ عليك وعذري سماحةٌ فيك، فيها صبر وأناةٌ ورحمةٌ، ولعلك من أهل الإيمان الذي يحتمل الصبر على مرارته، وأقول:

كانت رسالتي في الشاعر «ذي الرُّمَّة» وكنت أتعقَّب أخبارَه في مصادر الأدب وكتب السير، وهي كثيرة، ورحت أرصدُ شعره في المصادر، ولم يكنْ شعرُه أو ديوانُه الذي طبعه بشير يموت في بيروت قد ظهر، ولم تكنِ الطبعةَ الأوروبية الجميلة بين أيدينا. غير أني خرجتُ من أمري بزاد، وأنا أقول: يكفيك من الزَّادِ ما بلَّغَكَ المحلّ.

فأما الرسالةُ في التربية، فقد كان لي حساب فيها، وقلت في نفسي: هل لي أن أشقى كصحبي، وأذهب أقلّب الرأيَ في أقوال التربويين، من الأمريكيين والإنكليز، فأفيد منها؟

قلت: لا أفعل ذلك، بل أجدُ الرجوعَ إلى شيء من تراثنا النَّحْوي، فأجدُ فيها أصولاً من فكر تربوي قديم، فأصرف الرسالة إلى تقرّي تلك الأصول القديمة. لقد كان لي أن أبسط ما انتهى إليه درسي لدى النحويين فتكون الرسالة:

«الإدراك التربوي لدى اللغويين والنحويين الأوائل».

لقد سلكت هذا السبيل، فوصلت فيه إلى أن علماء القرن الثالث الهجري بدؤوا في مواجهة العربية، فكيف كان منهم من سلوكٍ تعليمي.

لقد بسطتُ بين يدَيْ هذا الدرس الظروف التي كانت، فكان منها أن العرب فقدوا سليقتهم، فنشأت لغة جديدة عامة، خالَفتْ ما يعرفه أهل العلم.

فمضى أهل العلم في وضع المصنّفات التعليمية التي قصدوا فيها الرجوع إلى الصواب، فكان من هذا «أدَب الكاتب» لابن قُتَيْبَة، و«إصلاح المنطق» لابن السِّكِّيت، و«كتاب الألفاظ» للمؤلف نفسه و«أدب الكتاب» للصولي، و«كتاب الكُتاب» لابن دُرُستويه.

أقول: إن ظهور هذه الكتب كان إيذاناً بظهور مشكلات لُغوية، أدَّتْ إلى أن يكون ملك اللغة أمراً تعليمياً، يفرض على العربي أن يكون متعلماً، فيذهب إلى المعلّم، يأخذُ عنه.

وكان هذا بداية لما عرف في القرون الخامس والسادس وما بعدهما شيء من مصنفات دُعيت «أدب الصبيان» أو «سياسة الصِّبيان» كما كان من هذا كتاب للونشريسيّ. وقد عرفنا في هذا أدب المعلّمِ لسحنون.

وكلمة «أدب» في هذه الكتب تعني فيما تعنيه مصطلح التربية.

وقد أثبتّ في رسالتي هذه أوّل ما فَطِنَ إليه المؤلفون، قبل القرن الثالث، في تعليم العربية واقفاً على «باب الإدغام» في كتاب سيبويه.

إن «باب الإدغام»هذا والإضافة الواسعة التي بسطها الخليل بن أحمد في كتاب العين، ثم الإضافات العلمية في الأصوات في كتاب «سر صناعة الإعراب» وكتاب «الخصائص» لابن جنّي، كل هذا كان عملاً أصيلاً من الأعمال التربوية القديمة.

وقد كان لي أن أبسطَ القولَ في الجملة العربية وكيف كان للعرب نظرٌ في بلاغتها، فكان لهم بابُ الإيجاز والإطناب.

لقد جمعت أشتات هذه الرسالة مما كان لي من جذاذات كثيرة، أودعتها الكثير من فوائد العربية، مما يمكن أن يكون لنا جهدٌ تربوي، فجمعت بين أوصاله، فاستوى في هذه الرسالة. لقد أخذت هذه الرسالة مني جهداً، أمضيته في شهر كامل.

وكنت قد قدَّمتها إلى أستاذ مصري، أحبَّ الإشراف عليها، هو كامل النحاس الذي أشعرني أنه يتحسَّسُ أن تكونَ ساحةُ العمل التربوي متجاوزةً

للموضوعات التربوية التي يحقّ لي أن أدعوها تقليدية، تعرض للامتحان والطالب والمعلم والكتاب المدرسي، ونحو هذا من أشتات، نعرفها في المجلات التربوية التي أفاضت في الكلام عليها.

قال صاحبي:

لقد أغنيتني بأدب جم وعلم وفير، وإني لسعيد بلقائك الذي أشعرني أن الطريق إلى العلم طويل، فهل لي أن أرى ختام هذا الفصل من الرواية؟

قلتُ:

لقد قبلت الرسالتان، وإني لسعيدٌ أن عُدَّت الرسالة الثانية نموذجاً لكل عمل جادٍّ. لقد راح الأستاذُ النحّاس المشرفُ على الرسالة مزهوّاً بما أنجزتُه، وعدّه فوزاً لجهده، الذي أشرف فيه على عمل، جمع بين التربية وأصول العربية.

قال صاحبي: وهل كان قبولُ الرسالتين شيئاً من لوازم التَّخَرُّج؟

قلت:

نعم! إنه شيءٌ من تلك اللَّوَازم، فإذا حقَّقَ الطالبُ الفوزَ بالنجاح في الامتحان الأخير، عُدَّ متخرّجاً. لقد جاء الامتحانُ، وأمضينا فيه عشرة أيام مُضنية إبّان أن وصل فيه الحرُّ حَمَّارة القيظ، وليس لنا في تلك الحقبة أيُّ شيء، يكسر حدّة الحرِّ، كما هي الحالُ في عصرنا، فكنا نكافح الحرَّ بالاستحمام المتواصل.

قال صاحبي:

وماذا يكونُ من التَّخَرُّجِ، وهل الأمرُ مقصورٌ على النجاح؟

قلت:

لا بُدَّ من «حفلة» للتخرج، تعلَن فيها النتائج، وكانت هذه «الحفلة»

وجاء الطلاب وذووهم وأصدقاؤهم. وكان لوزير المعارف كلمة الافتتاح، ثم كلمة العميد، ثم كلمة المتخرّج الأول. وكنت أنا صاحبَ هذه الكلمة، وانتهت «الحفلة» وكان كلٌّ منا نحن الطَّلَبَة متخرجاً برتبة بكالوريوس مدرساً في المدارس الثانوية. وانصرفنا لقضاء ما يقرب من ثلاثة أشهر، هي عطلة الصيف، ذهب كل منا إلى بلده.

قال صاحبي:

ولعلك لم تُحِطْ بما كان لك مع الأساتذة والطلاب؟

قُلْتُ:

الحديث ذو شجون، والشجون أشتات، فيها للطالب مكان، وللأستاذ مكان آخر، ولك أن تمهلني قليلاً، لأعودَ إلى نفسي ملتمساً أن تعودَ إليّ الذكريات التي آثرت الهرب من ساحتي، على جهدي ونَصَبي في الاحتفاظ بها.

وكيف وقد كَثُرَ البلاء، أن أذكر الأسى الذي تنفرُ منه النفوس، وهذه أعلق بالرضى والفرح، ولاتني النفسُ تذكرُ ما سَرَّها، وتنأى عما يكربُها. وإني لآسَى بما يأسى به غيري ممن عرفت من أهلي، وممن عرفت ممن تجمعني وإيَّاهم رَحِمٌ موصولةٌ.

وأعود إلى دار المعلمين العالية التي لقيتُ فيها الكرام من أساتذة، كان لي منهم كل خَيِّرٍ أذكره ما حييت...

قال صاحبي:

كأنك وقد عدت إلى أصحابك من أساتذة العربية، أدركت من فضائلهم ما جعلك تقف منهم موقف الإجلال.

قلت:

أذكر من أولئك الرجال الأستاذ عز الدين آل ياسين الذي وجدت فيه رجلَ علم، وصل إلى علمه، فأدرك فيه الدرجات العُلى. لقد عرفته في هذه المنزلة العالية في دار المعلمين الابتدائية، وتلمذت له سنتين. وأذكر أنه حين دخل علينا في أوّل درسٍ له، طلب إلى كُلٍّ منا أن يُخْرِجَ ورقةً، وأملى علينا سؤالاً في النحو ليقفَ في جوابنا على ما لنا من معرفة، في هذه المادة.

لقد أجبنا، وحمل معه أوراقنا، ونظر فيها، فلما كان لنا أن نلقاه في يوم آخر، حمل إلينا أوراقنا، وقال: ليس فيكم أحدٌ يستحق أن يكونَ من طلابي الذين أتوسم فيهم الخيرَ إلّا واحد، هو فلان. وذكر اسمي كاملاً، صدَّره بكلمة «السيّد». إن «السيد» لدى الأستاذ عز الدين غير المألوف الشائع الذي ألصق بكل رجل لا تعرفُه، أو أنك تعرفُه، وتريدُ أن تحترمَهُ. كأنه لا يرى التسمح بهذا اللقب الذي خُصَّ به السَّادة الهاشميون.

قال صاحبي:

إنَّ «السيد» في مصطلح عصرنا أريد به أن يقابل «مستر» عند الإنكليز أو «مسيو» عند الفرنسيين. وفي هذا توسُّعٌ لاستعمال هذه الكلمة الخاصة.

قلت:

نعم، هو ذاك لأن «السيد» اشتهر لقباً للهاشميين أو من يَمُتُّ إليهم برحِم قريبة.

لقد رأيناه في أحد شعراء الشيعة، هو السيد الحِمْيَري، ولكنه لم يكن شائعَ الاستعمال، ذلك أن لقب «الشريف» أشْيَع منه، فنحن نعرفُ الشريف الرضي والشريف المرتضى، وأبوهما الشريف أبو أحمد.

ولقبُ الشريف ليس خاصًّاً بالعلويين الهاشميين، فقد عرف في العباسيين هذا اللقب أيضاً، ومنه نقيب الأشراف.

قال صاحبي:

وأظنُّ من هذا لقب الشريف للسَّادَة الحسنيين، في الشمال الإفريقي، في الأندلس. وفي العراق في عصرنا عدة أُسر، عرف كل منهم بلقب النقيب، لأنَّ كبير الأسرة كان نقيب السادة الأشراف.

قلت:

هذا شيءٌ صرنا إليه، وقد قيل: إنَّ صاحب الطريق قد تأخذه «بُنَيّات الطريق» فيخرج عن الجَدَد. هذا في الأصل الذي ابتعد عن «بُنَيَّات الطريق» التي يرادُ بها ما يبعدك عن قصدك من الأمر.

أعود إلى الأستاذ عز الدين الذي امتحن معه الطلاب، لمضاء في عزيمته وجدٍّ في سعيه، فلا يضعف، ولا ينال لديه النجاح إلا مَن أخلص في عمله، وعرف ما ينبغي أن يكون عليه طالب العلم.

وليس وأنا أعرض لأساتذة العربية إلاّ أن أقف وقفة إجلال وتبجيل للعالم المتبحِّر في شتى فنون العربية المتمكن من أسرارها وفك مغاليقها هو السيد طه الراوي - رحمه الله -. وإذا كان لي أن أقول: ليس بين أهل النحو أوسعُ فهماً منه، فإني لأقولُ: ليس في دنيا العرب من كان أعلم الناس [منه] ببيت شعر. وقد تلقى من فهمه للشعر، أنه يدركُ فيه شيئاً، لم يدركه الشاعر في الأصل، ذلك أن الشاعر تحكمه سليقته، فتهديه إلى أسرار، لا يدري كيف أتته.

قال صاحبي:

إن أيام الطَّلَب لدى الدارسين فرصةٌ ممتعةٌ، لأنها تزوِّدُ جمهرة هؤلاء

بزاد، فيه متاع لهم، وإن كان مما يكونُ من الاختلاط من خصومات ونزاعات.

قلت:

كان لي أن أشهدَ مثل هذا المجتمع من خلق الله أوَّل مرَّة، في دار المعلمين الابتدائية. رأيتُ فيه أشتاتاً، قدموا من حواضرَ وبُلَيْدات، لا تعرفُ لها إشارة في الخرائط الجغرافية، ومنهم من جاء من قرىً، ما كنت قد سمعتُ بها، فيهم العربي والتركماني والكردي، وفيهم المسلم وغير المسلم، من نصراني يعرف العربية، سكن الموصل، أو في ما حواليها، ونصراني آخر دعي كلدانياً أو آثورياً، ومن يهودي قدم من حواضر مختلفة وقرىً غيرها.

وأنت في هذا المجتمع الصغير، تشهد في التئام هذا الخليط المتنافر في وضعه المتّحد في مصالحه وحدةَ الشعب العراقي في صورته المكبَّرة.

قال صاحبي:

ولعلك زدتَ يقيناً أن دار المعلمين الابتدائية ودار المعلمين العالية وسائر المدارس والكليات، في بغداد، مؤسساتٌ يمكنُ أن تكونَ من عوامل توحيد هذا الشعب. وقد يكون لنا أن نعدَّ التجمعات العسكرية في أفواجها وفيالقها التي اتَّخذت من بغداد أو من غيرها من الحواضر مستقرّاً لها عوامل، وحَّدت جمهرة من هذا الشعب، قد ائتلفت، وعرف بعضها بعضاً.

وأنا بيقينٍ أنَّك قد أفدتَ من هذا الاختلاط فوائدَ جمَّة.

قلت:

نعم! كان لي من هذا الذي عرفتهُ أوَّل مرَّةٍ، في دار المعلمين الابتدائية،

ثم في دار المعلمين العالية، فوائدُ وتجاربُ، كان لي منها أن العراقيين على ائتلافهم في وحدة، هي شعب العراق، يختلفون في كياناتهم النفسية التي تُمليها عليهم عاداتٌ، نزلتْ منهم منزلةَ الأرواح من الأجساد. لقد تأصلتْ فكرة التجمع في مجموعات، يتحكم فيها الدين أحياناً، فهذا مسلم، وذاك نصراني أو يهودي أو صابئي أو يزيدي، أو من طائفة لم أكنْ قد سمعت بها، ولا قرأتُ عنها في كتاب من كتب الأديان والفرق مثل النُّصَيرية والشبك، وأولئك الذين جعلوا علي بن أبي طالب إلاهاً، فعبدوه. وكان لي أن أتقرَّى عن بعض هذه الطوائف، فأجد أن أهل عصرنا قد صنّفوا فيها، كما وجدت نفراً من المستشرقين قد كتبوا شيئاً من هذا. لقد عرفتُ في مكتبة دار المعلمين العالية أوّل مرّة، أن فيها كتاباً، من مجلّدات عدة، في الإنكليزية، دعي «الانسكلوبيديا الإسلامية» بحثت فيه هذه الطوائف، من لدن نفر من المستشرقين، واجتهدت أن أقرأ وأحاولَ الاستيعاب، وأتشبثُ بالسُّؤال من الأساتذة، إن وجدت أن محصولي من الإنكليزية لا يُعينُ.

لقد رأيتُ عجباً في هذا الخليط الذي جَمَعتني أنا وكثيراً من أشتاته، ظروفُ الدِّراسة، وقد أفدتُ من ذلك معرفةً، تتَّصِلُ بما يكونُ لدى الناس من عاداتٍ، تقوم على حماسة خاصَّة بالدين أو المذهب، وكان من هذا أن غابَ عني صديقٌ لي، ألفته وألفني، ثم عاد بعد يومين، وقد استفسرت عن حاله، فتبيَّن لي من أمره أنه ذهبَ في اليوم التاسع من المحرَّم إلى كربلاء، ليشهد مع جمهرة الحَزانَى على الحسين الشهيد ما دعاه «التطبير»، وهو ممارسة هؤلاء الشيعة التي تمكّنت فيهم الشيعية، فعمدوا إلى ضرب رؤوسهم بالسيوف وجعل الدَّم يسيلُ. لقد شارك صديقي هذه المشاهد التي كانت له في مدينته «الشطرة» الواقعة على نهر الغرَّاف.

وقد تبيَّن لي فيما وقفتُ عليه، في هذا الخليط، أن اليهوديَّ من أبناء الناصرية في جنوبيّ العراق، يألفُ اليهوديَّ الكرديَّ من أبناء السليمانية، ولا يمكنُ لكل منهما أن يفهم صاحبه فهماً جيداً، لأن اليهوديَّ الكرديَّ لغتُهُ كرديَّةٌ، ولا يعرفُ إلا ذرءاً من عربية عامِّيَّة، لا تُعينه على فهم الآخر من أبناء مِلَّته الذي يعرفُ العربية التي ثقِفها في المدرسة.

وقد وقفتُ على من دُعوا بـ«الصابئة» وهم الصابئةُ المندائية غير الصابئين الذين ورد ذكرهم في بعض آيات في القرآن. وصابئة عصرنا طائفة في جنوبيّ العراق، في لواءي العمارة والمنتفك، وهم الذين وسموا بـ«المغتسلة» في المصادر التاريخية. ووجدت اليزيدية، وهم عَبَدَة الشيطان، كما وجدت شيئاً آخرَ يدخل في هذه التركيبة السكانية فتتعدّد الألوان، وتختلف العاداتُ، ويختلف السلوكُ.

وأتحوَّلُ بعد هذه الجولة عائداً إلى دار المعلمين العالية، لأستكملَ الفوائد التي تَتَّصِلُ بالأساتذة فأقول: كان لي من هذا أن عرفتُ الأساتذة المصريين الذين كانوا يقصدون الدار زائرينَ زيارةً موقوتةً، في شهر أو شهرين، وكان من هؤلاء الدكتور عبد الوهاب عزّام، ثم الدكتور زكي مبارك الذي أطال المكوث، فلبث عامين، بعد أن أُنهيت خدمته في مصر.

وكان من هؤلاء الأستاذ مبروك نافع، في التاريخ الإسلامي، له كتاب، أملاه محاضرات، ترجم فيها كتاب فيليب حتي الذي كتبه إلى الدارسين الأمريكيين. وكان من هؤلاء أستاذ مصري قبطي، هو يوسف مجلّي، من أساتذة الجغرافية، وكان على وفرة علمه غير محمود الخلق، يميل إلى الطالبات ميلاً، لا أحسبه إلا مدفوعاً بلوثة خلقية، وكان على حسابه العسير للطالب، بل ظلمه له، سخيّاً جواداً مع الطالبة التي تحسن التملّق

إليه، للوصول إلى قلبه.

قال صاحبي:

وهذا مما جدّ في حياتك، وهو أن تكون عايشتَ زميلاتٍ، هن طالبات دار المعلمين العالية. ومن شأن هذا الاجتماع بين الجنسين أن يؤثر في العاداتِ والسُّلوك.

قلت:

لو كان لي أن أرسل القول على رسيلاته، لحدثتك بالطرائف مما كان بين الطالبات والطلاب، وبين الطالبات ونفر من الأساتيذ، ممن أباحوا لأنفسهم أن تأخذَ نصيبها من الدنيا، ولكني آبى على نفسي أن أسلُكَ درباً، هو مظنَّةٌ للعِثار.

غير أني أحدِّثُك عن جمهرة الطلاب الذين حملوا إلى الدار الخير والشَّرّ، لقد حملوا معهم سوآتهم التي كشفوا عنها، فمنهم من التاثَ عقلُه، فلزم الطائفية، وربما قرب في هذا من نفر من الأساتيذ، أحسّ أن في أنفسهم ميلاً إلى هذ السوأة فأصاب مبتغاه. وقد كان لي من هذا أن وقفتُ على تجمّع الطلبة النصارى الذين وجدوا حمىً في دارة للأستاذ فلان. لا تعدم أن تجد في «المواصلة» منهم تجمّعهم الذي حوّلوه إلى ولاء، يبتغون فيه زُلْفَى من أستاذ، عميت به السُّبُلُ، فاستجاب لهم.

قال صاحبي:

ولعلك قد رأيتَ مما يحدثُ بين الطلاب الذين يَدفَعُهُمْ شعورٌ بالمنافسة، فينزلون إلى درك غير مأمونٍ أن ينحدروا فيه.

قلت:

لقد كان لي شيءٌ من هذا، فقد طمع فيّ من لم تُرْضَ مروءته، فحسب

أني نظيرُه، وأني منافسُه، وأني أسعى إلى غلبةٍ بائسةٍ. إنه وجد لي عدّة، تزوّدت بها من علم قبل أن آتيَ إلى الدار، وقد رأى غيرَ واحد من الأساتذة، يذكرون لي هذا، فأبت عليه نفسُه إلاّ أن يظلَّ صغيراً؛ إنه يسعى إلى أن يحرز مرتبة الأوّل التي حازها في دراسته الثانوية، فكيف لا يكون له هذا؟

لقد اجتهد وسعى، يبتغي أن ينالَ في جِدِّه وسَعْيه قَدْراً من علامات الامتحانات، يتجاوزني فيها. لقد كان له بعضُ ما ابتغاه في المواد التي يستعانُ فيها بالسَّعْي الحثيث والحفظ للنصوص، ولكنه لم يفلحْ في الموادِّ التي تعتمدُ على ما عند الدارس من علم قديم وإلمام بالنصوص، ومعرفة بالإفادة منها. وبسبب من هذا لم يستطعْ معي أن يفوزَ بقَصَب، نصبه لنفسه في سباق، لم يخطرْ لي على بال.

وربما لجأ إلى طرائقَ، فيها شيء من فكر، لا يكونُ إلا عند الصبية الصغار أملاً في الإفادة وطمعاً بنيل ما سعى إليه.

قال صاحبي:

وأرى من المفيد أن تبسطَ لي شيئاً من دأبِه هذا؟

قلت:

لقد جاءني يوماً، وكان ذلك في ليلة امتحان، عسير عليه أن يبرِّزَ فيه، وهو يقصدُ التبريز والمنافسة، وقال لي: هل تذهبُ معي إلى السينما؟ فقلت له: نعم! وأنا مما يسعدُني أن أصحبَكَ، واستمعَ إلى فوائدك. ولكنه حين وجدني مستجيباً لدعوته، قال لي: ما كنتُ أظنُّكَ توافقُني، لأنَّ الليلةَ هذه هي الليلةُ التي تسبق الامتحان، ولولا أنك قد تهيّأت له، وأحسنت التهيّؤ ما وافقتني.

قلت له: كيف لي أن أسلك لأرضيك، ولا أدفعك إلى أن تبتئسَ منّي؟

هذا شيءٌ مما كان لي مع أخي هذا الذي فارقني بعد تخرُّجه، وانضمَّ إلى البعثة العلمية في أمريكا، في اختصاصٍ لم يكنْ له فيه استعدادٌ، وهو تاريخ العراق القديم.

قال صاحبي:

إني لأعجبُ أن يذهبَ الرجل مذهباً، لا يعرفُه، فيبتعد عمّا له معرفة به من السبل طمعاً بأن يكون في بعثة علمية، ليس فيها الاختصاص الذي هيىء له، ولكنْ فيها شيء، ليس له منه إلاّ القليلُ من المعرفة.

قلت:

إن هذا يعني أن صاحبي هذا لو قيل له: لم يبق إلا «طبُّ الأسنان» في فروع البعثة، لوافق أن يذهبَ فيه معتمداً على أنه يقرأ ويسعى، فيصل إلى الأسنان صنعةً وعلماً، في تركيبها وعلاجها.

لقد ذهب صاحبي هذا إلى جامعة شيكاغو، وعاد مختصّاً بتاريخ السومريين وحضارتهم، ولكنه لم يظهرْ من اختصاصِه أيُّ شيء سوى جملةِ مباحثَ موجزةٍ، كتبها مدفوعاً إلى أن تكون موادّ علمية، لينظرَ فيها، ليتحوَّلَ من مرتبة مدرس إلى مرتبة أستاذ مساعد.

قال صاحبي:

وإني لأعرفُ طائفة من هؤلاء الكُسَالى الأساتيذ الذين لا يَشْغَلُهم من العلم إلاّ القدر اليسير من مقالات، يتقدَّمون بها لنيل درجة علمية، حتّى إذا كان لهم أن ينالوها، قعدوا مع القاعدين، لا يعرفون إلا «مذكّرات» صنعوها إلىالطلاب في محاضراتهم. ثم استحالت هذه «المذكّرات» «ملازمَ» في الحقبة الأخيرة، بعد شُيوع التَّصوير بالأجهزة المعروفة. وكأن

العلم تحوَّل لدى كثير من الأساتذة إلى «حبوب»، هي كالتي نعرفها باسم «المضادّات الحيوية».

قلت:

إنّي لأحمدُ لك هذه الغَيْرَة على العِلْم التي جعلتْكَ ترصُدُ هذه الألاعيبَ التي غَدَت من سوآتِ عصرنا.

لقد أكرهت على ذكر صاحبي هذا، وإني لآبى أن أُدْخِلَ نفسي في حَيِّز، لا أرضاه، لقد ذهبَ صاحبي، وتوفَّاه اللهُ وبقيتُ أنا، لا أذكرُ منه سوى محاسنه وصدقه وحبّه للناس - رحمه الله -.

قال صاحبي:

كأني أقولُ معك، يا مَنْ قبست فيك المروءة، ما يردِّده الناسُ في أدبهم: «اذكروا محاسن موتاكم».

قلت:

وإني لأعلمُ أن سلسلة الذكريات مُتَّصِلَة الحَلَق، وقد يفوتُ المرءَ الكثير منها، وليس له فيها إلاّ التَّذَكُّرُ، وقد قال الأوائل: «آفة العلم النسيان»، ولكني واثق أني سأتلقَّف هذا الفائتَ، لما يكونُ من وصل الشيء بالشيء، وقد يجيئُك ما ليس فيك به حاجة، وقد قيل: الشيء بالشيء يذكَر.

قال صاحبي:

كنت أعلمُك ممن احتفظوا بما هو مسطورٌ في أوراقك التي هي جُزازات أهل العلم التي أمنوا فيها قصور الذاكرة، وقد جاء في الأثر: «قيِّدوا العلمَ بالكتاب».

قلت:

إن لي شيئاً مما ألمعتَ إليه، ولكن المرءَ قد يفوتُه أن يقيِّد ما يحرصُ

عليه.

وأعود إلى ما فاتني مما يَتَّصِلُ بالطُّلَّاب، فأذكرُ الطيبين، وعليّ هنا أن أقتنص ما قد يمرُّ بي، فأتلقَّفُه.

لقد كان لي أخلاءُ أصفياءُ، مَحَّضْتُهم خالصَ وُدِّي، لأنهم صدقوا وأخلصوا، ولا سيما من وفد إلينا من العرب، وفيهم ممن جاؤوا من الحواضر السورية التي اقتطعَها الأتراك، وضموها إلى تركيا وهي الأسكندرونة وأنطاكية وغيرهما. لقد جاء من هذه الديار إخوة لنا، لم يبقَ لهم مكان في ديارهم.

قال صاحبي:

إن الحواضر التي عرفناها في الجزيرة الفراتية، في شرق تركيا وجنوبها، بلاد مَصَّرَها العرب، فكانت من ديار الإسلام، عرفتها القبائلُ التي استوطنت فيها، فكان فيها حضارة عربية، سعدت بالإسلام. ألا ترى أن من هذه حاضرة ديار بكر، أين هذه من العُجْمَة التي صبّها الأتراك عليها؟

قلت:

نعم! هذا هو الحقُّ الذي ضيعناه، أليس لنا أن نقول: ما ضاعَ حقٌّ وراءه طالبٌ. أيكون لنا هذا الذي ليس في طوقِنا استردادُه.

قال صاحبي:

ربَّ مصيبةٍ تُنْسِيك مصائبَ، والمصيبةُ هي نكبتنا في فلسطين التي عرفناها ونحن صبية، وكان ما كان منّا وأوشكنا أن نوطِّن أنفُسَنا على ما جرى، ونسكت ونطيل السكوت وفي القلب جوى، وفي الحَلْق شَجَىً كما قيل.

قلت:

على رِسْلك، فلا تُثِرْ أشجانَنَا وخَلِّني أبسطْ بين يديك ما أنا فيه من شؤون إخوةٍ لي، لم يكن لي ولكثير من أصحابي صلةٌ بهم، على قرب الديار. وإني لأذكر من هؤلاء أخي من الأردنّ عبد الكريم خليفة الذي قضى معي السنوات الأربع في الدار، وانتهت السنوات، وانقطع ما بيننا. ثم كان لي أن أراه ثانية أمامي في باريس، قدم إليها كما قدمت أنا، وسيأتي الكلام على هذا. لقد سعدت بإخائه، وأفدت من مودّته، ولن أنسى أنّي قلت بعد سنوات حين رأيته في باريس:

وقد يجمعُ اللهُ الشَّتِيتَين بعدَما   يَظُنَّانِ كلَّ الظَّنِّ أن لا تَلاَقيا

قال صاحبي:

لقد كان بك مما فاتك هذا الذي مررت به، فعرَّفتنا بنفر ممن سعدت بهم، فهل لنا أن نبقى في هذا الذي استدركته من فوات؟

قلت:

نعم! لقد شغلت بما ابتأست فيه، فصرفني عن شيء، كان لا بدّ أن أعنى به قبل أن نأسى بما ساءنا. كان علي أن أستوفيَ أخبار الأساتذة وما كان لي معهم، فأقول:

كان لنا أن أدركنا العلمَ، وعرفنا السبيلَ إليه في هذه الدار. ولم يكن هذا في مواد اللغة العربية التي درجنا فيها على كتب عدّة، عرفناها في النحو والصرف، فلم نغادرْها إلى مصادرَ أخرى. وقُلْ مثل هذا في موادٍّ الأدب التي درجنا فيها على الاكتفاء بمحاضرة، كانت تُمْلَى علينا، ونحن نسطرها في دفاترنا، لكننا وقفنا على شيءٍ جدَّ في درسنا، قطع ما بيننا وبين الذي درجنا عليه. لقد كان هذا في مادَّة التاريخ الإسلامي الذي أتى

به إلينا الأستاذ عبدُ العزيز الدُّورِيُّ. إنها مادَّةٌ جديدةٌ، في الأسلوب الذي جاءنا به الأستاذ، لقد عرفنا في هذه المادَّة المصادرَ التي كنا ربما سمعنا بأسمائها، ولكننا لم نَرَها، وعرفنا فيما عرفنا أن نُفِيدَ من هذه المصادر، ونتبصَّرَ فيها، ونوازن بين الخبر في هذا المصدر وفي المصدر الآخر. لقد حملنا هذا النظر الجديد إلى العلم الجيد الذي لا يوصلُ إليه إلا بعدَ النظر الدقيق ومعرفة الصحيح من المنحول، والوصول بعد هذا إلى الغرض.

كان هذا الدرسُ التاريخيُّ حافزاً لنا أن نُفِيدَ منه في الدَّرس الأدبي.

لقد أدركتُ، من بعد هذا الدأب، أن مصادِرَنا التاريخية هي مصادرُنا الأدبية التي ينبغي أن يكون لنا في درسنا الأدبي منها فوائدُ.

قال صاحبي:

ألم تكنْ قد حَدَّثْتَني عن نفرٍ من الأساتيذ، ممن درسوا في مصر، وعرفوا الأساتذة الكبار من المصريين، ومنهم طه حسين، وأحمد أمين، وعبد الوهاب عزّام، وأمين الخولي، هؤلاء الذين أستطيعُ أن أجعلهم قد سلكوا أسلوب العلم في الدرس، في اعتمادهم على المصادر القديمة، وما كان للدارسين في عصرنا من مستشرقين وغيرهم.

قلت:

نعم! لقد كان لي هذا معك، وأنا أحمدُ لك هذه الالتفاتة التي دفعتني إلى أن أعودَ، فأمرَّ على ما جاءنا به الأستاذ محمود غناوي الذي أعاد إلينا ما بدأه طه حسين، في الشعر الجاهلي، الذي ذهب فيه إلى أن جمهرته مما نَحَلَهُ حمَّادُ الراوية وخَلَفٌ الأحمر، دون أن يشير الأستاذ غناوي أن الأستاذ طه حسين الذي أعاد ما بدأه مرجليوث ونولدكه وباسّيه من المستشرقين، ولم يقفْ طويلاً على مصدر أولئك المستشرقين وهو ابن

سَلاَّم في كتابه «طبقات الشعراء».

لقد كان لمحاضرات الأستاذ غناوي وقعٌ خاص، ذلك أن أستاذ الأدب في عصوره المختلفة هو الدكتور محمد مهدي البصير، ولنقفْ وقفةً عند الدكتور البصير، لنبيّن ما كان له من درس في الادب الجاهلي. لقد بدأ الدكتور البصيرُ درسَهُ، فجعل من أحاديثه التي أذاعها ردّاً على أقوال طه حسين في كتابه الشعر الجاهلي، وقد جمع هذه الأحاديث في كتاب، وسمه بـ«بعث الشعر الجاهلي». وكان هذا أساساً لمحاضراته التي أملاها مرافقه على الطلبة فكانت مادة الدرس. وكان يشعر أن طريقة الإملاء ثقيلة، تدعو إلى سأم الطلبة وضيقهم بالذي يكتبونه، فكان يعمل إلى مقاطعة الإملاء، في تعليقات له، للردّ على طه حسين، وكثيراً ما كان يجنحُ في الردِّ إلى النيل من طه حسين. وهو في ردّه هذا لا يُشعرُك أنه يُفيدُ كثيراً من مصادر الأدب.

قال صاحبي:
وكان أن سمعتُ من كثير من طلاب الأستاذ مهدي البصير، أنه في ردِّه يميلُ إلى التجريح، فينال من صاحبه الذي سعى إلى ردِّه. شأنه هذا مع طه حسين فيما خلا الأدب الجاهلي، فلقد حدثني طلاَّبُه أنه كان يقول متهكّماً في الرَّدِّ على قول طه حسين: «أن القرآن لا شعر ولا نثر»، فيعلّق ويقول متهمّكاً.

إذن ما القرآن بعد هذا؟ وكذلك كان شأنه مع شوقي أمير الشعراء، فهو يعرِض لقوله في مطلع قصيدته «نهج البردة»:

«ريمٌ على القَاع بين البَانِ والعَلَمِ أَحَلَّ سَفْكَ دمي في الأشهر الحُرُمِ»

فيعلق على قول الشاعر بقوله الساخر: «إن لم يكن الرِّيم على القاع،

فأين يكون؟، وهو يستنكر أن يكون لفظ «القاع» في سياقٍ شعري وفي مطلع قصيدة.

قلت:

لقد فات الأستاذَ البصيرَ أنَّ «القاع» في فصيح العربية غيرُ مفهوم «القاع» في الألسن الدارجة، وكأنه كان يعرف أن هذا مثل ذاك، وليس «القاع» في الألسن الدارجة يمكنُ أن يكونَ في قصيدة نبوية. وهكذا كان درس الأستاذ البصير في الأدب محاضرات تُملَى على الطلاب، وهم مطالبون باستيعابها، إن لم يكن لهم حفظها عن ظهر قلب.

لقد أدرك الطُّلاَّب هذا، فراحوا يعيدون نصَّ المحاضرات في دفتر الامتحان مع شيء فيه مَلَق بالنيل من طه حسين، ليحرزوا العلامة العالية.

ولكني أقول: كان لنا فوائدُ، أفدناها من الدكتور البصير، منها ما يَتَّصِلُ بأدب الثورة العربية الكبرى، وأدب الثورة العراقية، ومنها ما يَتَّصِلُ بشعراء العراق، في القرن التاسع عشر.

ولا يفوتُني أن أذكرَ مشاركتَه المفيدةَ في درس الموشَّحات القديمة، في الأندلس والمشرق، وما كان لشعراء العراق في القرن التاسع عشر، من تقدّم في الموشح.

قال صاحبي:

كنتَ قد أشرتَ إلى أن المحاضرات لم تكن موثَّقَةً بالمصادر، وأنا أقول: إنَّ هذا اللونَ الإنشائي الذي عُرف في نهج الدارسين العرب، بما فيهم ما كان من درس أدبي لطه حسين، كما في «حديث الأربعاء» و«من حديث الشعر والنثر» وعلى «باب سجن أبي العلاء» وغيرها.

قلتُ:

لا بُدَّ من العَوْد إلى حديث المصادر في الدرس، وأؤكدُ ثانية أن طلبة دار المعلمين العالية، لم يكونوا يعرفون هذا التوجُّه العلمي حتى أتى الأستاذ الدُّوري، فسَعَى إلى توجيه الطلاب إلى المصادر. ثم كان منه ما صنَّفه من دراسات في التاريخ العباسي الأول، ودراسات أخرى في التاريخ الاقتصادي، ودراسة في العصور المتأخرة، وأشتات أخرى من درس في النقابات وغيرها. وقد أفاد الطلاب من هذا النهج الذي جدّ، فكان سبباً في دفعهم إلى أن عصر السرد التأريخي بعيد عن التحليل والتبصُّر.

قال صاحبي:

كان لهذا الدرس التأريخي أَثَرُهُ لدى طلاب قسم اللغة العربية، في إفهامهم أن الكثيرَ من مواد اللغة العربية ينبغي أن تكونَ بحثاً علمياً، فيه رجوع إلى المصادر التي قد يكون منها تصحيحُ أشياءَ كثيرةٍ، كان للطَّلَبَة فيها فهمٌ بعيدٌ عن العلم.

قلت:

لقد أدركتُ مع غيري من الطُّلَّاب أن الدرس التاريخي نظيرُ الدَّرْس الأدبي، وأن العلم بالتاريخ الأدبي، لا بُدَّ أنْ يتَّبَع فيه الرجوعُ إلى المصادر، والموازنة بينها، لفهم الحقيقة في سلوك الأديب. وقد اهتديت إلى أن مصادرنا الأدبية هي مصادر علمية كثيراً ما يُفيد منها المؤرخُ العالمُ. إن كتبَ الجاحظ، على غلبة الأدب واللغة فيها، هي مصادرُ، تقدِّمُ للدَّارس في الأدب والدارس في التاريخ معارفَ أصيلةً.

وإني لأذكرُ أني كُلِّفْتُ بدرس تاريخيٍّ، يَتَّصِلُ بـ«العامة وطبقة العوام ومكانهم في التركيبة الاجتماعية، في القرن الثالث الهجري». فوجدتُ الكثير من الفوائد التي تَتَّصِلُ بالعامة في كتب الجاحظ، ولا

سيَّما كتاب الحيوان وبعض رسائله التي خصّها بموضوعات، تتصل بالفكر الإسلامي. ولو أنك أغفلت هذا الجانب الاجتماعي في «كتاب العثمانية» لم تبق من أصالة جاحظية أوعبها هذه الرسالة ذات الفوائد الجسام.

ثم كان لي بعض هذا من قراءاتي في «نشوار المحاضرة» و«الفرج بعد الشدة».

قال صاحبي:

ألم تحدِّثني مرّة عن كتاب «الكامل» في اللغة والأدب للمُبَرِّد الذي كنت أحسبه مصدراً من مصادر اللغة والنحو، فقلت: إنه مصدرٌ أصيلٌ في الخوارج وما كان من أدبهم الذي أوعبوه آراءهم؟

قلت:

نعم أذكر هذا، ولكني أضيفُ أني قبستُ هذه الفائدةَ العلميةَ من الأستاذ طه الراوي، فقد أفادني مرّة، وقد عرض من سَعَته، وهو يعطي فوائِدَهُ في أشعار حماسة أبي تمام التي قادته إلى أدب الخوارج فقال:

أتعلم لِمَ ذهب المُبَرِّدُ المعنيُّ باللُّغَةِ والنحو، في هذا الكتاب الذي كان من الأصول التي نصَّ عليها ابن خلدون، في المقدّمة، لدارس العربية، إلى الخوارج وأدبهم؟

قلت: ليس لي في هذا شيءٌ، فقال: إنَّ المبرّد أبا العباس محمد بن يزيد أزديٌّ، في انتمائه القبلي، وقد انتشر الأزدُ في شرقيّ بلاد العرب الموطن الذي عرف ذيوع فكر الخوارج، فكان للأزد منه نصيبٌ، فكأن المبرِّدَ حين أثبت هذا في كتابه، قد سعى بدافع الانتماء إلى قبيلته. ومن هنا كان كتاب «الكامل» من مصادر أهل التاريخ، بخصوص الخوارج.

قال صاحبي:

وما أظنُّ في المؤرخ العالم الذي يبحثُ في عصور بني العباس غنىً عن كتب ابن الجوزي، ولا أريدُ كتبه في الرِّجال والسير، ولكن كتبه التي تبرز الأحوال الاجتماعية «كالأذكياء» و«الحمقى والمغفلين» وغيرهما.

قلت:

وقد دفعني الميلُ لمعرفة كتب الأدب، أن أذهبَ إلى شيء، كان ينبغي أن يهتديَ إليه المؤرخونَ الأدباءُ، وهم يبحثون في كتاب «الأغاني» لأبي الفرج. لقد ذهبوا إلى أن أبا الفرج الأمويّ نَسَباً، كان متشيّعاً. وكأنهم ذهبوا إلى هذا، حين رأوا أن أبا الفرج صنّف كتاباً في «مَقَاتِل الطَّالِبِيِّين»، ولكنهم لم يُفيدوا من أنه خصّ الخليفة الأُمَوِيَّ في الأندلس بنسخته الأولى من كتاب الأغاني.

قال صاحبي:

كأنك تسعى إلى حملي على تصحيح الرأي الذي تعلَّمْتُه فيما قيل في ترجمة أبي الفرج الذي يتشيَّع، وهو الأُمَوِيُّ المرواني.

قلت:

كأن الذين ذهبوا إلى هذا الشِّيعة أنفسهم، ليقولوا: إنَّ العَلويين أصحابُ حَقٍّ، سلبه منهم الأمويون أوّل الأمر، ثم العباسيون الذين دعوا في افتتاح دعوتهم إلى آل بيت رسول الله، فأفادوا مما كان للشِّيعة من نفوذ لدى كثير من الناس، حتى إذا نجحت الدَّعوةُ، قلبوا لهم ظهر المِجَنِّ، فاختصُّوا بالحكم. وكأن الإقرار بحق العلويين قد ساد بين الناس، مما دفع أشتاتاً من الناس ممن لم يكن لهم مَيْلٌ للعلويين أن يَنْضَووا وراء لواء الشيعة، فكان من أولئك أبو الفرج، كما زعموا، وهو الأمويُّ في انتمائه.

وقد تسألُني: كيف كان ذلك، وهل كان أبو الفرج قد تقبّل التَّشَيُّعَ، وآمَنَ به؟ والجواب عن هذا: لم يكن لأبي الفرج من تشيُّعٍ، ولو كان له هذا أو شيء منه، لظهر في كتابه العظيم وهو «الأغاني». لقد اشتمل الأغاني فيما اشتمل عليه، على جمهرة من شعراء الشِّيعة ورجالهم وأدبائهم، ولم يكن أبو الفرج حين عرض لأولئك، في أخبارهم وسيرهم، على نحو ما عرف لدى الكتاب الشِّيعة من الانحياز إليهم والتوجه إلى منزلتهم. وقد تدركُ هذا في إفاضته في أخبار السيدة سكينة بنت الحسين بن علي التي ذكر من أخبارها ما لا يصدَّقُ من التَّبَذُّلِ والانغماس في اللهو، فهل لك أن تقبلَ أن تذهبَ سكينة، بعد مقتل أبيها وما كان من خبر الفجيعة التي حلَّتْ بالأُسرة؟! إني لأعرفُ أنها امرأة كسائر النساء اللواتي تعلَّقنَ بشؤون من متاع الدنيا، ولكني لا أتصورُ أن تكون كما أنبأ أبو الفرج، وتفسح في ذكر لهوها ومرحها وحضورها مجالسَ الغناء واللَّهْو، تحكم في غناء المغنِّين والقِيَان. إن مقتل أبيها وما صحبه من أخبار الفجيعة غَرَسَ في نفوس الأسرة وعامَّة الشيعة الأسى الذي لم يفارِقْهم طوالَ القُرون. وأكبرُ شاهد على هذا ما كان من حال أخيها السَّجَّاد علي بن الحسين زين العابدين الذي لم تَرْقَأْ له دمعةٌ، فعاش حزيناً بكّاءً، بل أعظمُ من عرفنا من البَكَّائين الذين لم يَنْسَوُا الخَطْبَ وما كان من فجيعةِ الطَّفِّ. فهل للمرء أن يدركَ أن متشيّعاً كأبي الفرج يغضُّ الطرف عن تشيعه، فيذهب إلى الحَدِّ الذي ذهب إليه من بسط أخبار سكينة في العَبَث وإبرازها امرأةً متبذّلةً، لا نعرف بين النساء من مثيلاتها بين رَبَّات الحجول، بل نراها كسائر العابثات اللاهيات(١).

---

(١) أيكون لنا أن نصدّق ما قيل من لهو سكينة فتنسى وهي لاهيةٌ عابثةُ مقتل أبيها وما حل بأهل بيتها، وننسى نحن أنها كانت الأثيرةَ بمحبَّة أبيها الحسين لها كما يشير هو في قول له:

قال صاحبي:

لنا أن نتقبَّل هذا، فلا نرى الشيعة ممن أرخوا للأدب إلا أخذتْهُمْ حماسةٌ في بسطهم لأخبار الشيعة، بل إنهم تجاوزوا ذلك، فغضّوا الطرفَ عن كل ما من شأنه أن يسيء إلى رجالهم. وبقي الشيعةُ طوالَ القرون هذا دأْبُهم، حتى إن أحد معاصرينا هو السيد توفيق الفكيكي انبرى إلى إنكار ما ذكره أبو الفرج، من أخبار السَّيدة سكينة، في عبثها ولهوها، فكتب مقالات عدّة، نشرها في مجلة «الغري» النجفية. وأنت لا تجدُ في «أعيان الشيعة» للسيد محسن الأمين العاملي أيَّ شيء لا يُرضى في سير رجالهم، وهو يغضُّ الطَّرْفَ عن كلِّ مسألة قد تفسَّرُ في النَّيْل من الشيعة والتشيّع. ألا ترى مثلاً أنهم حبَّروا المقالات، وصنّفوا الكتب في الدفاع عن زواج المتعة الذي ألغاه عمر بن الخطاب[1].

وما زال رجالُ الشيعة يؤيِّدون مبدأ «التَقية» التي اقتضتها ظروفٌ خاصَّة، ولقد زالت تلك الظروف منذ زمن قديم، ولكن الشِّيعة التزموا طريقتهم في «التقية».

= لعمـرك إننـي لأُحـبُّ داراً تحُلُّ بها سكينةُ والربابُ

و«الرباب» هذه زوج الحسين بنت امرىء القيس التي قالت في رثائه:

إن الذي كان نوراً يستضاءُ به بكربلاءَ قتيلٌ غيرُ مدفونِ

(١) إن الذي حرم زواج المتعة تحريماً قاطعاً هو الرسول ﷺ ونسخ بذلك الحل (المصحح).

أقول: نعم لقد كان هذا في أخباره - صلوات الله وسلامه عليه - ولكني أردت أن أومىء إلى أن ما كان من عمر في هذه المسألة جعل الشيعة يذهبون في موقفهم المناوىء لعمر فزعموا أن إبطال المتعة مما خالف فيه عمر نهج الرسول.

قلت:

لك أن تذهبَ في دأْبك هذا، لتكونَ معي منكراً أن تقبَل ما قيل من تَشَيُّعِ أبي الفرج. وقد يكونُ لك أن تسألَني: كيف ذهب أهلُ العلم إلى هذا؟

وأنا أجيبُ عن ذلك فأقول: كان أبو الفرج رجلَ دُنيا، يهمُّه قبل كل شيء أمرُ الدنيا التي ارتضاها عَيْشاً وكسباً، لا يهمُّه أن يكون ذلك حراماً. لقد عاش عيشة، قصد إليها أن تكون لاهية عابثةً، فكتب في أخبار القِيان والمُغَنِّين وكتاب «الأغاني» هو العملُ الكبير الذي أفاد منه في تصنيف رسائله التي وصلت إلينا.

أقول: لقد أدرك أبو الفرج أن عصره عصرُ سطوة آل بُوَيْه الذين صرفوا الخليفة العباسي عن شؤون الدولة، وصيرورته ألعوبةً في أيديهم، فقد عزلوه مرَّة، وبايعوا غيره. لقد أدرك أبو الفرج أن أولي الأمر وأصحاب السلطة هم الحُكَّام البويهيون، فتقرَّب منهم، وتملَّقهم فأفادوا منه في ديوان الإنشاء وانصرف إليهم. ولما تظاهر البويهيون بالتشيُّع، جاراهم أبو الفرج، فأظهر تشيُّعَهُ، فكان له في تلك الحقبة أن صنّف كتاباً في «مقاتل الطالبيين» الذي أظهر فيه تشيُّعَهُ وانحيازه، فكان هذا الكتابُ دليلاً ووثيقة في أيدي الذين نسبوا التَّشَيُّعَ إليه.

إن أبا الفرج كان قد صنفَ كتابه هذا، ليقنع البُويهيين وعامَّةَ الشِّيعة أنه منهم، رضي لنفسه التشيّع مذهباً، وهو يسعى من وراء ذلك أن يظلَّ محظيّاً مقرّباً لدى البويهيين.

قال صاحبي:

لقد قلتَ: إن البويهيين قد تظاهروا بالتشيع، فهل لنا أن نفهم أن ذلك

كان منهم من أجل الوصول إلى الحكم، وسلبه من العرب، لأنهم من الفرس الذين ما فتئوا يكيدون للعرب الذين قضوا بإسلامهم على دولتهم وأمجادهم؟

قلت:

هذا ما تَبَيَّنَ لي أن أقولَ، وذلك لأنّي رأيتُهم أشدّاء في كل ظرف، أحسُّوا من أيٍّ من العرب، ولو كان من الشِّيعة الكبار، الإعرابَ عن الحق الشرعي لآل البيت في الحكم. ألا ترى أن أحد وزرائهم أنكر على الشريف الرضي دعوته إلى حقِّه في الخلافة، في قصائد عدَّة قائلاً له:

«إلى كم تُدِلُّ علينا بالعِظام النَّخِرَةِ»، وهو ينعت بالعظام النخرة أجداد الشريف وأوّلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

لقد أفضتُ في حديثي هذا منطلقاً من أن مصادرنا الأدبية والتاريخية ينبغي أن تكون رائداً لنا في عصرنا، في البحث العلمي، وأن نكونَ بعيدين عما كان فيه أهلُ العلم في مطلع هذا القرن، في نهجهم الإنشائي وهم يعرضونَ لمسائلَ في الأدب والتاريخ.

قلت:

لا بدَّ لي أن أشهد أن مجيء الدوري إلى دار المعلمين، كان حدّاً فاصلاً بين نهج قديم خلوٍ من العلم ونهج جديد، فيه علم حَسَن.

ولي أن أختم الكلامَ على هذا الأمر، فأقف وقفةً مفيدةً عند الدكتور مصطفى جواد - رحمه الله -. لقد كان لي من دروس الأستاذ مصطفى جواد وأماليه ومما كتب ونشر من كتب، صنَّفها، وأخرى حقّقها، وما أفاض فيه من مباحثَ ومقالاتٍ لا حَصْرَ لها فوائدُ، لا أستطيعُ لها عدّاً.

قال صاحبي:

إن قَدْراً كبيراً من آثار مصطفى جواد عرفه أهل العلم فيما نشره في «لغة العرب» المجلة التي كان يصدرها الأب أنستاس ماري الكرملي، اشتملت على تحقيق ألفاظ وتصحيح استعمالات، كما اشتملت على فوائد في خطط بغداد وبيان ما كان في هذه الحاضرة من مشاهدَ، بقي فيها آثار العهود القديمة، ولا سيما ما كان من العهود المتأخرة كجامع مرجان وجامع بَراثا وجامع الحَيْدرخانة وغيرها.

كان هذا وهو معلم في مدرسة الكاظمية الابتدائية، وكنت أقرأ ما يوقِّعه من اسمه «مصطفى بن جواد الديلتاوي»[1]. ثم ذهب مبعوثاً إلى فرنسا، في البعثة العلمية، ثم عاد بلقب الدكتور.

قلت:

نعم، كان له هذا الذي بسطتُه من جهوده التي أفدتُ منها الكثيرَ الكثيرَ. وعاد من فرنسا حين شبتْ نارُ الحرب العالمية الثانية، ولم يَحْظَ بمناقشة لرسالته التي كانت في الخليفة العباسي الناصر لدين الله الذي أعاد للخلافة هيبتَها، في الربع الأول من المئة السادسة، والذي دامت خلافته طويلاً، تجاوزت الأربعين سنة.

لقد شهد المسيو ماسينيون المستشرق الفرنسي بما كان عليه من علم، سبق به أصحابه من العراقيين المبعوثين لإكمال تحصيلهم الذين عادوا، وليس لهم ما كان لمصطفى جواد من محصول.

---

(١) الديلتاوي نسبة إلى بليدة «ديلتاوه» على نهر الخالص من الأنهر التي تصبّ في ديالى.

قال صاحبي:

كأنك في هذا الذي ذكرتَه، أردتَ أن تقولَ: إنَّ مصطفى جواد من أهل التاريخ الإسلامي، ولا سيما ما اتَّصَلَ بالعصور المتأخرة.

قلت:

نعم! ولكنك ينبغي أن تعلم أن شهرته في العلوم اللغوية وتحقيق الأساليب والاستعمالات، اكتسبها مما وجده في كتب الأدب والتاريخ التي قرأها؛ ولما شعر أن له من هذه الفوائد الكثير الذي لا يُحصى، وقد بدأ يذيعُه من دار الإذاعة العراقية، ثم طُلب إليه أن ينشرَه في مجلة «عالم الغد» التي كان من أصحابها الأستاذ حسنٌ الدُّجَيْلِيُّ. لقد جعل هذه الفوائد تحت عنوان «قل ولا تقل» تملأُ صفحةً في كل عدد من أعداد المجلة التي عرفتْ في سني الحرب العالمية الثانية.

ثم إنه كان يعودُ إلى المعجمات، فيفيد منها، وقد أمسكَ منها بـ«المصباح المنير» للفيُّومي الذي كان يتردَّدُ في مقالاته. وهو يحملُ المعجم الصغير الذي اختاره الرَّازي من «الصحاح» للجوهري، ونسخته كانت مما يُحمَل في الجيب. وأكاد أقطعُ أنه استوعب هذا المعجم عن ظهر قلب.

وكأن هذا الذي كان لمصطفى جواد، من الزَّاد اللُّغَوي، ما حصل عليه في مسيرته العلمية، وهو يقرأ في «مصادر التاريخ والأدب». هذه «المصادر» التي جعلها، أو قل: وسم بها ما اجتمع لديه من دراسات، تعرض لكتب طُبعت، وأخرى من المخطوطات الكثيرة التي أفاد منها في دار الكتب الوطنية في باريس. لقد حدَّثني أنه نسخ بخطِّه جملةً صالحةً من المصادر، كان منها كتاب ابن الفُوَطي المؤرخ البغدادي، وهو «التلخيص» الذي نشرته وزارة الثقافة السورية، في أجزاء عدّة.

قال صاحبي:

لقد بدأ الاستاذ مصطفى جواد تحقيقَ المخطوطات، وهو معلمٌ في العراق، قبل أن يذهب إلى فرنسا، فقد عرفنا أنه نشر «الحوادث الجامعة» لابن الفُوَطي، وكتاب «الجامع المشترك» لابن الساعي، وكلا الكتابين مما طبع في المطبعة السريانية ببغداد.

قلت:

نعم! كان له ذلك، ولكنه بعد أن عاد، كتب بحثاً، نَفَى أن يكون الكتابُ الذي نشره هو «الحوادث الجامعة» لابن الفُوَطي، كما نشر بحثاً، أشار فيه أن «ديوان المتنبي» الذي عرف بشرح العُكْبَري، ليس للعُكْبَري، بل لمؤلف آخر، هو ابن عَدْلَان المَوْصلي. وكان له في هذين البحثين أدلة، أقنعته فيما ذهب إليه.

قال صاحبي:

إذا كانت المقولةُ القديمةُ، في المتنبي، أنه ملأ الدنيا، وشغل الناسَ، فإني لأقولُها في مصطفى جواد الذي ملأ المجلاتِ، في العراق وسورية ولبنان ومصر، بالبحوث النافعة التي اتَّسمَتْ بالتحقيق والضَّبط.

قلتْ:

لقد كان مصطفى جواد رجلاً ذكيّاً وشجاعاً في العلم، شهدت له مباحثُه اللغوية التاريخية في مجلات المجامع اللغوية، ولو أنك قرأتَ كتابه الذي وُسم بـ«المباحث اللغوية في العراق» من منشورات معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة، لكان لك أن تقِفَ على سَعَة معارفهِ في أصول اللُّغة التي أفادها من كُتُب الأدب والتاريخ بعيداً عن المعجمات اللغوية.

إنك تجدُ في هذا الكتاب مسيرةً لغويةً موصولةَ المراحل منذ القديم إلى عصرنا الذي عرف الجدل في المصطلحات العلمية.

قال صاحبي:

وماذا بعدُ في ما اختزنْتَهُ من فوائدَ، أفدتَها من الأستاذ مصطفى جواد؟

قلت:

لقد سعدتُ بأيَّامَ الطَّلَب، في محاضرات الدكتور مصطفى التي أقول فيها «الحديث ذو شجون»، ذلك أنه بينا يبدأُ في شيء قديم، يعتمدُ فيه على الثقات من أهل اللغة والأدب، إذا هو يأخذُك إلى جديد، عرض له الأب أنستاس الكرملي، فلم يصبْ منه بشيءٍ. وأنت تجدُ هذا وغيره في كتاب «المباحث اللغوية في العراق».

لقد جاءنا الأستاذُ مدرِّساً للنحو، في السنة الثانية من دار المعلمين العالية، وكان عليه أن يتبعَ ما هو مرسومٌ في المنهج، وهو القراءة في كتاب «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» في نشرة صفراءَ غير مشروحةٍ عسيرة القراءة والفهم، كانت تلك النشرة المصرية، قبل أن يتصدَّى الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد للكتب النحوية، حين نَشَرَها ثانيةً، وزوَّدها بتعليقات مفيدة.

لقد كانت طريقةُ الأستاذِ مع هذا الكتاب، أنه يطلبُ لأحد الطُّلاَّب أن يقرأَ، وكثيراً ما كان يطلب مني أن أقرأ، وهو يشرحُ، فيضيفُ في شرحه فوائدَ، لا تَتَّصِلُ بالنحو، بل كانت فوائد لغوية تاريخية. إنه كان يُصَحِّحُ أقوالَ مؤلف الكتاب ابن هشام.

كان من هذه التصحيحات ما أشير إليه، على سبيل المثال، أن ابن هشام في هذا الكتاب كسائر النحويين حين يقول: إن هذا الأمر ينقسم إلى

قسمين، يتوقفُ مصطفى جواد يقولُ: ينقسمُ على قسمين. وحين يعرض المؤلف للقسمين يقول: أحدها كذا وكذا، والآخر كذا وكذا. يتوقف الأستاذ ويقول: الصواب هو: أوّلها.. والثاني. وذلك لأن قول المؤلف: «الآخر» يقتضي كلمة «أحد»، أما «الأوّل» فيتبعه الثاني والثالث...

هذا ذرءٌ يسيرٌ من تصحيحاته التي كانت مادَّةَ درس الأستاذ، فأمّا النحوُ عنده، فهو الذي كان من المفروض في الطالب أنه تعلَّمَه وأتمَّهُ في المدرسة الثانوية. ثم إن الآراء النحوية لدى علماء النحو بصريين وكوفيين مما أثقلَ النَّحْوَ. كأن مصطفى جواد على شاكلة العلماء قدماء ومحدثين الذين أنكروا الخلاف والوجوه الكثيرة، فقد أثر عن الجاحظ فيما قال: إن النحاة خسروا الكثير في ذهابهم إلى مسائل، لا تَتَّصِلُ بالمفيد من النحو.

قال صاحبي:

كأن الأستاذ مصطفى لم يبدأ الدرس حين بدأه، على نحو ما بدأه الشيوخ الذين استوفوا علوم العربية، من نحو وصرف مبتدئين بالأجرومية فالألفية، في شروحها والتعليق عليها، فكتاب «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» لابن هشام. إنه كسائر الذين عرفوا النحو، في المدرسة النظامية، في كتب مدرسية، ومن شأن هذا الدرس أن يكون صاحبُه بعيداً عن أسلوب النحاة وشواهدِهم.

قلت:

لقد حدّثني أستاذي مصطفى جواد وقد عرض لمشكلات النحو والكتب القديمة، فذكر أنه لم يرَ هذه الكتب التي هي بين أيدينا في دار المعلمين العالية مثل «أوضح المسالك» و«شرح ابن عَقِيل على الألفية» أيضاً، وأضاف أنه ليس له من هذه شيء، فقد عرف أغلب المادة النحوية في

المدرسة الابتدائية القديمة، ولما تحوَّل منها إلى دار المعلمين الابتدائية القديمة التي كان طلاّبها الذين أكملوا التعليم الابتدائي، رأى الكُتَيِّب الصغير المصري الذي صنَّفه حفني ناصف وآخرون، والذي شمل على صغره النحو والصرف والبيان والبديع والمعاني، وأضاف: هذا كل ما عرفته من النحو القديم. وهو من أجل هذا، قد ضاق ذرعاً بأسلوب ابن هشام في «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك»، وكأنه رآه «أعقد المسالك».

قال صاحبي:

غير أني رأيتُ لمصطفى جواد مباحثَ في تيسير النحو، وأخرى في الصَّرْف، كان فيها صاحب رأي، اتَّسَمَ بالفهم الجَيِّد لهذه المواد.

قلت:

كان مصطفى جواد من المجتهدين الأفذاذ، فقد عرف النحو، وعرف أسراره، ثم علم أن للقدماء فيه مناهجَ، ولا أقولُ: مدارس، فأفاد من بعض آراءِ الكوفيين. وكأنه عَرَفَ النحوَ من درسه في المصادر والكتب، فأدرك المادة النحوية في استعمال الفصحاء.

إنه قرأ مثلاً «نهج البلاغة» فأفاد مما فيه من استعمالات، فيها نحْوٌ رفيع ولغة رفيعة، إلى جانب ما عرفه من شرح ابن أبي الحديد، في فوائده الأدبية والتاريخية.

لقد كان مصطفى جواد صاحبَ كتاب، عرف الكتابَ القديمَ، وتهيَّأ له من هذه المعرفة أن استطاعَ أن ينقدَ الكتابَ، فيظهر من محاسنه وعواره، مما جعله من أبرز من تصدّى للنقد اللغويّ.

قال صاحبي:

لقد قرأتُ للأستاذ مصطفى جواد مباحثَ طويلةً، يكادُ أن يكونَ كثيرٌ منها كتباً فمن ذلك تعليقه الواسع على كتاب، ألفه الشيخ محمد رضا الشَّبيبي، حين كان رئيساً للمجمع العلمي العراقي، وكانت مادة الكتاب في «ابن الفُوَطي». وكأن الأستاذ مصطفى جواد، كان أعلمَ الناس بهذا المؤرخ، فلم يكن منه إلاّ أن توجَّهَ لكتاب الشيخ الشَّبيبي ناقداً ومصححاً وموجّهاً ومضيفاً فوائد، لم يفطن لها الشبيبي في كتابه.

كان هذا النقد درساً طويلاً، استوعب أكثر من ثلاث مئة صفحة من صفحات مجلة المجمع العلمي العراقي.

قلت:

نعم، وله مثل هذا في تعليقه على كتب أخرى، وإنّي لأذكر منها تصحيحه لكتاب «فوات الوفيات» لابن شاكر الكتبي الذي أخرجه محقّقاً الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، في نشرة ثانية، سبقتها نشرة غير محققة، فيها غلط كثير.

لقد قرأ الأستاذ مصطفى جواد، فعلّق تعليقات مفيدة، فيها تصحيح لكثير من كَلِم، صحّفه الشيخ محيي الدين، ولم يفطن إلى الصواب. وأكبر الظن أنه لم يستعنْ في نشرته هذه بمخطوطة للكتاب، بل عمد إلى المطبوعة في بولاق، وأعاد نسخها على وَرَق أبيضَ، وزوّدها بتعليقات، لا أقولُ: غير مفيدة، ولكنها تعليقات، يعرفها الشُّداة من الدارسين، في حين انصرف عن مسائلَ مُهِمَّةٍ، وقع له فيها الخطأُ والتصحيفُ، وعافها، لأنه لا يعرفها، ولم يهتدِ إلى تقويم المعوجّ فيها.

وقد يكون له عذرُه في تقصيره، ذلك أنه لم يعرف هذا العلم التاريخي

الذي يقتضيه علماً في الرجال ومعرفة في الرِّواية، ذلك أنه وجد بضاعته في النحو القديم، في مصنفات النحاة. لقد عرف الشواهد، وعرف أصحاب الشواهد من الشعراء، فراح يترجم لهم، إن وجد بين يديه ترجمة لهم، في بعض مصادر الأدب؛ وهو يذكر الآية والسورة، وهذا أمر يسير، وقد يتعب نفسه، فيشيرُ إلى الحديث، وينتهي الأمر[1].

لقد وصل الأستاذ مصطفى جواد في تعليقاته الوافية حتى كادت أن تكون كتاباً مبسوطاً.

قال صاحبي:

وكان مثلُ هذا ما صنعه في «الإمتاع والمؤانسة» الذي عَلَّق على أجزائه الثلاثة تعليقات مفيدة، دفعت الأستاذ أحمد أمين والأستاذ عبد السلام هارون أن ينشرا هذه التعليقات، في آخر الجزء الثالث من الكتاب. وأشهد أنَّ فيها شيئاً، قلَّ أن يكونَ لدى غير مصطفى جواد من أهل التحقيق.

قلت:

لقد كان له مثلُ هذه الفوائد التي جعلها مقالات طويلة ما جملته جملة كتب. وقد علمت أن شيئاً من هذا، قد أخرجته وزارة الثقافة في بغداد، في مجلدين.

لقد كان له تعليقاتٌ مفيدةٌ على كل صفحة من «تاج العروس»، وكأنه

(١) أقول: لقد أعاد الأستاذ إحسان عباس إخراج «فوات الوفيات» وراجعته وكنت أظنه لم يعرف أن مصطفى جواد كان قد عرض لنشرة محمد محيي الدين عبد الحميد فبيّن عوارها، ولكني عرفت أنه عرف تعليقات مصطفى جواد، فكان حريّاً به أن يشير إلى أنها من صنع مصطفى جواد، ولكنه لم يفعل.

بدأ في نشرة لهذا المعجم، تشتملُ على ما وقف عليه من الطبعة القديمة، وخرج من نشرته بضع كراريس في أواخر عمره.

وقد أفدتُ منه، فيما أفدتُ، أشياءَ كثيرةً، تتَّصِلُ بالكتب التي نُشِرَتْ أو تلك التي أُعيد نَشْرُها، كما تتصل بجمهرة من مخطوطات، عرفها، ونظر فيها، ومنها ما كان قد نسخها بخطه، وهي أوراق في عدّة مئين.

قال صاحبي:

لقد شقيتْ جمهرةُ العلماء وطلابُ المعرفة في سنين خَلَتْ، فكانوا ينسخون المخطوطات، وليس لديهم إلاّ «الميكرو فلم» الذي لا يقوى على البقاء، ولو أردت أن تُحيله إلى أوراق، كلَّفك ما لا تُطِيقُ.

قلت:

لقد أدركت الحقبة التي كنت مع غيري نُعاني من هذا الأمر، وليس لنا إلاَّ الكدُّ محتملين حرفة الفقر التي عانى منها الأوائلُ وهي النساخة التي كان في أدب أبي حيَّانَ التوحيدي صفحات محزنةٌ عنها.

وأعود إلى أستاذي مصطفى جواد، فأذكر شيئاً من خلقه الرضي وتواضعه الجمّ، ومنه أني كنت قد كلفت مع اثنين من الأساتيذ هما الأستاذ كمال إبراهيم والأستاذ جميل سعيد[1] أن نضع كتاباً في البلاغة والنقد، للدراسة الثانوية، وكان معنا أستاذُنا جميعاً الدكتور مصطفى جواد، فكيف كان من شأن هذا «الكتاب». قال الدكتور مصطفى جواد: أترك لكم وضعَ

(١) أنا أعرض لهذه المسألة بعد أن تخرجت من الدار، ثم ذهبت إلى فرنسا، وعدت منها أستاذاً في كلية الآداب، وكان من شرف لي أن أصحب هؤلاء الميامين الذين سعدت بتلمذتي لهم.

الكتاب، فإذا تم واستوى، آخذُه، فأقرأه، وأبدي ما لدي من مسائل. واتفقنا على هذا، وتمَّ الكتابُ بعد عدَّة أشهر، فجئنا به إليه، وهو على ما اعتاد عليه في مراجعة الكتب وقراءتها، تستوقفه الكلمةُ أو العبارةُ التي يظنُّها قد عُدِل فيها عما هو في العربية، فيخطُّ تحتها خطّاً. وانتهى من الكتاب، وأعطانيه، فوجدتُ أنه قد خطّ خطّاً تحت الفعل «يتدبَّر» الذي ورد في المقدّمة للكتاب في قولنا: «فليتدبّر الطالب هذه الموضوعات...».

فقلت له، وأنا أعرف سعة علمه بالألفاظ والاستعمالات، أستاذي الكريم! هل يعني وضع الخطّ تحت الفعل «يتدبَّر» أنه خطأ، فقال: نعم! لأن «التدبُّر» هو النظر في الأدبار، فلم يكن منّي إلّا أن تلوت قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢٤﴾ [محمد]، فبُهِتَ، ورجع عما عرض له، وقال: استرها[1].

قال صاحبي:

أليس لي أن أُرَدِّد قولَك في النفر الذي تصدَّى للتَّصحيح، فكتب مصحّحاً أوّل الأمر لغة الجرائد، ثم تجاوز، فراح يعرضُ تصحيحَه في دور الإذاعة، ثم بدا لآخرين، اطمأنُّوا إلى ما عندَهم، فنقلوا ما نقلوا مما ذكره ابن قُتَيبة وبعده ابن السِّكِّيت، وبعد هؤلاء ابن درستويه إلى أن جاء الحريري، فوسّع الخطأ، وغلا فيه حتى ردَّ عليه غيرُ واحد ممن خَلَفُوه. ولم يقف الأمرُ عند هذا الحَدِّ، في العصور المتأخرة التي ضاعت فيها العربية، فانبرى الآلوسي في «الطُّرَّة» مشاركاً في التصحيح، ثم اليازجي في «لغة الجرائد» ثم أسعد خليل داغر في «تذكِرته»، ولا أُغْفِلَ صيْحات الأب الكرملي وصيحات أخرى في مصر. وأخيراً طلع علينا نفرٌ آخر، جمع من

---

(١) أقول: لقد سترتها، ثم بدا لي أن أذكرها هنا، وأنا أبسط ما كان من أمرها لأقول: لكل صارمٍ نبوة ولكل جوادٍ كبوة.

هذا وذاك، فكانت «معجمات للخطأ والصواب».

لقد ظنّ هذا النفر الأخير أن الأمر سهل، ولا يحتاجُ إلاّ الجمع، ونسوا أن هذا الأمر له أهلُه، وعلى رأسهم الأستاذ مصطفى الذي حفظ كثيراً مما قرأه في المطبوع والمخطوط، فكان له أن تصدَّى إلى عمل من هذا. ولكن الأستاذ مصطفى، على سَعَة علمه ووقوفه على الكلمة واستعمالها، عرض له هذا الوهمُ، والكلمة فاتته، وهي في لغة التنزيل، فكيف يُطْمَأَنُّ إلى الآخرين؟

وقد ذهب مصطفى جواد بما قدّم وأحسن، جزاه اللهُ وأحسن مثوبَتَهُ. وقد عرض أحد طلابه لما ترك من أقواله وتصحيحاته، فنشر كتيباً، صحَّح ما جاء في كتبه «قل ولا تقل» للدكتور مصطفى جواد.

قلت:

انتهت مرحلتي في دار المعلمين العالية بخيرها وشرِّها، فكان من أمري أن أكونَ مُدَرِّساً، تمَّ اختياري لمدرسة نموذجية يُعيَّن فيها من المدرسين من كان من أهل السَّبْق والتقدُّم، تلكم هي كلية الملك فيصل.

في «كلية الملك فيصل»

كانت هذه المدرسة الثانوية قد وسمت بـ«كلية»، وكنا نعرفُ يومئذ أن «الكلية» مصطلحٌ خاصٌ بدراسة عالية، يَصِلُ إليها الطالبُ الذي أكمل الدراسة الثانويةَ، فجاء إلى «الكلية» وهي تنصرفُ إلى كلية الحقوق، وكلية الطبِّ وكلية الصيدلة وغيرها. غير أن اسم الكلية قد أطلق على هذه المدرسة، قد جاء من أن «الكلية» هي College قد تدلُّ لدى الغربيين على الثانوية الخاصة بشيء أو بصفة ما، وكان من هذا إطلاقها على هذه الثانوية التي عُيِّنتُ فيها مدرساً للغة العربية. لم تكن هذه المدرسة كالمدارس الثانوية الأخرى، ذلك أنها «نموذجيةٌ» وحكاية الوصف بهذه الصفة يعتمدُ على شيء خاصٍّ، هو أن الموادَّ التعليمية يدرسُها الطُّلاَّبُ باللغة الإنكليزية، والكتب الدراسية فيها باللُّغَة الإنكليزية، وليس فيها بالعربية إلا مادَّتان، هما اللغة العربية والتاريخ الإسلامي؛ وإنها بسبب ذلك ثانويةٌ خاصَّةٌ ذاتُ اتّجاهٍ علميٍّ، وليس أدبياً. لقد اهتمت وزارةُ المعارف يومئذ أن تكون ثانويةً خاصّةً، يأتيها الطلابُ، ليدرسوا العلوم بالإنكليزية خلال سنتين. وكان عددٌ من المدرسين، في هذه المدرسة، من الإنكليز، ومديرها إنكليزي. إن طلاب هذه الثانوية صنفان: الأوّل: طلبةٌ أغنياءُ، في طوقهم دفع أجور عالية للانتساب إلى المدرسة، والثاني: طلبة، يُعْفَوْن من دفع الأجور، فقراء ولكنهم أحرزوا الدرجات العالية في الامتحان الوزاري (البكلوريا).

قال صاحبي:

وأي شيء وُسِم بخصوصية في هذه «الكلية»؟

قلت:

إن الطالب فيها يقضى ستة أيام، لا يبرحُ الكلية إلا مساء يوم الخميس، لقضاء يوم الجمعة بين أهله وذويه. أما الذين جاؤوا إليها من الحواضر في خارج بغداد، فيخرجون يوم الخميس بعد الظهر، ثم يعودون مساءً إلى الكلية كلٌّ إلى مضجعِه.

ثم إن الكلية تقدِّمُ الطَّعَام للطلاب والمُدَرِّسين، ففيها مطعمٌ مرتَّبٌ حسنُ التنظيم يشرف على الطعام فيه طلاب، يُكَلَّفُون بهذا العمل، يتناوبون في هذه المهمَّة.

وللطلاب زِيٌّ خاصٌّ، يتساوى فيه ذوو اليَسَار والفقراء إبعاداً لما يكون من آثار سيّئة، فيما لو نزل الطلاب يرتدون ما وَسِعَهُمُ اقتناؤُه من لباسٍ.

قال صاحبي:

وهل يؤمَن ألّا يكون بينهم من تمايز بين غنيّهم وفقيرهم؟

قلت:

أصبتَ كل الإصابة في قولك الذي ذهبت فيه إلى أن الانقسام لا بدَّ منه، ذلك أن ذوي اليسار من الطلاب، لا بُدَّ أن يكونَ لهم، فيما خلا لباسهم الذي تساوَوْا فيه مع أصحابهم الفقراء، علامات وخصائص، تميّزهم، ذلك ما أذكره أنا الذي كنت أسكنُ في الكلية مع المدير وهو «مستر وود» الإنكليزي. لقد كان علينا أن نفتشَ الطلاب في مضاجعهم مرتين في الأسبوع، فكنا نذهبُ نحن الاثنين إلى ردهاتهم، ونطلبُ من

الطالب أن يفتحَ خزانَتَه، لنرى فيها ما يلزمُه من مناشف وصابون وفرشة أسنان مع معجون للأسنان، وأحذية نظيفة وملابس نظيفة، وما يقرب من هذا، فماذا كنا نصادفه في خزائن الطلبة الأغنياء، وماذا في خزائن رفاقهم الفقراء؟

كنا هنا نجدُ الفرق بين الطالب، نعني الذي اكتملتْ لديه حاجاتُه الضرورية وغيرها، والطالب الفقير الذي خلت خزانته إلا من شيء يسيرٍ، من هذه الحاجات، من غير الأصناف الجيدة.

ثم إننا كنا نلمحُ الفرق بين هذا وذاك، في سلوكهم في المطعم، فهؤلاء الأغنياء قد ألفوا، حين يأكلون، الملعقة والشوكة والسكين، في حين كانت هذه مما فوجىء بها الطلبة الفقراء.

وثمَّة شيءٌ آخرُ، كان من شأنه أن يفصلَ هؤلاء عن هؤلاء، وهو أن الطلبة الأغنياء يأتيهم ذووهم غداة الخميس، في سياراتهم الخاصَّة، يصحبونهم إلى البيت أو إلى مكان آخر، في حين يبقى الآخرون الفقراء في الكلية، إما في النادي، وإما إنهم يخرجون في مدينة الأعظمية، لقضاء بعض الوقت.

قال صاحبي:

ولا أحسبُ أن هذه الفروق لا تصِلُ إلى نفوس أولئك الأحداث، فتثيرُ فيهم شيئاً من إحساس بالكراهية لإخوتهم من ذوي اليسار. وربما تحوَّلَ هذا الإحساسُ إلى حماسة عارمة من بغض، يدفعُهُم إلى نقد الحال التي تميَّز فيها الناسُ. وقد يغلو هذا فيهم، فيؤدِّي إلى أن يحملَ الطالب الفقير رأياً، يحبِّبُ إليه الثورة التي ينبغي أن تكونَ، لدفع الظلم وإحلال العدالة.

قلت:

كأنك أدركت النتيجة التي آلت إليها الكليةُ، بعد سنتين، قضيتهما فيها. لقد وجد أصحابُ الرأي الشيوعي أن هذه البيئة التي جمعت النقيضين هي ضالَّتُهم المنشودةُ، تالّف الفقراء من الطلّاب ونَفَرٌ آخر من الأغنياء. وكان من هذا أن الذي سعى إليه الشيوعيون قد نما وزاد، وتهيّأ الطلابُ في آخر السنة الثانية إلى تظاهرة عارمةٍ، عبث فيها المتظاهرون بالكليَّة، فقرّرت وزارة المعارف إغلاقها.

وهكذا انتهت السنةُ، ولم يجرِ للطلاب امتحانٌ.

قال صاحبي:

وكيف كان أمر المدرسين وأنت منهم؟

قلت:

لقد صدر الأمرُ بنقلي إلى دار المعلمين الريفية، في قضاء المحاويل، فذهبت إلى المحاويل، ولم يكن طلاب المحاويل أوفى نصيباً، في الدرس، من الطلاب في كلية الملك فيصل.

لقد رضيت بما كانَ وما قُدِّر لي أن يكون، فيمّمت وجهي شطر هذه «المحاويل» التي حُوِّلت إليها، حتى إذا أمضيت في سلوك الدرب الموحش ساعتين، لاحت لنا بَنِيّات كتلك التي يأوي إليها الجنود، فسألت صاحب السيارة، ولا أقول سائقها، عن تلك التي شخصت من مبانٍ، فقال: هي دار المعلمين الريفية.

قال صاحبي:

لقد علمت أن معسكراً للجيش العراقي قد استُغني عنه، لأسباب اقتضتها ظروفُ الحرب، فوهبته وزارة الدفاع إلى وزارة المعارف، فجعلتْهُ هذه دار

المعلمين الريفية.

قلت:

لقد دفع وجودُ هذه المباني التي انقطعت عن الحياة، وابتعدت عن بقيّة المحاويل ببضعة أميال، طلابَ دار المعلمين الريفية إلى الخروج على مشيئة وزارة المعارف، وأوحَى إليهم أولئك الذين عارضوا الحكومة، من أهل السياسة، وغيرهم من ذوي الرأي الثائر، أن ينتفضوا، ليُغيِّروا من حالهم، فكان لهم ما كان، من خروجهم إلى الطريق العامِّ الذي استقبلوني أنا وصحبي الذين رُمي بهم في هذا «المعتقل» الشاخص في القَفْر.

لقد وصلت إلى هذه الدار الثائر أهلُها، وبقيتُ أسبوعاً، وليس لي عملٌ، لأنّ الطُّلَّاب عزفوا عن حضور الدروس. وقد علمتُ فيما علمت أنهم انتفضوا لسببٍ آخر، يَتَّصِلُ بعَيْشهم، ذلك أن مدير الدار ومدير القسم الداخلي والمتعهِد بتقديم الطعام للطلاب، قد اتفقوا على ظلمهم، ليأخذَ كلٌّ من هؤلاء نَصيبَه من فائدة في الكَسْب الحرام، فأشاعوا أنَّ الطلاب أهلُ زَيْغ وكفر بالنعمة، ضَلُّوا الطريق، واتَّبَعوا أهلَ الباطل، من شيوعيين وغيرهم. ونجح هؤلاء العُتَاةُ في سَعْيِهم فزحفت على الطُّلَّاب الشرطةُ بعِصِيِّها وسلاحها، فضربوا وعبثوا، وأخذوا نفراً، احتجزوهم، فانتهى الخطبُ، وانتهى العامُ الدِّراسيُّ، ولم أكن قد شاركت في شيء من درس. لقد عدتُ إلى بغداد مع صحبي الآخرين الذين أبعدوا في قِطْع من الليل إلى تلك المحاويل التي حوِّلت إلى سجن، بعد أن حدثَ ما حَدَثَ.

قال صاحبي:

فكيف كان منك أن عفتَ التدريسَ، فالتحقت بالبعثة العلمية؟

قلت:
على رِسْلِك، وسأجيبك عمّا دُبِّر من ظلمٍ لي بليلٍ. . .

في الطريق إلى البعثة العلمية

قلتُ:

سألتني - حفظك الله - عن هذا، وإني لأعودُ إلى قصة البعثة، وهي الرجوعُ إلى حكاية من حكايات الظلم الذي كان يلحقُ بالنَّاس، في ذلك العهد، والظلمُ قديمٌ، وهو يتجدَّدُ بفعلنا نحن الذين جُبِلْنا على شرٍّ، سَدَّ علينا أبوابَ الرَّجَاء.

لقد أحرزتُ في تخرُّجي في دار المعلمين العالية الدرجة المتقدّمة التي يُفترض في صاحبها أن يضمَّ إلى البعثة العلمية، بعد أن عادت البعثة بانتهاء الحرب العالمية الثانية. وكنت قد تقدَّمت بطلبي لنيل ما كان من حقِّي الذي حيز عني، فالتحق بالبعثة غيري، من طلاب، لم يكن لهم ما كان لي، ولبثتُ أنتظرُ سنين عدداً.

إني لأطمعُ أن أجدك صاحبي الكريم ذا صبرٍ، اتَّصَفَ به الأخيارُ الذين يرجونَ لقاءَ الله بعملهم، ولنعم أجرُ الصابرين. وأنا محدِّثك الليلةَ عن قصة، هي بعضُ ما لقيت في دنياي من خطوب.

لقد عرفت من أمر تخرّجي ونيلي السَّبق، في دار المعلمين العالية، وإنّي رُتِّبتُ مدرساً للعربية في كلية الملك فيصل، بطلب من مدير المدرسة الإنكليزي الذي لا يُرَدُّ له طلبٌ. لقد أراد هذا أن يكونَ في الكلية المتخرِّج الأوَّلَ، فاستجيبَ طلبُه، فكنت في الكلية، وهكذا كنّا، وسنبقى، إن لم تتبدَّل حالُنا ونصلح أمرنا، فهل إلى هذا من سبيل؟

قال صاحبي:

وهل سبقك من هُمْ دونَكَ، فذهبوا في البعثات الحكومية؟

قلت:

نعم، لقد ذهبَ فلانٌ وفلانٌ وغيرُهما، ولكني بقيتُ. ولن أخفي عليك ما نالني من ظلم، لم أهتدِ إلى سببه. وقد كان لي يوماً، وأنا أقطعُ شارع الرشيد آخذاً دربي على الرصيف، من الباب المعظم، إذا أنا ألقى قرب المسجد الجامع المشهور بـ«جامع الحيدر خانة» الأستاذ الدكتور متى عقراوي، فبادرته بالتَّحِيَّة التي هو جديرٌ بها والتي هي منِّي أنا التلميذُ الذي نعمتُ بعلمه وأدبه، فلم يكن منه إلاّ سؤال من فوره: ولِمَ لم تذهبْ إلى الخارج مع من ذهب من زملائك فلان وفلان...؟

قلتُ له: لم يظهر اسمي بين الأسماء التي عرفت في نتائج البعثات التي نُشِرَتْ في الصحف. فقال لي، وهو قد تحوَّل من عِمَادَة دار المعلمين العالية إلى وظيفة جديدة في وزارة المعارف، هي مدير التعليم العالي، ليعملَ على إقامة جامعة بغدادَ: سأدرسُ ما بَقِيَ من طَلَبَات البعثة، وأرى، ثم قال: أين تعملُ الأن؟ فقلت: في كليَّة الملك فيصل.

ثم كان الغدُ بعد أن لقيتُه، وإذا العميد يناديني ويقول: الدكتور عقراوي يكلِّمُك في الهاتف، فجئت إلى العميد، لأردَّ على الأستاذ عقراوي، وإذا هو يقول: إذا انتهيتَ من عملك، فتعالَ إلى الوزارة، وقابلني.

لقد ذهبتُ لأقابِلَهُ بعد أن انتهى عملي، طلبتُ الإذن من السكرتير، فقال: لقد نبّهني، وأراد أن تدخلَ عليه عند وصولك، فلما دخلتُ، قال لي: لم أجدْ لك «مِلَفّاً» بين «الملفّات» فلم يكن منّي إلاّ إبرازُ ما كنت أحتفظ من «ورقة» تثبتُ أني قدَّمت طلباً، يشتملُ على كذا وكذا.

قال: لا عليك، فاستدعى ملاحظ البعثات يومئذٍ، فجاء، فسلّمه الورقة، وفيها اسمي والرقم والتاريخ اللذين كانا فيها. فانصرف، ولم يَعُدْ إلا بعد ما يقرب من نصف ساعة، وعاد بِمَلَفٍّ، كأنما هو مما أُهْمِلَ ونُسي أمره، وحُفظ تحتَ بساطِ المكتب «كومبار» وهو نسيجٌ غليظٌ قديمٌ، يفرش في الحجرات، لا تنفذُ فيه الرطوبة.

لقد علم الأستاذ عقراوي، إنما أريد أن يُضَيَّع المِلَفّ ويتلف، فقد أثرت فيه رطوبةُ الأرض، فأسالت الحبر الذي فيه...

لقد نظر الأستاذ عقراوي في الملف، فوجده كاملاً، فما كان منه إلاّ أن أضاف ورقة، ووصلها به، وجّهها إلى السيد مدير البعثات يومئذٍ. وكأن هذا قد أدرك من أمر المِلَفّ الذي عَبِثَ به صاحبه ملاحظ البعثات، ولكنه كان مضطرّاً أن يعملَ شيئاً، استجابَ فيه للمدير العام الأستاذ عقراوي.

قال صاحبي:

وكيف انتهت هذه المسألةُ المضحكةُ المبكيةُ، وما فعل فيها مديرُ البعثات؟

قلت:

أراد أن يجرِيَ اللازمَ بشيء لا يفيدُني، ليحقِّق غَرَضاً في نفسه، وذلك أنه كتب في أسفل ورقة الأستاذ عقراوي:

«يضمّ المومأ إليه [كذا] إلى البعثة العراقية إلى مصر».

كأنك لا تعلمُ، صاحبي! قصدَ هذا المدير الخطير، إنه واثقٌ أني سأرفضُ الذهاب إلى مصر، وبذلك يكون قد حقّق مآربَه في حرماني من حقي.

لقد كانت الجامعاتُ المصريّةُ، في ذلك الوقت، قد اتَّخَذَتْ قراراً خاصاً بالعراقيين الذين ذهبوا إليها، وذلك أنهم يقبلون في السنة الرابعة من الدراسة، لنيل الليسانس، فيقضون سنة، ويؤدّون الامتحان مع الطلبة المصريين، ثم يكونون مؤهّلين للدراسات العليا، وبذلك يخسرون سنة، وقد لجأ المصريون إلى هذا الظلم ليقولوا: إن مستوى الكليات في العراق دون الذي عندهم.

ولكن هذا الذي ذهب إليه اجتهادُ المصريين، لم يكن لدى الإنكليز والفرنسيين والأمريكيين، فكانت جامعاتُ هؤلاء تقبلُ الطلاب العراقيين حملة الشهادة الجامعية الأولى للدراسات العليا، ولا تضعُ مثل هذه العراقيل.

ولذلك كان عليّ أن أعود إلى الأستاذ عقراوي، لأُطْلِعَهُ على الذي كتبه مدير البعثات.

وأذكر أنه كلَّمه عن طريق الهاتف قائلاً: إني أعرفُ هذا الطالب، وهو من طلاّبي، وكان نتيجته الأوّل في الدفعة، وعليه فسأرسم في «مِلَفّه»: يُضمُّ إلى البعثة العلمية إلى فرنسا، يُرجى تسليمه أوراق العقد، لينجزها، ويلتحق بأصحابه في باريس.

لقد انتهى هذا الفصل الذي أحسنت صفته بالمضحك المبكي.

قال صاحبي:

لا أدري كيف أقول في الذي جرى لك، ولا أعلم ما الذي دعا إلى أن يكونَ من هذا أو ذاك هذا الذي كان منهما في أمرك، أفكان هؤلاء ممن شقوا بداءٍ، لقي منه العراقيون الأمَرَّينِ؟ وقد حدَّثتَني كما حدَّثني غيرُك، أن ليس زيدٌ كعمرو لدى كثير من العراقيين.

قلت:

لقد كان هذا الذي ألمعتَ إليه، وقد تقولُ إن هذا قد يكون لدى العامَّة، وهو أنّهم يختلفون في الانتماء لمذهب أو نحلة أو عقيدة، أو الانتماء الآخر للقوم والعشيرة، أو التعلّق بحاضرة من الحواضر. وقد يصل بهم اختلافهم إلى أن يذهبوا فيه إلى خصومة واقتتال، ولكنّ الخطب الأليم أن يكونَ هذا بين المثقفين الذين حملوا الدرجات العلمية، ودرسوا في الغرب فعادوا بسوآتهم من التعصب سنيين وشيعيين ونصارى وغير ذلك.

قال صاحبي:

وماذا بعد أن حسم الأمرُ، وأعيد لك حقٌّ، ولولا هذا الرجل العقراوي المهذّب السَّمْح ما كان لك أن تنالَ الذي كان لك فيه حقٌّ، وقد حِيزَ إلى غيرك.

قلت:

كأني ما أعالجُ من أمري مشكلاً حتى يبرزَ شيء آخر أكثر إشكالاً، وما أحبُّ أن أشرك غيري في أمر يحزنُه، فكلنا مبتلىً في عصرٍ، يوشِكُ فيه معينُ الخير أن ينضبَ.

قال صاحبي:

دع عنك هذا، والتمس ما جاء في الأثرِ «المرء قويٌّ بأخيه». وإني لأسعى أن أعينَ أخي على شيء، قد يكون في طوقي أن أنالَ ثوابَ السَّاعين للخير ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة].

قلتُ:

أحمد اللهَ إليك، فقد رزقني أخاً، أفزع إليه من نكد الأيام، بل آوي منه إلى رُكن آمن، ولقد كان لي أن دبَّرت من حالي، وعزمت على أن أبدأ

الرحلة الطويلة، وبينما أنا في دأبي هذا، بلغني أن شقيقةً لي قد ابتليت بالتدرُّن الرئوي الذي كنّا ندعوه «السُلّ». وكان هذا من الأدواء التي يصعبُ علاجها، ولم يكن للطبِّ في النصف الأوّل من هذا القرن حيلةٌ فيه، وكان العلاجُ الوحيدُ أن يعملَ الطبيبُ على إيقاف الداءِ خشيةَ أن يستفحِلَ، فيستحيل العلاجُ باستعمال عقاقيرَ، لم يكن غيرُها، كالذي عُرف منها في النصف الثاني من هذا القرن.

قال صاحبي:

هل لي أن أقول: إنّ المؤمنَ مبتلىً، لقد ابتليت أخي الكبير بمحنة التغرب، وها أنت اليوم تبدأ دنيا الاغتراب وأنت موجعٌ مكلومُ القلبِ بالذي أخبرتَني، وهل لي أيضاً أن أقول: طوبَى للغرباء؟

قلت:

حسبُك من شرٍّ سماعُه، فقد احتملتُ قبل هذا، وأنا صغيرٌ، خطبَ اليُتم بموت والدتي المريضة التي أطاح بها السُّلُّ الذي ابتليتْ به لما شقيتْ وقاستْ وامتحنت، قبل موت أبي، ولعل الداء الخبيث هو الذي سرى إلى شقيقتي الصغيرة. ولم يكن لنا منّا مع الأم المنكوبة ما كان لي مع شقيقتي حين ابتليت بالداء، ذلك أني عزمت على أن أرافقها إلى لبنان، مع خالة لي، نزلت منّا جميعاً منزلة الأمِّ، بل كانت أحنَى علينا من أيٍّ من خلق الله. وجعلت سفري هذا قبيلَ أن أذهبَ إلى باريسَ من بيروتَ، لبدء رحلة العذاب.

قال صاحبي:

لك أن تسمَ رحلتك تلك بالعذاب، ذلك أن لمن يغتربُ في سبيل العلم ثواب المؤمن المجاهد في سبيل الله. إن لطالب العلم أجراً، يحتسبُه عند الله.

قلت:

لقد أزف الرحيلُ، وكانت رفقتي شيخة متعبة، حملت عذابَ سنين عجاف وشقيقة عليلة، كأنها أبت إلاّ أن تشارك أمَّها ما هي فيه، يغلبها الداءُ، فتحسب أن رسول الموت قادم. كان لنا أن نذهب في حافلة من حافلات شركة نيرن، كان ذلك في الساعة الرابعة من بعد ظهر يومٍ كئيبٍ شديد حَمارّة القيْظ.

ومضت بنا الحافلة، في ليلة كاملة، ولم نصل بيروت إلا قبيل الظهر.

قال صاحبي:

وهل بقيت في بيروت يوماً، ليكون بعده الذهابُ إلى إحدى المصحّات التي عرفت بمعالجة مرضى التدرُّن؟

قلت:

لا، لأن الشيخة المتعبة آثرتْ أن تحتملَ التَّعَبَ، فتواصل الرحلةَ إلى مصحة «هملين» إلى جوار بليدة صغيرة في جبل لبنان، دُعيت حَمّانا.

قال صاحبي:

إن في حمّانا هذه مسقط ماء عذب، دُعي «شاغور حَمّانا» تغنّى به شعراء لبنان، ولم تبعد حمّانا كما قرأت عن بيروت إلاّ عدّة أميال، تقطعها السيارة بما يقرب من نصف ساعة.

قلت:

نعم، صدقتَ، لقد ذهبنا وما هي إلاّ نصف ساعة حتى وصلنا حمَّانا، ولم يكن في هذه البليدة فنادقُ، في تلك الحقبة، أي في سنة ١٩٤٨م، فكان على أهل البلدة استقبالُ القاصدين، وإسكانهم في بيوتهم لقاء أجرٍ يسير.

لقد نزلنا في دارٍ، لرجلٍ شيخ، يقال له أبو ملحم، درزيّ العقيدة مع زوجه، وكان له ولد هو ملحم، في الأرجنتين، ذهب مهاجراً مع الذين هاجروا من لبنان إلى الأمريكتين، فاستقر في «بيونس آيرس». وكان ملحم هذا يبعث إلى أبويه اللذين تركهما في حمانا مع أخ صغير له ما يسدّون به حاجاتهم في العيش، فإذا جاءهم من ينزلُ معهم، فيدفعُ أجراً، كان لهم الكثيرُ مما يتطلّبونه.

لقد بتنا ليلة في دار أبي ملحم، ثم ذهبنا في صبيحة اليوم الثاني إلى مصحَّة هملين، ودفعنا الأجر، فكان لشقيقتي حجرةٌ صغيرةٌ، فيها سريرٌ وشيء من لوازمَ أخرى. لقد كانت المصحَّةُ غيرَ بعيدة عن دار أبي ملحم، وكان على الشيخة خالتي أن تبقى مع الشقيقة يومين، أما أنا فقد عدت إلى دار أبي ملحم، أشاركهم في المسكن والمأكل، وقد قضت خالتي يومين مع شقيقتي، ثم عادت إلى دار أبي ملحم، لتذهب مرتين كل يوم، لترى شقيقتي في المصحَّة، وتقضي معها بعض الوقت، فتطمئن على حالها وهي في العلاج. ولم يسمح لي بأيّة زيارة. وهكذا ودعّتها الوداع الأخير.

قال صاحبي:

وكيف كنت في دار أبي ملحم، وما الذي استعنت به لإزجاء الوقت؟

قلت:

كان من هذا أن أصحبَ ولدهم صباح كل يوم إلى مزرعة صغيرة جداً، تفي بحاجتهم من «الخضار» وأعود معه بعد ساعة أو ساعتين. وكنت آخذ معي صحيفة، أزجي بقراءتها الوقتَ الثقيلَ، فإذا عدتُ، وجدتُ الشيخةَ قد رجعت من المصحَّة، فأخبرتني عن حال شقيقتي وما أفاد به الطبيبُ. ويحينُ موعدُ تناول الغداء، فنذهب، لنشاركَ الأسرة في طعامهم.

قال صاحبي:

إني لأقدِّر أنكما وطَّنتما النفسَ على سلوك طريقة، استقامتْ لكما، واحتملتما بسبب ما كان من خطبكما عناءً، لا يعرفُه إلاَّ ذوو المروءة.

قلت:

ومن ذاك ما كنت أفكِّرُ فيه، مما كان لا يفارقني من خَطْب، هو أني سأبقى في دار أبي ملحم أسبوعاً، لأغادرَها، لأذهب إلى باريس في باخرةٍ صغيرة. لا أدري كيف انقضى الأسبوع، وكيف تركت دار أبي ملحم، كأنما عزمتُ على أن أرميَ بنفسي في التيه.

لقد كانت لي ساعةٌ، لن أنساها ما حييت، علمت فيها أن أصحاب الشكوى في بكاء الفراق من الشعراء والأدباء، أنهم مهما أطالوا، لم يستطيعوا عرض ما كانوا يشقون به.

قال صاحبي:

لقد كان لي علمٌ بهذا الذي بسطتَه من ألم المفارق لأهله وأحِبّتِهِ فيما قرأت في صحف لبنان القديمة، أن اللبنانيين بعد الحرب العالمية الأولى، وجدوا أنفسهم في ضيقٍ من العيش، فعمدوا إلى الهجرة إلى ما وراء البحار، إلى ديار الأمريكتين. وقد شجعهم على سلوك هذا الدرب ما علموا من أحوال «المغامرين» من اللبنانيين الأوائل الذين رموا بأنفسهم في المجاهلِ، ففازوا بِجِدِّهِم وعزمِهِم، واستقروا، وشاركوا أهل تلك الديار في إقامة حضاراتهم.

لقد كانت الهجرةُ مما يشغلُ اللُّبنانيين بعد الحرب، وقد كانت السُّفُنُ تبحرُ بهم، فيخرج أهلهم مودِّعين بالبكاء، لأنهم يشعرون أن المهاجر قد ذهب، ولن يعودَ، فكيف حالُهم، وكيف حالُه؟

قلت:

إنه خطبٌ جللٌ، لا بُدَّ من احتماله، وإني لأذكرُ هذا الذي ألمعت إليه، مما نشر في صحف تلك العهود، كما أذكر فيما قرأت أن مستشفى ربيز، في لبنان، وضعت جائزة لمن يحسن القول من الشعراء، في وصف ذلك المشهد الأليم. وكان أن فاز بالجائزة الشاعر حليم دمُّوس، في قصيدة له، نشرت في مجلة الهلال، قبل ما يقرب من ثمانين سنة، قال الشاعر، يصف هذه المهاجر:

هَجَرَ الروض وعافَ الثَمَرهْ ... وليالي أُنسه المزدهرهْ
ومضى يضربُ في آفاقها ... ولسان الدهر يروي خَبَره

وجاء فيها:

أَدِر الدفّة يا رُبّانَها ... فالحِمَى حنَّ إلى من هَجَرَه

إلى أن قال:

رُبَّ أرضٍ حُسِبَتْ حنظلةً ... وهي لو تُسقَى لكانت سُكَّره
وركازٍ نام في جوف الثَّرَى ... بات في صدر الغواني جَوهَرَهْ
....
....

قال صاحبي:

أحسنتَ أستاذي كلَّ الإحسان، أن تلوتَ لي هذه الأبيات التي لم أعرفها، ولم أكن قد قرأت شيئاً لحليم دمُّوس.

قال صاحبي:

إنه شاعرٌ ملأت الرقةُ شعرَه، فُرزِقَ العاطفةَ الملتهبةَ والشَّجْوَ البديعَ، ولكن هي الدنيا، وفيها للشهرة حظوظٌ وأساليب في الإفادة من الانحياز

إلى نِحْلة أو طائفة، أو انتماء في السياسة.

قال صاحبي:

كأنك تومىءُ إلى ما أنت فيه، فلك أن تقولَ هذا، وقد حِيز عنك ألَقٌ مصنوعٌ، تُوَجِّهُه سلطةٌ أونظام على من تشاءُ، وإذا هو واحد الدنيا.

قلت:

لقد شغلتني وشغلتك بنيّات الطريق عما نحن فيه، فقد والله ما عرفتني يوماً أشدّ وجداً من ساعة كنت فيها في حمّانا، لا أدري كيف كانت، لكني شعرتُ كالذي أحسَّهُ أبو فرات الجواهري، حين بلغه نبأ وفاة أمٍّ فرات، وهو في لبنانَ، فرجع إلى العراق، وقال فيما قال من قصيدته الباكية:

مررت بالحَور والأعراس تملؤُهُ   وعدت وهو كمثوى الجانِ يرتعدُ

قال صاحبي:

ألَي أن أقول: إنك أحدُ الرواة في عصرنا الذي أذكر فيه جمهرة رواة الأدب القديم، غير أنك زدتَ، فكان لك سَعَةٌ في رواية شعرنا في عصرنا هذا.

قلت:

كان ينبغي أن تحترزَ فتقول: ليس لأحد في عصرنا أن يرويَ شيئاً من أدب اليوم الذي يشمر به حَمَلَةُ الرَّاية مما يدعى «الشعر الحرّ» أو «شعر الحداثة» أو نحو هذا.

قال صاحبي:

وإني لأضيفُ، أن شعراء هذا الضَّرْب من الشعر أنفسهم، ليس لديهم القُدْرَةُ على تلاوة شيء لهم من غير أن يصحبوا معهم بعض «مجاميعهم».

قلت:

أليس هذا الذي ذهبنا فيه وصرفنا عما نحن فيه شيئاً من بُنَيّاتِ الطريق؟

قال صاحبي:

لا أكتُمك أني سعيتُ إلى أن أصرفَكَ عما أنت فيه، لأبعدَكَ عن خَطْب، شقيتَ فيه، لن يبرحَك أثرُه وأنت بعيدٌ.

قلت:

لعلي كنت أقدر على شيء، أردّ به شرّاً في حقبتي تلك التي كنت فيها عازماً على الذهاب في التيه، ذلك أني ادَّخرت مما حصلتُ عليه من مال، في عملي في التدريس، فكان معيناً لي على أن أنفِقَه في علاج شقيقتي، وتركتُ جُل ذلك لدى الشيخة خالتي. وكنت على يقين أن ذلك لا يكفي، فكان علي أن أرسلَ مبالغَ، بوساطة أحد السوريين، ممن يعملون في «الصرافة» إلى أخي وصديقي الأستاذ شامل السامرائي في دمشق الذي كان يدرس الطِّبَّ في الجامعة، ليوصلَها إلى خالتي في حمَّانا. وكان منه أن زارها غير مرّة، وأوصل ما كلَّفْتُه به، وإني لشاكرٌ له هذه المكرُمَة ما حَيِيتُ.

قال صاحبي:

إني لسعيدٌ أن أقرأ هذا الأدب الذي قد يكونُ لنا أن نُطْلِقَ عليه «أدب الرحيل». وإني لأقرأ فيما نقل إلى العربية من هذا، من عيون أدب الغرب، فأجدُ فيه ما خلا الأدب فوائد من معرفة بالبلدان والأقاليم وتاريخها، ووصف للشعوب وعاداتها، وفوائد أخرى تتصل بالعلوم الإنسانية كافة. ومن هنا كان هذا الأدب من مصادر الدارسين في علم «الأنثروبولوجيا».

قلت:

لم يكن لي أن أسطرَ ما كان لي في رحلة العَذَاب، ولكني نظمتُ شعراً، ضاع أكثره مني، ذلك أني على ما أنا فيه من شجاً ذهب عنّي ما قلت، بسبب الدَّرْس.

غير أني لا أحرمُكَ متعة طلبتَها، وسأفي، فأستجيبُ لك، وأقول:

سرتُ إلى الباخرة مع جمهرة من طُلاَّب، ذهبوا مثلي إلى الدَّرْس، وآخرينَ ممن ذهبوا إلى التِّجارة، وبعض نفر قصد فرنسا للعِلاَج. وفيهم نفرٌ آخر ذهب إلى مَرسيليا، وهي نهايةُ الطريق للباخرة، ومنها يَتَوَزَّعون إمَّا إلى إحدى الجهات في الأمريكتين، وإما إلى البلدان الإفريقية التي عرفت غير قليل من اللبنانيين ومن السوريين.

وكان لي أن رأيتُ في جمهور الباخرة تأليفة غريبة، فمنهم الفَرِحُ المنطلق بفرحته، لأنه سيذهبُ ويرى أهلاً وأحِبَّاءَ، وآخرون غَشِيَتْ وجوهَهُم سحابةٌ من الحزن كأنّما جيءَ بهم، وسيقوا إلى عذاب السَّعير. فذاك يغني ويرقصُ وآلة موسيقية تصدحُ، وهذا في ركنٍ في طرف الباخرة، كأنما يستطلعُ سرّاً، لا يعرفُه إلا هو.

وبين هذا وذاك تجدُ متحابَّين، انفردا عَرُوسين، قصدا فرنسا، ليكملا فرحة الاقتران. ولن أنسى جمهرة المكدودين المستضعفين الذين يَقْضُون مدَّةَ الرَّحيل على ظهر الباخرة لقاءَ أجرٍ يسيرٍ، وهم الحالمون بلقاء العمل في بلد من البلدان، يدركونه بعد سفر آخر من مرسيليا.

قال صاحبي:

وما أظنُّ أنك وحدك من العراقيين أو العرب الذين قصدوا فرنسا للدرس.

قلت:

لقد كان معي بضعةُ نفر من عراقيين ومصريين وسوريين، كُلُّهم طالبُ درسٍ، وما أزالُ أذكرُ منهم أحد المصريين الأزهريين، ممن بعثهم الأزهر الشريف لدرس القانون الدولي. كان هذا قد هَيَّأ نفسَهُ للدرس، فشدا شيئاً من فرنسية، فراحَ مزهُوّاً يحاولُ أن يجدَ له أحداً من المسافرين، يعرف الفرنسية، فيرمي بنفسه عليه ظِلاًّ ثقيلاً، فيضربُ سَمْعَه بهذا اللَّون من فرنسية حمل عليها الضيم بلكنة قُرَوية صعيدية. ولن أنسى أحَدَ الطلبة العراقيين الذي رافقته زوجتُه الشَّابَّةُ التي لا تُحْسِنُ شيئاً سوى البروز ببهرج من اللِّباس والطِّلاء. لقد شقَي صاحبُنا، لأن لهذه الرفقة الزوجية مَشاقَّ، كان قد واجهها في الحصول على سَكَن في بلد، فيه أزمةٌ في السَّكَن، بسببِ ما لقي أهلُهُ جَرَّاء الحَرْب.

قال صاحبي:

لقد قرأتُ فيما ترجم من أدب القِصَّة الفرنسية، مما كتب في ظروف الحرب أو بُعَيدها، أن الفرنسيين قد عرفوا مشكلاتٍ اجتماعيةً، بسبب الحرب، فهذا قد رَجَعَ من الأسر لدى الألمان، ولم يجد أسْرَته، وذلك الذي وجد زوجته قد اقترنَتْ برجلٍ غيرِه، لأنَّها ظنتْ أنه قُتِلَ، أو قل: قيل لها: إنه قُتِلَ، وشيء آخر مثل هذا وذاك.

قلت:

نعم لقد كان هذا وغيره، وقد خرج النَّاسُ بعد الحرب، بعد سنواتٍ شديدةٍ عابسةٍ، لم يجدوا حاجاتهم، وأذكر أني وجدتُ العمَّال في ميناء مرسيليا، في حَلَقات، في ساعة استراحة، وبيد أحدهم في حلقته سجارة، يمتصُّ منها نَفساً، ويُسَلِّمُها إلى صاحبِهِ الذي بجانبه، وهذا يأخذُ حظّهُ منها، وهكذا يشتركُ جملة مَنْ هم في الحلقة في «التدخين».

منها، وهكذا يشتركُ جملة مَنْ هم في الحلقة في «التدخين».

وبقيت ساعتين أو أكثر بقليل أنا وآخرون، ننتظرُ رحيلَ القطار السريع إلى باريس، وجاء القطارُ، وأخذ كلٌّ منا مكانَهُ فيه، مع حشد من الناس الفرنسيين وغيرهم. وقد أخذني العجبُ أن أغلبهم ما إن احتلَّ مكانَه حتى شرع يقرأ في كتابه الذي أخرجه من جيبه، أو في صحيفته التي اعتاد قراءتها، وهم في هذا سَوَاسِيَة، تجدُ السَّيِّدَ أو السيدة اللذين يبدو أنهما أهلُ ثقافة، كما تجد نفراً آخر غيرهم، لعلهم عمَّال أو فلاحون، كلٌّ عمد إلى كتابه أو صحيفته.

قال صاحبي:

ألي أن أنشد قول أبي الطيّب:

أعزُّ مكانٍ في الدنا سَرْجٌ سابحٍ وخيرُ جليسٍ في الزَّمَانِ كتابُ

لك هذا، وشتَّان ما نحن فيه اليوم في القطار أو الباخرة أو الطائرة، و«سرج السابح» الذي رآه أبو الطيبِ موضع العِزِّ! ولكن لو قرأتَ ما اجتمعَ في أدب الجاحظِ من كلامٍ عذب جميل في «الكتاب» لعلمت أن ماضِينَا كان مشرقاً، وأن سَلَفَنَا كانوا أهلَ كتاب وقراءة وتأليف. ولك أن تعودَ إلى «فهرست» ابن النديم، فتنظرَ فيه كيف كان قومُه أهلَ كتاب ودرس، وسترى، لو عدت إليه ثانيةً، أنه أدرك الكثيرَ من العلم في تصنيف الكتب الذي اهتدى به إلى قواعد، سبقت نقاط ديوي العشر التي ينسبها المتعلمون لهذا الفن إلى هذا العالم الأمريكي.

قال صاحبي:

إني لأقبسُ من حديثك في هذه الرِّحلةِ فوائدَ، ما كان لي أن أتزوَّدَ بها، لولا أني هُديتُ إليك، فاهتديتُ، فقد واللهِ إني لأشعرُ أني غَنِيٌّ ما سَعِدْتُ

بصحبتك.

قلت:

لم أُكْمِلْ شيئاً، دفعني إليه ما رأيتُه من حرص الفرنسيين أو الغربيين على الكتاب وحبِهم للقراءة، وأنا أشهدُهم اوَّلَ مرَّةٍ في القطار إلى باريس. ولا يفوتُني أن أكملَ ما بدأتُه فيما قرأته في «نَكْت الهِمْيان» للصَّفَدي من أخبار العميان أن أحدهم اشتهر بـ«زين الدين الحلبي» قد اهتدى إلى طريقة، ابتكرها في ضرب من الكتابة البارزة الحروف، ليستطيع الأعمى القراءة، وهو يلمس هذه الحروف البارزة بإصبعه، فيجري أصبعه ويهتدي إلى الكلمات، فيقرأ.

قال صاحبي:

لقد قرأت هذا في كتيّب للأستاذ ميخائيل عواد الذي أثبت هذا الخبر لهذا الأعمى الذكي منقولاً من كتاب الصفدي.

قلت:

أعود إليك لأستقري الرحلة البعيدة التي لم يسعفني ما لديّ مما دوّنته عنها، فأذكر أنّي أصبحت في باريس، في محطة كبيرة، لم أكن قد عرفتُ نظيراً لها هي «محطة ليون» باسم مدينة كبيرة جنوبية، عرفها الدارسون العرب الذين تلقَّوا فيها علومَهُم. تركنا المحطةَ بصحبة أحد موظفي السفارة الذي كُلِّفَ بمساعدتنا، في إيجاد غُرَف لنا نحن العراقيين الثلاثة: أنا ورفيقيّ صلاح خالص - رحمه الله - وعلي الزبيدي.

لقد جاء بنا إلى الحيِّ اللاتيني، فوجد لنا ثلاثَ غرف، في فندق صغير، في شارع «سَنت ميشيل» أي القدّيس ميخائيل.

قال صاحبي:

كأن اسم الشارع هذا يشعرُنا بمكانة الفكر الديني في فرنسا.

قلت:

دَعْ عنك هذا، فهذه أسماءٌ تاريخيةٌ، لم يَسْعَ الفرنسيون إلى تغييرها، وأما اللَّوْنُ الديني في فرنسا وفي غيرها من بلدان الغرب فشيء واضحٌ، يشيرُ إلى ما بقي من سلطان الكنيسة التي كانت صاحبةَ الحول والطول في الحياة الدنيوية. وحسبك أن تعرفَ أن «السوربون» التي اشتهرتْ لدينا نحن العَرَبَ بسمعتها العلمية، هي كنيسةٌ في الأصل، وأن الاسم «السوربون» هو شهرة المهندس المعمار الذي شيّد الكنيسة التي ما زالت شاخصةً أمام الداخل إلى الصحن الذي فيه عمارة كلية الآداب التي شيدت بعد الكنيسة بقرون. لم يكن الفندقُ الذي اختير لنا ملائماً لطالب، شُغُلُهُ الدرسُ، فهو في هذا الشارع الذي يعمرُهُ الصَّخَبُ والضجيج الذي كنت أسمعُه وأنا في غربتي منذ الصباح إلى أن آوي إلى مضجعي.

قال صاحبي:

قرأت الكثيرَ عن الحيِّ اللاتيني فيما كتبه الإخوةُ المصريونَ واللبنانيونَ، وعرفتُ فيها أن هذا الحَيَّ يزخرُ بمجموع من السَّائحين وغيرهم، ممن أبعدوا عن ديارهم، وآخرين من أهل الانحراف عن السُّنَن مستفيدين من الحرية الفردية في فرنسا. وليس للسُّلْطَة أن تعترضَ هذا الذي خرج في سلوكه وتصرفه عن المألوف إلاّ أن يكون في تصرفه ما يؤذي الناسَ، فَيُعَكِّرُ الصفو.

قلت:

نعم، هو كذلك، وأعود إلى الفندق الذي اختير لنا، فوجدتني مضطراً إلى أن أتحوَّلَ عنه إلى سكن آخر، أجدُ فيه الاستقرار، لأخلصَ إلى

الدرس، وكذلك كان حال صاحبيَّ من أمرهم. لقد فتشت غير بعيد عن هذا الحيِّ اللاتيني، في شارع، وُسم بـ«شارع المدارس» فوجدت سَكَناً هادئاً، فتحوَّلت إليه، هذا الشَّارع الذي فيه «كلية فرنسا» الشهيرة، وهي من أعظم المؤسسات الجامعية التي لا يكون أساتذتها إلاّ كبارَ أهل العلم، وهي غيرُ بعيدة عن «السوربون».

قال صاحبي:

أكان الضجيجُ وحدَه هو الذي دفعك إلى أن تبتعدَ قليلاً عن شارع «القديس ميكائيل»؟

قلت:

لا، ليس هذا هو السبب الوحيد لابتعادي عن الحيِّ، لأن ثمةَ شيئاً آخر حداني لما أزمعتُ عليه، وذلك أن الفندق الذي كنت فيه الواقع على الشارع، يقابله مقهىً شهيرٌ يعرف بمقهى «دوبونت»، وقد علمت أن المقهى ما زال موجوداً، ولكنه فَقَدَ شهرتَهُ القديمة. كان هذا المقهى عامراً بالأحداث المنحرفين، من الجنسين، فأنت تجدُ فيه مما هو مألوفٌ رؤيتُه، اثنين من هؤلاء، وقد أقبل أحدُهما على الآخر، وهما في قُبَل وعناق وتلازم، يفعلان كأنهما في مضجعهما. ولا تعدم أن تجد آخرين، ممن اعتادوا على تناول المشروبات الكحولية، وهم في غيبة من شعورهم، يقبلون عليها إقبالاً يتجاوز كل الحدود، ونجد ما هو أعظم وأدهى..

إن هذا المقهى وغيرُه مثلُه، يبقى طوال اليوم ليل نهار عامراً بهذه النماذج التي خرجت عن سيرة أهل العقل. وليس الحيُّ اللاتينيُّ الذي عرف هذه الانحرافات دون غيره، ففي باريس أحياء كثيرة، عُمرت بأهل الشُّذوذ من الرجال والنساء، وأنت قد تشهدُ في المراقص والأندية الليلية مشاهدَ، تسيءُ إلى العِفَّة. وحسبي أن أشير إلى ذلك كله بما قدَّمت، وهو

قليلٌ يسيرٌ، لم أكن فيه قد أتيتُ على ما هو خروجٌ على الخُلُق الكريم مما تُلغَى فيه إنسانيَّةُ الفرد إلغاء، لا أقول: إنه حيوانيةٌ، ذلك أن الحيوانَ يبقى في حفاظه على طبيعته التي جُبل عليها.

قال صاحبي:

قرأتُ الكثير فيما قرأتُ في ضرب من القَصَص، مما ندعوه «الأدب المكشوف» إلى جانب شيء آخر من أدب، فيه أدبٌ جمٌّ وحفاظ على المروءة.

قلت:

نعم إن باريس كغيرها من الحواضر الغربية الكبيرة، إن شئت أن تراها مواخير ومباءَاتٍ للشَّرّ، تجدها كما أردت، وإن شئت أن تجدها مجتمعَ فضلٍ وأدبٍ وخُلُق كريمٍ، فلستَ بعيداً عن ذاك، وما أراك إلا لقيتَ ما تصبو إليه.

أعودُ إليك لأبسط ما شغلني وأنا في بداية الطَّريق. كان علي أن أنتسبَ في السَّنَة الاولى إلى معهد لتعلُّم الفرنسية، فكان هذا المعهد هو «الأليانس الفرنسية» الذي يعمر بالأجانب الذين لا يعرفون الفرنسية، يقصدون هذا المعهدَ أو غيره مما هو على شاكِلَتِهِ، كلٌّ حَسْبَ حاجته من الفرنسية.

قال صاحبي:

إن اسم هذا المعهد ليس غريباً عن معرفتي بمعاهد، تحملُ هذا الاسم في حواضرَ عراقية، وإني لأذكرُ مدرسةً خاصَّةً باليهود، هي مدرسةُ الأَليَانس في البصرة، وأخرى بهذا الاسم في العمارة، وكذلك الأمر في مدن أخرى.

قلت:

ولا بُدَّ من اتباع منهج قديم مُتَّسِم بالعلم اللازم، في تعلُّم أيَّةِ لغة من اللغات، ليكونَ للمتعلِّم أن يُحْرِزَ معرفةً جَيِّدَةً، يستطيعُ أن يدرسَ علماً من العلوم مع الدَّارسين الفرنسيين.

قال صاحبي:

كأنك تريدُ بما ذكرته عن تعلُّم الفرنسية باتِّباع منهج تربويٍّ، فيه أصالةٌ، يسلُكُهُ الجَادُّون الذين يَسْعَوْن إلى المعرفة الأصيلة، لتُبعدَ ما يقال ويشيع بين طلاب اللَّهو الذين لا طاقة لهم باحتمال الجِدِّ، من أن مخالطة الفرنسيين في الشارع والمطعم والمقهى وسائر الأمكنة العامة تزوِّدُك بالمعرفة اللغوية الكافية.

قلت:

لا أنكر أن لقاء الفرنسيين والاجتماع بهم، من شأنه أن يجعلَ غيرَ الفرنسي يسمعُ الكلمةَ ونطقها، وقد يهتدي بذلك إلى شيء من معرفة. هذا إذا كانت المخالطة وكان اللِّقاءُ لفرنسيين من أهل العلم، ذلك أن لُغَةَ الشارع قد تبعدُ عن لغة أهل العلم، فأنت في المقهى أو في اجتماع مع فرنسيين في رحلة، في القطار أو السيارة، قد يكونُ لك أن ترى عاملاً أو فلاحاً أو أي رجل من عامّة الناس، وهؤلاء لا تستطيعُ أن تُفيد منهم في تعلُّم لغة، تعينك على قراءة كتاب مثلاً.

لقد ذهب إلى هذا الفهم جماعةٌ من الطلاب العرب، فلم يتابعوا الدَّرس في معاهد تعليم الفرنسية، ولا اجتهدوا في كتاب بصحبة آخر، أتقنَ اللُّغَةَ، وكان له منها زادٌ كافٍ، فلم يكن لهم مهما قضوا من زمان طويل معرفة بالفرنسية تكفيهم.

لقد انتهت السنةُ الأولى التي هيّأتُ نفسي للمُضِيِّ إلى الدرس الجادِّ في كُتُب العلم. لقد أنهيتُ مراحل التعليم في «مدرسة الأليانس» ونلت الشهادةَ، وكنت في الوقت نفسه أحضر محاضرات عامَّة في السُّوربون، تقدَّم لغير الفرنسيين، أطلق عليها «محاضرات في الحضارة الفرنسية». إن غير الفرنسيين الذين يتابعون هذه المحاضرات، لهم إلمامٌ بالفرنسية، فيكون في طوقهم المضي فيها، كانت تشتملُ على محاضرات في الأدب، وأخرى في الفنون، من رسم ونحت وموسيقى، ولا تخلو من ساعات تعرضُ فيها رقوق سينمائيةٌ، تعرض لمادةٍ فلسفية وأخرى في الآثار.

قال صاحبي:

لقد عرفتُ من أصحابي الذين عَرَفُوا المعاهد الفرنسية، أن في باريس أدَباً وفَنّاً، تستطيعُ أن تعرفَهُ، وتسمَعَ منه حين تقصُد المسارح، وحين تنتسبُ إلى الجمعيات الفنية في الموسيقى وسائر الفنون. وليس عسيراً عليك أمرُ الانتساب، فأنت بأجرٍ يسيرٍ تشاهدُ مسرحية من الأدب الفرنسي القديم والحديث.

قلت:

نعم، إن هذا وكثيراً غَيْرَهُ متيسّرٌ، لمن أراد أن يتزوَّدَ بزاد مفيد. غير أني وجدتُ الكثير من إخواننا العرب والشرقيين لا يُدركون معنى الوقت، فهم طلّاب حياة لاهيةٍ، تخطَفُ أبصارهم وعقولهم مظاهرُ وبرَّاقَة، فيقبلون عليها إقبالاً، يستهلكُ أوقاتَهُمْ، ويصرفهم عما هو سعيٌ مفيدٌ.

إن مقاهي الحي اللاتيني تعمرُ بهم، ليس لديهم من مظاهر الجِدِّ إلا قراءةُ صحيفة يومية، تعرض لشيء من أخبار دنيا العرب، وأكثرُهُ غيرُ نافع. ثم إن منهم من يتابع أسعارَ العملة، ليفيد من الصرف. وقد تحوّل هذا النفرُ إلى مستفيدين صغار، شغلتهم المنفعةُ، فكان منهم من جاء إلى

باريس بقصد الدرس، فشغل عنه ببعض ما ندعوه «الصرافة».

وكان منهم من لجأ إلى ضرب من تهريب، لبضاعة فيها بعض ربحٍ، دَأَبَ عليه. لقد ارتبط كثير من هؤلاء برفقة لنساء، فكانت لهم علاقات، لا تخلو مما هو حرام...

أما الذين جاؤوا للدَّرْس مبعوثين من حكومات، وأنا منهم، فقد ارتبطوا بعقود ثقيلة، وكانوا بسبب ذلك أهلَ جدٍّ، أفادوا من الدَّرْس، وحصلوا على الدَّرَجَة العلمية التي أريدت لهم. على أنك قد تجدُ بين هؤلاء من خسر، إما لتفريط منه وانحراف عن السبيل، وإما لجهل منه بالدَّرْس الجيد، فأضاع الوقت، وتَخلَّف عن الرَّكْب.

وأعودُ إليك ثانيةً، فأحدّثك عما أردتُ أن أبدأ في اختصاصٍ، لم يكنْ لي منه شيءٌ كثيرٌ، وهو درس في اللُّغَاتِ السَّامِيَّة.

قال صاحبي:

إذا لم تكن قد شَدَوت شيئاً من هذه الصنعة، ولم يكن في درسك في العراق غيرُ علوم العربية وما يَتَّصِلُ بها، من أدب وتاريخ ومعرفة جديدة، من بعض ما عرف بالعلوم الإنسانية، فكيف عزمتَ على أن تركبَ الصَّعْبَ، وتَشُقَّ طريقَكَ في أرض صلبةٍ، لا يسلُكَها إلاّ أولو عزمٍ شديد.

قلت:

لقد كان منك في سؤالك هذا إلى أن أعودَ إلى نفسي، فأجدُني مقصِّراً أن أذكرْ أهلَ الإحسانِ عليَّ، الذين أمَدُّوني برأيهم الذي أفتقرُ إليه أشدَّ الافتقارِ. لقد كان من هؤلاء السَّادة الكرام المصطفَيْن الأخيار!؟ الأستاذ متّى عقراوي.

عرفته في العراق أستاذاً مُربِّياً، في دار المعلمين العالية، فنعمت بفضله،

ثم أدركته مسؤولاً عن التعليم العالي، في وزارة المعارف، وهو الذي سعى إليّ، فردَّ حقي، وأنصفني، وردَّ كيدَ نفر ظالم، أرادوا أن يسلبوني حقّي، وكنتُ قد عرضت لهذا الأمر في خبر «البعثة العلمية».

ثم رأيت الأستاذ عقراوي في باريس، وهو ممثل العراق في «اليُونسكو»، وأفدتُ من قربه، فاجتمعت غيرَ مرَّة وإياه في داره وفي مكتبه، لقد بادرني حين رأيتُه أوّلَ مرَّةٍ بسؤاله عن دراستي، ولم ينتظرْ جوابي عن سؤالِه، بل انبرى يقول كأنّما كان قد خبّأ أمراً يخصّني. وإذا هو يقول، مخافة أن يعرض لما أراده النسيان.

لا بدّ أن تذهبَ في درسك إلى «اللغات السامية» فليس لنا في العراق منها شيءٌ، ما خلا أصحاب تاريخ العراق القديم الذين اجتزؤوا الدَّرْس، فاقتصروا على معرفة البابلية الآشورية وعلى اللغة السومرية، وهذه السومرية ليست من السَّاميات كما يفيدُ أهل المعرفة.

لقد استمعتُ إليه، وأدركتُ أنه بعيدُ النظر، وما كان لي رأيٌ غير الذي أبداه، ولكني احترزتُ من شيء واحد، هو أن مدَّة العقد للدراسة كانت أربعَ سَنَوات، وهذه لا تكفي لهذه الدراسة التي تتطلَّبُ زماناً أطول من ذلك.

فقال الأستاذ عقراوي: هذا في إمكاني أن أعملَ وأسعى لتيسيره، وسيكون لك طلب بذلك، أؤيده أنا، وستنال موافقة مديرية البعثات في العراق.

قلتُ: سآخذُ سبيلي في هذا الدرس، وسأهيّىء نفسي لذلك، وسأسعى إلى اكتساب معارف جليلة في هذه اللُّغَات.

لقد فكَّرْت في الأمر، وقلتُ في نفسي: كيف السبيلُ إلى هذا؟

وبينا أنا مشغولٌ بتدبير أمري، بدا لي أن أفزعَ إلى أخٍ لي من الدَّارسين المصريين الذي كان قد بدأ هذا العَناء، فعكف على دراسة العبرانية وغيرها من الساميَّات، ذلكم هو الأستاذ حسن ظاظا.

قال صاحبي:

لقد عرفتُ أن صاحِبَك هذا منذ سنوات من العاملين في المملكة العربية السورية وأنه صنَّف كتباً في اللغة، ظهر فيه شيءٌ من معرفته، بل من إلمامه بهذه اللُّغات. ثم إنه نشر مباحثَ، لا تبعدُ عن هذه الصنعة، في مجلة «الفيصل» السعودية.

قلت:

نعم، هو ذاك، إنه أستاذ جليل، انصرف إلى العلم، فحقَّق لنفسه ما أراد.

لقد قصدتُه يومئذٍ، وهو يسكنُ في مبنىً، لا يبعدُ عني كثيراً، وعرضتُ عليه ما أنا مشغولٌ به من أمر درس اللغات السَّامِيَّة، للخروج منها بدراسة مادَّة، تندرجُ فيما ندعوه الآن «النحو المقارن» أو «المقارنات بين اللغات السامية» ليكونَ لي رسالة، أتقدَّم بها لنيل «الدكتوراه».

لقد كان للقائي هذا ولما وَلِيه من لقاءات فوائدُ، يسَّرت من أمري، وهدتني في فكري.

لقد أشارَ الأستاذ ظاظا عليّ أن أبدأ المسيرةَ، فأنتسب إلى المعهد الكاثوليكي في باريس، وفي الوقت نفسه أنتسب إلى معهد متحف اللُّوفر، كما أتابع محاضرات الأستاذ دورم في المدرسة العليا للدراسات، في مبنى السوربون، في الحبشية والعبرانية، ومحاضرات الأستاذ دبونت سومير في هذه المدرسة، في اللغة الآرامية.

لقد كان لي في المعهد الكاثوليكي أن أبدأ دَرْسي في العبرانية، وأن أفيدَ من درس الخُطوط السامية والألواح والرُقُم، في معهد متحف اللُّوفر، وهذه الألواح تتَّصِلُ بالبابلية الآشورية، واللغة السبئية وشيء آخرُ يدعوه الدارسون العربية الجنوبية. وأكبر الظَّنِّ أنها الحميريةُ في مصطلح اللُّغويين العرب الأوائل.

قال صاحبي:

لقد أفدتُ مما بسطتَه، ولكني أتساءلُ عن العربية الجنوبية، أهي الحميرية؟

قلت:

إن كان المستشرقون قد سمَّوا عربية اليمن وما حواليها «العربية الجنوبية» فقد أصابوا، فهي لغة حِمْيَر التي ورد ذكرُها في المصادر العربية. قال أبو عمرو بن العلاء: «أمّا لغة حمير فليست بلغتنا ولالسانها بلساننا»، وكأنهم أصابوا في بيان موطن هذه اللغة، فقد قالوا: «من بلغ ظَفَارَ، فقد حَمَّرَ».

قال صاحبي:

لقد قلتُ غير مرة لصحبي الذين أفضي إليهم بما لا أبيحُه إلى غيرهم: إني لم أُفِدْ كثيراً في تحوُّلي بعد أوائل المراحل في المدرسة الابتدائية إلى الدراسة الدينية التي لم تسدَّ خَلَلاً في حاجاتي، وأنا أتلقى العلم لدى المشايخ الذين شُغلوا بحواشي العلم. وأشهدُ أني غرس يديك، لقد غنيت ببعض شيء زوَّدتنيه.

قلت:

وأعود إلى ما أنا فيه، فأعرضُ للسَّنوات العجاف التي شقيتُ بها، وأنا اجاهدُ للوصول إلى ما عزمت عليه.

قال صاحبي:

وإني لأحفظُ ما كان لي من الأثر: «طالبُ العلمِ والمجاهدُ في سبيل الله سِيَّانِ».

قلت:

كأني ما خرجتُ لحظةً عما أنا فيه، ومضيتُ إلى الغاية، أتحسّسها خفقة قلب وخطوة قدم، فلم تُلْهني متعةُ دنيا يسطَعُ بَرْقُها، ولم يصرفني عما اندفعت إليه نشاط للطلاب الذين حملوا على سلوك درب، لا تحمد مغبَّتُه، مما يندرجُ في السِّياسة ونحوها.

قال صاحبي:

إن ذاك الذي طَلَعَ فيه الطَّلَبَةُ العراقيونَ في باريس، قد نُشِرَ في صحف العراق حتى‌قيل فيهم: إنهم أصحابُ شيوعية وإنهم «إخوان اليهود». ولعل بسبب من هذا تردَّدَتْ دولُ الغرب في أن يكونَ للطلبة العراقيين مكانٌ واسعٌ في جامعاتها.

قلت:

كان هذا وكان أكثر منه، أن السِّفارة العراقية أبت أن تجدِّد أَجْوِزَةَ السَّفَرِ لنفر من أولئك العراقيين، وكان لدى رجال السفارة شيء من كراهِيَة، لم يقصروه على نفر من الطلاب، بل صرفوه إلى عامَّتهم.

وأذكر أني كنت أظلمُ نفسي، فأجدني أبتعدُ عن السفارة، ولا أقصدها، لغرض يحزبُني إلا وأنا مضطرٌّ على ذلك، كأنما أحملُ نفسي على مكروهٍ، ليس لي عنه محيصٌ.

قال صاحبي:

حدثني آخرون كانوا قد درسوا هنا وهناك من بلاد الله الواسعة عن

ضيقهم بالسِّفارات في تلك البلدان.

قلت:

كأني أميلُ إلى أن أهل السفارة أهلُ كِبْر واستعلاء، عَلَتْ فيهم نفوسهم، فحسبوا أنهم طبقةٌ عالِيةٌ، ليست من طينة الآخرين. وإني لأذكرُ أن صاحبي صلاح خالص - رحمه الله - قال لي: هل لنا أن نستعينَ بالنّظارات، لأنَّ القراءة والكتابة قد أضعفت أبصارنا، وقد علمت أن السِّفارة تصرفُ للطَّلَبَة ثمن النظارات، وهي متّفقة مع أحد الأطباء لفحص النظر.

وتمَّ الاتفاقُ بيني وبين أخي صلاح والأخ علي الزُّبَيْدي، أن نذهبَ إلى السِّفارة، لنقابلَ أحدَهم المكلَّف بشؤون الطلاب المبعوثين، وذهبنا وقابلنا السيدَ الوجيه، ولم يكن عند الله وجيهاً، فعرضنا غرضنا الذي جئنا من أجله، فلم يكن منه إلاّ أن رَدَّ بعد صمت غير قصير فقال:

كأنّ الطّلاَّب، حين يأتون مبعوثين، تضعفُ أبصارُهم. . . !

سمعنا هذا الذي بلغ به أدبُه أن يكونَ منه هذا السَّفَهُ، فلم يكنْ منا إلاّ الانصراف، بعد أن أفهمناه، أننا لم نأتِ لنوفّر ثمنَ نظارات، لا يتجاوزُ الثلاثة دنانير مع أجرة الفحص، ولكننا جئنا لأن ذلك بعضُ ما لنا من حقوقٍ.

وقد كان لي من سوء ما تصرّف به أهل سفاراتنا في ذلك العهد أي قبل أكثر من أربعين سنة حكاياتٌ وأخبار.

قال صاحبي:

لقد تحدّث أغلبُ أصحابنا العَرَب الذين ابتعدوا عن ديارهم، عمّا كانوا يَلْقَوْنَهُ من تَصَرُّفِ رجال سفاراتهم الذين عَلَوْا وطَغَوْا وتَجَبَّروا واسْتَعْلَوْا، فبئس مثوى المُتَجبِّرين.

قلت:

لولا ما شغلني من هَنَوات أهل زماننا، لكان لي أن أخلصَ إلى شؤوني، وأدخل في مسائِلَ من العلم، صرفت إليها همّي. وأشهدُ أنّي بعد أن اخترتُ هذا الذي أنا فيه من الدَّرْس، أدركت أني كمن بدأ من أوّل الطريق، وأن ليس له من العلم شيءٌ.

قال صاحبي:

لقد قيل: إن طالب اللغة العربية لا يتعلمُ، حين يذهبُ إلى هذه الديار الغربية، غيرَ المنهج الذي يوسَم كما قالوا بـ«الموضوعية»، بعيداً عن بعض ما يكون لنا من تسليم في كثير من المسائل.

قلت:

من الخير أن أبدأ القولَ، حين آخذ مسألة من مسائل العربية، فأجد أن ما لديَّ منها، مما قرأتُ في كتب النحو، بعيدٌ عن العلم؛ فمن ذلك مثلاً أننا عَرَفنا ما قيل في كلمة الدعاء «اللهُمَّ» وهو أنها دعاءٌ، والدعاءُ أسلوبٌ في النداء. وعلى هذا تكون «اللّهُمَّ» بمعنى قولنا: يا الله.

فلو أن النحاة وقفوا عند قولهم هذا، ما كان لي أن أبسطَ قولي هذا منبِّهَاً أو مصحِّحاً قولهم. إنهم قالوا أيضاً: حُذف فيها حرف النداء «يا»وعُوِّض منها حرف الميم في آخرها.

أطلقوا هذا القول، وذُكر في مصنّفات النحو من «كتاب سيبويه» إلى كتب النحويين المتأخرين. لقد تبعنا قول النحاة هذا، ولم نعترضْ على شيء منه، ولم نقل مثلاً: كيف كانت الميم في آخر الكلمة عوضاً من «يا». ولم نقل إن «يا» أداة من حرفين، فكيف تكون الميم مكافئةً لها؟ ولم نقلْ: إنْ الميم بعيدةٌ عن «يا» مخرجاً وحَيِّزاً وصِفَةً. ولم نقل: لِمَ

وضعتِ الميمُ في آخر الكلمة، وهي مساوية للياء، أو عوض منها، في حين كانت «يا» في أول الكلمة؟ ولم نقل: إن الميم كانت جزءاً من الكلمة، بخلاف «يا» التي هي أخرى تسبقُ لفظة الجلالة، وكلاهما خاصٌّ بلون من نداءٍ هو دعاء.

قال صاحبي:

لقد تساءلت، فكان لك من ذلك هذه السؤالات التي تتَّصِلُ بهذه الكلمة التي أوجزت بقول النحاة المتقدم. وكنت كغيري ممن قرؤوا هذا العلم، فعرضتُ هذه المسألةَ، وأخذناها مأخذَ العلم، وانتهى كلُّ شيء.

قلت:

لقد وَقَعَ لي فَهْمُ هذه الكلمة، وأنا أقرأُ في أوَّل سِفْر التكوين، بعد أن شدوتُ شيئاً من درسي في اللغة العبرانية. لقد جاء في أوّل ذلك السفر.

إبرشيت برا إلوهيم إيث هشَّمايم وايث ها إرِص... ولي أن أتعجّل، فأقف على كلمة «إلوهيم» فأقول: إنها بمعنى «الله»، وهذه كلمة سامية ذات تاريخ، لها نظائرها وصورها في لغات سامية عدّة، وهذه هي التي صارت في العربية «اللهم». ولك مني رسمها بالرسم العبري.

בְּרֵאשִׁית בָּרָא אֱלֹהִים אֵת הַשָּׁמַיִם וְאֵ

إن معنى هذه العبارة: «في البداية برأ الله السموات والأرض...».

ومن المفيد أن أشرح أن عبارة «في البداية» تقابل الكلمة العبرانية «إبريشيت» وهي تفيد «بالرأس» والباء فيها كالباء الجارة في العربية، وكلمة «ريشيت» مأخوذة من «روش» أي «رأس» في العربية، ولكنها في العبرانية صارت مصدراً، ولذلك قلنا «في البداية». وكلمتا «هشمايم» و«ها إرِض»

يعنيان «السموات والأرض».

قال صاحبي:

ولكن هذه الكلمة العربية أفادت الدعاء، فكأنها غير الكلمة العبرانية التي تعني «الله».

قلت:

ليس هذا بشيء، فهذا التَّحُوُّل في الصِّيغة والدِّلالة قد استفيد من مسيرة العربية التي ورثت الأصولَ القديمة السامية، فذهبت فيها إلى فوائدَ دلالية غير الذي كان لها في الأصول القديمة. ألا ترى أنها تحوّلت من الجمع إلى تركيب، أفادَ الدعاءَ. وكان هذا الذي حدا النَّحْوِيين أن يقولوا قولهم: إنها بمعنى يا الله.

قال صاحبي:

إذا كان هذا ما بسطتَ من أمر الكلمة، في العبرانية وغيرها من اللغات، وإنَّ الميم قد ختمت بها، فما معناها؟

قلت:

إن «الميم» في الكلمة العبرانية قد سبقتها ياء، والياء والميم علامة الجمع في العبرانية، وقد نجد شيئاً من هذا في بضع كلمات عربية هن من الأوابد التي ورثتها العربيةُ، فلم يفطن إليها علماءُ اللغة، وقد ابتعدت عنها مخافةَ أن يطولَ الكلام، فنخرجُ من شيء إلى أشياءَ، فتضطرب بنا المادَّةُ التي نعالجها.

إنَّ هذه الياء والميم من علامة الجمع، يقابلُها الياء والنون في الجمع السالم، في العربية.

أقول: لولا ما كان لي من هذا الدرس، ما كنت أعلم هذا وغيره، ولدي الكثير من نظائر هذه المسألة التي لم يقلْ فيها النحويون العرب الفائدة العلمية الصحيحة.

قال صاحبي:

قد يكون لي أن أقولَ: لو أن النُّحَاة العربَ أدركوا هذه المعرفةَ من نحو اللُّغَات التي عرفت في العصور المتأخرة، وأطلقَ عليها الدَّارسون الغربيون «اللغات السامية» لكان لهم أن يُدْركوا العلم في مسائلَ كثيرةٍ، خانهم فيها اجتهادُهم.

قلت:

كنت قد عرضت لهذا الأمر في دراسات نحوية، صرفتها إلى نقد النحو القديم.

وسيكونُ منّي في بسط ما كان في تلك الحقبة، في باريس، أن أذهبَ إلى شيء من التصنيف، فيكون على النحو الآتي:

أ - في السوربون

قلت:

إن السوربون مبنىً، فيه كليةُ الآداب، وفيه الكنيسةُ المسمَّاة باسم الذي شادها وهو «المسيو دي لا سوربون».. وكان لي صلة بمحاضرات عامة، أعدَّت للأجانب من أجل تعريفهم بجوانب عن الحضارة الفرنسية، يلقيها أساتذة أصحابُ اختصاصٍ في الأدب والتاريخ وسائر الفنون.

حضرت مستمعاً لتلك المحاضرات، آخذ منها القليل الذي كانت لغتي

الفرنسية قادرة على استيعابه، وكان بين من يتابع تلك المحاضرات نفر غير قليل، جاؤوا يستمعون مثلي، ليوطّنوا آذانهم على النطق الحسن.

غير أنني بعد أن أنهيت السنة الأولى في تعلُّم الفرنسية، تابعت المحاضرات التي كان يُلقيها الأستاذ دورم في سفر أيوب، وفي اللغة الحبشية في «مدرسة الدراسات العليا» في مبنى السوربون. وكنت في الوقت نفسه أتابعُ محاضراتِ الأستاذ دوبونت سومير في هذه «المدرسة» أيضاً، وكان فيها يقفُ وقفاتٍ طويلةً، فيها شرحٌ وبيانُ رأيٍ في «مخطوطات البحر الميت» ولهذه المخطوطة حكاية وخبر في العثور عليها. وقد قيل: إن راعية أبصرت، أن نعجة من نعاجها اختفت في غار، فتعقبتها، فنزلت لتأتيَ بها، وكان لها أن وجدتْ شيئاً، ظنت أنه يحوي شيئاً ذا قيمة، وإذا بعض هذه المخطوطات التي عرفها العالم الغربي، وتناولوها بالشَّرْح والتفسير فكان لهم منها علم أضاف شيئاً من معرفة تاريخية، تتَّصِلُ بتاريخ بني إسرائيل.

ثم رأى الأستاذ أن يدوِّنَ محاضراتِهِ ونشرها في باريس.

ثم كان لي أن أتابعَ محاضرات الأستاذ بلاشير، في المدرسة نفسها، وهو يعلِّقُ على مباحث يسيرة للطلاب. وكان من تعليقه شيءٌ، يَتَّصِل بكتاب «الفرج بعد الشدة» للتَّنُوخي. وهو بحثٌ أعدَّهُ أحُد الدارسين المصريين وهو رشدي فكّار. لقد كان الأستاذ بلاشير شديداً في مناقشته لطلابه، وكان صعبَ المِرَاسِ.

وكنت في هذه المحاضرات مع طلابٍ فرنسيين وآخرين من الجزائر وتونس، وكنا نحن العراقيين نحضر هذه المحاضرات: أنا والأخ علي جواد الطاهر، والأخ علي الزبيدي، ولا أنسى عاتكة الخَزْرجي. وجملة أصحابي

هؤلاء قد تهيّؤوا لدراساتٍ أدبيةٍ، انتهوْا منها بنيل شهادة الدكتوراه.

وكنت ومعي أصحابي العراقيون نتابعُ محاضراتٍ في الأدب الفرنسي، يلقيها الأساتذةُ لطلبة الليسانس، وكان الغرضُ من متابعتنا التزوُّدَ بالمعرفة الفرنسية، والاطِّلاَعَ على المنهج الفرنسي في الدراسات الأدبية النقدية.

ب- في المعهد الإسلامي

كان هذا المعهد من توابع كلية الآداب، يقصدُه الدارسون للحضارة الإسلامية في التاريخ والأدب العربي. وكان من أهم برامجه برنامجٌ، يشتملُ على الحضارة الإسلامية في الأندلس، يشرفُ فيه على الدرس الأستاذ ليفي بروفنسال صاحب كتاب إسبانيا الإسلامية. لقد حقق هذا الأستاذ جملة كتب تاريخية وأدبية، تتصل بالأندلس.

وكنا نحن العراقيين نتابع محاضرات الأستاذ بروفنسال، وكان مشرفاً على رسالة صاحبنا صلاح خالص رحمه الله.

ج- في مكتبة مدرسة اللغات الشرقية

وهذه مكتبةُ المدرسة الشهيرة التي عرفها الدَّارسون للأدب العربي والتاريخ الإسلامي، وهي بمصادرها العربية والفرنسية وغيرها من اللُّغات. كما عرفها المستشرقون كافة، عرفوها وهم طلابٌ، يدرسون؛ ثم عرفوها وهم أساتذة فيها. لقد كان لي أوَّل معرفة بالأستاذ ريجس بلاشير في هذه المدرسة، ثم تحوّل إلى السُّوربون كما أشرت آنفاً، وإلى المعهد

الإسلامي.

ومن المفيد أن أثبتَ هنا ما كنتُ قد أفدتُه من هذا الأستاذ الجليل، في محاضراته التي نوَّهت بها التي كانت تنص على منهج الدرس ابتداءً، من نقد المصادر وبيان قيمتها، ثم ما يَتَّصِلُ بهذا من نقد لهذه المصادر، من أجل الخُلوص إلى نتائجَ مفيدةٍ. لقد صنَّفَ بلاشير كتابه القَيّم في «تاريخ الأدب العربي» في ثلاثة أجزاء، فوقف في الجزء الأول وقفاتٍ طويلةً على الشعر الجاهلي، في مصادره القديمة والحديثة، فعرض لمسألة الانتحال، للوصول إلى ما وصل إلينا من نصوص جاهلية، يصحُّ أن يعتمدها الدارسون. وهو في هذه الوقفات يقفُ على أقوال الأقدمين فيما ذكره ابن سَلَّام في «الطبقات» وما ذكره غيرُه من شَذَرات في الصحيح والمنحول. ولا بد أن يكونَ له وقفاتٌ، ليعرض لما قاله المُحْدَثُون، من مستشرقين وعرب، ومن هؤلاء نولدكه ومرجليوث وباسَّيه وطه حسين وآخرون.

ثم تحوَّلَ إلى عصور الأدب العربي في العصر الإسلامي وعصر الأُمويين والعصر العباسي، وكان له في كلِّ ذلك درسٌ، فيه جِدٌّ وأصالةٌ.

ومن مصنَّفات هذا الأستاذ الجليل ترجمتُه للقرآن إلى الفرنسية، تلك الترجمةُ العلمية التي دلت على فَهْم واسعٍ للغة القرآن، وما دلَّت عليه، بحسب توجُّه أصحاب علوم القرآن من القدماء والمُحْدَثين، وما ذهبوا إليه من فهم متصلين بما كان لهم من انتماءٍ خاصٍّ. كان هذا الكتابُ في أربعة أجزاء، انصرف الأستاذُ في الجزء الأول إلى دراسة القرآن وما قيل في أصوله وحقيقته لدى المسلمين ولدى غيرهم، وأشار إلى ما ورد في القرآن من معارفَ، فنظر إلى نظائر لها، وُجدت لدى عامَّة أهل الكتاب.

ثم بدا له أن يُرَتِّبَ القرآن ترتيباً تاريخياً غير الذي نعرفُه في المصحف.

إن لهذا الجزء من الكتاب قيمةً علميةً، تأتي من أن صاحِبَها يملكُ سَعَةً من العلم معتمداً على المصادر القديمة والحديثة، في كل اللغات، وأنه يملكُ الحريَّةَ، فيبسطُ من آرائه ما خلص إليه من درسه هذا. ولي أن أشيرَ إلىأنَّه غيرُ متأثرٍ بشيء ما من نصرانية أو يهودية، تدفعه إلى تَعَصُّب، كما هي الحالُ لدى الدارسين، كبعض المستشرقين.

ولا بُدَّ لي من الإشارة إلى أنه أدركَ من فهمِه للعربية ما جعله يَصِلُ إلى شيء من العلم الجيد.

أضربُ على هذا مثلاً فهمه لكلمة «بشر» التي ورت في القرآن، في آيات عدَّة، من سور مختلفة. لقد أبصرَ هذا العالم حقيقةَ هذه الكلمة، فكانت لديه بمعنى «الهالك» أو «الفاني». إنه وصل إلى هذا لأن «البشر» في لغة التنزيل يرد في جملة من الآي، ليقابَلَ به كلمة «الباقي» أو «الخالد» أو «الأزليّ»، وهو «الله». فإذا اطمأنَّ إلى ما وصل إليه جعله «mortel» أي الذي يموت ويَفنى، وهذا يقابلُ «الباقي» أو «الأزلي» الذي كان في فهم الأستاذ بلاشير «immortel».

أقول: لم يكن هذا الفهمُ لدى الآخرين الذين نقلوا القرآن إلى لغات غربية من الفرنسيين والإنكليز والألمان وغيرهم. ولا أستثني في هذا المسلمين غير العرب الذين نقلوا القرآن إلى لغاتهم.

وأخلص إلى القول: إن ترجمة بلاشير للقرآن، أنستْ الدارسين الفرنسيين الترجمات التي سبقتها، بما فيها ترجمة «كاز مرسكي» التي كان المستشرقون يعتمدونها ويؤثرونها.

قال صاحبي:

لقد أفدتني فوائدَ جمَّة، وحملتني إلى أن أعودَ إلى هذه الترجمة،

فأجعلَها مما أقرأ، وأعزفُ عما لدي من ترجمات أخرى، ومنها ترجمةُ السيد أمير علي الهندي إلى الإنكليزية، ولكني أتساءل: هل وقفتَ على شيء في هذه الترجمة التي نوّهت بها، وأشرتَ إلى سَعَة معرفة الأستاذ بلاشير للعربية وثقوب ذهنه للوصول إلى العلم، فوجدت شيئاً لا يُدْرِكُهُ غير العربيِّ المسلم الذي ألمَّ بالمعارف الإسلامية؟

قلت:

نعم، لك أن تتساءل، وتذهبَ إلى هذا الذي لا يمكنُ أن يَصِلَ إليه غيرُ العربي المسلم. لقد أدركت خَصيصةً من خصائص العلم، هي أن اللغةَ قد ينأى غيرُ أهلها عن الفهم السليم. ومن هذا ما عرض لهذا الأستاذ العالم، فقد فهم من قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد] الأسلوب الإنشائي في غير الخبر الذي عرفناه في «علم المعاني». إن أسلوب الإنشاء هو الاستفهام وما ينصرف إليه من مَعَانٍ، وما هو عرضٌ وتحضيضٌ وتَمنٍّ وترَجٍّ ونداءٍ ودعاءٍ ونحو هذا، وهذا غير الخبر الذي يحتملُ الصدقَ أو الكَذِبَ، كقولنا مثلاً: جاء محمدٌ أو لم يجيء محمدٌ... لقد قصَّر الأستاذُ المترجمُ حين نقل هذه الآية إلى ما هو استفهام إنكاريٍّ، وهذا لا يؤدِّي ما أريد بالآية من المعنى الإيجابي.

إن معنى الآية يشير إلى الإيجاب، فهي كما قيل: إنّ بذكر الله تطمئن القلوب.

قال صاحبي:

ومن نظائر هذا ما وقع من خطأ في الترجمات الإنكليزية التي لم يرزقْ أصحابُها الفَهْم الكافيَ فيما هو حقيقة أو ما هو ضربٌ من توسُّعٍ، يصلُ فيه المعربون إلى المجاز بأنواعه في البلاغة. إنهم لم يدركوا مثلاً: «انشقّ القمر» من قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر] ومثل هذا

كثير.

قلت:

لقد أحسنت كلَّ الإحسان، وإني لأصدُقُكَ هذا، فقد كان لي مرَّة زيارة إلى الأستاذ بلاشير، وتصرَّف بنا الكلام إلى الحقيقة والمجاز في العربية، وإذا الأستاذ الجليل يقول: إن كثيراً مما يرد في كتاباتكم أنتم العرب، في قديم الزمان وحاضره، لا نفهمُهُ نحن الغربيين، وقد يغيم علينا الوجهُ المرادُ في الجملة العربية. ألا ترى أني لا أدرك الوجْهَ البلاغِيَّ في الآية: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم]؟

ومثل هذا الكثير الذي ضلَّ فيه غيرُ العرب، وقد يَضِلُّ أيضاً في شيء من هذا العربي غير المسلم.

قال صاحبي:

ألي أن أضيف شيئاً، فأقول: ولم يسلمِ العربُ المسلمون من الخطأ والوقوع في التيه، في الفهم لكثير من أسرار العربية؟ وإني لأقرُّ وأعترفُ أني لا أدركُ معنى قول الشاعر القديم:

ولما قضينا من مِنىً كلّ حاجةٍ ومسَّحَ بالأركان من هو ماسحُ
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطيّ الأباطحُ

قبل أن أقف على الفوائد التي أشار إليها أهل العلم، كالجرجاني في «دلائل الإعجاز» وغيره من أهل البلاغة.

قلت:

إن هذه العربية أمست بعيدةً عنا، وإننا في عصر، انقطَع عن عصورٍ قديمةٍ، بيننا وبينها مراحلُ بعيدةٌ، ألا ترى أن كلمة «سجال»، تردُ فيما يكتبه المعاصرون في مصنّفاتهم، وفي صحف عصرنا، وتردَّدت كثيراً حتى

أوحي إلى القرّاء، أن معناها الخصومة أو النزاع. وكأن جمهرةَ القرَّاء قد اطمأنّت إلى هذا الفهم، فكان لنا عربيةٌ معاصرةٌ، قُطعت فيها الرَّحِمُ، فذهب الأصلُ، وشاع الجديدُ.

قال صاحبي:

أليس لنا أن نقولَ: هذه لغةُ جرائدَ، وإن هذا من الخطأ الذي شاع؟

قلت:

لقد ذهب العصرُ الذي كنا فيه نُنَبِّهُ على الخطأ، فقد جدَّ اللفظُ أو الجملة التي كنا نحسبها خطأً ولكنها ثبتتْ واستقرَّت حتى أمسى خطيبُ صلاة الجمعة يخطبُ مستعملاً الكثير مما شاع. ألنا أن نقولَ، بعد أن وصلنا إلى هذا الحَدّ: أن في عربيتنا اليوم خطأ؟

قال صاحبي:

كأني موقنٌ أن اللغةَ لا يعرفُها معرفة وافيةً، تلك المعرفة التي تمسُّ عقلَ المرء وقلبه، غير أبنائها، والآخرون الذين عرفوا البيئة اللغوية من غير أبنائها، بخلاطهم ومعايشتهم لأهل اللغة.

قلت:

هذا مما اتَّفَقَ فيه أولو العلم، وإني لأستدلُّ على هذا بمعجم «المورد» الذي هو معجم إنكليزي عربي. لقد صنع هذا المعجم الأستاذُ منيرٌ البَعْلَبَكِّيُّ - رحمه الله -، والأستاذ منير صاحب إنكليزية، أتقنها بِجدِّه ودَرْسه، فهو ممن درسوا في الجامعة الأميركية ببيروت، وهو رجل مجتهدٌ، وعربيته جيدة، عرفها في النصوص الشعرية والنصوص التاريخية، فكان له طاقةٌ وسعةٌ، أن يصنع المعجمَ، وأنفق في صنعته هذه سنين طويلة حتى استوى له ما استوى، وعرف المعجم، واستعمله الدارسون، فكسب

رضاهم.

أقول: ولكن في هذا المعجم مسائل، يقالُ فيها ما يقال، إذا ما نظرنا إليها في المعجم الذي صنعه الأستاذ حسن الكرمي الذي أدركها بحُسْن فهمه.

وليست هذه المزايا في معجم الأستاذ الكرمي الذي وسمه بـ«المغني» إلّا لأنه مع اجتهاده وتنقيره في الفوائد، كان قد عاش مع الإنكليز من أهل العلم، في إنكلترة ثلاثينَ عاماً.

قال صاحبي:

إن هذا الذي تتوسَّعُ فيه، يَزُوِّدنا بزادٍ، ما أرى فينا غنىً عنه، وإن صرفنا قليلاً أو كثيراً عما نحن فيه.

قلت:

لقد كان هذا، وما أرى أننا خرجنا عن السبيل. ولنا أن نعودَ عوداً حميداً إلى مدرسة اللغات الشرقية، لنجدَ فيها الأستاذ «شارل پلا» الذي تحوَّلَ هو أيضاً إلى العمل في المعهد الإسلامي.

لقد كان لي حضورُ شيء من محاضراته في «البيئة البصرية»، وفي هذه تكملةٌ وإضافةٌ لعمله الذي انصرف إليه في «بيئة الجاحظ» وكان مادَّةَ دراسته.

لقد دَفَعَتْهُ مادَّةُ دراسته إلى الاتصال بالجاحظ اتِّصالاً، أحدث له ميلاً للجاحظ الذي أعجب بفكره وسَعَةِ معارفه، وقد كان في هذا مشاركةٌ لعبد السلام هارون الذي حقق الكثير من آثار الجاحظ. ومن هذه المشاركة تحقيقُه لرسالة «التربيع والتدوير» التي زوّدها بمقدمة مفيدة، دلّت على مبلغ إدراكه لمعارف الجاحظ.

قال صاحبي:

لقد كان لي أن قرأتُ، في دراسات شارل پلا، الكثير من المسائل التي صحَّح فيها ما لم يوفَّق له، من كلام الجاحظ الذي جاء معدولاً عن جهته. وكان لي أن استمعتُ لمحاضرة له، ألقاها في كلية الآداب ببغداد عن الجاحظ، فكأني استمعت لعربيٍّ فصيحٍ، ألمَّ بكثير من فنون القول، فعجبتُ أن يكون هذا الفرنسي قد أتقن العربية لغة ونحواً وأداءً. وتذكرت وأنا استمع، أني كنت قد حضرت في بغدادَ، أستمعُ محاضرة للأستاذ ماسينيون المستشرق المعروف عن «النقابات في الإسلام» فغاب عنّي الكثير مما قال، لأنه لا يُطيقُ التَّحَدّثَ بالعربية التي تُفْهَمُ، دعْ عنك لكنته الأعجمية، بل أذهب إلى أنه لم يكن له أن يَضَعَ ما يريدُ في جمل واضحة مفيدة.

قلت:

وأعودُ إلى الأستاذ «شارل پلا» فأجده يكتب المباحث بالعربية كما يكتُبُها بالفرنسية، وأنه يجيدُ في كليهما إجادةً مقبولةً. وأذكرُ وأنا أثبتُ هذا الذي قدَّمت من فضائل الأستاذ پلاّ ما كتبه الجاحظُ في «البيان» عن موسى الأسْوَاري الذي كان يتوجَّهُ لمن يسمعه من العرب بلسانٍ عربيٍّ مبين، ثم يلتفتُ، فيخاطبُ غير العرب بالفارسية. قال الجاحظ: فما أدري بأيهما كان أفصَحَ.

وأبقى في مدرسة اللُّغات الشرقية، وفي خزانة كتبها، لأشيرَ إلى من عرفته من أهل العلم من الفرنسيين، ومنهم المستشرقُ الكبيرُ وليم مارسيه الذي كان يجيدُ العربيةَ الفصيحةَ، كما كان عارفاً بالألسن الدارجة الإفريقية. وكنت أراه يتحدَّثُ مع الطلبة الجزائريين بجزائرية أعجمية، تسمعها، فتحسب أن الناطقين بها غُتمْ أعاجمُ، لما شابها من كَلِم دخيل،

يعرضه فرنسي، قد زُوِّرت صورته، فتبدّل عَجَباً، وبعضُهُ شيء بربريٌّ إفريقيٌّ. وهو يتوجَّهُ إلى المغاربة، فيكلِّمُهم بلسانهم، وهو غير الذي يدرج به التوانسة.

ثم أقرأُ شيئاً من مصنَّفات لوليم مارسيه غير المَوَاد التي خصَّ بها دائرة المعارف الإسلامية، ومقالات أخرى في مجلات فرنسية خاصة بالدراسات الإفريقية.

قال صاحبي:

وكان لي أن قرأت كتاباً، أصله فرنسي، عن الإسلام، ترجمه أحد الكتاب العرب لهنري ماسّيه، أشار المترجمُ إلى مدير مدرسة اللغات الشرقية. وكأنّ الكتابَ تعريفاتٌ، ليس فيها جَهْدٌ علميٌّ ذو قيمة عالية، قصد مؤلفه أن يكونَ بين أيدي الفرنسيين من غير أهل العلم.

قلت:

نعم، لقد عرفتُ هذا الكتاب في سلسلة، تُصْدِرُها دارُ النشر الجامعية بعنوان «ماذا أعرف» ولم أكن أعلم أن أحداً ترجمه، وإني لا أظنُّ أن المترجمَ ليس من أهل العلم والاختصاص، لأنه صَبَّ جَهْدَهُ في شيءٍ، ليس في القارىء العربي حاجةٌ كبيرةٌ إليه.

إن المؤلف الفرنسي غيرُ معروف في الدراسات العربية، لأن شهرته أنه مُتَّصِلٌ بالثقافة الإيرانية، وقد عُرف بما حرَّره من موادَّ، تَتَّصِلُ بالثقافة الإيرانية في «دائرة المعارف الإسلامية».

ولقد عرفت من أساتذة هذه المدرسة المسيو جان كانتنو اللُّغوي المعروف الذي أصبت لديه معرفةً مفيدةً باللغات السامية. ثم قرأت شيئاً من مصنّفاته عن الأنباط ولغتهم، وقرأت له كتاباً عن الأصوات العربية

الذي أشار فيه إلى الأصوات العربية التي ضاعت، ومن ذلك الضاد الضعيفة التي ذكرها سيبويه في باب الإدغام التي لا نعرفها فيما بقي من نطقنا للأصوات، في الألسن الدارجة.

رأيت هذا الأستاذ الجليل، وسعِدْتُ بعلمه وخلقه. وقد كان لي أن أجِدَ سعادتي، وأنا أبحثُ عمن يشرفُ على رسالتي للدكتوراه، فكان نِعْمَ مَنْ عرفتُ من الأساتذة الذين عَرَفَهُمْ أصحابي من الطَّلَبة العرب. وسآتي إليه عند الكلام على الرِّسالة والإشراف.

وكنت في مدرسة اللُّغَات الشرقية أبحثُ عن الكُتُب النَّادرة، وما صنَّفه المستشرقونَ، فوقفت على الكتب النادرة التي طُبعَتْ في بغداد والبصرة والمَوْصل. وكان من هذه ما صنَّفه يوسف غنيمة، من نصارى أهل العراق، عن تجارة العراق، في العصور المتأخرة؛ ومن هذه النَّوادر كتاب «اللمعة الشهية في نحو اللغة السربانية» وقد طبع في الموصل في أواخر القرن الماضي، وصاحبه المطران يوسف داود. وقد كان من هذه جملة كتب طبعت في لبنان في القرن الماضي في نحو اللُّغة الآرامية.

وكان لي من هذه الكتب «معجم اللباب في اللغة السريانية» المطبوع في روما للأب القِرْداحي. وقد سعيتُ في اقتناء شيء من هذه الكتب، في مكتبات باريس، ولا سيما المكتبة الشرقية ليوسف صومائيليان الأرمني.

وقد عرفت في مكتبة هذه المدرسة أحد خازنيها للكتب الإيرانية والكتب المتصلة بلغات بلدان أواسط آسية التي ضُمَّتْ إلى الاتحاد السوفييتي هو «علي بن علي بن علي»، وقد كان رقيقَ الحاشية من أهل أذرْبَيجانَ الذي صرَّح لي في أوّل لقائي به أنّه شِيعي، وهو يحسبُ أني شِيعيٌّ، فأراد أن يتألَّفني. ولم يُثْنِني هذا عن الإفادة من خلقه وكَرَمِه.

كان لي أن أقفَ بوساطته على كتب نفيسة نادرة، كان منها كتاب إيراني هو «فصل الخطاب في تحريف كتاب ربّ الأرباب» لمؤلف إيراني، هو أبو القاسم الطَّبَرَسي النوري.

قال صاحبي:

وماذا في القرآن من تحريف كما يُشير إليه عنوانُ هذا الكتاب الإيراني؟

قلت:

إن مؤلف الكتاب النوري الإيراني، زعم أن التحريف وقع في القرآن. وهو يدرج ما حُرِّف في الآيات مرتبة في السور، فقد ذكر ما حُرِّف من سورة البقرة، وما حرف من سورة آل عمران، وما حرف من سورة المائدة، وهو يمضي في مزاعمه، فيدرجُ في ترتيب ما حرِّفَ من السُّوَر كلها.

وإنه حين يبدأ التحريفَ، يرويه في خبر، فيه رواية على طريقِةِ أهلِ الحديث، وتنتهي الروايةُ، فيكونُ آخِرَها أحدُ رجال الشيعة الذي يستفيد التحريف من الإمام جعفر بن محمد.

وأذكر من هذا، أن سائلاً يسأل جعفر بن محمد قائلاً: أتقرأ - جُعِلتُ فداك - ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران]. فقال الإمام: لا أقرأ، بل أقرأ: «كنتم خيرَ أئمةٍ أُخرجت للناس».

قال صاحبي:

أذكر أنك حدثتني يوماً، فقلت: إنك انتسخت لنفسك جملة كتب من مطبوعات قديمة، ما كان لك أن تصوِّرها، إذ لم يكن في هذه المكتبة أجهزة تصوير، فهل انتسختَ شيئاً من أخبار هذه التَّحريفات التي ذكرها الطَّبَرِسِيُّ النُّوريُّ؟

قلت:

نعم، لقد اخترت جملة أخبار، زُعم أن فيها تحريفاً، في شيء من الآي، وقد كان لي هذا لأفيد منه، وأستشهد به على ما زُعم من كذب.

د- في كلية فرنسا

أثبت في موضع سابق من هذا الموجز شيئاً عن هذه المؤسسة العظيمة، وأقول: إن كبار الأساتذة يختمون فيها عملهم الجامعي. وأعود إليه ثانية، لأعرضَ لأستاذين من كبار المستشرقين، عرفهما الدارسون العرب، وكان لهما صلة بالبلاد العربية، وهما:

الأستاذ ماسينيون الذي أذكر أني زرته في أوائل أيامي في باريس، لقيته في داره، وقلت له: إني فلان أحد الطلبة العراقيين الذين جاؤوا في أوَّل بعثةٍ علميةٍ إلى باريسَ، بعد الحرب العالمية الثانية.

لقد رحَّبَ ترحيبَ أستاذٍ كبير، شغل بنفسه وما يكونُ من شهرته، فليس بحاجةٍ أن يعرف طالباً، ليس بشيء في حسابه، وقال لي أوَّل ما قال: أسُنِّي أنت أم شيعيّ؟

ولم يُمْهِلْني أن أجيبَ عن سؤاله بما أعقبه من زيادة القول. قال: ستقولُ: هذا مستشرقٌ نصرانيٌّ، وإن توسّعت، قلت: إنه استعماريٌّ، يحاولُ أن يفرِّق بين المسلمين.

لكني قلت: لا، لم يكنْ لي أن أذهبَ إلى ما ظننتَ، فإني أجلُّك لعلمك وفضلك، وإن حكومة فرنسا تجزي خيراً رجالَها الذين أحسنوا إليها، وبذلوا في خدمتها. وإني أعرفُ أنك رجلٌ قريبٌ من المسلمين، في

نهجك سبيل التصوُّف الذي صرفت إليه سَعْيَك.

ولكنه عاد إلى كلامه، ولم يَثْنِهِ عنه ما كان من إطرائي له، قال: أنتم مَعْشَرَ العراقيين، تُنكرون أنكم منقسمون في طائفتين، كأنكم ضدّانِ، لا يجتمعانِ، على قربِ بعضكم من بعض في العَيْش والسكن والعمل.

إنكم منقسمون إلى سُنّة وشيعة، فحواضركم في جنوب العراق مدن شيعية، وفيها مدن لا تلقى فيها سنيّاً إلا أن يكون قد حلَّ فيها موظفاً للحكومة، مثل الكاظمية وكربلاء والنجف. وأذكر أني دخلت الكاظمية، في صحبة أحد من العراقيين، ممن عرفتهم في بغداد، وأحببت أن أزور مرقدَ الكاظميين وأشهدَ ما يكون من رسوم الزيارة. وقد استجاب صديقي إلى طلبي، بعد أن أوصاني ألا أَنْبِسَ ببنت شَفَةٍ، وأن أصحبَهُ، وأقلدَهُ فيما يقومُ به. وتمَّتِ الزِّيارةُ، ورأيتُ ما كان لي أن أراه من جموع الزائرين وترتيلهم وبكائهم وما يكون من تقبيلهم لما قام على الضريح من نُصْب عجيبِ الصَّنْعَة، قد ألبس بالذهب. وعدت، وقد حملت معي فوائد جمَّة.

قال صاحبي:

عرفتُ من أخبار هذا الأستاذ أنه دوَّن رحلته تحت عنوان «بعثة آثارية في بلاد الرافدين»، فهل ذكر فيها شيئاً مما كان له في بغدادَ والبصرةِ وغيرهما.

قلت:

لم أقفْ على شيء مما حدَّثني به، ولكنه انصرفَ إلى أمور علمية، كوقفته في المستنصرية، ووقفته في «جامع الحَيْدَرخانة، ووقفته في إيوان كسرى وغيرها.

وأعود إلى ما قاله الأستاذ ماسينيون:

إنكم تُنكرون أنكم مجتمعان، لا يُمكن لهما أن يَتَّحِدا، ولكنكم في الحقيقة مجتمعان منفصلان. إن المجتمع الشيعي غيرُ المجتمع السّنّي، لكل منهما عاداته الخاصَّة وطريقتُه في الحياة.

وعاد الأستاذ ماسينيون يسألُني عما جئتُ من أجله، وأي مادَّة علمية ستكونُ موضعَ درسي. وبدأت أتحدثُ إليه، وأجيبُه بعربية فصيحة. إنه آثر أن يكون حديثُهُ معي بالعربية التي يُعرِبُ بها. إنه ألف عربية دارجة، فيها الخليطُ من عامِّيَّة بلاد الشام وألفاظ مصرية، ولم تخلُ من كلمات تونسية أو جزائرية.

لقد بقيت صِلَتي به، فكنت أزورُه مرَّة في الشهر، وأذكر أني زُرْتُه، فوجدتُ رجلَ دين نصراني بلباسه الديني، وإذا هو القَسُّ عبد الأحد المَوْصلي الذي يرعى كنيسة شرقية في باريس. وكان للأستاذ ماسينيون توجُّهٌ إليه، فقد طلب إليه أن يقيمَ قُدّاساً، يُتلى ويُخَصُّ به منصور الحلاَّج الصوفي. لقد دهش الأبُ لطلب الأستاذ، لأنه لا يفهمُ كيف يقام قدّاسٌ لرجل مسلم!! وكان يسألُني أحياناً عن جماعة عراقيين، بينه وبينهم صلاتٌ، ومن هؤلاء غيرُ واحد من الآلوسيين الذين عَرَفهم في أوّل زيارة له لبغداد، قبيل الحرب العالمية الأولى، لقد عرف السيد محمود شكري الآلوسي، والسيد نعمان خير الدين وغيرهما.

قال صاحبي:

لا بد أن تكونَ قد عرفت شيئاً عما صنَّفه الأستاذُ ماسينون غير ما نعرفه عن كتابه «مأساة الحلاّج» الذي عُرِف به الدارسون للتصوُّف الإسلامي.

قلت:

كنتَ قد أشرتَ إلى كتابه الموسوم بـ«بعثة آثارية في بلاد الرافدين». أما غير هذا فقد كتب الكثير عن التَّصَوُّف، وعن مسائلَ أخرى في اللغة والأدب والموسيقى، كما عالج مسائل تاريخية، تتصل بالمشكلة الفلسطينية.

وقد جمع هذا الكثير من الدراسات في كتاب وسم بـ«الأوبرا الصغيرة».

قال صاحبي:

أذكر أن الأستاذ أكرم فاضل قد ترجم بحثاً له عن اللُّغة البغدادية. وقد قيل لي: إنه عرض في فصل آخر لحكايات ألف ليلة وليلة. كما قيل لي: إنَّ لهذا المستشرق الشهير مكانةً عاليةً في دوائر الاستخبارات.

قلت:

كأني لمحتُ هذا في كرّاس، حرَّره الأستاذُ ماسينيون عن الإسكندرونة وأنطاكية، حين برزت هذه المسألة، وكانت تركيا تسعى إلى ضمِّ هذه الأقاليم إليها، وهي عربيةٌ سوريّةٌ. قد كان مثبتاً تحت اسم الأستاذ ماسينيون محرِّر تلك الكرّاسة عبارة «من المكتب الثاني». إن هذه العبارة تشير إلى أنه كان مُتَّصِلاً بهذه الأجهزة الخاصَّة.

وأعودُ إلى «كلية فرنسا» لأشيرَ إلى أن من أساتذتها الكبار كان «كاستون ڤيتْ» وهو من أهل العلم الذي عرف الكثيرَ عن تاريخ مصر في عهد المماليك. وكان الدارسون المصريون لتلك الحقبة يقصدونه، ليفيدوا من علمه.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

هـ- في المعهد الكاثوليكي

قلتُ:

كان لزاماً عليَّ أن أتهيأ لدرس اللُّغات السَّامِيَّة، وكنت قد أشرتُ إلى هذا، في موضع سابق من هذا الموجز. لقد كان عليَّ أن أبدأ هذه المسيرة، فأدرسَ اللغة العبرانية في هذا المعهد، فذهبتُ، وانتسبتُ إليه تلميذاً ملتزماً بالحضور التام، ودفعت أجورَ الدراسة، وزُوِّدت بالكتب التي أُعدَّتْ للمبتدئين، وأذكرُ أني ما كنتُ أمضي في هذا الدَّرس في الشهر الأول حتى وجدتني قريباً من هذا الدَّرْس، ذلك أن العبرانية والعربية ولغاتٌ أخرى عدَّة، هي أخوات، تجمع بينها أواصرُ النَّسَبِ التَّاريخي.

عرفت الكثيرَ من مواد العبرانية ونحوها وصرفها بعد أشهر عدَّة، وصرت أقرأُ نصوصاً في العهد القديم مبتدئاً بـ«سفر التكوين». وهكذا مضيتُ في هذا الدرس؛ وكان لي فرصةٌ أخرى في هذا المعهد، أن أدرس الآرامية، وتبعت خطَّتي التي رسمتها لنفسي، وأعانني على رسمها صديقي الأستاذ حسن ظاظا المصري.

لقد كان جُلُّ أساتذة هذا المعهد من الكَهَنوت أصحاب الرتب الكنسية الذين تضلَّعوا من علومهم، وكان لي مع كثير منهم لقاءاتٌ مفيدةٌ.

إن تلك المسيرة التي بدأتُها في هذا المعهد، في اللغتين العبرانية والآرامية، دفعتني أن أكملها بدرس الحَبَشية والبابلية الآشورية والسَّبَئية، فكان لي من محاضرات الأستاذ دورم ومحاضرات الأستاذ سومير، في السوربون، فوائدُ أعانتني في درسي وأنا أعدُّ رسالتي، بعد ثلاث سنواتٍ، أي في سنة ١٩٥١.

قال صاحبي:

وكنتَ قد ألمعتَ إلى أنك عرفت متحفَ اللُّوفر في فرنسا، فلا بد أن يكونَ ذلك في بعض فوائدك التي لا بُدَّ لك منها في درسك الذي فيه إلى اللُّغات السَّامية.

قلت:

كان يقالُ في المثل «رُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثاً»، وذلك انطلقتُ عجولاً كما نشطتُ من وثاق، فكنت أقصد ثلاث جهات في اليوم الواحد، حتى إذا أوشكت أن أحسَّ أني في الطريق الهادي، كان لي أن آخذ نفسي بشيء من تَؤُدَةٍ، ورحت أقول: «من سَلَكَ الجَدَدَ أمِنَ العِثَارَ».

و- «في معهد اللوفر»

قلت: إنه مدرسة كثيرٌ قصّادها الذين يريدون معرفة الخطوط القديمة والمعرفة التاريخية للشعوب التي لم يصلْ إلينا شيءٌ مسطور منها، في المصادر التي نعرفها عنها، بل وصلت إلينا ألواح فيها خطوطٌ ونقوشٌ. وكانت هذه مادَّةَ أهل العلم، في حلِّها وفهمها، وكان منها هذه الألواح التي وقف المنقبونَ عليها. وقد كان للعلماء الفرنسيين نصيبُهم من تلك الألواح، كما كان لكل من الألمان والإنكليز ثم الأمريكيين وغيرهم نصيبُهم. وكان علي أن أذهبَ إلى هذا المعهد، فأقفَ على شيء من تلك الألواح، وإلى الدراسات التي أنجزت فيها، من مرحلة فهم الأبجدية إلى معرفة الكلمات وتأليفها، وما يتبعُ ذلك من النظام النحوي والصرفي. ومن المفيد أن أشيرَ إلى أن في هذا المعهد مكتبةً عامرةً، تشتملُ على المصادر التي وجدت فيها ما أنا مفتقر إليه، في درسي للبابلية الآشورية.

لقد أمضيت سنةً كاملةً، وأنا أتردَّدُ على المعهد ثلاث مرَّات كل أسبوع. وكنت أحفظ لنفسي ما أختارُ من الفوائد اللغوية، مما اشتملتْ عليه الدِّراساتُ المعجمية لهذه اللغة، وقد اقتضاني ذلك أن أشدو شيئاً من الألمانية، أستعينُ به للوصول إلى الكلمات القديمة البابلية.

قال صاحبي:

كأنّ العلماءَ الألمانَ كانوا من أوائلِ من أبلى البلاءَ الحَسَنَ في هذه المعارف القديمة، وقد رأيت في فهارس مطبوعات ليدنَ شيئاً من معجمات بابلية آشورية، حرّرها العلماءُ الألمانُ.

قلت:

نعم! كان للألمان سَبْقٌ في المعارف التاريخية القديمة، ولم يكن اندفاع الألمان في هذه المعارف شيئاً من معارف الاستشراق الذي حرَّكته المصالح الاستعمارية، بل كان أولئك الألمان ممن أحبّوا التوجُّهَ إلى المعارف القديمة. لقد كان لهم اختصاصٌ في معرفة الأمم الشرقية، فعرفوا آثار الفرس الأقدمين، كما عرفوا الشعوب السَّامية.

وأعود إلى زادي الذي تزوَّدتُ به في هذا المعهد، وكنت قد اجتزأتُ منه بالمعرفة اللغوية للكلمة. لقد وجدتُ نفسي محتاجاً أن أعرف الكلمةَ وأقسامَها، ومن هذا ذهبتُ إلى الجملة. وأنا في كل مرَّة أجدني مضطراً أن أنظرَ في جملة من اللُّغَات التي درستُها، واقتنيتُ من أجل ذلك مصادِرَها.

ز- (قبل الوصول إلى رسالة الدكتوراه)

قلت:

كان هذا في أواخر سنة ١٩٥١ وقد كنت قطعتُ من مسيرتي العلمية ثلاثَ سنواتٍ، لقيت فيها شتاءً لم أعرفه. وعدت أبصرُ من أمري ما كنت قد أنجزتُه في طريقي إلى الغاية، ورأيت أن ليس من المفيد أن أشقَّ على قارئي، فأدفعه إلى أن يملَّ من نعمتي، وكأني حملته على أن يسأمَ من عذابي، وهل يحسنُ بالمرء أن يؤذيَ من أحبَّ أن يتوجَّه إليه، وهل لأحدنا أن يظلمَ نفسه، فيشقى بظلمه، فيسعى أن يشركَ أصحابَه من جمهرة القُرَّاء فيما يحزبهُ مما يشقى فيه؟

قال صاحبي:

أراك قد قسوت على نفسك، فأنا بيقين أن جمهرة القُرَّاء من أصحابي هم صحبُك المُصْطَفَون الأخيار الذي ساروا معك، وأنت ترسِلُ إليهم إنسانيةً، لم يعرفوها إلا لدى الذين أوتوا من سَعَة الفكر ما به يتألّفون غيرهم.

قلت:

لا عليك، دعك من هذا فأنا أشعر أني جُرت عن السبيل، وحَمّلت أخي القارىء ما لا يُطيقُ، فآثرتُ أن أضرب صفحاً، وأصرفَ نظري إلى حواشٍ، أهمَّتني، وهذه الحواشي تَتَّصِلُ بحياتي كلَّ يوم، وصلتي بأصحابي ولا سيما إخوتي العراقيين الذين سعدت بهم، وصلتي بغيرهم من الطلاب العرب والفرنسيين.

قال صاحبي:

لقد قرأتُ، فيما كتبه العربُ، عن مجتمع الطلاب في الحي اللاتينيِّ،

الكثيرَ الذي حمل الطلاب في كل بلد من بلادنا العربية على أن يكونَ لهم شيءٌ، مما يسعدُ به الفرنسيون.

قلت:

إن مجتمع الحي اللاتيني، على ما يُخَيَّلُ للناس أنه مجتمعٌ لهو وعبث، هو مجتمع جِدٍّ ودرسٍ، وإن مشاهد اللَّهْو والعبث صنع جماعات، ضلت السبيلَ، فشغلتْ باليسير الذي لا قيمة له، وخرجت على المألوف من العادات والسلوك.

إن مجتمع الطلاب مجتمع عاملين، صُرفوا إلى جِدِّ الحياة، فتراهم زَرَافاتٍ يقصدون أروقة الدرس والمكتبات، وهم مناضلون، انصرفوا إلى نضالهم، إنك لتجد الطالب يخرج من محطة قطار ما، تحت الأرض، يحثُّ الخُطَىٰ، وهو يتبلَّغُ بشيء من طعامٍ، قبل أن يَصِلَ إلى قاعة المحاضرة، أو الذهاب إلى المكتبة، ليرجعَ فيها إلى مصدر، ذكره الأستاذ.

ولم يتيسَّرْ في تلك الحقبةِ ما لنا في هذا العصر من أجهزة التصوير والنسخ، فكان على الطالب أن ينسخ بيده ما يأخذهُ من الأستاذ.

وتنتهي محاضرات الصباح، فيخرجُ جمهور الطلبة قاصدينَ المطاعِمَ الجامعيَّة التي تقدِّمُ المفيدَ من الطعام بثمن بخس، على أن يتقدَّم الطلابُ أرتالاً، يحملونَ الصحونَ والملعقةَ والشوكةَ والسكينَ للعمال الذين يُعطونهم، من هذا وذاك، من أصناف الطعام، فيذهبُ كلٌّ إلى موضع، ليأكل مع جمهرة من طلاب، اختلفوا في العادات، والمعتقد واللون، قدموا من كل حَدَبٍ وصوبٍ، لطلب العلم، فاجتمعوا مع غيرهم من سكان المعمورة.

فمنهم من يقصدُ المكتبةَ، يستأنفُ العمل في قراءة أو كتابة، ومنهم من يقصدُ المقهى، ليستمتعَ بفنجانِ القهوة، وآخرون يتوجَّهون إلى حديقة اللُّكْسِمْبُورغ الفسيحة الواسعة، يستريحُ مفيداً من إشراقةِ الشَّمْس التي إنْ جاءت، كان لأهل الحيِّ متعةٌ لا تَعْدِلُها متعةٌ. فأنت تجِدُ الشيوخَ والعجائزَ وربَّاتِ البيوت مع أطفالهم مستمتعين بالشمس والهواء الطَّلْق، منصرفين أحياناً إلى جِدٍّ مفيدٍ كقراءة كتاب أو صحيفة يومية.

قال صاحبي:

وهل كان لك بعضُ الصِّلَة بالطُّلَّاب العَرَب، أو أنكم جميعاً قد تجتمعون لأمر يَتَّصِلُ بمشكلةٍ عربية مثلاً.

قلت:

قد يكون شيءٌ من الاتِّصال بين الأفراد، فقد تتعرفُ أحداً من التونسيين أو السوريين أو المغاربة ممن يحضرون معك إحدى المحاضرات، فلا تتجاوزُ تلك المعرفةُ هذا الحدَّ. غير أنَّك تجد المصريين أو السوريين أو اللبنانيين جماعاتٍ منفصِلٌ بعضها عن بعض. وقد تعجبُ أن تَجِدَ التونسيينَ مجتمعينَ، ليس فيهم جزائريٌّ أو مغربيٌّ. ولك أن تلحظَ هذا حتى بين الأفارقة، فالسنغاليون فئةٌ، وأهل النيجر فئةٌ أخرى غير التّشاديين. وكأني وأنا أنظرُ إلى أصحابنا العرب في شَتَاتِهم، أتلو قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم].

قال صاحبي:

وما حالُكم أنتم مَعْشَرَ العراقيينَ، في هذا الجمع الغفير؟

قلت:

نحن فُرادَى دونَ العَشَرة، وهم من أعرف أنا، لأني سمعت أن عراقيين

آخرين يدرسون العلوم المختلفة، قد توزَّعوا في الآفاق، وفي باريسَ بضعة أفراد منهم...

والذين أعرفهم نحنُ الأربعةَ المبعوثين في اللُّغة العربية، كان ثلاثةٌ منهم قد توجَّهوا للدَّرس الأدبي، فأحسنوا العملَ، وانتهوا إلى غاية المَدَى. وأنا كما علمتَ ركبتُ المركبَ الخَشِنَ، فكان لي من شقائي أوّلَ ما بدأتُ الرحلة شيءٌ انتهى إلى مُتْعَةٍ، رضيتُ بها قَدَراً ونصيباً.

قال صاحبي:

كنت أقولُ في نفسي: إنَّ الطُّلاَّب العربَ سفراءُ لبلدانهم، يؤدُّون من العمل المثمر ما لا يُؤَدِّيه السُّفَراء الكبارُ الذين فازوا بالقدح المُعَلّى.

قلت:

قد يكون شيءٌ من هذا، لو أن العربَ حُملوا على أن يكونَ لهم هذا الذي فكَّرْتَ فيه، ولكنهم في حاضرهم كما قال الشاعر التِّلمسَانِي من شعراء القرن السابع:

عُرْبٌ رأيتُ أصَحَّ ميثاقٍ لهمْ ألاَ يصِحَّ لَدَيْهِمُ ميثاقُ

قال صاحبي:

لقد صدق ذلك الشاعرُ القديمُ، وكأنه نَطَقَ بما يَنْطِقُ به أهلُ عصرنا، أفكان للجامعة العربية بميثاقها ما جعلَ أمَّةَ العرب «وحدة» بمصطلح عصرنا!!

قلت:

نعم، كنا فِرَقاً وكنّا أحزاباً، ولم نكن أخلاَّء مُتَّقين، وصدق الحق في قوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف].

ولي أن أقول: لم يخلُ المجتمعون من الطلبة العرب من أصفياء، تجد فيهم الخُلُقَ الكريم، وإني لأحمد من أولئك أصحابي الطلبة السودانيين وأخصّ منهم أخي محمد أحمد ياجي - رحمه الله -. لقد عرفته أخاً وفيّاً صاحبَ خُلُق ودين، أجمع إخوانُنا العراقيون على مَوَدّته، وأنا أقصدُ نحن الأربعة. وقد عرفه الفرنسيون من طلاب وطالبات صديقاً حميماً، فكان بينه وبين كثير منهم مودَّةٌ ورحمة.

لقد قيّض لأخي محمد أحمد ياجي أن يعرفَ فرنسيةً صالحةً، فعرف ذويها وأهلَها كافّةً، وقد أحبّوه وتعلّقوا به، فكُتِبَ له أن يقترنَ بصاحبتِه التي رضيتْ به زوجاً صالحاً مدى العمر.

وكان لنا نحن العراقيين أن نشهدَ ونفرحَ بزواج صاحبنا الذي دعانا، فعرفنا أهلَ العروس، وسعدنا بلقائهم.

قال صاحبي:

لعل هذا الأخَ السُوداني هو الذي عرفناه في بغداد وزيراً مفوَّضاً للسودان، والذي عقد بينه وبين كثير من العراقيين صداقةً وإخاءً.

قلت:

نعم! هو ذاك الذي عرفتَه أنتَ مع أصحابك من العراقيين.

لقد سألتني أن أحدّثَك عمن عرفته من الطلبة العرب، ولو أني مضيتُ في جوابي، لكان لي أن أبسطَ من أخبارهم القدر الوافي الذي لا يتَّسعُ له هذا الموجزُ الذي أنا فيه، ولكني سآتي إلى ما هو مفيدٌ مما كان. لقد كان لي ولإخوتي العراقيين أن عرفنا أحدَ الطلبة المصريين الذي كان يحضرُ معنا درس الأستاذ بلاشير، في مدرسة الدراسات العليا، في السوربون، ليسمِعَنا رسالتَهُ التي أعدَّها في «الفَرَج بعد الشِّدَّة» للتَّنوخي. كان يقرأ ما حرَّره

باللُّغة الفرنسية مثبتاً ما أفاد منه من أقوال التَّنُوخي، وكان الأستاذ بلاشير يستمعُ له، ويستوضحه عما يريدُ بين حين وآخر مما أثبته في الفرنسية. وقد كان الأستاذُ كثيراً ما يصحِّح له القولَ منبهاً له ولنا: ألا تحرِّروا بالفرنسية وفي أذهانكم ما يقالُ في مثل هذا في اللغة العربية، لأن ذلك قد يؤدِّي بكم إلى أن تعطوا القارىءَ الفرنسي شيئاً لا يقبلُهُ، وإن فَهِمَ المرادَ.

قال صاحبي:

ولا بُدَّ أن يكون في هذا الدرس مشاركةٌ فيه من لدن الحاضرين، فيفيد هذا من ذاك ومما يبسطُه الأستاذُ المحاضرُ، وكأني أشعرُ أن جملة المحاضرين عددٌ قليلٌ، يتيسَّر فيه هذا الضَّرْب من الدرس.

قلت:

هو كما رأيتَ، ولكني أعودُ إلى صاحبي الأخ المصري صاحبِ البحث الذي تجرَّأ في دَرْسه على العلم، فأفاد من غيره من الدَّارسين العرب، ولم يُشِرْ إليهم في حواشي الدرس. لقد نبَّه على هذا أحدُ الطلبة التونسيين، وأيّده الأستاذُ بلاشير، وأنحى باللائمة على صاحب البحث.

وعاب الأستاذُ على صاحب البحث أنه لم يستوفِ نقدَه للمصادر التي رجع إليها. ثم قال: كان ينبغي أن يختمَ هذا البحث بمعجم صغير للألفاظ الحضارية التي جدَّت في القرن الرابع الهجري.

وإذا كان لي أن أذهبَ إلى شيء، يَتَّصِلُ بصاحب البحث عملاً بما يقال: «الشيءُ بالشيء يُذكرُ»، فإني أجدُ أن من المفيد أن أبسطَ بعضَ ما يكونُ من صفات عصرنا وهو:

إن هذا الذي كان ممن شقي بتنبيه الأستاذ بلاشير له وتقريعه، وأخذه له

بالغلطة، وقد علا حظُّه، فسعد بما يسعى نظراؤُه من أصحاب الحيلة والكذب، فغدا بعد سنوات الأستاذ والمفكِّرَ العربيَّ الكبير. وقد مضى يتقدَّمُه اسمُه وألقابُه العلمية في البلاد العربية، فجاء إلى الكويت، وحظي باستقبال واحتفال من لدن الوزير فلان والوزير فلان، وقابل أولي الأمر، ولم يكنْ له أن ينزلَ من عليائه فيرانا نحن المستضعَفِينَ العامِلِينَ في جامعة الكويت، وكثيرٌ منا يعرفُهُ المعرفة الأكيدة. وقد ظهر في التلفزيون بصحبة كبير من أولي الأمر في الكويت، هذا يُطريه ويجلّه، ويُضفي عليه حُلَّةً من إعجاب، لا حدّ له.

وأذكر أن الأستاذ الجليل الدكتور عبد الرحمن بدوي كان ممن يعمل في الكويت، وكنت أنا معه في كلية الآداب، وكان يسكنُ في العمارة التي أسكنُ فيها، وكان قد شهد المحتفى به في التلفزيون، فاتصل بي في الهاتف، وقال: هل شهدتَ ما كان من عَجَبٍ في التلفزيون؟

قلت: نعم! إني أعرفُ هذا الذي كيل فيه المدح، وألبسوه لبوساً لا يحتملُه، لقد عرفته في «السوربون» طالباً لا تحمدُ سيرتُه، فقد ناله من تبكيت الأستاذ بلاشير ما ناله، فكيف انقلب غيرَه بالأمس، فصار ممن يُشارُ إليه بالبَنَانِ؟

فقال الأستاذ بدوي: وأضيفُ فأقول: كنت ملحقاً ثقافياً في سفارة مصر، في سويسرا، إبّان العُدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦، وقد قُطِعَت العلاقاتُ بين مصر ودول العدوان الثلاثي. وكان من نتائج ذلك أن حُوِّل الطلابُ الذين بعثتهم مصرُ للدراسة في جامعات فرنسا إلى بلدان أخرى، وإذا طالب مصريّ قد قعد به الدَّرْس، وتأخَّرَ في الحصول على الشهادة، فحوّل إلى سويسرا، وطلب منّي أنا الملحق الثقافيّ أن أتدبَّر أمره، وأجد من بين الأساتذة السويسريين من يشرفُ على دراسته، وهو

هذا الذي برز في تلفزيون دولة الكويت يوم أمس، يصحبُهُ الوزير فلان، يحمل الألقاب التي لا يحملُها أيُّ عالم في الدنيا. وأضاف الأستاذ بدوي فقال:

لقد اجتهدت وسعيْتُ سعياً حثيثاً أن أجدَ من يُشْرِفُ على دراسته، فلم أوفَّقْ لذلك، لأني ما بعثته إلى أيِّ أستاذ، فينظر في وثائقه وما كان له فيما أنجزه إلا رفضَ الإشرافَ، لتقصيره وكسله، ولم يكن فيما كان معه الشيءُ الكثيرُ. وكأنّه بدأ مسيرةً جديدةً، بعد أن أمضى في فرنسا أكثر من ست سنوات. فكيف يكونُ هذا الخاملُ القاعدُ بين عَشِيَّةٍ وضحاها العَلَم الفَرْد الذي لا يُشَقُّ له غبارٌ؟

فقلت لأخي الأستاذ بدوي: أسمعتَ ما قاله هذا «المُتَشبِّع» بما ليس فيه؟ لقد نَسَبَ لنفسه أنه عضوُ الأكاديمية الفرنسية؟ وأنه عضوُ معهد فرنسا، وأنه يملكُ بزَّة الأكاديمية التقليدية مع السيف والأوسمة.

فقال الأستاذ بدويّ: لم يعرفْ مشاهدو التلفزيون الكويتي بما فيهم أهلُ العلم ما معنى عضو الأكاديمية في فرنسا، ولا يدرون كيف يختارُ هذا العضو، بعد أن يكونَ له في اختصاصه الدرجات العُلى، وكثير منهم حصلوا على جوائز الدولة التقديرية وجائزة نوبل...

فقلت له: إنه آمن أن الكذب صفةُ عصرنا الذي جهل أهلوه مكارمَ الأخلاق.

فقال: نعم، لقد أدرك هذا أن الكَذِبَ يحقِّقُ له ولغيره ما يصبون إليه. وقد علمتُ هذا من أني رأيته في الكويت، بعد ظهوره في التلفزيون وإطلاقِهِ أكاذِيبَه وأباطيلَه، وبادرته بقولي: أما تخجلُ، بل تستحيي من الكَذِب والادعاء، أفأنت عضوُ الأكاديمية الفرنسية وعضوُ معهد فرنسا،

وأنت الذي يُستفتى في منح جائزة نوبل وغيرها؟

فقال لي: كأنك ما زلت قابعاً في موضعك من الدنيا والحياة، لا تعرفُ النَّاس ولا أمورهم. إني لأطلقُ قولتي وهي باطلٌ، وأنا موقنٌ أنها تلقى سبيلَها، ولا يكتشفُ سرّها وكَذِبها إلا بعد زمان طويل، وقد تبقى غيرَ معروفة لدى الكثيرين.

قلت:

كأنه أراد أن يقول: إنه فيلسوفُ الكَذِبِ والباطلِ.

قال صاحبي:

ليس من عَجَب أن يكونَ الكاذبُ فيلسوفاً في كَذِبه وأباطيله، فكثيرٌ من أبناء عصرنا في بلادنا وفي غيرها قد رَكَنُوا إلى هذا التوجُّه، فوصلوا إلى أشياءَ، ينكرُها أولو العقل السَّوِيِّ، فكان ذلك مَذْهَباً جديداً.

قلت:

كأنك تومىءُ إلى جمهرة الذين ينطلقون في وضع الجديد من العرب وغيرهم، ولم يكونوا أهلَ معارف شَقُوْا في تحصيلها. ألا ترى أن التوجُّهَ الجديدَ في النقد منذ زمن ما أسموه «البنيوية» وما جدّ بعدَها من الرَّدِّ عليها وإبطالها، لم يصدرْ من لدن أهل علم. وأنا لا أبرِّىء الغربيين من هذا التوجه الكاذب إلى معرفة جديدة لم تكن لديهم، وليس مما أقيم على أسس راسخة.

قال صاحبي:

إن كان لنا أن نقولَ: إن أصحابَ الجديد في الأدب والنقد، فيهم أهل معرفة وعلم، ولا سيّما الغربيين فليس لي أن أجريَ ذلك على أصحابنا العرب الذين حسبوا أنهم أهلُ الدار الذين خلت لهم، وآمن بهم جمهور،

يتلقّى ولا يفكّر. لقد كان لي هذا الذي ذهبتُ فيه، بعد نظري في مجلة «فصول» المصرية التي رأيتُ فيها عجباً مما قيل إنه نقدٌ جديدٌ يُفيدُ من الأشكال والرسوم ففيه الخطوطُ والدوائرُ والإشارات.

كنا نقول في «الطلاسم» التي يمخرقُ بها الدَّجَّالون الذين يكتبونَ الرُّقَى والأدعية، فيحشُّونها برسومهم وخطوطهم، وكلمات لا تفهمُ، ليشعروا حامليها أنهم أهلُ أسرارٍ ومعرفةٍ بالخبيث من الأرواح وغير هذا.

قلت:

لا أطيلُ، بل سأوجزُ وأقولُ: انظرْ لهذا الذي ينشرُ في الصحف الأدبية، وإلى الأشكال والرسوم في المجلات الفنية، تجدْ أن هؤلاء الشُّبَّان شياطين مَرَدَة، أدركوا أن ما هم فيه سيجِدُ قوماً، يدَّعون أنه بواكير ثمار، أوشكتْ أن تنضجَ، ولم يعلموا أنه سفيرٌ، تذروه الرياحُ.

لو أن هؤلاء الشبانَ الشُّدَاةَ عرفوا سيرةَ الشاعر الفيلسوف ت س إيليوت، وكم شَقِيَ في تحصيله، وشرَّق وغرَّب، وعرف ما كان لدى المصريين القدماء والعراقيين في جبروتهم وحضارتهم في بابل وآشور والإغريق والرومان، وماذا في العهد القديم والكتب الأخرى، وتملّى في الأسطورة هنا وهناك، قبل أن تسمو بها الشرائع والأديان، أقول: لو أدركوا هذا كلَّهُ، لكانوا في مأمنٍ من عاديات ما هم فيه من أوهام...

قال صاحبي:

لي أن أقول: «كلُّ فتاةٍ بأبيها معجبةٌ»، ولك أن تقول: «أخذ القوسَ غير باريها». وأضيف أن باري القوس وصاحب صنعتها قد رحل عن عصرنا.

ولكم قلتُ: إني غرس يديك، فقد أفدتني وعلَّمتني، فقد تعلَّمْتُ الليلة أن الكلمة «سفير» دلالة لا يعرفُها إلاّ من سَبَرَ هذه العربية، فعرف أوابدها وأدركَ فوائدها.

وما أظنُّ أننا ابتعدنا عمّا كنتَ فيه في باريس، فهل لنا أن نعودَ إليه، والعَوْدُ أحمدُ؟

قلت:

لقد وجدت سبيلي، كما أشرتُ في صفحات مرَّت، بعد أن عانيتُ في الوصول إليه ما عانيت، وبدأت الدرس كما قدَّمت هنا وهناك. ثم اطمأنَّتْ بي الحالُ، ومضيتُ في زيادة معارفي في «الساميّات» مطلعاً على ما حرِّر من مباحث، في القرن الماضي، وفي هذا القرن، في المجلات الآثارية وغيرها. وقد كان لي بسبب هذا خزانةٌ عامرةٌ بالوثائق والحَوْليات والمصنفات في الفرنسية والإنكليزية والألمانية، إلى جانب ما استطعتُ أن أجِدَهُ في المكتبات الشرقية من كتبٍ قديمةٍ عربيةٍ وآرامية وبابلية وغيرها.

ثم بدا لي أن لي في باريسَ مجالاً، أضيفُ به إلى معارفي شيئاً، بل أشياءَ تَتَّصِلُ بالحَضارة الفرنسية، فكنت أحضر المحاضرات العامة في السُّوربون التي يقدِّمُها أساتذة كبارٌ في عصور الأدب كلها، إلى جانب أخرى تتَّصِلُ بالمعارف الفنية من رسم ونحت وموسيقى. إنك لتجدُ في قاعات المحاضرات العامة بين الحاضرين من الطلاب شيوخاً وعجائزَ جاؤوا مثلي للتزوُّد، وهذا متيسِّر لكلٍّ من طلب الفائدة.

قال صاحبي:

قرأت الكثير مما ترجم من آثار أدبية لكُتَّابٍ فرنسيين، وأخرى لكتَّابٍ

إنكليز وسواهم، وأدركتُ مما فيها أن التزوُّد بالمعرفة في ضروب الثقافة المختلفة متيسرةٌ للناس كافَّة، فقد قرأتُ مثلاً أن في باريس تعقَدُ اجتماعاتٌ مختلفةٌ، يعقدُها أصحابُ الرأي في السياسة والدين، وأصحاب المعرفة الذين يَسْعَوْن إلى معرفة الشعوب والأمم الأخرى، وهذه مفتوحةٌ لمن أحبَّ أن يَحْضُرَ.

قلت:

نعم، لقد كان هذا الذي أشرت إليه، وكنت أنا وآخرون سواي من الطلبة العرب وغيرهم نقصد هذه الندوات والاجتماعات، ونستمعُ لما يقال فيها، فنتعلمُ غير الذي يَتَّصِلُ باللغة والأداء معارف أخرى، في التاريخ القديم وما قبل العصور التاريخية، وفي الذي يَتَّصِلُ بعادات الأمم الأخرى، مما يعودُ بالفائدة لدارس علم الأنتروبولوجيا.

كنت أذهبُ لبعض هذه الندوات فأصل إليها بعد رحلة في القطار الذي يشرِّقُ ويغرِّبُ، ويعبر باريس شمالاً وجنوباً، ويمر تحتَ قاع نهر السين مرَّات عدَّة، وفي هذه الرحلة أتزوَّدُ بفوائد كثيرةٍ، مما أشاهدُه بين المسافرين من الفرنسيين وغيرهم، في العادات والسلوك، ومما كان لي من هذا أني رأيتُ أولئك الغربيين أهلَ معرفة، فما إن وجد المسافر مقعداً له حتى يذهب في صحيفته، كأنه يريدُ أن يَسْبُرَ أسرارَها، أو أنه يعودُ إلى كتاب، وصل فيه إلى صفحة معينة، فمضى يكمل قراءته.

ولا تعدمُ أن تجدَ بين المسافرين نَفَراً، وسِمُوا بـ«المتشردين». وهؤلاء فئةٌ من الرِّجال أو النساء، انحرفت بهم السُّبُل، فعكفوا على الخمر، وأُصيبوا بداء الإدمان، فأهملوا أنفسَهم، لا مأوى لهم، ينامون في الطرق، وقد يلجأُ بعضهم إلى التَّسَوُّلِ. ولهؤلاء قصصٌ وأعاجيب سآتي على شيء منها.

قال صاحبي:

كأنك مضطرٌ إلى أن تكونَ مأخوذاً بالشيء، وما يقرُب منه، فتكثر عليك بُنَيّاتُ الطريق، فتعرض لفوائد ما كان لنا أن نتَزَوَّدَ بها لولا هذا الاستطرادُ المُحبَّبُ.

قلت:

أعود إلى النَّدَوات والاجتماعات التي رأيتُها واستمعت لما كان يقالُ فيها. لقد حضرت إلى اجتماعات الشيوعيين، وهم إما اجتمعوا لاحتجاج على عمل قامت به الحكومة، فأساءت إلى العمَّال مثلاً، وإما أن يكونوا اجتمعوا احتفالاً بذكرى فَوْزهم أو نجاحهم في معركة، وإما في عرضٍ لمشهد فنيٍّ، قام به بعضهم في تسجيل شيء تاريخي، يخصُّ فرنسا أو يخصُّ بلداً آخر.

وفي كلِّ هذا كنت أتزوَّد بفائدة.

وكما كنت أحضر هذه الاجتماعات للحزب الشيوعي، كنت في الوقت نفسه أحضر اجتماعات خصومهم من أحزاب اليمين الذين يَسْعَوْن جاهدين أن تَظَلَّ فرنسا في عهد الجمهورية الثانية إحدى القوى العظيمة في العالم. كان هذا الشعورُ هو الهاجسَ الذي حفز الجنرال ديغول إلى أن يقِفَ من الدَّوْلتين العُظْمَيْينِ موقفَ النِّدِّ للنِّدِّ.

وإذا كان لي هذا، فأنا أجدُ متعةً ثقافيةً، أن أعرف الفوضويين «Les anarchistes» فأجدهم يندفعون في نظرتهم الإنسانية، فينكرونَ على الشُّيوعيين آفاقهم الضَّيِّقة في السَّيْطرة على حرية الإنسان. وكان لي أن أحضرَ اجتماعات الاشتراكيين الذين كانوا أشدَّ عداوةً للشيوعيين من أصحاب اليمين.

ولا يفوتني أن أذكرَ أني عرفتُ أصحاب الكنيسةِ، من الكاثوليك والبروتسنت، وحضرتُ اجتماعات كلِّ طرف، واستمعتُ إلى ما كان يقال فيها، وردّ الكاثوليك على البروتسنت، وأفدتُ من كل ما كان يعرضُه كلُّ فريق منهم.

وكان لي أن أحضَر لما يكونُ من معارضِ أهل الفنِّ، في الرَّسم والنَّحت، فأجد أهلَ الفن في جَدَلهم ونقاشهم ونقدهم لما كان في تلك المعارِض.

قال صاحبي:

لقد كان لي أن أتعلم منك الكثير، وما كان لي أن أتعلَّمَه، لولا ما كان لي من سماع منك، فأنا فخور أن أؤديَ عنك، وأتلقَّف عنك من الكَلِم الذي لم يبق بيننا من يعلَمُه، فمن ذلك قولك لي مرّةً: «أنت طُلَعَةٌ»، فمضيت ليلتي أُفَتِّشُ عنها، فوقفتُ عليها أنها تعني من يحبُّ الاطِّلاع على الأشياء نظير «هُمَزَة» و«لُمَزَة» في قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة].

ومن هذا قولك في نعت الساقط المرذول من الشيء أنه «سفير» الذي عرفتُه بعد ذلك أنه الساقط من ورق الشجر، مما يبس منه، فقد يكون لنا أن نأخذَ من هذا ما نفيدُه ونحن ننظر إلى «السفراء» الكبار في عصرنا.

قلت:

إياك أن تومِىءَ إلى هذا، وتذهبَ إلى ما يُرَادُ بإطلاق ما لا يُرَادُ، فذلك مما يحملُ الضَّيْمَ عليك. إن السياسة في عصرنا نارٌ تَلَظَّى، يصلاها الأشقى الذي ألقى بنفسه فيها.

وأعود إلى ما كنت فيه لأقول لك: إن للطُّلَّاب في فرنسا تنظيماتِهم

الخاصَّةَ، بحسب ما اتخذه أي نَفَر منهم، من الانتماء لأيِ جماعة من الجماعات، وهذه مثلاً: رابطة الطُّلاَّب الاشتراكيين، وأخرى للكاثوليك، وثالثة للشيوعيين، ونحو هذا. إن لكل من هذه الفئات منهجَها وما تنشرُه من كراريسَ.

إن للطُّلاَّب ولسائر الفرنسيين الحُرِّيَّة فيما يقولون ويرون وما يذيعونه من رأي، وهذا هو المعروف في الديمقراطية الغربية. غير أن هذه الحرية ليست بشيء، إذا ما عرفنا أن هذه الديمقراطية لا تضمن للناس عامَّة العيشَ الكريم، فلا الفردُ بمأمن من الفقر، ولا هو بمطمئنٍّ أنْ يُوفِّرَ لنفسه حاجاتِه في الطعام واللِّبَاس والعِلاَج.

والكلامُ على هذا كثير، ما زلنا إلى يومنا نعرفه ونقرأه في الصحف، فنرى مثلاً أن جيشاً من العاطلين لا يجدونَ عملاً، ولا يحصلونَ من حكوماتهم إلا على القَدْر اليسير الذي لا يفي بسدِّ الحاجات الضرورية.

قال صاحبي:

هذا ما نعرفه عن مثالب النظام الرأسمالي الذي يتحكم فيه رأس المال وحكومة الشركات الكبرى التي توجه الأنظمة والقوانين في حماية رأس المال الذي كان دافعاً، في زمان مضى، إلى التَّحَكُّمُ في الشعوب والاستيلاء عليها. وما زال هذا هو السائِد لأنَّ رأس المال هو المسيطرُ الحاكمُ، غير أننا عرفنا أن النظام الاشتراكي يكفلُ لكلِّ فرد، في البلدان الاشتراكية، حقَّه في العمل والعيش وتأمين حاجته في كل شيء...

لا أدري! أأقول: إن هذه الاشتراكية سارت بالبشرية نحو التقدُّم؟

قلت:

لك أن تقول: إن النظام ضَمِنَ الكثيرَ من حاجاتِ الناس في بلدان،

ولكن هذا النظام حين ظهر أوّل ما ظهر في الاتحاد السوفييتي، ثم في البلدان التي كان له عليها شيءٌ من التحكم، كان محاصَراً مستهدفاً من العالم الرأسمالي الذي عَبّأَ قُواه وما يملكُه من نفوذ في العالم وأمام كلِّ ميل إلى الاشتراكية أو الشيوعية في العالم. ومما ساعد الغرب ونظامه الرأسمالي على التغلب على الاشتراكية سلوك السلطات في البلدان الاشتراكية، في سياسة الشعوب في تقييد الناس وسلبهم حرّيتهم والسيطرة عليهم فيما يقولون ويفعلون. كان هذا كله دافعاً لكثيرٍ من الناس في البلدان إلى التمرّد على السلطات، برغم ما كانت هذه توفِّره لهم من ضروريّات العيش. وقد تمَّ للغرب، بعدما يقرُب من ثمانين سنة، ما كان يسعى إليه، فتداعَى بناء الاشتراكية، ونُسي النظام القديم بخيره وشرِّه.

قال صاحبي:

هذا ما عرفناه مما وصل إلينا، من أن هذه البلدان التي تخلَّصَتْ من قيود الاشتراكية وظلمها قد صُدِمَتْ بالظُّلْم الرأسمالي، فمضى أهل تلك البلدان يُفَكِّرُون في لقمة العيش وكيف يحصلون على ضَرُورياتهم، فانتقضوا، وثاروا، فهل هي هذه الديمقراطية التي تمنحُ الناس حقَّ القول وحق الاحتجاجِ والتَّظاهر، وهم غيرُ قادرين أن يحقِّقوا بتظاهرهم واحتجاجهم شيئاً.

ح- (في المكتبة الوطنية)

قلت:

ليس لأي طالب في الدراسات العليا الإنسانية إلا أن يكونَ ممن يلازمون هذه الخِزَانَةَ الشهيرة، لِيرى حاجته فيها من الكتب والمصادر. إنها

تشتملُ على الكثير من الذخائر، من مطبوعات قديمة بلغات عِدّة. وإذا كان لك حاجةٌ في المخطوطات القديمة، فإنك واجدٌ فيها نفائس المخطوطات. إن الدَّارسين في الحضارة الإسلامية ليقفون في هذه الخِزانة على حاجتهم فيها من غير شَكٍّ.

ولقد كان لي خلال سنوات زياراتٌ لهذه الخزانة، في كل أسبوع. لقد قصدتها لحاجتين كنت أبحثُ عنهما، هما أوّلاً المجلات القديمة الاستشراقية التي عرفها الدَّارسون منذ قرنين من الزَّمان، ولا سيَّما مجلةُ المستشرقين الألمان، ثم المخطوطات العربية ثانياً.

ولم يكن لي من وسيلةٍ يَوْمَئِذٍ سوى أن أختار ما هو أكثر ضرورة لي، وما أنا أشد إليه حاجة من غيره لأنتسخه لنفسي بخطّي، لتعذُّرِ التصوير على الرُّقوق التي لم يكنْ للمكتبة سَعَةٌ فيها. وهكذا كان لي أن أمضيَ في هذا العمل الشَّاقِّ الذي كان منه جملةٌ غيرُ قليلةٍ مما انتسختُه، ولكني كنت أشعرُ براحة، وأستمتعُ بلَذَّةٍ.

قال صاحبي:

كأنك أردت أن تقول: إن نسَاخَةَ تلك النفائسِ كنت تمضي إليها غَيْر مسوق ولا محمول عليها. إن هذا لَيُذْكِّرني بما علَمته مما عاناه أبو حيَّانَ التَّوحيدي الذي عرف الحاجة، وشقي مما اضطرَّ إليه أن يفعلَ، وأن يشق على نفسه حين لم يحظ لدى الصاحب بن عبَّاد بشيء، بل أراد أن ينال منه، فوجّهه أن ينسخَ له الكتب، فشقي بحرفة البؤس.

قلت:

إن شقاءَ أبي حيَّان وبؤسه الذي كابَدَهُ، أوعبه في رسائله، فكان لنا منه نحن الدارسين الأعلاق النفيسة التي وصلتْ إلينا في جملة من رسائله

ومصنفاته.

قال صاحبي:

ولولا أنه عمد إلى إحراق كتبه، لكان لنا من ذخائِره الكثيرُ.

قلت:

لقد وصل إلينا من كتب أبي حَيَّان ما أغنانا، فوقفنا في شيء فيها على فوائدَ تاريخية تَتَّصِلُ بعصر بني بُوَيْه وما كان لهم من التحكُّم والجَبَروت الذي أحالَ الخلافة العباسية رسوماً، خلت من معانيها. كما وقفنا على صَفَحات أدبية، حفلتْ بالنفيس من أدبنا الإنساني.

قال صاحبي:

وكان لمصطفى جواد - رحمه الله - اجتهادٌ في هذا الأدب، فقد أشار إلى أن حكاية أبي القاسم البغدادي التي نشرها الألماني «متز» وليس فيها إلا الاسمُ المستعارُ، وهو أبو القاسم الطنبوري، هي من صنع أبي حيَّان مستدلاًّ على ذلك بما كان فيها من أدب، يَتَّصِلُ بالجواري والقِيَان، وجد بنصه في ليلة من ليالي «الإمتاع والمؤانسة».

قلت:

نعم لقد اجتهد مصطفى جواد وأصاب. ولكني لا أتسمَّحُ مع عبود الشالجي الذي نشر هذه الحكاية، وجعلها باسم «الرسالة البغدادية» التي ورد ذكرها في تصانيف أبي حيان التي لم تَصِلْ إلينا.

قال صاحبي:

ولِمَ قلتَ أستاذي: إنك لا تتسمَّح مع عبُّود الشَّالجي؟

قلت:

لأنه لم يُشِرْ إلى أن هذه الرسالة هي حكاية أبي القاسم التي نشرها

متز، وأن مصطفى جواد كان أوّلَ من نبّه وأشارَ إلى هذه الحقيقة، ولم يردْ شيءٌ عن مصطفى جواد وسبقه في التنبيه إلى هذه الفائدة الأدبية التاريخية.

قال صاحبي:

لعل كثيراً من المعنيين بالأدب وتاريخه لم يعرفوا هذا الذي اهتدى إليه مصطفى جواد، لأنه كتب رأيَهُ هذا في مجلةٍ عابرةٍ، ليست مما يطَّلعُ عليها أهلُ المعرفة، هي مجلة «أهل النفط» التي كانت تصدرُ ببغداد، بعد تأميم النفط. ولعل السيد الشالجي لم يصلْ إلى تلك المجلة.

قلت:

لقد أحسنتَ الظّنَّ، وإنك لتذهب في حُسْنِ الظَّنِّ إلى أبعد الحدود لتبتعد عن شرٍّ تخشاه، وكان أولى بك أن تلتزمَ بالقول المأثور «إن سُوءَ الظَّنِّ من حُسن الفِطَنِ».

إن السيد الشالجي كان يعرف كل هذا، فهو رجلٌ أحبّ الدرس والقراءة، وله في ذلك خزانة عامرة، لا يملُكها إلاّ رجلٌ أحبَّ التَّزَوُّدَ بالمعارف الواسعة، ولكن كان منه ذلك.

قال صاحبي:

ولنعدْ إلى فوائدك التي وقفت عليها في خزانة «دار الكتب الوطنية في باريس، وقد سبق للأستاذ مصطفى جواد - رحمه الله - أن أفاد من هذه الدار، وانتسخ لنفسه مخطوطاتٍ، جمعها في مجموع له مخطوط، أشار إليه غَيْرَ مَرَّة باسم «أصول التاريخ والأدب».

قلت:

قد بدأت كلامي على هذه المكتبة، وقد صُرفتُ كما رأيتَ عن ذلك،

لحاجة اعترضتِ السبيلَ، فرأيت أن أبسطَ فيها الكلامَ.

لم أكن وحدي في هذه المكتبة، بل كنت أرى فيها من أصحابي الدَّارسين من اللبنانيين والمصريين والتونسيين وغيرهم ممن سعدتُ بهم. كنت ألقاهم، ونتذاكر معاً ما كان كل منا مهتمّاً به، وكان لي من هذه المذاكرة فوائد، وربما انتسخت لنفسي شيئاً مما وقع لهم.

لقد كان لي وأنا في هذه الخزانة الغنية بتراثنا القديم أن وقفتُ على مجموع، فيه ثلاث مخطوطات، ومادَّة تلك الثلاثة واحدة، تتصل بالرَّمْي بالبُنْدق وصيد الطير. وقد وُسِم المجموع بـ«المقترح في المصطلح» وهذا هو عنوانُ المخطوط الأول، وهو لابن ودعة الشافعي المعيد في المدرسة النظامية ومن رجال القرن السابع. ثم إن في هذا المجموع مخطوطين كلاً قد وُسم باسمٍ آخر، كلاهما لصلوات بن غازي.

بحثت عن هذا الذي هو «صلوات» فلم اهتدِ إلى معرفته، وعسى أن يكون لي عنه شيء من معرفة.

قال صاحبي:

كنت قد عرفت هذا الضَّرْب من الممارسة «الرياضية» في أراجيز عدة وقصائد لصفي الدين الحِلّيّ في ديوانه، وكأن هذا «صلوات بن غازي» من المتأخرين ومن رجال القرن الثامن الهجري.

قلت:

إنك واللهِ لألمعي، تقتنصُ الإشارةَ، فتصلُ الشيءَ بنظائره. وإني مؤيِّدُك فيما ذهبتَ إليه، ودليلي أن صلوات بن غازي قد استشهد بما كان لصفي الدين الحِلّيّ من الأراجيز والقصائد، وأثبتها كاملةً كما هي في ديوانه.

ومما يحيكُ في نفسي أن «صلوات» هذا من المسلمين الأتراك أو

سواهم، ذلك أن هذه الأقوام اعتنقت الإسلام، وحسن إسلامها، وأحبَّتِ العربيةَ، فأحلَّتها محلاً سامياً، لأنها لغة التنزيل العزيز.

قال صاحبي:

وإني لأنظرُ إلى كلمة «صلوات» فأراها إسلاميةً عربيةً، وإن ذَكر أصحاب شواذّ القراءات أنها ترجعُ إلى نظائرَ لها في الآرامية أو العبرانية، ثم إن «غازي» كلمة مباركةٌ لدى هؤلاء المتأخرين الذين وصلوا إلى هذا النعت المشرِّف بـ«الفتوحات الإسلامية» وليس أن يشتهر مصطفى كمال أتاتورك مؤسس الجمهورية التركية الحديثة بـ«الغازي» فهو نعت مبارك.

وليس لي من حاجة أن أعرض لما كان من أفاعيل هذا الغازي الذي نبذ لقبه هذا مكتفياً بـ«أتاتورك».

قلت:

أحسنتَ، لقد بسطتَ من فوائدك ما أعاننا على فهم هذا المؤلف صلوات بن غازي، وكذلك أنت كلما بدا لك أمرٌ، فأنت صاحبُ بَدَوَاتٍ ذاتِ فائدة.

وقفتُ على هذا الكتاب، فرأيتُه شيئاً مفيداً، يبسطُ فيه المؤلُف هذا الضرب من اللعب البعيد عن اللهو والسَّفَه. وهو يقيمُ من أحوال هذه الممارسة بمسائل من الشرع الإسلامي وما يكون فيها من أحكام الفقهاء. وكأنه بهذا أراد أن يقول: إن هذا الضّرْب من اللَّعِب غيرُ حرام.

وفي هذا أحوال من الممارسة، جُعل لها شروطٌ وأحكام، وكان فيها أهل خبرة وحكَّام، يفصلون في النتائج التي ينبري فيها لاعبان. ثم يكونُ هذا كله صفة للطير الذي هو الرهان. وقد تبينت من هذه الأصول أن هذه الممارسة تدخل في باب «الفُتُوَّة» التي كان على رأسها الخليفةُ، هو الناصر

لدين الله العباسي.

وقد أفدتُ من هذا الكتاب، أن لأهل هذا النشاط مصطلَحَهُم الخاصَّ الذي ولَّدوه، فدلَّ فيه على شيء، ليس بينه وبين الأصل أحياناً أية صلة. وقد يكونُ للدارس أن يَتَبَيَّنَ ما يومىءُ إلى الأصل الذي تُوسِّعَ فيه، فكان الجديد في هذه الممارسة.

وأقول: كان معي من أصحابي الدارسين الأخ صبحي الصالح الطَّرَابُلُسي اللُّبناني - رحمه الله - المعني بالتأويل في لغة التنزيل، والأخ عثمان السوداني المعني بالفلسفة الإسلامية الذي بلغني أنه توفي - رحمه الله - وقد أطلعتهما على هذا التصنيف البديع.

قال صاحبي:

لعلّ هذا المخطوط يُبرِزُ أوَّلَ محاولة لوضع الممارسات غير الحرفية في حدِّها، وكأنّ أصحاب هذه سبقوا العارفين بكرة القدم في عصرنا، في وضعهم من شروط وحدود لها. وإني لواثقٌ أنك انتسختَ لنفسك نسخةً من هذا.

قلت:

لقد انتسختُ لنفسي نسخةً، وقد فكّرت أن أنشرها، ثم بدا لي أن أُلْحِقَها بالمخطوط الثاني بصلوات بن غازي الذي تركتُه، لأني كنت أفيدُ من وقتي، فأريدُ أن يكون لي فيه نظرٌ في موادَّ كثيرةٍ. ثم إن النَسَاخَة متعبةٌ شاقَّةٌ، فقد لحق بأصابعي يبسٌ، آلمني، وظلَّ معي من أثره شيءٌ، بقي سنوات.

ثم بدا لي بعد سنين أن ألحقَ بالمخطوط الأوّل كتابَ صلوات بن غازي، وتذكّرت هذا بعد سنين، وأنا في باريس، وبدا لي أن أطلبَ صورةً

مما بقي من المجموع، ولكن إقامتي لم تسمحْ بمراجعة المكتبة الوطنية. وإني لأشكرُ أخاً لي، من فضلاء العراقيين، مقيماً في باريس على قيامِهِ بتصوير هذا الذي سعيت إليه، فصوَّر المجموعَ كُلَّهُ في أوراق، وبعثَ به إليَّ وأنا في صنعاءَ. وسأُتْبِعُ تحقيق القسم الثاني من «المقترح».

قال صاحبي:

كأني أرى أنك تُزْمِعُ نشر هذا الكتاب، لِتُقَدِّم شيئاً قديماً للمعاصرين الذين استهواهم اللعب والعبث، فشغلهم عن كثير من ألوان الجِدِّ، فكان لكرةِ القدم جمهورٌ واسع بل جماهيرُ. ثم كان هذا العَبَثُ الجديد دافعاً للأحداث أن يُبَرِّزوا، فيه ليكونوا ممّن يُلْهَجُ بذكرهم ويُنَوَّه بأسمائهم، فينالوا ما لا يناله أصحابهم الذين شقوا بتحصيل العلوم. ثم إن شيئاً آخر حفزك إلى الاهتمام بنشره، هو أن في هذا المجموع محاولةً قديمةً لتوليد المصطلح الذي شُغلت به كما شُغِلَ أصحابُك المجمعيُّون.

قلت:

نعم: كان لي هذا كله، وسيكون لي عمّا قريب هذا الذي بدأت العمل فيه من سنين طويلة، ولكني أرجأت إكماله وإنجازه ريثما يكون لي أن أعودَ إلى «المجموع» كله.

وعجبتُ مما في المكتبة الوطنية التي تَتَّصِلُ بالتُّرَاث القديم لبلدان الشمال الإفريقي، وكنت أستقري هذه المخطوطاتِ، فأجدُ فيها شيئاً مما كتبه المغاربة بلغةٍ خاصَّةٍ، هي خليطٌ من عربية وبربرية، إلى جانب ما كتبه المغاربة، ولا سيما الفاسيّون الذين كانوا حشداً من مغاربة وآخرين ممّن هُجِّروا من حواضر الأندلس، فاندفعوا إلى المغرب والجزائر وتونس.

ثم تحولت إلى المخطوطات المشرقية التي تتَّصِلُ بتاريخ بلادنا في

العصور المتأخرة، وهي عصورُ ما بعد سقوط الخلافة العباسية.

قال صاحبي:

لا بد أن تكونَ قد قصدتَ أن تعرفَ المخطوطات التي صنَّفها أصحابُها إبَّان حملة نابليون على مصر، ذلك أن الفرنسيين ومعهم الغربيون كافَّة يجعلون حملة نَابليون حدّاً فاصلاً بين تاريخ متخلّف وعصر حضاري جديد، بدأ بتأثير هذه الحملة التي أمدّت المصريين بالمعرفة الجديدة، لقد قالوا مثلاً: إن نابليون اصطحب معه الكثير من العلماء الفرنسيين أصحاب الاختصاصات المختلفة.

قلت:

نعم! لقد اصطحب نابليون مع جيشه الذي جاء غازياً معتدياً، ليحتلَّ مصرَ، ويقطعَ السبيلَ على أعداء فرنسا الإنكليز الطريق إلى الهند، جمهرةً من أهل العلم، فيهم المهندسُ والعالمُ بالأرض والعالم بالمياه وغيرهم ممن حسب أن جيش الاحتلال يحتاجُ إلى اختصاصاتهم. وأشاع المؤرخون الفرنسيون أن هذه الحملة قد عملت على الأخذ بأيدي المصريين إلى الرُّقِيِّ والتَّقَدُّم. وزاد نفرٌ منهم أن الحملة كانت الحدَّ الفاصل بين التخلُّف والتقدُّم. وكأن هذا الرأي قد تأثَّرَ به المصريون أنفسُهُمْ، فكان من بينهم من سعى فيما سعى فيه الفرنسيون. وقد أثبتتْ هذه المزاعمُ في الكتب.

قال صاحبي:

كأنك تذهب إلى غير ما ذهب أولئك وهؤلاء، ودرج الدارسون على زعم، صار من المسلّمات. وهاأنذا وغيري نردِّد هذا الذي زعموه، فضاع حقٌّ كثيرٌ.

قلت:

لو أنك عرضت للأزهر، في تلك الحقبة، لعلمت أن بين رجاله من ألَّفَ وصنَّفَ، ومصنّفاتهم ما زالت مادَّةَ درس. ولو عرضتَ لرسالة الأزهر التعليمية، وجدتَها ما كانت متخلفةً، فالمسيرة متَّصِلَةٌ. ولو كان لك أن تعلم شَيئاً من أحوال الناس، عرفتَ أنهم لم يكونوا أهل جهل وتأخّر، فقد عرفتْ حواضرُ مصر البيمارستانات، وكان الناسُ فيها ينهجون نهجاً حضارياً.

قال صاحبي:

وآيةُ ما ذهبت إليه، أننا عَرَفْنا، أن في هذه الحقبة ألّف الجَبْرَتيُّ تصانيفَه التي وصل إلينا شيء منها، وغيره وغيره...

قلت:

كان هذا الذي قيل في مصر، وما حاكَهُ الغربيون، ونَسَبُوا لأنفسهم أنهم لم يكونوا أهلَ ظلمٍ وجبروتٍ، كان مثله مما قيل في تاريخنا الأدبي. لقد زعموا أن الأحقاب التي أعقبت سقوط بغداد وزوال الدولة العباسية عصورُ ظلام وليلٍ مُطْبِقٍ، فدعوها «الفترة المظلمة»، وكأنهم حملونا على تصديق ما زعموا. وما زال كتابنا يردِّدون هذا المصطلح وهو «الفترة المظلمة» في كتبهم، ودَرَجَ الطُّلاَبُ والدارسون على هذا الذي حُمل إليهم.

قال صاحبي:

ولم يخطر للأساتيذ في عصرنا أن يرجعوا إلى الأصول وإلى ما كان لدى الأمَّة، فيقلعوا عمّا هم فيه.

لقد كان لي أن أذهبَ أراجعُ في أحوال الرِّجَال وسيرهم ممن عاشوا في القرون: السابع والثامن والتاسع والعاشر وما بعد ذلك، فرأيتُ أن المسيرة

اتَّصَلت، وأن زوال الخلافة ومجيء أمم أخرى حكمت البلاد الإسلامية في دويلات هنا وهناك، لم يقطعْ مسيرة العلم، فقد ظلَّ أهلُ العلم في سعيِهم، فكان لنا المصنَّفاتُ الأصيلة في مختلف شؤون العلم.

قلت:

ولا بدَّ أن أختمَ وقوفي في المكتبة الوطنية في باريس، فأشيرَ إلى أني انتسخت لنفسي مجموعاً من رسائل، لابن الجوزي، مما لم ينشرْ من مصنفاته، وما لم يرد في كتاب الأستاذ العَلْوَجي الذي نشرته وزارة الإعلام. كما كان لي شيء من رسائل السُّيوطي التي لم تنشرْ، ولم يرد عنها شيء فيما حرّره الأستاذ عدنان محمد سلمان من مصنفاته. وقد كان لي من هذه النوادر فوائد لمصنفين مغاربة، لم أهتدِ إلى سيرهم، ولكني وجدت فيما صنفوا فوائِدَ تاريخيةً، كان بعضها باللسان الدارج.

(ط) - في مسجد باريس

قلتُ:

لا بدّ لي من أن أعرّج على مسجد باريس، وهو من مشاهد باريس التي يحرصُ الزائرون على زيارتها، ومشاهد باريس كثيرة، وقد يكون لي بعض الفائدة أن أعرضَ لشيء منها، دفعني حبُّ التطلُّعِ والتزوُّد بالفوائد التاريخية.

قال صاحبي:

كنت قد قرأتُ فيما كتب الرَّحَّالون في عصرنا عن هذا المسجد الذي أحسن المغاربة، من أهل الصنعة، عمارته التي تحفل بالفن المغربي في عمارة المساجد، وهو من غير شَكٍّ يشمخُ بمئذنته المغربية التي تستطيلُ

مربّعةَ الشّكلِ مكسوةً بالقيشاني المغربي.

قلت:

إن هذا المسجد كغيره من المساجد في بلدان إفريقية الشمالية، من حيث فنّ العمارة، وفي مئذنته التي وصفتها. ولا أدري لم ذهب إخوتنا في هذه الديار إلى تسمية المئذنة «صُمعة»؟ ولا أدري ما «الصُّمعة»؟ أهي ما حُرِّفَ من «الصومَعة»؟

قال صاحبي:

إن كان هذا، وما أظنُّه، فإنه تحريفٌ وإساءة في الفهم، ذلك أن «الصومعة» بيتُ الراهب لدى النصارى، وفي هذا كان قوله تعالى: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج]، فقرنت «الصوامع» بـ«البِيَع». ولا أدري ما علاقة «البِيَع» في الآية بمادة «بَيْع» في العربية؟

قلت:

لعلّي أدرك ما سألت عنه، ودونَك ذاك:

قد يكون لي أن أتوسَّع قليلاً، وإن ابتعدت عما نحن فيه مما كان لي في «مسجد باريس» فأقول: إن «البيعة» تومىء إلى ما في العربية من أصول سريانية، فالبيعة، وفيها حرف العين، تعني البنيّة البيضاء. وكأن العرب الأقدمين قد أخذوا الصورة التي ينطِقُ بها السريان الذين عرفوهم وعاصروهم، ولم يلتفتوا إلى أن ما يكون بحرف العين هو في العربية بالضاد فهي «بَيْضا» تقابل «بِيعا» في السريانية، آخرها الألف التي تشير إلى التأنيث.

قال صاحبي:

كأني أذكر أنك حدّثتني في أيام مضت عن كلمة «الضأن» أو «الضان»

الذي هو «عانا» في السريانية. وقد أفاد الأقدمون من اللفظ السرياني، فذهبوا به إلى ما هو جماعة حُمر الوحش، فكانت لديهم كلمة «عانة» التي وردت في قول الشاعر القديم:

وبينا هما عنَّت على البُعد عانة قد اكتَنَزَتْ لحماً وقد طُبِّقت شحما

قلت:

نعم، كان ذاك، وكان به أن عرفت العربية في الجاهلية «الضَّأْن» و«العانة»، ولم يفطن المعربون إلى حقيقتها كما بدت لي ولغيري من أهل العلم بأصول الكَلِم[1].

ولنعد إلى «مسجد باريس» فأقول: كنت أقصدُه في شهر رمضان وفي العيدين: عيد الفطر وعيد الأضحى، والمناسبات الإسلامية الأخرى، كعيد المولد النبوي الشريف.

وفي هذا المسجد كان لي لقاءٌ بالإخوان، من مسلمي إفريقية ومسلمي الهند الذين تحوَّل كثيرٌ منهم إلى عشيرتهم في أرض باكستان. ولكني لن أنسَى أخي وصديقي الذي نعمت بفضله وخلقه وأدبه هو أحمد السعيد سليمان - رحمه اللهُ - الذي لقيتُه في المسجد، بعد انقضاء صلاة العيد، عند خروجنا إلى باحة المسجد.

لقد وجدت في صاحبي هذا رفيقاً وصديقاً وأخاً. وقد علمت أنه يسكنُ في عمارة غيرِ بعيدة عن سكني، فكان لنا لقاءٌ واجتماع.

حدَّثني ونحن ما زلنا في صحن المسجد عن أهله في مصر، ثم قادنا

---

(١) لا أقول: إن العرب قد استعاروا هذا، بل إنهم أفادوا في تكثير الدلالة من اختلاف الأصوات، فكان هذا الاتفاق بين العربي والسرياني.

الحديث عن المصريين من الطلبة وغيرهم، فأنحى باللائمة عليهم، أنهم نسوا هذه المناسبات التي تَدُلُّ على التعاطف والتراحم، فلم يكن في المسجد منهم أحدٌ.

فقلت له: لا تعجبْ، فالعراقيون لا يخطرْ في بالهم شيءٌ من هذا، ولكنك لو ذهبت إلى بعض «المقاهي» في الحي اللاَّتيني، وجدتَهم هنا جماعةٌ، وهناك أخرى، ليس لهم من عمل سوى «قتل» الوقت. وأنا استميحُك عذراً أن استعمل «القتل» هنا للوقت، لأنها عبارتهم، لأني أذكر أني سألت أحداً من هؤلاء، زارني، فقلت له: ماذا تعمل الآن، وأنت قد شُغلت بشيء غير الدرس فقال: «أقتلُ الوقت».

فأضاف أخي أحمد السعيد سليمان: وكذلك حال المصريين في المقهى الفلاني والمقهى الآخر، فهم إما أن يكونَ أحدُهم قد وجدَ رفيقة له فرنسية، وإما غير هذا، فانصرف إليها عابثاً كما يعبثُ اللاهون من الغربيين في سلوكهم وشذوذِهم، وإما أن يكونوا جماعاتٍ هنا وهناك.

قال صاحبي:

أذكر، وأنا استمعُ لما كان من هذا الأمر، ما كان الأستاذُ طه حسين قد أثبته في مقالةٍ له، في مجلة «الكاتب المصري» التي كانت تصدرُ في القاهرة في سني ما بعد الحرب العالمية الثانية. إنه أخذ على المصريين في فرنسا أنهم نقلوا إلى فرنسا ما كانوا فيه في القاهرة، من أنهم يَتَحلَّقون في المقاهي، لا يشغلُهُمْ هذا الجديد المفيد الذي يعرفُه الفرنسيون في حياتهم. وأذكر أنه أشار إلى «المصاطب» التي يعرفها المصريون في حواضرهم من اجتماعهم في الحارات والدُّروب وما يشغلُهم من أمور الحياة التي ليس فيها جدٌّ مفيدٌ.

قلت:

وكان لي ولصديقي أحمد السعيد سليمان أن عرفنا في صحن المسجد أحد الإخوة الجزائريين الذي هشَّ للقائنا، كأنما كنّا وإيَّاه على موعد. ومضى في حسن لقائه، وكان يصحبُ والديه ليؤديا صلاةَ العيد، وبادرنا بقوله: أين تذهبان؟ قلنا: كلٌّ إلى سكنه، فقال:

ألا يكون منكما شرفٌ لي، لا أنساه، أن تستجيبا لدعوتي، فتشاركاني الغَدَاء، فيتمَّ لي ولأسرتي سرورٌ عظيمٌ بحضوركما، وإني اليوم مُضحٍّ بشاة على عادتي حين كنت في القَرية في الجزائر.

ولم يكن مني إلاّ سكوتٌ، وكذلك حالُ أخي أحمد، وما زال بنا صاحبُنا الجزائري وهو الجيلاني عبد القادر، العسكري في الجيش الفرنسي ثم المتقاعد بعدما كان له من أذىً بسبب الأعمال الحربية في الهند الصينية.

لقد وافقنا وذهبنا معه، وسعدنا بلقاء زوجه الفرنسية وبآخرين من أصحاب الأسرة، من جزائريين وفرنسيين.

قال صاحبي:

أودّ أن أشير إلى التسمية بـ«جيلاني» وهي كثيرة لدى الأفارقة العرب وغير العرب، وكذلك التسمية بـ«عبد القادر». وكلا العَلَمين يشيرُ إلى السيد المتصوِّف الزاهد عبد القادر الكيلاني المدفون ببغداد، في الحيِّ الذي يعرف بـ«باب الشيخ»، والشيخ هذا هو الكيلاني.

قلت:

نعم، ولي أن أكملَ ما كنت فيه، فأعود إلى بيت صاحبي الجيلاني الذي راح يحدِّثُنا عن معركة المقاومة الفرنسية، وإخراج المحتلِّين الألمان في

أعقاب الحرب العالمية الثانية. وسألني عن العراق، فأفاد أنه وعامَّةُ الجزائريين كانوا يتابعون أخبار ثورة رشيد عالي الكيلاني على الإنكليز المحتلين. وسأل صديقي عن مصر في عهد حكومة النَّحَّاس باشا وما كان منه من موقف مع الإنكليز الذين ماطلوا طويلاً في الجَلاَء عن منطقة القَنَاة.

(ي)- مع الأخ أحمد السعيد سليمان

قلت:

لي أن أعرِّف بأخي هذا، فأقول:

إنه تخرّج في جامعة القاهرة، في قسم اللُّغات الشرقية، فلقد نال في هذا القسم اختصاصه في اللغة التركية. وأوفد إلى تركية، وحضر طالباً مستمعاً في قسم الدراسات التركية، في كلية الآداب من جامعة اسطنبول. وعرف محاضرات فؤاد كوبرولو الذي صار وزيراً للخارجية سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية. ثم أريد منه أن يختصَّ بالدراسات العثمانية، فأوفد إلى فرنسا.

وهكذا كان لأخي قدمٌ راسخة في هذا الدرس، دلَّت عليه أعماله العلمية، فقد صنَّف وكَتَبَ مباحثَ في تاريخ المَغُول، وتاريخ الدولة العثمانية. وقد برَّز فيما صنَّفَهُ، وشهدَ له بذلك أهلُ العلم حتى اختير عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية.

ثم كان لي أن ألقاه في المجمع، وقد تم اختياري عضواً مراسلاً في أواخر العقد السابع من هذا القرن. ثم تمَّ اختياري عضواً عاملاً في سنة ١٩٩٠. وعدت إلى صاحبي القديم، فكان لنا عَوْدٌ إلى أيَّام الطلب الذي

سعد كلٌّ منا بحلوها ومُرِّها.

قال صاحبي:

كأنكما اتفقتما على السبيل الذي انتهجتماه، وبدا لكل منكما الهدف الذي سعيتما إليه.

قلت:

نعم، كان هذا، غير أن لكلٍّ منا إخوةً آخرين، يلقاهم أحدُنا، وفي لقاء كلٍّ منّا ضَرُورةٌ تقتضيه. لقد كان لي صلةٌ بإخوتي العراقيين، أخصّ صلاح خالص، وعلي جواد الطاهر، وهما رفيقاي اللذان جمعتهما الدراسات العربية، وأما صديقي علي الزُّبيدي فقد شغل بنفسه، لأنه ربُّ أسرة هو وزوجه وطفلته، ومقتضيات الأسرة تصرف ربَّ الأسرة عن كثير مما يلزمُه. وكان لي إخوةٌ آخرون عراقيون كانوا يدرسون في الدراسات الحقوقية والاقتصادية، لم يكن لي بهم صِلَةٌ شديدة، ذلك أننا جميعاً شغلنا بما توجَّه إليه كلٌّ منَّا.

وكذلك كان حال صاحبي أحمد السعيد سليمان الذي تَوَجَّه إلى عمله، فقلّ لقاؤه بأصحابه من المصريين، غير أنه يسكنُ مسكناً غيرَ بعيد عني، فصار لنا لقاءٌ كلَّ يوم، حين نخرجُ قاصدَين المطعم الجامعي، لتناول الغداء والعشاء.

قال صاحبي:

لا بدَّ أن يكون للجامعة مطاعمُ عِدَّةٌ، يتوزَّعُ فيها جمهرةُ الطُّلَّابِ، ولا بُدَّ أن يكونَ وقتُ تناول الغداء أو العشاء فرصةً للتعارف بين الطلاب الوافدين وبين الطلبة الفرنسيين.

قلت:

لعل شيئاً من هذا قد كان، ولكني علمت أن جمهرة الطلاب كغيرهم من طبقات المجتمع، كلُّهم محتاجون وإن الحكومات في الأنظمة الرأسمالية ليس لها أن توفر للفرد حاجاته كما يجب، وإن كانت فرنسا تخالف البلدان الأخرى الرأسمالية. إنها تفتحُ الباب واسعاً لمن أراد أن يتعلَّمَ تعليماً عالياً، ولكن مع هذا ليس كل أسرة فرنسية يجد فيها أبناؤُها سَعَة للذهاب إلى الجامعة، ذلك أن مقتضيات الحياة تحمل الأسرة على أن يتعجلوا المسيرة، فيوجهوا أبناءهم إلى تعلّم حرفة أو الانتساب إلى معهد، لا يقضي فيه الطالب غير سنة أو سنتين، يخرج بعدها مهيأً للولوج إلى الحياة الصَّاخبة.

وعلى هذا كان للطلاب ما يشغلُهم ويصرفُهم عمّا يكونُ لديهم من رغبةٍ في أن يعرفوا الوافدين من إخوانهم.

ولكنك لا تعدمُ أن تجدَ بين الطُّلَّاب من أهل السَّعَةِ مَنْ تسمحُ ظروفُه أن يفيدَ معرفة، بتقربه من الوافدين الذين قدموا من كل حَدَب وصوب. إنَّ لكل من هؤلاء الوافدين كيانه الخاصّ، وما كان له مما تزوَّد به في بلاده، فيكون لدى هذا زاد وفير، لا يكون لغيره من الفرنسيين وسواهم.

قال صاحبي:

ألي أن أَتلوَ، وأنا أدرك أن الفرنسيين من الطلاب قد شغلوا بما لديهم، قوله تعالى: ﴿ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴿١١﴾ ﴾ [الفتح]؟

قلت:

قد يكون لك أن تذهَبَ إلى هذا. ومن أجل ذلك كانت الحاجةُ والظرف الذي يشغله كل طالب يفرضان عليه ألا يكثرَ من الصِّلات، فالوقت لا يسمحُ بذلك.

لقد كان لي بصاحبي هذا أحمد السعيد سليمان وغيره، وهم لا يتجاوزون الثلاثة أو الأربعة، ما أستعينُ به على ملءِ فَراغ غيرِ كبير، وكنتُ أجتمع بهم، فاستمتع وأفيد.

قال صاحبي:

لعلكما اجتمعتما على كلِّ خير، وسَعِدَ كلٌّ منكما بصاحبه، وأفدتما مما حفلت به باريسُ من مشاهِدَ.

قلت:

قد سُمع من خبر باريس في بلداننا العربية أنها مدينةُ الشَّرِّ والفتنة والفساد والخروج على الخلق ونحو ذلك. وقد يكون مثلُ هذا ما هو معروفٌ في بلداننا عن كل الحواضر الغربية.

إن هذا الذي يُسمَع ويردِّدُه الناسُ، يتأتّى من أننا نحن العرب نقصد باريس وسائر الحواضر، للبحث عن المتع الدنيوية الرخيصة، فنتحرَّى السوء ومواطن الريبة لنفيدَ منها ونستمتعَ. ولو أننا أهلُ خلق كريم، نتحرَّى الفضيلةَ ووجوه الخير، لكان في طوقنا أن نهتديَ للكثير من معادن الخير، ولكان لنا أن نجدَ في باريس وغيرها من الحواضر قوماً أولي جدٍّ وعمل وخُلُق، ولا تعدم أن تجد بين الغربيين من اهتدى وآمن أن المجتمع لا يقومُ له كِيَان إلا على مكارم الأخلاق.

وأعودُ إلى ما كان يشغلُنا، حين نفرغُ من عملنا، وصديقي أحمد، ولا سيَّما في أيّام العُطَل.

لقد كنت أعتمدُ على صاحبي هذا الذي يتعقَّبُ ما يُنشرُ من أخبار الجمعيات الثقافية وجدول اجتماعاتها.

لقد كان صديقي هذا يأتيني، فيقول مثلاً: إن الجماعة الفلسفية، من

الدارسين، ستجتمع في أمسية يوم الأحد الأول من الشهر، في إحدى القاعات، وستناقشُ كتاباً، صدر، لجان بول سارتر، تكلم فيه على بداياته الفلسفية، وهذا الإعلانُ يدفعُنا إلى الذَّهَاب، لأن الدخول إلى القاعة مباح لكلٍّ من يريد الاستماع.

قال صاحبي:

وقد ذكرت لي أنَّ هذه الاجتماعات الثقافية كثيرةٌ، وأن محبّي الثقافة يقصدونها للتزوّد بالمعرفة. وأنا واثقٌ أنكما حريصان على التزوّد بالمعارف، وشعب هذه المعارف وأبوابها كثيرة، فهي أدبية وتاريخية وفنية.

قلت:

نعم! كان لنا في ذلك كُلِّه مشاركةٌ جادَّةٌ، وإني لأذكرُ أننا حضرنا مع جماعة، أطلقت على نفسها «أصدقاء إفريقية السوداء» كانت تلتزمُ الجانبَ الإفريقي فتدافعُ عن فقرائهم، وتعقد الاجتماعات، لتناهضَ التمييز العنصري.

وأذكر أننا عرفنا الكثير عما كان يرتكبُ من السوء، في البلاد التي كان البيض المستعمرون يُصرِّفون أمرها.

قال صاحبي:

إن هذا وغيره لم يكن مما يشغلُ به الطلبةُ العربُ أنفسَهم.

قلت:

لم يكن الكثير من أصحابنا ممن يستوقفهم أن يعرفوا ما كان وما يكون، وقد كان من هؤلاء من يعيش في باريسَ، وكأنه ليس فيها. وإني لأذكر أن أهل العلم بالآثار والتاريخ القديم من الفرنسيين، قد وجدوا في تنقيباتهم

في حديقة صغيرة قرب السوربون بقايا رومانية، فيها أبنية ذات سراديبَ ومخادعَ قديمةً. وقد كتبوا فيها الكثير، ونشر أمرها في الصحف، واستمر الكلام عليها أسابيع، وتحرّك الناس إلى تلك الحديقة، ليروا مواضع البحث والتنقيب، ولكن الكثير من العرب لم يعرفوا هذا، ولم يسمعوا به.

وليس لي أن أختم هذا الجزء من الشؤون الثقافية التي شغلت بها أنا وصديقي أحمد السعيد سليمان دون أن أقول: من أراد التزوُّدَ بالمعارف العامَّة ما خلا العمل الذي صرف إليه همه، فإنه واجدٌ من ذلك الكثيرَ في باريس.

(ك) - (في الطريق إلى تسجيل الرسالة العلمية)

قلت:

لقد طالت مسيرَتي حين أوشكتُ أن أجمعَ محصولي، وأتدبَّرَ ما لديَّ، لأصل إلى أحد الأساتيذ في السوربون، ممن له قَدَم في المعرفة اللغوية النحوية ومَن لم يكن بعيداً عن وصل هذه المعرفة العربية بشيء من اللغات السامية.

لقد قال لي أخي وصديقي على جواد الطاهر: أن ليس إلاَّ الأستاذُ بلاشير، لأنه صاحب الدرجة في سجل أساتذة السوربون، وأنا أعلمُ ذلك. ولم أجدُ بُدّاً من مفاتحة هذا الأستاذ بأمري، وعرضتُ له ما لدي من موضوعات، فوجدته على علمٍ بمسألتي من الأخ علي جواد الطاهر، ثم إني رأيته غير ضيّقٍ ولا مبتئسٍ مما عرضتُ، ذلك أني جعلت مادَّة درسي لغة التنزيل، وهو ممن بحث في هذا الدرس القرآني، ولا سيَّما في الجزء

الأوَّل من ترجمته للقرآن الذي قَصَره على اللغة وأسباب النزول، وما قيل في كون القرآن وأزليّته، بحسب آراء الفرق الإسلامية. وكان للأستاذ بلاشير من هنا ميلٌ إلى أن يكونَ ما أريدُ درسه في لغة القرآن تحت إشرافه، فتوسّمت خيراً، وتفاءلت أن يكون لي مخرجٌ.

غير أن للأستاذ بلاشير أعمالٌ كثيرةٌ، فهو يشرفُ على عدد غير يسير من الطُّلَّاب، وقد توزَّع بينهم في موضوعات أدبية، وأخرى تاريخية وفي موادَّ تتَّصِلُ بالنقد القديم، ولا تعدم أن تجد بين هذه مسائلَ، تتَّصِلُ بالعقيدة. ثم إنه لم يشتهرْ بالنظر الوافي في اللُّغَات السَّامية، وكأن هذه اللُّغَات أمستْ صنعةً خاصة لنفر من الأساتذة، ابتعدوا عن الصنعة العربية.

وكان أن وجدتُ في الأستاذ ميلاً، ولكنه توقَّفَ عند هذه المسألة الأخيرة من «الساميّات» وقد لمحت أنه يسعى إلى الاستجابة وحلٍّ هذه العُقْدة. ثم اهتدى أخيراً إلى الأستاذ «جان كانتنو» اللُّغوي في الصنعة العربية وصاحب الإلمام الوافي بكثير من الساميّات. وقد كان للأستاذ بلاشير أن اجتهدَ هذا الاجتهاد، في مسألة الإشراف، لطالب آخر هو مصطفى الشويمي المصري الذي جعل درسه في «الفعل في القرآن».

قال الأستاذ بلاشير: حالك كحال الشويمي، فالرسالةُ تُسجَّل رسمياً لديّ وبإشرافي، ولكن الإشراف الفعلي للأستاذ كانتنو. لقد كان هذا التدبير في أمر الشويمي وأمري بسبب أن الأستاذ كانتنو، على سَعَة علمه، لا يحقُّ له الإشراف، لأنه ليس من أساتذة السوربون، وهكذا انتهى الأمر، وحُلّت العقدة المستعصية.

قال صاحبي:

لك اللهُ فيما كنت فيه، وأشهدُ أنك بعضُ المجاهدين الذين لزموا أعنفَ الجِدِّ، فأصابوا أجرَ الساعين للخير، وطالب العلم كالمجاهد في سبيل الله. ومن هنا قال الرسول الأمين: «طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ»، وكان مما أثر في الأثر: «أن مداد العلماء كدماء الشهداء».

قلت:

ولم يبق لي إلا موافقة الأستاذ كانتنو، وقد سعى في الحصول عليها الأستاذ بلاشير نفسه. وكان الأستاذ كانتنو قد علم من أمري فيما أخبره صديقي مصطفى الشويمي.

لقد توجّهت إلى الأستاذ كانتنو، وهو في بيته، في بلدة صغيرة، دعيت «سان جرمان دوبوا» الواقعة إلى الجنوب من باريس، والوصول إليها بالقطار السريع الذي يقطع المسافة بين باريس وهذه المدينة في ساعةٍ كاملةٍ. وقد لازم الأستاذ بيته، لأنه أُعفي من عمله في مدرسة اللغات الشرقية، لانحراف صحته.

وصلت إلى الأستاذ، فوجدت خيراً، وعرفت أن الأستاذ بلاشير قد اتَّصل به، وطلب إليه الموافقة على الإشراف، فوافق.

قال صاحبي:

لقد كان لك أن حصلتَ على هذا الأمر، فكيف كانت صيغة الموضوع؟

قلت:

كان الموضوع هو الجموع في القرآن، وكيف عوملت في بناء الجمل القرآنية، مستعيناً بما ورد من صيغ الجموع في اللُّغات السَّامِيَّةِ.

ولعلك تلحظُ أن في الموضوع شيئاً من سَعَة وإطنابٍ، وهذا صحيحٌ،

وهو مؤدّى الرسالة ومادتها، تحت صيغة أكثرَ إيجازاً هي «الجموع في القرآن».

قال صاحبي:

لقد عرفتُ فيما سمعتُ وقرأتُ أن فلاناً نال شهادةَ دكتورا الدولة في السوربون، فماذا يعني هذا؟

قلت:

إن دكتورا الدولة هي الشهادة التي تلزمُ صاحبها عملاً ذا أصالة، وأن يكون فيها جدّ وأصالة وزيادة معرفة. وهذه تقتضي صاحبَها السّاعِيَ لنيلها أن يسعفها بعمل آخر، يدعى «رسالة ثانوية، أو تكميلية» كما تُدعى الرسالة الأولى: «الرسالة الكبرى، أو الرئيسية». وإنجاز الرسالتين من شروط الحصول على شهادة دكتورا الدولة.

قال صاحبي:

وهل كان في أسلوب الدَّرْس لدى الفرنسيين شيء آخرُ غير هذه التي دُعيت: «دكتورا الدولة»؟

قلت:

نعم، كان لديهم درجة أخرى هي «دكتورا الجامعة» أو «الدكتورا الجامعية». وقد كان لكثير من أصحابنا الدارسين العرب هذه الدكتورا التي جاؤوا بها، فكانوا أساتذة، درجوا في التعليم الجامعي، وكان من هؤلاء النفر الأوّل القديم الذين تصدَّروا في العمل الجامعي، وقد قيل: إن فلاناً وفلاناً من كبار من عرفنا من المصريين لم يكن لهم غير هذه الدكتورا الجامعية.

قال صاحبي:
وما هذه الدكتوراة الجامعية، ومن يأخذُها وما يكونُ من حقِّه فيها؟

قلت:
إنها تلزمُ صاحِبَها أن يصنَعَ بحثاً، قد يُتوسَّمُ فيه ألا يكونَ ذا أصالة والدقيق في نتائجه، فقد يكونُ مثلاً ترجمة مع تعليقات لنص من النصوص العربية، وقد يكون شرحاً لمسألة، لم يكن فيها شرحٌ، وقد يكون صنع فهارس تفصيلية لكتاب كبير من المصادر، لم يكنْ له فهارس، ولا ضبطت موادُّه.

قال صاحبي:
وما أمر «الرسالة الثانوية» أو التكميلية في دكتورا الدولة؟

قلت:
إنها ثانوية، لأنها لم تكن بحثاً عميقاً ذا أصالةٍ وزيادة معرفة، بل قد تكونُ تحقيقَ نصٍّ قديمٍ، لم يحقَّقْ تحقيقاً علمياً، أو قد تكون ترجمة فرنسية لنصٍّ عربيٍّ قديم.

قال صاحبي:
وما الذي وُفِّقتَ له في هذه الرِّسالة الثانوية، وما موضوعُها؟

قلت:
كانت رسالتي الثانوية هي تحقيق كتاب «المثل السائر» لضياء الدين ابن الأثير.

قال صاحبي:
عرفت هذا الكتاب، في طبعته الأولى الصفراء، من غير تعليق، ثم رأيت نشرة الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، ثم ظهرت بأخرَةَ طبعةٌ

ثالثةٌ، حققها الأستاذ بدوي طبانة مع رفيق آخر.

فهل من حاجة أن ينشرَ الكتابُ نشرةً رابعةً؟

قلت:

نعم، إن النشرةَ التي أنجزتها فكانت مادّةً للرسالة الثانوية تدعى «النشرة النقدية». ويشترطُ في هذه النشرة أن تتوفّر لدى المحقق الأصول المخطوطة للكتاب، ثم تدرسُ وتصنَّفُ، ويؤخذُ منها الأصول، وتترك النسخ الأخرى مع وجود الأصول.

ثم تدرسُ هذه الأصول، وتوصلُ بتاريخها ليهتدي الدارس إلى النسخة التي تدعى الأم، بشرط أن يكونَ هذا الأصلُ الذي هو «الأمّ» تامّاً غير منقوص، ثم يُوازن بين هذا الأصل الأوّل وبين الأصول التي نسخت بعد الأصل. وقد تكونُ هذه النسخ قد أخذت من غير الأصل الأول الذي هو «الأم». ثم إن المحقق قد يهتدي للنسخة الأولى التي هي بخطّ المؤلف. فإذا انتهت الموازنة، ثُبِّتَ النص الأصل الذي اطمأن إليه المحقق، أشير إلى ما يخالفه في التعليقات في أسفل كل ورقة.

إن هذه النشرة هي التي تدعى النشرة النقدية. وهذه ينبغي أن يقدّم لها بمقدمة مفيدة، تَتَّصِلُ بمادّة الكتاب وبمؤلفه.

قال صاحبي:

لقد علمت أن بعض هذه النشرات المحققة النقدية كان مادة دكتورا الدّولة، كالذي حَصَل في رسالة هي نشر ديوان أبي فِراس التي قام بها أحدُ الدارسين السوريين.

قلت:

نعم، هو ذاك، فأمر نشر ديوان أبي فراس النشرة النقدية مع المقدمة

التي عرض فيها المحقق لعمله في نقد النسخ الأصول، كانت عدَّتُها خمسين نسخة، ثم إن إحكام العمل والموازنة بين الأصول لضبط النص، ثم الرجوع إلى شعر أبي فِراس في مصادر الأدب والتاريخ، كلُّ ذلك كان من حقِّ المؤلف أن ينالَ فيه دكتورا الدولة. وقد أكمل عمله العظيم هذا، فصنع ترجمة لبعض قصائد الشاعر بالفرنسية، وجعلها معادلة للرسالة الثانوية، فأجيز بشهادة دكتورا الدولة.

قال صاحبي:

ولي أن أسألَ عن «المثل السائر» وأصوله التي اعتمدتها، وكيف كان لك فيها عمل هو رسالة ثانوية، وبم اختلفت نشرتُكَ عن نشرة الشيخ محيي الدين عبد الحميد ونشرة الدكتور بدوي طبانة؟

قلت:

تهيّأ من أصول هذا الكتاب تسعُ نسخ، بعضها في باريس، وبعضها في ليدن، وأخرى في الأسكوريال، ورابعة في القاهرة، وأخرى في العراق وغيرها، وإذا كان لي أضعَ المطبوعات الثلاث من الطبعات المعروفة، يكون عندي ما يقرب من اثنتي عشرة نسخة.

ثم أقول: إن في المطبوعة القديمة الأولى الخالية من أي تعليق سقط وسهو وغلط.

فأما نشرة الشيخ محيي الدين عبد الحميد، فكأن هذا الناشرَ أعادَ النشرةَ القديمة، وجعلها على ورق أبيضَ، وزوَّدَها بفوائدَ، لا تَتَّصِلُ بضبط النَّصِّ، وليس فيها ما يشير إلى أنه وازَنَ بين نسخ عدَّة. إن فوائدَهُ وتعليقاته لا تتجاوزُ إثباتَ رقم الآية واسم السورة ورقمها، أو أن يثبتَ عَجُزَ بيت من شواهد الكتاب، اكتفى المؤلف ابن الأثير بإثبات صدره

ونحو هذا.

وأما نشرة الدكتور بدوي طبانة، وإن كان فيها إشارة لمخطوطٍ، ولكنه لم يستوفِ المخطوطات الكثيرة التي تيسرت في خزائن المخطوطات.

وإني لأثبتُ مثلاً مما ورد في هذه النشرات الثلاث تَتَّصِلُ ببيت شاهد، أورده ابن الأثير وقال: قال المعرّي وهو من الشعراء المتأخرين!!

أقول: كيف يكون المعرّي متأخراً بالقياس إلى المؤلف ابن الأثير؟ وذلك لأنَّ المعرّي من رجال القرن الخامس الهجري، وهو متقدّم على المؤلف ابن الأثير المتوفَّى سنة ٦٣٧هـ.

وكان لي أن وقفت على هذا الغلط الواضح الذي تبيّنت صوابه في أحد المخطوطات الذي وجدت فيه أن «المعرّي» هذا الذي ثبت في النشرات الثلاث وهو «الغَزِّي»، وهذا شاعرٌ متأخرٌ بالقياس إلى عصر المؤلف ابن الأثير.

قال صاحبي:
كأني بك الآن وقد انتهَيْت من معضلة تسجيل الرسالتين، أقبلت على الجهاد الأكبر، وهو البدء في تهيئة العمل وإنجازه.

قلت:
نعم، كأنّي أدركتُ ما سيكونُ لي في الرسالة، فمضيتُ أدرسُ وأبحثُ وأسجِّلُ جزازاتي وأعدُّ ذلك كلَّه لما عزمت عليه، حتى إذا تحقَّقَ أن أثبتَ الأسسَ، وقبل مني الموضوع، وقدّمت طلبي لتسجيلي، بدأت أستدرك ما لم أكن قد انتهيت منه.

كأنّ هذا الدرسَ اللّغَوِيَّ قد اقتضاك أن تستقري لغةَ التنزيل، فتقفَ على

الجمع وما يَتَّصِلُ به من أبنيةٍ وصرفٍ، وما يتبعُه من نظامٍ نَحْوِيٍّ.

قلت:

كان هذا لي عملاً جادّاً، أقفُ فيه على شيءٍ بل أشياءَ، اختصَّت بها لغة التنزيل، فأنت تجد فيه غرائب، لم يفطن لها الدارسون الأوائل الذين انصرفوا إلى «غريب القرآن»، و«مشكله». ومن هنا وجد أهل المعرفة، من الحذّاق، أن الوقوف على لغة التنزيل يضطرُّهم أن يذهبوا فيها إلى خاصِّ الخاصِّ الذي خصُّوه بما اصطلح عليه في عصرنا «الألفاظ الإسلامية».

وما أريدُ أن أثقلَ هذا الموجزَ الذي صرفته لسيرتي، وما كان لي في مراحل نشأتي وصِبَايَ، ثم ما استدبرته من أيّامي، بمسائلَ قد تبعدني عما أنا فيه. وإن كنت قد انصرفت إلى شؤون هنا وهناك مما دعوتها «بُنَيَّاتِ الطَّريق» فتلك ضَروراتٌ، لم أجدْ مَحِيصاً عنها.

قال صاحبي:

لقد أدركتُ أن العمل شاقٌّ، وأن التهيُّؤ له قد اقتضاكَ رحلةً طويلةً في كتب القرآن، من تفسير، ولغة، ونحو وغير هذا، مما يَتَّصِلُ بحواشي هذه الأجزاء. أنت تنظرُ بين حين وآخر إلى الكلمة العربية، فتفيدُ مما كان لك من نظائرها في اللُّغَات السَّامِيَّة.

قلت:

نعم! لقد قرأتُ هذه الفوائدَ، وذهبت إلى شيء آخر مما دعوته «حواشي»، وهو وإن كان يندرج في حواشٍ إلا أنه يتَّصِلُ بأصولٍ، لا بدَّ منها. ومن ذلك كان عليَّ أن أقفَ على القراءات التي حوّلت فيها الكلمة في بنيتها بين الإفراد والجمع، وحوّلت في أصواتها، فدلّت دلالات مختلفة. وقد انتهيت من هذا إلى فوائدَ، تَتَّصِلُ بالعربية وتاريخها، وذلك

في باب «شواذِّ القراءات». إن مادة القراءات تسفرُعن سَعَةِ العربية التي اتَّسَعَتْ رقعتُها فيما سُمِّيَ بـ«لغات القرآن» التي هي شيء من «لغات القبائل».

قال صاحبي:

إنه ليحيك في نفسي شيء من دلالة «الشذوذ» في القراءات، ولا أدري أأحمله على الشذوذ في القاعدة النحوية، أم أذهب به إلى شيء آخر؟

قلت:

لك أن تشقَى بذلك، لأنك عرفت الشذوذ في القاعدة النحوية، وهو ما ورد خلافاً لكثير من كلام العرب، وهو قليل، فدعي شاذّاً، كقول النحوي: وشذّ قول الشاعر أو قول الراجز. ولو أن النحاة تدبّروا رأيَهم، لكان لهم أن يحملوا قولَ الشاعر أو الراجز على أنه لغة أولئك الذين ليس لهم إلا أن يقولوا ما كان لهم أن يقولوا، ولا أدعو ذلك «ضرورة شعرية». ربما كان دليلاً على ما ذهبتُ إليه ما كان بين الفرزدق وابن أبي إسحاق الحضرمي.

لقد أبى الفرزدق أن يُقر منطق النحوي وظل مستمسكاً برأيه الذي صرفه إلى قوله:

وعضّ زمانٌ يا ابنَ مَرْوَان لم يَدَعْ	من الناس إلاّ مُسْحَتاً أو مُجَلَّفُ

لم يكن للفرزدق أن يوافقَ النحويَّ فيما ذهب إليه من تخطئته، وهو يرى أن الذي كان منه عربية فصيحة. وأنا أقول: هذه عربية خاصّة هي «لغة الشعر».

قال صاحبي:

فهل لنا أن نحمل شواذّ القراءات على ما عُرف من الشذوذ في النحو؟

قلت:

لا، لم يكن لك أن تذهب إلى هذا، وذلك أن وسم طائفة من القراءات بـ«الشذوذ» يشير إلى أن هذا قد عرض في قراءات كثيرة، خَرَجَت عما اصطُلح عليه بـ«القراءت السبع» الذي عُرف في القرن الرابع، وكان ابنُ مجاهد أوّلَ من «سبَّع» القراءات، فاختار سبعاً منها، واشتهر أمر هذه القراءات. ثم وجد أهل العلم أن جعل القراءات سبعاً لا يمكن أن يَفِيَ بما كان من مادة القراءات الأخرى التي عرفت واشتهرت، فذهبوا إلى جعلها عَشْراً، ثم تجاوزوا هذا الحَدَّ.

وقد كان بعد هذا أن صير إلى مصطلح آخر هو «القراءات الشاذَّة» وأريد بها القراءات غير التي اختيرت، لاشتهارها، وهي السَّبع أو العَشر، فكان مصطلح «الشاذِّ» قد أفاد ما لم يكن مما اختير لشهرته. وعلى هذا لم يكنْ نعتُها بالشُّذوذ مما يحملُ الضَّيْم عليها. غير أن بعض المتاخرين من أهل العلم قد منعوا أن يُقرأ بها معتمدين على قول عمر، وقد سمع أعرابياً يقرأ: (لَيَسْجُنَنَّهُ عتّى حين) فأمسك به لسماعه «عتّى» وقد أريدَ بها «حتّى» وقال له: من أقرأك، فقال: عبد الله بن مسعودٍ، فلم يكن من عمر إلا أن كتب إلى أبي موسى الأشعري، كما جاء في الأثر: أن قنِّعْ كاتِبَكَ سَوْطاً، وأراد ابن مسعود، وقل له: أنزلَ القرآن بلغة قريش، فلا يقرىء الناس بلغة هُذَيْل. كذا ورد الخبر.

قال صاحبي:

هذه فائدة مهمة، عرفت فيها دلالة «الشذوذ» التي كنت أذهبُ فيها إلى الخطأ مستفيداً بعض هذا، من معنى الشذوذ، في القاعدة النحوية. وقد بدا

لي أن هذه الدلالة للشذوذ هي التي أدّت إلى أن يذهبَ المعاصرون إلى ما نعرفهُ اليوم من معنى الكلمة الذي تحوَّل إلى معنى سلبي، فكان لنا من ذلك الشاذُّ من الأفكار والسُّلوك، وليس عجيباً أن ينتهيَ ذلك إلى ما هو «شذوذ جنسيّ».

قلت:

لقد وقفت على هذا كله، وقبست فوائد منه، ضمنتها رسالتي، وكان لي من إدراك أهل العلم لهذه القراءات التي وُسمت بالشذوذ ما أعانني على النظر واستخلاص النتائج.

قال صاحبي:

لقد كان مما أفدته منك ما حدَّثتني عن كتاب «المحتَسَب» لأبي الفتح عثمان بن جِنّي الذي ذهب في خطبته إلى دلالة «الشذوذ» في القراءات، وعلى بُعدها عما يذهب فيه من لا علم له بالقراءات، وأشار إلى أن «شواذّ القراءات» علم صحيح، وأن أصحابَها قد أخذوها روايةً صحيحةً مسندةً، ودرايةً في العلم بالعربية.

وكان لي أن عرفت هذه القراءات قبل أن يُنشَر كتاب أبي الفتح في «البحر المحيط» لأبي حيّان الذي وجدت فيه فوائد، كنت أفتقر إليها.

قلت:

وقد كان لي فوائدُ، وجدتها لدى الأستاذ بلاشير، في ترجمته للقرآن تلك الترجمة التي نوّهت بها، وآثرتها على الترجمات الكثيرة الفرنسية وغير الفرنسية في اللُّغات الأعجمية.

قال صاحبي:

لا بد أن تكونَ قد بسطت فوائدَكَ بين يدي الأستاذ بلاشير، ليكونَ لك

من إضافاته فائدة غير التي وقفت عليها في كتابه المفيد. ولا بُدَّ أيضاً أن تكونَ قد أفدتَ من أوّل زيارة للأستاذ كانتنو في وضع خطّة الدرس.

قلت:

نعم! كان لي هذا كُلِّه، فقد وضعت خطّتي وحدي مستعيناً بما كنت قد جمعته من موادَّ، وجعلتها في مقدمة لغوية تاريخية، ثم وضعتها وضعاً معجمياً، بحسب حروف المعجم مبتدئاً بالكلمة ومعناها وصورها وما كان لها من الدلالات التاريخية في غير لغة التنزيل، ثم التحوّل منها إلى صلة الكلمة «الجمع» بالفعل والضمائر، وهذا ما يدعى في لغة أهل النحو syntaxe.

وهكذا كان لي من لقائي للأستاذ كانتنو، فقد بدأتُ العمل، واتفقنا أن تكونَ لقاءاتُنا في منزله كل أسبوع في يوم الجمعة.

قال صاحبي:

ولا بد أن تكوَن قد بدأتَ العمل في الرِّسالة الثَّانوية التي هي «المثل السائر».

قلت:

لقد كان منّي هذا، فقد بدأتُ قراءة الكتاب قراءة مستفيدٍ، لأقفَ على ما فيه من موادَّ، وكنت أنظر في النشرة الأولى التي خلت من أيِّ تعليق، ورحتُ أنظر إلى الكلمة والجملة، فأتعقَّبُ ذلك في النشرتين الأخريَيْن. كان مني هذا قبل أن أحصلَ على النسخ التسع للمخطوطات من هنا وهناك. وقد رأيت أن يكونَ بين يدَي فوائدُ أقابِلُها بما يكونُ في المخطوطات التي سأحصل عليها.

قال صاحبي:

لعل في هذه النظرة، مع المقابلة بين النسخ الثلاث، مما هو مطبوعٌ، متعةً تَتَأتَّى مما كان من طريقة المؤلف ابن الأثير في فهمه الناقد للنصوص، وفي زهوه بنفسه والتزامه ألفاظاً، قد تدعو إلى الضحك أحياناً.

قلت:

نعم! كان شيء من هذا لدى ابن الأثير، فقد يكون منه أن يقول مثلاً، وهو يبين الفائدة النقدية في شرح بيت أو شرح عبارة: إن هذا الذي كان لي، لم يقله أحد قبلي، ولم يصل إليه أحد قبلي، فأنا ابن بجدته وأبو عذرته.

وقد يُزهى أكثر في نثره الذي جعله في موضوعات أدبية، تفسَّح في عبارتها وأكثرَ من السجع والتناسب وأُعجبَ هو نفسه بما كان منه من عبارات، فيقول في استحسانها مثلاً: وهذا معنىً مخترَعٌ مني، ولم يدركه إلاّ مَن ذاق طعمَ البلاغةِ مثلي...

وهكذا يمضي في زهوه بطريقته التي لم تكنْ مما يُحْمَدُ لدى النُّقَّاد الآخرين، ولا سيَّما الذين سبقوه. وتعجبُ أن يكون هذا وغيرُه لدى رجل، تجاوَزَ الشَّبَابَ الذي هو مظنّة الجهلِ والطَّيْش، وكان صاحب مكانة لدى صاحب الحكم في جزيرة ابن عمر وأقاليم الجزيرة الفراتية.

قال صاحبي:

لقد قرأت من كلام ابن الأثير شيئاً، لا يقبلُه أولو العلم، ومن ذلك ما علّق به على كلام أبي الفتح عثمان بن جنّي الذي عرض للمجاز في تصانيفه، ولا سيَّما في كتابه «الخصائص» وأقسامه. لقد علّق ابن الأثير على كلام ابن جني، ورفض ما ذهب إليه، ولم يكن رافضاً، اقتصرَ على

رفضه، بل تجاوزه إلى النيل من ابن جني، فتهكّم وسَخِر قائلاً: أين هذا العِلْمُ في سموّ منزلته مما لابن جني من صنعة نحوية ولغوية، لا يمكنُ أن يَصِلَ فيها إلى مادة النقد والبلاغة.

قلت:

على أن هذه الشَّطَحات لم تنلْ من قيمة «المثل السائر» النقدية التي أفاد منها الدارسون. وحسبنا أن كان «المثل السائر» لدى الدَّارسين لما كان لصاحبه من نظرات في النقد، برزتْ من فهمه للنصوص وبيان ما يخفى من معانيها على الكثير ممن عرفوا تلك النصوص.

قال صاحبي:

ولا بُدَّ لك أن تكونَ قد وقفتَ على الأصل الذي حرَّرَهُ ابنُ الأثير، فكانت لك «نشرةٌ نقديةٌ» مفيدة، ولكني ومعي غيري لم نشهدْ هذه «النشرة النقدية».

قلت:

ما زال هذا الكتابُ لديَّ، في صورته التي قدَّمتها للمناقشة، كتبتها بيدي، وصنعت منها ست نسخ، خمس منها كانت لأعضاءِ المناقشة الخمسة، والنسخة السادسة أودعت في مكتبة السوربون.

وقد بدا لي أن أنشرَها، فلم أوفَّقْ لذلك، لأن الناشرين لم يَرَوْا في نشرها ما يحقِّقُ لهم ربحاً، ذلك أن الكتاب كما أفادني الأستاذ قاسم محمد الرجب - رحمه الله - متيسِرٌ في طَبَعاتِهِ الثلاث، وفي سوق المكتبات القَدْرُ الكافي منه. ثم قال: إن الناشرين يخفُّون لنشر الكتاب الذي يكون مَدْرسياً، وأن طلاباً كثيرين يطلبونه كلَّ عام. ومن أجل هذا لم يكن لدى الناشرين رغبةٌ في طبع ما لديَّ على قيمة «النشرة النقدية».

ثم إن الكتابَ كبيرٌ، لا يُقبلُ عليه الناشرُ الذي ينفقُ في نشره مبلغاً كبيراً، وهو غيرُ متأكِّدٍ من رواجه.

قال صاحبي:

لقد بقي عليك أن تمضي في إنجاز الرسالتين، ولا بدّ أن يكون لك شغل آخر، تنقلب إليه حين تريد أن يكون لك ما تستعين به على تزجية الوقت.

قلت:

ليس لمن هَوِي القراءة أن يشعر بالحَيْرة في تزجية الوقت، ذلك أن أقل ما يمكن أن يتوجَّه إليه قراءة الصحيفة اليومية. وقد كان لي أن أقرأ صحيفة «الفكارو» لثلاثة أيّامٍ صباحاً، كان فيها صفحات في الأدب والفن والتاريخ، وأقرأ صحيفة «اللوموند» لثلاثة أيام مساءً، حفلت بصفحات في الأدب والفلسفة والدين، وفي هذه الصحف معارفُ كثيرة، تتَّصِلُ بما قدّمتُ. وللمرء في باريس أن يختارَ ما يقرؤُه، فالموادُّ كثيرةٌ، وليس له من الوقت ما يفي إلاّ بشيء يلزمه دونَ غيره.

وقد كانت لي صلاتٌ مع فرنسيين، أفدت منهم كثيراً، ومنهم صلتي برجل يبيع الكتب القديمة المستعملة، وقد يجد المحبُّ للكتب لدى هؤلاء الباعة نوادرَ نفيسةً. وإني لأذكر أني وجدت لدى هذا البائع، في حانوته القريب من السوربون كتباً نفيسة، في نشرات قديمة، اعتُني بها في الأدب الفرنسي في مختلف العصور، كما وجدتُ لديه كتابَ «اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية» للمطران يوسف داود، من مطبوعات الموصل سنة ١٨٩١، كما وجدتُ جزءاً من تاريخ ابن السباعي الموسوم به «الجامع المشترك» الذي نشره مصطفى جواد، وطبع في بغداد سنة ١٩٢٨ في المطبعة السريانية.

وأذكر أني لقيت حاجتي في سوق الأحد الذي يعرضُ فيه أصحابه القديم من الأثاث والملابس والآنية والكتب، في كل صباح من أيام الآحاد، في شارع صغير، يخرجُ من شارع مشهور، يعرفُه الباريسيّون والسُّياحُ من غير الفرنسيين، يدعى «شارع موفتار». اشتهر هذا الشارعُ بأبنيتِه العتيقةِ ذاتِ الحجارةِ القديمةِ التي صُفّت في أوائل القرنِ التاسع عشر.

لقيت في هذا السوق نسخةً من العهد الجديد، نُشِرَتْ منذ أكثر من مئتي سنة، في طبع جميل وحرف قديم، يحملُ أسلوب ذلك العصر المتقدم.

وكان لي أن أرسلتُ ما تجمَّعَ لديَّ من الكتب، في صناديقَ خشبيةٍ، إلى بغدادَ قبل أن أغادَر باريسَ راجعاً. وقد وَصَلَتْ بعد رجوعي بشهر. كان لي في هذه الكتب قدرٌ كبير من خِزانتي التي ما زالت في بغداد.

(ل) - في خزانة كتبي

قال صاحبي:

أظنك قد استطعتَ أن تجمعَ لك كتباً كثيرة، مما كان لك في بغداد، ومما اقتنيتَه في باريس، ومما كان لك في تَرْحَالك هنا وهناك.

قلت:

نعم! كان لي هذا وذاك، فقد تركتُ في بغدادَ طائفةً كبيرةً من الكتب اللغوية والنحوية والأدبية والتاريخية والدينية. وأذكر أني كنتُ في سنين خلت أجد حاجتي في الصباح كلَّ جمعة، في سوق السراي، وهو سوق الكتب الذي كانت فيه المكتبة العربية لنعمان الأعظمي، والمكتبة الأهلية للسيد الحيدري، والمكتبة العصرية لمحمود حلمي، ومكتبة المثنى لقاسم

محمد رجب وغير هذه. وكان في هذه السوق أيامَ الجُمَع، باعةٌ يعرضون ما لديهم من كتب ومجلات قديمة. وقد كان لي أن وجدت لدى أحدهم جملة كتب نفيسة كان منها:

١- «الحوادث الجامعة» التي نشرها مصطفى جواد سنة ١٩٢٨ في بغداد منسوبة لابن الفُوَطي، ثم رجع الأستاذ مصطفى عن هذه النسبة، وخصَّها بمجهول، افترض له زماناً غيرَ محدَّد في العصور المتأخرة.

كان هذا الكتاب ذا فائدة جليلة، في إيراد الأخبار مقرونةً بتاريخها، تَتَّصِل بالعهود المتأخرة في حكم الدويلات التي أعقبتْ سقوطَ بغداد. وكان هذا الكتابُ كراريسَ، كأنه مخلفاتٌ، بقيتْ في مبنى المطبعة القديمة البغدادية.

٢- المدارس النصرانية لروفائيل بابوإسحق.

٣- التجارة في العراق ليوسف غنيمة.

٤- الواسطة في لغة مالطة، لأحمد فارس الشدياق، أظنه طبع الجوائب.

٥- رحلة بنيامين التطيلي.

٦- جملة أعداد من مجلة اليقين البغدادية التي كان محمد الهاشمي الشاعرُ البغدادي يُشرفُ عليها. وأذكر أني قرأت فيها شيئاً عن شريعة حمورابي.

٧- أعداد كثيرةٌ من مجلة المقتطف، كثيرٌ منها مما نشر في أواخر القرن الماضي.

٨- مجلة السمير المهجرية التي كان يُصدرُها إيليا أبو ماضي، وفيها

الكثير من شعره مما لم أجده في ديوانَيْه «الجداول، والخمائل».

وقد اشتملت خزانتي على كتب إفريقية، فيها رسائل صوفية، طبعت بحروف مغربية في فاس وتطوان، ومجلات قديمة تونسية.

ووجدت «كتاب الساق على الساق» لأحمد فارس الشدياق المطبوع في باريس سنة ١٩٢٥ في تونس من بائع، عرض كتبه في أوّل الزُّقاق الضَّيِّق المقابل للجامع الكبير الشهير بـ«جامع الزيتونة».

ووجدت شيئاً من كتب السيد حسن حسني عبد الوهاب، منها موجزُ تاريخ تونس.

وكان مما حظيتُ به في القاهرة لدى الشيخ حرفوش طائفة من كتبٍ، الكثيرُ منها مطبوعٌ، وأعيد طبعه، وأذكر أن كان لي لديه مما استخرجتُه من الكتب المطروحة أرضاً التي غطَّتْ مساحةَ غرفةٍ واسعة «تاريخ مختصر الدول» وكثيرٌ من مطبوعات الجوائب ومن أعداد المجلة وغيره مما نشرته الجوائب.

وكان لي شيء لدى محمد العبّادي، من باعة الكتب في حي الحسين، منه:

«رسالة في الأم» لمؤلف دانمركي نقلها إلى العربية بندلي جوزي، وطبعت في طَشْقَنْد.

و«موسى بن ميمون» لإسرائيل ولفنسون.

و«تاريخ اللغات السامية» للمؤلف نفسه.

و«إعلام الناس فيما وقع للبرامكة من بني العباس» للإتليدي.

و«الإبريز في الرحلة إلى باريز» لرفاعة الطهطاوي.

وكتاب «العاطل الحالي» لصفي الدين الحلّي.

ومن مطبوعات طهران وقم الكثير من كتب الشيعة الذي لا يعرفه الدارسون. وقد شاركت مطابع النجف المراكز الشيعية الأخرى في نشر الكتب، ثم جاءت دور النشر اللبنانية الشيعية في نشر شيء آخر.

والعجيب أن هذه الكتب الشيعية لم يتوسَّع الشيعةُ في توزيعها، فأنت لا تجدُ الكثيرَ منها في المكتبات العامة، في كل بلد من البلاد العربية والإسلامية ما عدا إيران وبعض مكتبات باكستان والهند.

وها أنذا أبسطُ شيئاً مما لديّ في خزانتي من هذه الكتب الشيعية:

١- الاحتجاجُ: لأحمد بن عليّ الطبرسي - ط. مؤسسة النعمان ببيروت.

٢- الاختصاص: للشيخ المفيد، ت. محمد باقر الخرسان - نشر مكتبة بصيرتي الإيرانية.

٣- الاستغاثة في بدعة الثلاثة: لأبي القاسم الكوفي - دار الكتب العلمية بقُم.

٤- الأصول من الكافي: لمحمد بن يعقوب الكُلَيني - ت. علي الغفاري بقُم.

٥- أصل الشيعة وأصولها لمحمد الحسين كاشف الغِطاء - دار القرآن بقم.

٦- إمامة علي بين العقل والقرآن لمحمد جواد مغنية - بيروت.

٧- الأنوار النعمانية لنعمة الله الجزائري - تبريز.

٨- أوائل المقالات للشيخ المفيد - مكتبة الدواري بقُم.

٩- التقيَّة لآية الله الخُمَيْني - قُم.

١٠- تفسير القمّي علي بن إبراهيم - قُم.

١١- تفسير الصافي طبع طهران.

١٢- عقائد الصَّدُوق للشيخ المفيد - مكتبة الدواري بقُم.
١٣- طبقات أعلام الشيعة لآغا بُزُرْك الطهراني - بيروت.
١٤- لؤلؤة البحرين ليوسف أحمد البحراني - النجف.
١٥- مرآة العقول في شرح أحاديث آل الرسول لمحمد باقر المجلسي - طهران.
١٦- بحار الأنوار للمؤلف السابق - طهران.
١٧- المكاسب المحرّمة للخميني - قم.
١٨- منار الهدى لعلي البحراني - الهند.
١٩- ينابيع المعاجز لهاشم البحراني - قم.

هذ قليلٌ مما لديَّ من مطبوعات الشِّيعة، قد توسَّعتُ قليلاً في إثباته، لأبينَ للقارىء أن المصنّفات الشيعية غيرُ متيسرة في الخزائن العامة في بلداننا، ولا يعرفها الدارسون.

وقد كان لي زيارة لإسطمبول، وكان لي فيها فرصة الاقتناء للكتب التي نشرت في تركيا، ومنها شيء من مطبوعات الجوائب، كما اقتنيت بضعة مخطوطات، كان منها «أسرار البلاغة» للجُرْجاني، وقد اقتنيته على أنه مشهور طُبع غير مَرَّة، ولكني وجدت المخطوطة قد كتبت بخطٍّ جميلٍ. مع عنوانات بالحبر الأحمر.

م- (العودة إلى باريس)

وأعود إلى باريسَ، وأمضي في بيان ما كان لي وأنا ماضٍ في تحرير الرسالة الكبرى الرئيسية فأقول: ما زلت أحرّرُ في الرسالة متَّخِذاً من مكتبة مدرسة اللغات الشرقية مقرّاً لي، لأكونَ قريباً من المصادر التي أعودُ

إليها، إن كانت لي حاجةٌ، لم تكن في جزازاتي التي أعددتُها قبلَ تسجيل الرسالة.

لقد كان من حسن حظي أن الذي دوَّنتُه، كان في الموضوع الذي عرضتُه، فحصلتُ فيه على موافقة الأستاذ بلاشير، ثم الأستاذ كانتنو.

قال صاحبي:

لا بدَّ أن تكون بعد تسجيل الرسالة محافظاً على منهج في الحضور لمحاضرات الأدب الفرنسي والحضارة الفرنسية في السوربون، ولا بُدَّ أن يكونَ لك في سعيك هذا الاتصالُ باللغة الفرنسية حين تسمعها على ألسنة الأساتذة الكبار المحاضرين. ثم ما كان من منهجك في مواصلة الدرس في اللُّغات السَّامية، فقد سمعتُ منك غير مرَّة ما أفدته من الأستاذ دورم، في محاضراته عن سفر أيّوب، ومحاضرات الأستاذ دوپونت سومير في التاريخ الآرامي الذي جعل مخطوطاتِ خربةِ قمران مادته.

قلت:

نعم! بقي لي كلُّ ذلك، لأصلَ منه إلى فوائدَ، قد يكونُ لي شيء منها، أظهره في رسالتي.

وأما خبر اللُّغة الفرنسية، فقد كان من منهجي مشاهدةُ ما يمثَّلُ على مسارح الدولة كالكوميدي فرانسيز ودار الأوبرا من المسرحيات الكلاسيكية لراسين وكورنَي وغيرهما.

في هذه المسارح لي فائدة، لا تعدلُها فائدة، هو أني أسمع اللغة الفرنسية في أدائها السليم، ولا بد من الإشارة إلى أن مشاهدة هذه المسرحيات لا تقتضي المشاهدَ الطالبَ غير ما ندفعُه في المكتب المعني بشؤون الطلاب من مبلغ يسير فنتسلمُ تذاكر الدخول. إن بعض هذه

المسارح قريبٌ من الحيّ اللاَّتيني، ولكنك لا ترى بين المشاهدين إلا القليل من الطلبة العرب. ولكنك تجدُهم إن فتشتَ عنهم في مقاهي الحيِّ حلقاتٍ، فينقلون معهم سوآتِنا في بلدانِنا.

قال صاحبي:

كأنك تشيرُ إلى أن الطلبة العرب، ومنهم نفرٌ من العراقيين، تَشْغَلُهم تُرَّهَاتُ السياسة والحزبية. وشيءٌ آخر هرعوا إليه، وهو البحث عن المرأة التي يسعونَ أن يرتبطوا بها حتى إن كانت امرأة سُوقِيَّةً، لا تعلمُ إلا أوشاب الحياة مما يَتَّصِلُ بالجنس.

قلت:

هم كذلك، لأن أهل الجِدّ من العراقيين وغيرِهم، ليس لهم من الوقت ما يُنفقونه في لهو الحياة الذي يَصْرِفهم عما جاؤوا من أجله. وبسبب من هذا وجد بعضهم أنه زلَّت به قدمُه، فراح في هُوَّة، لا يستطيعُ الخروجَ منها. لقد انقطعتْ ببعضهم السُّبُلَ، وانقطع عن أهله، فمنهم من وجد صاحبتَه ممن لا تَحسُنُ رفقتُها، فاقترنَ بها، وراح يفتِّشُ عن وسائلَ، لا تعودُ عليه إلا بأجر يسير، يستعين به على العَيْش، وكذلك كانت حال صاحبته، فخاب سعيُهما، وصاراً من الأخسرين في دنيا، لا يقوى عليها إلا العُصْبَةُ أولو القوّة الذين سَعَوْا واجتهدوا، فنالوا ما هو أزكى وأوفى.

وأعودُ إلى اللغة الفرنسية التي أدركتُ فيها أن لا غنى عن السماع فيها، فلم تجدْ فيها كثيراً ما يتّصل بالكَلِم والمصطلح وما هو استعمال فرنسي درج عليه الفرنسيون، ولا يعرفون كيف كان في لغتهم، وهو الذي عُرف بـ«gallisisme». كما لا تجدي معرفةُ نحوها كثيراً إن تُدِرْ لسانك وفمك في إخراجها بعد أن تكونَ أذناك قد وُطِّنت على سماعها.

قال صاحبي:

لقد أشرتَ إلى هذا منذ قليل، حين عرضتَ لنهجك في سَماع هذه اللُّغة، ودأبك على حضور المسرحيات في الأدب القديم والحديث، كما أشرت في فصول سبقتْ إلى أنك كنتَ تحضرُ المحافل والاجتماعات، لسماع ما يقال فيها من محاضرات ودروس.

قلت:

نعم! وأضيف إلى ذلك كله فأقول: كان لي في مشاهدة «الأفلام» في دور السينما فوائدُ أيضاً، ذلك أن ما يعرض في السينما كثيراً ما يكونُ شيئاً من أدب الشعب. وفي المرء حاجةٌ إلى أن يسمعَ هذه اللغة التي يعمرُ بها الشارع والسوق، ولغةُ هذه الجهات ذاتُ خصوصيَّة، لا تجدُها فيما يكتب في الكتب، ولكنك قد تجدُها في لغة الصحف المعنية بما يشغلُ الناس.

قال صاحبي:

ما كنت أظنُّ أن للفرنسية ضربين من الإعراب، الأولُ هو الفرنسية الفصيحةُ التي تُكتبُ وتُسمعُ في المدارس والمؤسسات الثقافية وغيرها، والثاني هو فرنسيةُ النّاسِ في السُّوق والشارع، وبين هذا وذاك فرقٌ ظاهرٌ.

قلت:

وأفيدُك أيضاً أن لفرنسية السوق والشارع خصوصيَّاتٍ، فأنت تسمع فرنسية، يدرجُ بها الطلاب في جِدِّهم ولعبهم، وفرنسية تسمعها من الجنود ذات خصوصِيَّة خاصَّة، وأخرى تسمعُ في السجون ونحو ذلك.

قال صاحبي:

لقد تحدَّث الجاحظ فيما تحدَّث عن عربية، يصيرُ إليها اللُّصوصُ والشُّطَّارُ ونحو هذا. وَكَأَنِّي أرى أن شيئاً من نحو هذا يعرضُ للّغات عامَّةً.

قلت:

نعم، هو ذاك الذي ظننتَ.

ولي أن أضيفَ شيئاً، أضعُه بين أيدي القرّاء العرب الذين ليس لهم إدراكٌ حسنٌ لمشكلة العربيَّة ومكانتها اليوم، وكيف ينبغي لنا أن نصنعَ، فأعرِضُ ما يكونُ من هذا لدى الفرنسيين فأقول:

كأنّ الفرنسيين في عصرنا هذا من الأمم القليلة التي ما تفتأ تفكِّرُ في لغتها، وأنهم معنيون بثقافتهم وحضارتهم وبأساليبهم في تيسير تعلُّم لغتهم. وهم من أجل ذلك حريصون على أن تشيعَ الفرنسية، فتعود إلى ما كانت عليه يوم كانت في القرن الماضي وأوائل هذا القرن لغةَ الصَّفْوَة المتعلّمة في كل بلد من البلدان تقريباً. وكان المرء بفرنسيته يستطيعُ أن يَتَّصِلَ بها وهو يتحوَّلُ من بلد إلى آخرَ دونما حاجة إلى معرفة لغةِ ذلك البلد.

لقد كان الفرنسي يضيقُ ذَرْعاً، إن وجد أن كلمةً غيرَ فرنسيةٍ شاعت بين الفرنسيين؛ لأنه يجدُ أن ليس من حاجةٍ أو ضَرورةٍ تقتضي هذا الدخيلَ البغيضَ.

قال صاحبي:

ولكني أسمعُ وأقرأ أن الإنكليزية ولا سيما الإعراب الجديد الأمريكي بدأ يغزو الفرنسية، والفرنسيون يسمعون، وكأنهم آمنوا أن ليس من طريقة

تكبحُ جماحَ هذا الوافد البغيض.

قلت:

نعم! هذا ما يشكو منه أولو المعرفة الذين صاروا يجدون الفرنسي يُعدُّ بحثَه في الإنكليزية، وهو يقصدُ ندوة أو مؤتمراً علمياً مثلاً. ثم يعود إلى ما كتبه بالإنكليزية، فينقله إلى الفرنسية، ليكونَ بين أيدي الدارسين الفرنسيين. وقد كان من هذا شيوعُ الكَلِم الأمريكي الجديد في الفرنسية، يتلقَّفُهُ الصِّبْيَةُ والشُّبَّان، وكأنّ هؤلاء قد أوحي إليهم أن الخيرَ كلَّ الخير فيما يجلبه الفكرُ الأمريكي إلى الدنيا. ولم يفطنْ هؤلاء الأحداثُ أن شيئاً من هذا كان لدى الشعوب الأخرى التي أطلق عليها «المعسكر الاشتراكي». لقد صنعت أمريكا ما صنعتْهُ، فزالت الاشتراكيةُ، ومضى رجالُها، وبدأ التَّيَّارُ الجديدُ، فوجد أهلُ هذا المعسكر الجديد أن ما كانوا يَسْعَوْن إلى أن يكونَ فيه الخلاص، قد أصبح وبالاً عليهم، وأن ما حلَّ فيهم ليس السعادةَ التي كانوا يحلمونَ أن يَرَوْها.

وأعود إلى حرص الفرنسيين على لغتهم والحفاظِ عليها فأقول: إنهم في طليعة الأمم التي آمنت أن الحضارة الجديدة، لا بُدَّ أن يكونَ فيها صرح اللُّغَة عالياً. فهل لنا نحن العربَ أن نؤمنَ بشيء من هذا؟

قال صاحبي:

قد يكون الذي يسوءُك مما ساءني، فإني ليحزنُني أن أجد هنا وهناك في جامعات عربية ألواحاً، كتب في بعضها «وَرْشة لتعليم العربية لغير الناطقين بها»!!

فما هذه «الورشة»؟ وهل خلت العربية، وهي من أوسعِ اللُّغَاتِ، من كلمة تُؤَدِّي هذه «الورشة» المنكرة؟

قلت:

إن عربيتنا المعاصرة لا تقصرُ ما تستعيرُه على اللُّغة الإنكليزية أو الفرنسية، بل تتجاوزُ ذلك، فتأخذ الكلمة السُّوقية التي قد يأخذها النفرُ الجديد من اللُّغات الأجنبية، ولكنها تندرجُ في الألسن الدارجة فتكون بعض عاميتهم. ألا ترى أن «الورشة» هذه التي استنكرتها قد أخذت في الأصل من كلمة مركبة في الإنكليزية هي «Work shop» فَزُوِّرَتْ وشُوِّهتْ حتى استحالتْ إلى «ورشة». ثم جاء الجامعيون - لا غفر الله لهم - فاقتبسوها، فجعلوها كلمةً فَنِّيَّة في قولهم: «ورشة لتعليم العربية لغير الناطقين بها»[1].

قال صاحبي:

لقد علمت حين كان لي إقامة في بعض بلدان الخليج، أن المؤسسات العلمية قد أسسها المصريون الذين استعانتْ بهم هذه البلدانُ في الذي عُرف من «برامج التنمية» فماذا كان من هذا؟

كان لي فيما سمعتُ ورأيتُ، أنهم في إحدى جامعات هذه البلدان استعملوا كلمة Control في نظام الامتحانات، وأرادوا بها الهيئة أو اللجنة التي تشرفُ وتديرُ الامتحانات، ولا أدري أمن الفرنسية أخذوها أم من الإنكليزية؟

وكأنَّ ما يرادُ بهذه «الكونترول» شيءٌ من مصطلح فنيٍّ، تخلو منه العربية؟ عفوك اللَّهُمَّ، إنا قومٌ أولو ضلالٍ بعيد.

قلت:

ولي أن أختم هذا الذي جوَّلت فيه غير مستطردٍ فأقول: لقد قيل في

---

(١) جرى هذا في إحدى جامعات الأردن، وفي جامعة صنعاء وغير هذا.

مآثر الجنرال «دوغول» أنه في معاهدة بوتسدام التي كانت في استسلام ألمانيا، بعد خسارتها في الحرب العالمية الثانية، وقف موقفاً، كان فيه زعيمَ فرنسا الذي حفظ لها مكانَتَها دولةً عظيمة مع الدول الكبرى المنتصرة. وكان له حين أريد منه أن يوافق على المعاهدة التي كتبتْ نصوصُها باللغة الإنكليزية، أن أبَى أن يثبتَ توقيعَهُ وقال: كان العُرف بين الدول أن تكون لغةُ المواثيق والمعاهداتِ هي اللغة الفرنسية، فأنا لا أثبت «توقيعي» إلاّ على نصٍّ فرنسي، ثم إن شئتم توقيعي على النَّصِّ بالإنكليزية، فسيكونُ ذلك بعد توقيعي على النَّصِّ الفرنسي.

ثم أعود إلى ما كنا فيه من الدَّرس اللُّغوي فأقول:

لقد استوقفتني عربيةٌ جديدة، شاعت فيها ألفاظٌ جديدةٌ، وتميَّزتْ بأساليبَ غريبة، قد يكون لي أن أدرجَها في باب من الاتساع، وأحملها على المجاز. وقد اهتديتُ بعد أن طال منّي الوقوف على الصحف والمجلات، إلى أن هذا الذي جَدَّ في العربية قد جيء به من الفرنسية. وقد تبيَّنَ لي أن المعنيين بالفكر الجديد وبأدب الصحافة هم من اللُّبنانيين الأوائل والمصريين، وهؤلاء ممن عرفوا فرنسا، فنقلوا إلى عربيتهم ما ألفوه من كَلِمٍ جديدٍ مع أساليب في القول ممّا ليس فيه شيء من العربية.

قال صاحبي:

لقد قرأت لك شيئاً من هذا فيما نشرتَه بعد عودتك إلى بغداد، في مجلة المعلم الجديد. وعجيبٌ أن يكونَ هذا الذي طالت معرفتُنا به، قد وصل إلينا من الفرنسية، فهل لنا أن نجدَ نظيرَ هذا الجديد قد تحدَّر إلى عربيتنا المعاصرة من الإنكليزية؟

قلت:

لنا أن نذهبَ إلى هذا، ولا سيَّما ما كان لنا بعد الحرب العالمية الثانية. إن حقبة ما بعد تلك الحرب، قد يكونُ لنا أن نعدَّها عصراً جديداً، تميَّزَ بظهور أمريكا قوةً عالميةً لها آثارُها فيما جاءت به من الجديد الذي يَتَّصِلُ بالعلم المتقدم، والفكر الجديد، وبأسلوب جديد في السُّلوك والتَّطَلُّع إلى الأشياء. ولا بُدَّ أن يصحبَ هذا تأثيرات لغويةٌ، فرضت على عامَّة لغاتِ الدنيا.

إن هذا الجديد، في العربية، آخذٌ بالازدياد، فأنت قد يستوقفُك منه بين حين وآخر لفظٌ جديدٌ واستعمال، لا عهدَ للعربية به.

قال صاحبي:

ربما يكونُ لنا أن نتقبَّلَ هذا الجديدَ، ونَجِدَ له مكاناً في العربية السَّمْحَة، فيتردَّد استعمالُه ويألفُه المعربون، فيستعملونَهُ فيما يكتبون ويقولون. وقد يحسبُهُ كثيرٌ منهم عربياً محضاً غير أني لاحظتُ أن شيئاً من هذا الجديد يخرجُ على سَنَن العربية، فليس لنا أن نحتملَه ونعدَّه في اتِّساعنا مجازاً جديداً.

قلت:

إن هذا الذي تحفَّظتَ فيه صحيحٌ، ولكنه شاع، وللشيوع سلطانٌ، يُفرَضُ فيه الشيء، فيكونُ كالأصل.

وأريد من هذا أن أقول: إن التنبيه على ما هو «غَلَط شائع»، وأن الصواب كذا وكذا غيرُ مُجدٍ، ذلك أن أهلَ التصحيح قد طلعوا علينا، فنبَّهوا إلى الأغلاط الشائعة، وصنفوا كتباً في هذه الأغلاط التي قُرِنَتْ بوجوه الصَّواب. ولكن هذا الغلط وسائرَ ما يمكن أن يندرجَ فيه من

التجاوز، دخل العربية، فلم تُجْدِ تنبيهاتُ أصحاب التصحيح.

قال صاحبي:

غير أني وجدتُ أهلَ التصحيح قد تجاوزوا حدودَهم، ففرَّطوا في موادِّهم، وتوسَّعوا فيها، وكان اللاحق يأخذ ما أثبته من سبقه. ثم إنهم لم يكونوا أهلَ علم كافٍ، يسمحُ لهم أن يذهبوا في هذا السبيل، فأخطؤوا فيما زعموه الصواب، وخطّؤوا استعمالاتٍ وزعموا أنها ليست من فصيح العربية، ثم بدا لآخرين أن تخطئةَ هؤلاء لكثير من الأقوال غيرُ سديدة، وأن ما عدّوه خطأً، كان من كلام العرب.

قلت:

لك أن تقولَ هذا في نفر، تصدَّى لهذا الأمر، ونصَبَ نفسَه عارفاً، وهو لم يعرفْ، فقد خُيِّل لهؤلاء أنهم ملكوا العربية. وهذا لا يتاحُ حتى لأهل العلمِ من الثِّقات، فليس لأحدنا أن يذهبَ إلى هذا، لأنه غيرُ قادر على أن يحيطَ بالعربية التي وصلتْ إلينا، وكيف لأحدنا أن يدّعي هذا، والعربيةُ واسعةٌ في القرآن والحديث وشعر العرب ونثرهم الذي وصل إلينا؟! وإذا كان الإمام الشافعيُّ، وهو مَنْ هو في العربية الذي أخذها عنه الكثيرون من المشاهير من أهل اللُّغة، يقول: «لا يُحيطُ بالعربية إلاّ نبيّ»، فكيف يسعى إلى التصحيح هذا النفرُ الجديد الذي لم يَشْقَ بمعرفة العربية الواسعة؟

قال صاحبي:

لي أن أقول ما قاله أبو علي الفارسيُّ حين مرَّ بالموصل، فرأى أبا الفتح عثمان بن جنيّ قد تصدّر في مسجدها الجامع للتدريس والإقراء: «لقد تَزَبَّبَ وهو حِصْرِمٌ».

قلت:

ولنا أن نقول في هذا النفر ما ورد في الأثر:

«المتشبِّع بما ليس فيه كلابس ثَوْبَي زُور».

أقول: إن هذا الذي استوقفني في العربية الجديدة، حداني أن أضع معجماً جديداً دعوته «معجم العربية المعاصرة». وهذا عملٌ بدأتُه وأنا في باريسَ قبل أن أنتهيَ من إنجاز الرِّسالة، وبقيت أديمُ النظرَ فيه، فأستدركُ وأكملُ وأصحّحُ، وقد يكون لي أن أجدَ شيئاً من الجديد، قد ورد له نظيرٌ في قول الأقدمين، فأشير إليه. وقد كان لي في هذا «مقدِّمة» واسعةٌ، أفردتُها في كتاب، بعد سنين طويلة. وكانت هذه محاضرات لي في معهد العالم العربي في فرنسا، وقد نقلت إلى الفرنسية، وسينشرُ هذا النص الفرنسي.

قال صاحبي:

كنت قد سمعتُ منك شيئاً من هذا، في محاضرة لك، في اتحاد الأدباء العراقيين، قبل ثلاثين سنة، عرضت فيها أن الجديد الذي أدرج في عربيتنا، كان لنا نظيره في كلام العرب، ولكن المعاصرين يجهلونه، فهرعوا إلى ما وقفوا عليه في الفرنسية، ومن هذا:

قول المعاصرين: «إنه يذرفُ دموعَ التَّماسيح» أي أن دموعَ التَّماسيح لا تَدُلُّ على البُكاء، فالذي يذرفُ الدَّمْعَ خداعاً من النَّاس، كحال التَّماسيح، كاذبٌ يُظْهِر أساهُ وهو غيرُ هذا.

أقول: كان مثل هذا قولُ الشاعر القديم، في رجز له:

ثم بَكَوا من بعد ذا وناحوا كـذاك كِـذْبـاً يفعـلُ التِّمْسَـاحُ

ومن هذا أيضاً قولهم: «رَمَى باللؤلؤ إلى الخنازير»، يريدون أنه عرض على غيره ما لا يدرك قيمته. وهذا من الفرنسية: «Jetter des pearles duauxk pourceaux».

أقول: وهذا قريبٌ مما ورد في أخبار شُعبة المحدِّث قال: «رآني الأعمش وأنا أحدِّث قوماً، فقال: ويحكَ يا شعبةُ، تعلّق اللؤلؤَ أعناقَ الخنازيرِ»[1].

أحسنتَ، وغيرُ هذا ما ذكره أهلُ التَّصحيح، قد عُرِف في كلام العرب. وقد كان لي أن أشرتُ إلى أن التصحيح قديمٌ، فقد صنَّف أهلُ القرن الثالث فكان «أدب الكاتب» لابن قتيبة شيئاً من هذا. وكان «إصلاحُ المنطق» لابن السِّكِّيت يندرجُ في هذا الباب. ثم اشتهر الحريريُّ في كتابه المشهور[2] الذي قسا على نفسه، فنسب إلى الخطأ الكثير مما كان يقالُ في عصره، وهو القرن الخامس. ثم بدا لأهل العلم في عصر الحريري وبعد عصره، أنه تكثَّر وتجاوزَ الحدودَ، فصحَّحوا من أقواله، وردُّوا عليه، فكان لنا كتاب الخَفَاجي في الردّ على الحريري، في كتابه «درّة الغواص».

ولي أن أشير إلى ما أنجزه مصطفى جواد، في تحقيقاته التي أحسنَ فيها القولَ، لما كان له من سَعَةِ حفظِه.

قال صاحبي:

إن سَعَةَ علم الأستاذ مصطفى وما كان له من معرفة الكلم والأساليب في المطبوع والمخطوط، قد أتاح له أن يصنِّفَ كتابَهُ «قل ولا تقل»، وهو

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلّم، لبدر الدين بن جماعة الكتاني «حاشية ص٥١».

(٢) وهو كتاب «درة الغواص».

شيءٌ مفيدٌ. ولكني أعود إلى ما أشرت إليه فأقول:

ليس لنا أن نطلقَ، فنحسب أن ما وصل إليه مصطفى العِلْمُ الذي لا يصلُ إليه القول، فلا يُستدركُ عليه، ذلك أن الأستاذ صبحي البَصَّام، وهو من تلامذة الأستاذ مصطفى جواد، قد استدرك عليه مسائلَ كثيرةً.

قلتُ:

ولنا في هذا الذي أدرنا عليه القولَ كفايةٌ ومقنَعٌ، فلا بدَّ أن أعودَ إلى عملي في الرسالة فأقول:

كان علي أن أستوفيَ بعضَ المصادر في الإنكليزية، فقلت في نفسي: إن الكثير منها بين يدي، في مكتبات باريس، في مكتبة السوربون ومكتبة مدرسة اللُّغَات الشرقية والمكتبة الوطنية، غير أني رأيت أن شيئاً منها، مما كتبه المستشرقون، لم أجدْه في هذه الخزائن، فعزمت على القيام برحلة إلى لندن.

ن - السفر إلى لندن

قلت:

كان هذا في الشهر الثامن من سنة ١٩٥٣، وهو أوَّل مرة أخرج فيها إلى غير فرنسا من البلدان الغربية. وقد كان لي صلاتٌ مع نفر من العراقيين في لندن، كلهم من الدَّارسين. ولما وصلتُ، أعلمتُ صاحب سيارة الأجرة بعنوان أحد أولئك الذين أعرفُهم، فحملني إليه. وكان صاحبي هذا قد استأجر لي غرفةً في المنزل الذي يسكنُه.

وقد أعددتُ لي منهجاً، اشتمل على ما عزمتُ أن أراه من المصادر،

وما أردتُ أن أقتنِيَه من الكتب، إن تيسَّرت. وهذا يقتضي أن أزورَ:

١- مكتبة المتحف البريطاني.

٢- مدرسة اللُّغات الشرقية في جامعة لندن.

٣- المكتبات المتخصصة ببيع الكتب الشرقية والدراسات العربية والإسلامية.

قال صاحبي:

ومن غير شكٍّ أنك قابلتَ في لندن الأساتذة المستشرقين أصحاب الدراسات العربية؟

قلت:

نعم، لقد كان لي شيءٌ من ذلك، في مدرسة اللُّغات الشَّرقية.

ولعلّ مما يَسَّرَ لي عملي، أني سكنت في الحَيِّ الذي يقربُ من هذه الأمكنة التي سأزورها.

لقد كانت زيارتي الأولى لمكتبة المتحف البريطاني التي طلبتُ فيها فهرس المخطوطات العربية الذي قضيتُ في استقرائه ثلاثة أيام، وأفدت منه بمراجعتي للمخطوطات اللُّغوية، ولكني لم أطلبْ تصوير أيّ منها، ذلك أني وجدتُ الكثير منها، مما أنا لي به حاجة، مُصَوَّراً في مدرسة اللُّغات الشرقية في باريس.

ثم تحوّلتُ إلى مدرسة اللُّغات الشرقية، فوجدت المصنفات القديمة للمستشرقين الإنكليز، ومنها كتاب في النحو العربي للمستشرق «هووِل». وكأن هذا الكتاب كان من مصادر وليم رايت، في كتابه الذي ما زال متداولاً في «النحو العربي» وإن كان كتابُ «Caspari» في النحو العربي المصدر الأوّل لـ«وليم رايت».

وكان أن لقيت في هذه المدرسة «هيوارت دَنْ»، الذي كنت أعرفُه قد حقّق ونشر كتاب «الأوراق» للصُّولي. ولكني حين لقيتُه، بادرني بعربية تشوبها عامِيَّةٌ مصريةٌ قائلاً: أنت عراقي من سَامَرَّاء، فقلت: نعم.

ثم عقدت حديثي معه، فعرضت لكتاب «الأوراق»، وكأني أدركتُ أنه بعيدٌ عن هذا الكتاب، وأردتُ أن أبسطَ الحديثَ، فأعرض للصُّولي في كتابه «أدب الكتّاب». وأشرتُ إلى أن هذا الكتاب الثاني، من الكتب التعليمية، شأنه شأن «أدب الكاتب» لابن قتيبة، و«إصلاح المنطق» لابن السّكيت، ولكني كنت كمن يضرب على حديد بارد. وكنت أود أن أبقى في كتاب «الأوراق» الكتاب المفيد، لما فيه من توجُّه حضاري، فلما وجدتُه بعيداً عما أنا فيه، تحوّلت إلى غير هذا كما أشرت.

قال صاحبي:

لعلك أردت أن تنبهه على ما كان فيه من أغلاط، لم يَهْتَدِ إليها في تحقيقِه، ذلك أني قرأتُ هذا الكتاب، فوقفتُ فيه على طائفةٍ من الكَلِم، عُدِلتْ عن صُوَرها.

قلت:

نعم، كنت أقصدُ أن أشيرَ إلى هذا وغيره، فلما وجدته لا يدري من أمر الكتاب شيئاً، لم أخبرْه بخبر الجزء الذي وُجد في لينينغراد من «الأوراق» والذي اعتزم أحد المستشرقين الروس على إخراجه، وقد أذيع هذا الخبرُ منذ زمان بعيد، ولكن هذا المستشرق لم يصنعْ شيئاً.

ولا بد لي أن أثبتَ هنا أني لقيتُ «هيوارت دن» في بغدادَ بعد رجوعي من باريس، وقد حلَّ في بغداد أستاذاً زائراً، فلم أتَّصِلْ به، لأني خَبَرْتُهُ، وعجبتُ أن يكون قد دعي أستاذاً زائراً.

قال صاحبي:

لقد عرفتُ هذا المستشرق الذي خيَّب ظَنِّي، ولولا علمي أن بين المستشرقين نفراً أولي علم حسن، لكان لي وأنا أمام هذا الإنكليزيّ الذي اكتسبَ من إقامته أسوأ ما يكتسبه امرؤ. لقد رأيته يحدِّثُ أحد الأساتذة العراقيين مدَّعياً أنه يصنع معجماً، يشتمل على الشتائم وألفاظ اللَّعنة وألفاظ البذاءة، وراح يسردُ طَرَفاً من بَذَاءَاتِهِ، مما لا يمكنُ أن يكونَ من ثقافة أولي العلم.

قلت:

وقد عرفت في هذه «المدرسة» أستاذاً آخراً هو «داود كَوَن» الإنكليزي المسلم الذي حسُنَ إسلامُه، فقد وجدته ذا خُلُق كريم. وقد علمت أنه كان يُمدُّ الطلبةَ العربَ بمساعداته، وقد عُرف لديهم بـ«الحاج داود».

وأختمُ عملي بما كان من ذهابي إلى المكتبات الخاصة، فاقتنيتُ جملةَ كتبٍ، دفعتُ فيها ثمناً عالياً.

قال صاحبي:

وقد عهدتك تقتني الكتب النادرة التي طبعت منذ زمن بعيد، فهل كان لك شيء من ذلك؟

قلت:

نعم، لقد كان لي هذا أينما حللتُ، وكنت قد أشرتُ إلى ما حصلتُ عليه في القاهرة وإسطنبول وغيرهما. غير أني في لندن وجدت جملة أعداد من مجلة «الحاصد» البغدادية التي كان يصدرها الأستاذ أنور شاؤول المحامي اليهودي الذي شارك العراقيين الآخرين كتابة القصَّة، ونظم الشعر.

وقد كان لي في إحدى المكتبات الخاصَّة القريبة من مدرسة اللُّغات الشَّرقية، أن اقتنيتُ مجموعاً، فيه أدب سرياني، هي تراتيل كنسية دينية بخط المطران يوسف داود، جمعها أحد الضباط الإنكليز، في عهد الاحتلال البريطاني، وهي بالخط السطرنجيلي الشرقي، ولغتُه سريانيةٌ شرقيةٌ.

قال صاحبي:

هل لي أن أعرفَ هذه السريانية الشرقية، وما صلتُها بالآرامية؟

قلت:

إن لفظ السريانية يشير إلى تاريخها، فهي الآرامية التي سبقت ظهور النصرانية، فكأن الآرامية تشير إلى الآراميين قبل ظهور السيد المسيح، فاقترن الاسم بالوثنية. وهي شرقيةٌ، لأنها الشُّعْبَةُ الشَّرقيةُ التي تبعها النساطرةُ الشرقيون، وموطنُها شماليَّ بلاد الرَّافدين، وقد امتدتْ، فكان منها أتباعٌ في وسط العراق وجنوبه.

وهذه تقابل: السريانية الغربية التي هي لغةُ اليَعَاقبة، وهم في بلاد الشام عامةً. وبين هذه وتلك فروقٌ لغويةٌ، تتصل بالنُّطْقِ، وهما شعبتانِ من أصلٍ واحدٍ.

والنصارى في كلا الجانبين يتبع كل طرف كنيسته الخاصة ورسومه الخاصة. وللنصارى في بلاد الشام وبلاد الرافدين مشاركة في الحضارة الإسلامية، ولهم حضورهم الواضح في الفلسفة والعلوم.

قال صاحبي:

لقد أخبرتني مرّة أن من أصحابك الذين عقدت بينك وبينهم أواصرَ إخاءٍ ومودَّة نفراً من غير المسلمين، أحببتهم وأحبّوك.

قلت:

نعم! كان لي هذا، إنهم أصحابي من النَّصارى واليهود، وإني لأحمدُ لك هذه الجولة مستطرداً، دفعتني بعدها إلى العودة إلى المكتبات الخاصة في لندن، لأقول لك:

إني رأيت في إحدى هذه المكتبات أحداً من الطلاب اليهود الذين عرفتهم في ثانوية مدينة العمارة طالباً جادّاً هو سليم كوهين. جاء إلى لندن بعد أن هجر أهلُهُ العراق فيمن خرج قاصداً إسرائيل، ولكنه خرج من إسرائيل، ليدرس في لندن.

رأيته في لندن، فأمدَّني بعونِهِ، ودلَّني على باعة الكتب المستعملة، فكان لي من ذلك فائدةٌ جزيلةٌ.

ولن أنسى أني لقيت في الطريق، بين المتحف البريطاني ومدرسة اللُّغات، الشرقية طالباً مصرياً وأنا بصحبة أحد العراقيين، فلما سمع من كلامنا، خصَّنا بتحيَّتِهِ، ووقفنا قليلاً، وبادلناه تحيَّتَهُ بأحسنَ منها، فسألته: ما عملك هنا، فأجاب: أنا في الأزهر الشريف!!

قلت: أيكون للأزهر الشريف فرعٌ في هذه الديار؟

فقال: نعم! هي هذه المدرسة التي تدعى مدرسة اللُّغات الشَّرقية.

قال صاحبي:

كأنه أراد أن ينالَ من هذه «المدرسة» ليشيرَ أنها تقبلُ كلَّ من يتقدَّمُ إليها، فينال الدرجة دونما تعبٍ. . .

قلت:

فهل لمصريّ من أصحابنا ينتقصُ الأزهر الشريف كما كان الأمر من هذا

المعتدي الجريء؟

لقد انتهت هذه المسألة، وقلت: سامحه الله، وبينا أنا متّجهٌ إلى مدرسة اللُّغات الشرقية، إذا أنا أقابلُ صديقي الأخ حسن ظاظا الذي جاء إلى لندن، يبحثُ مثلي على شيء من مصادره، فلم يكن إلا أن سردتُ له ما سمعتُه من الطالب المصري الذي تقوَّل على الأزهر الشريف.

وقد تَعْجَب، صاحبي الكريم، أن كان الأخ الأستاذ ظاظا قد عرف صاحبنا المصري، فأفادني: إنه جاء من مصر، فلم يكن له ما للطالب الجادّ، فقضى السنوات، ولم يصنع شيئاً، وفُصل من الدراسة، وبقي في لندن، يكسبُ القليلَ الذي يوفِّر عَيْشَه. وهو قبطيٌّ، تشوبُه سخيمةٌ ونعرة طائفية.

قال صاحبي:

وكثيرٌ ممن قصدوا البُلدان الأوروبية وغيرها للدَّرْس، فلم يُوفَّقوا وخُدِعوا ببريق الحضارة، فزلت بهم القَدَمُ، وانحرفوا عن الدَّرْب، فساءت حالُهم، ونِسيَهُمُ الأهلُ والصحبُ.

قلت:

كانت هذه رحلتي إلى لندن التي أمضيت فيها الشهر الثامن من عام ١٩٥٣، وعدت بعد ذلك إلى باريس، أنظر في شأن الرسالتين، وأحرِّر فصولاً من الرسالة الكبرى. وإني كدأبي أبداً أقصد الأستاذ كانتنو كلَّ أسبوعٍ، أبسطُ بين يديه ما أنجزتُه، أسأله عن مسائل وجدت فيها ضرباً من إشكالٍ. وكنت أفيدُ من مكتبته فوائد جَمَّةً، ذلك أنها كانت خِزانةً غنيةً، حفلتْ بالدِّراسات التي صنِّفت في اللُّغات السَّامية هنا وهناك.

قال صاحبي:
وماذا من أمر «المثل السائر» الذي سعيت إلى توفير أصوله المخطوطة؟

قلت:
لقد كان لي الكثير من هذه الأصول، ولم يصعبْ عليَّ منها إلا نسخة، قيل: إنها في الموصل، في خزانة الدكتور داود الجلبي الموصليّ. لقد كتبت إلى هذا رسالةً، سألتُه فيها أن يزوِّدَني شيئاً عن النسخة التي لديه، فأجابني: إنها نسخةٌ متأخرةٌ، نسختْ في أوَّل المئة الثالثة عشرة.

لقد صنعت لنفسي نسخة، لفَّقتها من ثماني نسخ مفيداً منها جميعاً، كان أقدمها قد نسخ سنة ٧٠٥هـ. وزودتها بالتعليقات المفيدة التي كان فيها إشارات وافية لما في النسخ من خلاف، ثم تصحيحات أخرى، قصَّر فيها هذا الناسخ أو ذاك.

ولما أنجزتُ هذا العملَ الأوَّلَ، عدتُ ثانيةً إليه، وحرَّرتُ المقدِّمةَ في سيرة المؤلف، وفي الكتاب، وأصوله، فاستوت لدى الرِّسالة، فكان مني أن أخرجت منها، بطريقة من التصوير، لم تكن متقدِّمة يومئذٍ، تسعَ نسخٍ، وهي العددُ المطلوبُ.

قال صاحبي:
لعلك وقد انتهيتَ من هذه الرسالة، عُدت لإكمال الرسالة الكبرى.

قلت:
لقد أمضيت فيها ما يقربُ من عامين، وانتهيتُ من طبع الرسالة في أوّل عام ١٩٥٦، وقدّمتها للأستاذ المشرف الذي كان الإشراف من الناحية الشكلية له، وهو الأستاذ بلاشير. واقتضت ظروفُ الرسالة وتهيئة اللَّجنة للمناقشة ثلاثة أشهر، وانتهى هذا الأمر، وعين موعد المناقشة في اليوم

الأول من آذار سنة ١٩٥٦.

س- في مناقشة الرسالة

قلت:

لعل من المفيد أن ابسطَ هنا ما رافق هذه الحقبة، وهي آخر مقامي في باريس، وقد اتَّفق فيها أن انتهيتُ من إعداد الرِّسالة، وقدَّمتُها إلى كلية الآداب، ليكونَ لي موعدٌ يضربُ للدفاع عنها. وكنت منذ سنة أدبّر أمري، لأن السنوات السِّت التي رسمت في عقد البعثة، قد انقضت، وأعقبتها سنةٌ عجفاءُ، كان لي أن أقضيَها أنا بما سمحت الحال، وانتهت هذه السنة، فكان علي أن أنتظرَ أربعةَ أشهرٍ إلى حين موعد المناقشة.

لقد عرف الملحقُ الثقافيُّ العراقيُّ وهو الدكتور سليم النعيمي بالأمر، فرأى أن يَتَّصِلَ بوزارة المعارف، يطلبُ من مديرية البعثات منحي مدة أربعة أشهر، فلم يوفَّق إلى ذلك.

قال صاحبي:

كيف كان هذا؟ لقد علمتُ أن أحداً من طُلَّاب البعثة في فرنسا قد أمضى في باريسَ خمس سنوات، ولم ينجزْ شيئاً في اختصاص الزراعة، ولكن مديرية البعثات حوَّلته إلى أمريكا مبعوثاً جديداً، بعد أن كلّف الوزارة نفقاتِ خمسِ سنوات، ذهبت سُدىً. إنه كان من بعض قوم، لهم في ذلك العهد حَوْلَ وطَوْل.

قلت:

لا عليك، فقد أمضيتُ سنةً كما حدّثتك، أدبِّرُ أمري وحدي. ولا بُدَّ هنا أن أفضيَ إليك بسرٍّ، هو أن الأستاذ كانتنو كان قد علم من طالب

آخر، هو مصطفى الشويمي المصري أن «مخصّصاتي» قد قطعت، لأنَّ مُدَّة العقد بيني وبين الوزارة قد انتهت، فقال للأخ الشويمي:

ولِمَ لم يخبرْني السَّامَرَّائِيُّ بذلك؟ إني أستطيعُ أن أحصلَ من معهد البحث العلمي على شيء من المخصصات، تمنحُ لكل باحث، فرنسياً كان أم غيرَ فرنسي. وقد أفادَ من هذه المخصَّصات فلانٌ وفلانٌ من الطُّلَّاب الباحثين.

وكان لي أن التقيتُ بالأستاذ كانتنو، فكان لائماً شديدَ الملامة لي، لأني لم أخبرْه بالذي حدَّثه به الأخ الشويمي، فقلت له، وأنا أشكره، وأحمد موقِفَهُ منّي:

لقد تغلّبت على ما كنتُ فيه، ولم أشعر أحداً.

قال صاحبي:

ولي أن أعلم ما كنتَ قد ذكرتَ من مسعى الدكتور النعيمي وموقف مديرية البعثات، فهل جدَّ شيءٌ بعد ذلك؟

قلت:

نعم، لقد انتهز الدكتور النعيمي فرصة وجود السيد نوري السَّعيد في باريس، في طريقه منها إلى لندن، وقد كان له أن زار السفارة العراقية، وبدأ يسألُ العاملين فيها.

وكان له أن سأل الدكتور النعيمي عن عمله، فقال له بجرأته المعروفة وصراحته: إني غيرُ سعيدٍ في عملي هذا، فقال السيّد نوري السعيدُ: وما سببُ ذلك؟

فقال: إن وزارة المعارف في بغداد لا تُيَسِّرُ من مهمَّتي، فهي ترفضُ ما

أكتبُه حين أرى أن كثيراً مما أطلبه هو حقٌّ، ينبغي أن أحصلَ فيه على موافقة رسمية.

فقال السيد نوري السعيد: دَعْ عنك هذا، واذكر لي آخر طَلَب لك رفضوه، ولم يجيبوا عنه.

فقال الدكتور النعيمي: إن الوزارة رفضت طلباً، طلبت فيه أن توافق على منح إبراهيم السامرائي، الطالب الجادّ الذي شهد له الأساتذةُ الفرنسيون، مخصّصات أربعة أشهر، تأخَّر فيها من غير تقصير منه، بل إن الأمر هو أنه تأخَّر لأن الجامعة أي السوربون لم تستطعْ تعيين أعضاء لجنة المناقشة، ولم يكن ذلك لها إلا في التاريخ الذي عينته، وهو اليوم الأول من آذار. وهذا يقتضي أن يكون للطالب حقٌّ في مخصّصات أربعة أشهر، حُمِلَت عليه اضطراراً.

فلم يكن من السيد نوري السعيد إلاّ أن سجل الاسم وخصوصية المسألة، ولما عاد بعد أيام إلى بغداد، جاءت الموافقة السَّريعة.

قال صاحبي:

رحم الله نوري السعيد، وليس لي أن أقطع بشيء عنه، فلست ممن يهتمّ بالسياسة، وكذلك الأمر لدى أصحابي أهل الدرس.

قلت:

ولنعد إلى الحديث عن المناقشة. لقد أُلفت اللجنة برئاسة الأستاذ ليفي بروفنسال عميد المعهد الإسلامي، وهو أستاذ في السوربون أيضاً، وكان أعضاؤها:

الأستاذ بلاشير، وهو المشرفُ الذي عُهد إليه أمر الإشراف الرسمي، ومعنى هذا أن الإشراف الفعلي كان للأستاذ كانتنو. وقد صير إلى هذا

بسبب أن الأستاذ كانتنو المختصَّ بالعربية واللغات السامية لم يكن من أساتذة السوربون، بل هو أستاذٌ في مدرسة اللُّغات الشرقية، فليس له أن يكونَ مشرفاً، ولم يشارك في المناقشة.

ثم الأستاذ شارل بلا، وهو أيضاً من أساتذة مدرسة اللغات الشرقية، ولكن هذا لا يمنعُ أن يشارك في الرسائل التي تقدَّم إلى كلية الآداب (السوربون).

ثم الأستاذ لاووست الذي استدعي من جامعة ليون.

قال صاحبي:
ما أراك تبخلُ عليَّ في وصف المناقشة وما يتَّصِلُ بها من شؤون.

قلت:
إن المناقشات يسبقها إعلانٌ في الصُّحُف، ليعلمَ من له علاقةٌ بمادَّتها، فيحضر لسماعها، فأنت تجدُ بين الحاضرين من تهمُّه الرسالةُ مثلاً، فيسجل ماله من ملاحظات، وقد يكونُ شيءٌ من هذا مما يظهرُ في الصُّحُف.

والمناقشة في رسائل دكتورا الدولة تجري في قاعةٍ كبيرة، فيها مُدَرَّجٌ للحاضرين، وهذه من قاعات السوربون التي أفرغ فيها الصنَّاعُ فنَّهم في الزخرفة المُذهبَة والصُّوَر السَّقفية.

وقد بدأت المناقشةُ في السَّاعة الواحدة من بعد الظهر، وأخذتُ فيها مكاني إلى جانب لجنة المناقشة، ومعي «الرسالة».

ثم دخلت اللجنة، يتقدَّمُهم رئيسُها، ثم أعضاءُ اللجنة، وأخذَ كلٌّ موضِعَهُ، والرئيس في الوسط، وعلى يمينه عضوان، وعلى شماله عضوان

آخران.

لقد قام الحاضرون وقوفاً تحيّةً للقادمين وهم رئيس اللجنة وأعضاؤها. ثم أخذ كل مكانه، فبدأ الرئيس معرِّفاً بالرسالة وموضوعها ومعرِّفاً بي أنا الممتَحَن بالدفاع عن رسالتي وما كان لي فيها. ثم طلب إلي أن أعرض رسالتي ملخّصاً ما اشتملت عليه من مادة.

قال صاحبي:

لم تُشِر إلى ما عرفتُه في مصر، ومثله في بلدان أخرى من أن لجنة المناقشة يرتدون الجلباب الجامعي في المناقشة للرسائل، وفي غيرها من المناسبات الجامعية.

قلت:

لم يعرف الجامعيون من الأساتذة هذا التقليد الذي عرفه الإنكليز وغيرهم. ولم يكن «الجلبابُ الخاصُّ» إلا لدى القضاة في المحاكم. وكأن هذا التقليد الجامعي لدى غير الفرنسيين بعض آثار الكنيسة التي كان التعليم في مختلف مراحله من اختصاصها.

وأعود إلى حديث مناقشة الأساتذة لي، وأنا الممتَحَن الذي يتلقّى سؤالاتهم وآراءهم، فيجيب عنها.

أقول: لم أجدْ نفسي، وقد ملكتُ من أمري وأعددتُ ما لديَّ، في حَرَجٍ وضِيق إلا في مسألة واحدة، تتَّصِلُ بناحية مهمَّة، وهي أن غير المسلمين لا يَرَوْنَ ما يراه المسلمون من أن القرآن كلام الله، وهو بلسان عربي مبين غير ذي عوج. بل إنهم يَرَوْنَ أن القرآن صنع محمد، وعلى هذا إنّه عندهم كلامٌ، قد يعرض له الخطأ. لقد قال أحدهم هذا.

فقلت: أنا مسلم أعتقدُ غير هذا وإن الذي يقالُ من هذا، توقَّف فيه

المسلمون حتى إن لأهل الحديث من مروياتهم حديثاً، رفعوه إلى السيدة عائشة، قالت:

«ثلاثة أحرف هنّ من خطأ الكاتب»، وهذه الأحرف الثلاثة قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴿٦٣﴾﴾ [طه] قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة].

أقول: قد يكونُ لي أن أشكَّ في هذا الحديث، بسبب أن مثل هذه الآيات الكثير في لغة القرآن، فلِمَ كانت هذه الإشارةُ إلى هذه الآيات دون غيرها؟

فقال أحد أعضاء اللجنة وهو الأستاذ لاووست: إذن كيف ترى في هذا «الخطأ»؟ وقد كرّر كلمة الخطأ.

فقلت: ليس من خطأ، ولكني أقول: إن لغة القرآن تُعَدُّ بدايةَ تحوُّل العربية، من لغات قبائل إلى لغة موحَّدة، فرضتْ نفسَها على العرب، مَنْ أسلم منهم ومن لم يُسلمْ، كما فرضتْ نفسها على غير العرب ممن أسلموا.

فقال أحدُهم وهو الأستاذ بلاشير المعنيُّ بلغة القرآن أكثر من الآخرين:

كأنك أردت أن تقول: إن لغة القرآن احتفظت بشيء من لغات القبائل، وبشيء من غَيْبة ما ندعوه «نحو العربية».

قلت: نعم، فقال: لنا أن نقبلَ هذا متحفّظين، لأنّا إذا كنا نسلِّمُ بهذا، فكيف ننظرُ إلى خلوِّ الشعر القديم من كثير من خصائص العربية في القرآن.

قلت: إننا لم نرِثْ كلَّ الشعر القديم، وإن الذي ورثناه قيل فيه ما قيل، ومع كل هذا فقد وقفنا على عَوارٍ في لغة الشعر الجاهلي مما يقدحُ في النِّظامِ النَّحْوِي، ومن هذا ما روي من قول امرىء القيس:

فاليومَ أشربْ غَيْرَ مُسْتَحقِبٍ إثمــاً مــن اللهِ ولا واغــلِ

فقال الشاعر: أشْرَبْ بإسكان الباء ولم يقُل أشربُ.

قال الأستاذ بلاشير: ألم تقولوا أنتم العرب: هذا وغيره من ضرائر الشعر؟

قلتُ: لم يكن إحساسٌ بالضَّرورة لدى امرىء القيس وسائر الجاهليين، وقد يكون لنا أن نقول مثل هذا في عصر بني أمية مستدلِّين بما كان من جدل بين الفرزدق وعبد الله بن أبي إسحاق النحويّ، والخبرُ مشهورٌ في كتب طبقات النحاة.

وكثيرٌ مثل قول امرىء القيس قد ورد في عامّة الشعر الجاهلي.

واعترض الأستاذ پلا عضو المناقشة فقال:

ألم يقل المبرِّد في «الكامل» إن بيت امرىء القيس قد رُوي على النحو الآتي:

فاليوم ألهو غَيْر مستحقبٍ إثمــاً مــن اللهِ ولا واغــلِ

وبقوله: «ألهو» ذهب الذي اعتمدتَ عليه.

فقلت: لم يدرك المبرِّد هذا الذي ذهبت إليه من أمر بناء العربية وتطوُّرها، ذلك أنه افترض أن هذا الذي درج عليه المعربون قبل الإسلام وبعده مما ندعوه «ضوابط نحوية» كان مما يدركه الجاهليون، فأبى أن

يكونَ في شعرهم الخطأُ والتجاوُزُ، فذهب إلى «تصحيحه».

فقال الأستاذ پلا: إني لم ألاحظ شيئاً مما تقول في أدب الجاحظ.

فقلت: إن عصرَ الجاحظ كان العصر الذي نضج فيه الدرس النحوي، فهل نتصورُ أن يكونَ فيه شيءٌ من تجاوز على ما هو «نحو»، وبعد عن قاعدة صرفية؟

وكان مما قاله الأستاذ كانتنو وتوسَّعَ في قوله هو أني لم أتوسَّع في بسط اللغة المحلية (أراد لغات القبائل) في لغة القرآن.

فقلت: كان لي هذا فيما بسطتُه من القراءات، وأخصُّ الشواذَ منها، فهي في كثيرٍ منها تظهرُ ما عُدَّ لغة عامية في القرنين الثالث والرابع.

ألم يردْ في القراءات الشاذة قراءة خاصة، قُرنت بأبي السمّال وهو في قوله تعالى: ولا تَقربا هذه الشَيَرة» أي الشجرة. وإبدال الياء بالجيم من لغة أهل القرى في العراق وفي بلدان الخليج.

وكان مما قاله الأستاذ لاووست مشيراً إلى أني لم أتوسَّعْ فيما هو معروف في اللغتين الآرامية والعبرانية. فقلت: إن هذا لم يكنْ إلا في ألفاظ وقَفَ على شيء منها أهل المعرَّب.

وختم هذه الملاحظات الأستاذ ليفي بروفنسال، فأشار إلى الكَلِم الأعجمي الكثير في القرآن العربي المبين، وكأنه أراد أن يعترض فيقول: كيف يكون عربياً مبيناً وفي ألفاظه كلمات كثيرة أعجمية؟ إنه لم يذهب إلى هذا صراحة، بل أومأ إليه.

فقلت: إن لغة القرآن عرّبت القسطاس والصراط والاستبرق وغيرها، ونقلتها إلى العربية، فكانت وزناً وأصواتاً نظيرَ ما في العربية.

وهكذا انتهت المناقشة بعد ما يقرب من سبع ساعات، كان فيها جدلٌ وكلامٌ كثيرٌ، وانتهيت فيها من محنة، شقيت فيها أيّما شقاءٍ.

وانصرفت اللجنة لبضع دقائق، ثم عادت، فأعلن رئيسها القرارَ بمنحي درجة دكتورا الدولة بمرتبة الشرف الأولى.

ثم توجهت إلى الرئيس، فصافحته شاكراً، وصافحتُ الأعضاءَ، وانصرفتِ اللجنةُ، وانفضَّ مجتمعُ الحاضرين.

قال صاحبي:
لقد انتهت الرحلةُ، وفُزْتَ بالسَّبْق، وبدأ لك عملٌ جديدٌ بل أعمال، وهو التهيُّؤُ للعودة إلى الدار.

قلت:
كأني أنظرُ إلى أن ما سأواجهُه فشيءٌ كبيرٌ، يقتضي أن أسعى ليكونَ لي مكانٌ في دنيا جديدة، ليس للمرء فيها من ضمانٍ سوى ما يقدِّمه من العمل الصالح.

قال صاحبي:
لا بد أن يكونَ مكانَك في كلية الآداب والعلوم التي أنشئَتْ منذ أمدٍ قصير.

قلت:
لعل هذا الاسم يشير إلى وجود كلّيتَيْن، اتحدتا في إدارة واحدة. ولعلها النواة للجامعة التي ستنشأ باسم جامعة بغداد.

ومما يجبُ أن أثبته هنا أن الدكتور الدوري عميد هذه الكلية المزدوجة، قد مرَّ بباريس في طريقه إلى لندن، وكان لي أن رأيته، لأني أعرفه أوّل

مجيئه من إنكلترة، وتم تعيينُه مدرِّساً للتاريخ الإسلامي. وقد أفدتُ أنا وأصحابي من الطُّلاَّب من محاضراته التي أشرتُ إليها في موضعٍ من هذا الكتاب.

وقد أخبرني حين رأيتُه في باريس، كما أشرتُ، أنَّه كتب إلى وكيله الدكتور جميل سعيد أن يسعى إلى أن أكونَ معهم في كلية الآداب والعلوم مدرِّساً للغة واللُّغات السامية، لئلا تسعى عمادة دار المعلمين العالية أن أكون فيها.

قال صاحبي:
كأني أدركُ كيف كنتَ وأنتَ تُزمِعُ على العودة، فالكتُب كثيرةٌ وتيسيرُ إرسالها عسيرٌ، مع وجود الوكالات التي تقومُ بهذا من تعبئة الكتب في أوعية خاصة ونحو ذلك.

قلت:
لقد عمدت أن أتفق مع شركة للنَّقل والشّحن للبضائع التي تضطلعُ بشحن الأعباء إلى بلدان ما وراء البحار. وقد تمَّ لي هذا الاتفاق فجاؤوا إليّ، وعرفوا ما لديَّ، ثم أحضروا صناديق من خشب كُسِيَتْ من الداخل بالورق الخاص المطلي بمادة، بحيث لا يخترقُها الماء. وقد صُفّت الكتب بنظام، وأغلقتِ الصناديقُ، وسُمِرت بمساميرَ، فكان لي من هذه الصناديق سبعاً، وأخذت إلى مقر الشركة، لتنقل من هناك إلى البواخر التي تبحر إلى الشرق، وتتوقَّفُ في البصرة.

حتى إذا تم إنجازُ هذا العمل الصَّعْبِ، اتفقتُ على موعد السَّفر بالطائرة، وما هي إلا ليلة، غادرت في ساعاتها الأولى باريس، فوجدتني في صباح اليومِ بعدَها في مطار بغداد القديم المجاور لمحطة السكّة

الحديدية.

لقد وصلت بغداد، بعد سبع سنوات عجاف، ما كنت أحسبنُي في باريس التي كان لها في تَصَوِّر من لم يَرَها صُوَرٌ، رسمها الخيالُ البديعُ. غير أني ما عرفت هذا، وإن كان فيها شيءٌ منه، فليس ذلك لي ولا لجمهرة العاملين من طلاب وغيرهم.

قال صاحبي:

وبنفسي أن أقفَ وقفةً قصيرةً هنا، لأنِّي أحسستُ أن «باريس» الطلاب هي باريس المكدودين الساعين إلى الجِدّ الذين شَقُوا بما كان فيها من بؤسٍ ونحو ذلك.

قلت:

لقد أحسنتَ في إحساسك وتصوُّرك، وكأنك عرفتَ وأدركتَ كيف يأتي جمهورُ الطلاب من أمكنة بعيدة، شأنهم شأن العمال الذين يلتحقون بالمصانع، فيفارقون مساكنَهم قبل أن تشرق شمسهم، ليلتحقوا بأعمالهم. وكذلك الطلابُ الذين يلتحقونَ بالمعاهد والكليّات للدرس، حتى إذا قضوا ساعات مضنية، فيها حركة وزيارة مكتبة والسباق على حجز كتاب، يطلبه كثيرون، وليس في المكتبة إلا اليسير من نسخه، ثم الذهاب إلى مطاعم الطلبة، ينتظمون صُفوفاً وأرتالاً، ليصلوا إلى قاعة الطعام، فيحملُ كلٌّ منهم طبقاً واسعاً، فيه أمكنةٌ خاصَّةٌ لوضع أصناف الطَّعام.

وتنتهي ساعة تناول الطعام، فيستأنفُ الكثير منهم قاعات المحاضرات أو المختبرات العلمية أو المكتبات. ولو أني استقريتُ سلسلةَ ذكرياتي، فوقفتُ على أجزائها، لكان لي من ذلك كتابٌ، يُسِرُّ ويؤلم.

قال صاحبي:

أذكر أني قرأت في ترجمة أحدهم لكتاب «ألفونس دُودَه» الكاتب الفرنسي المعروف، وهو «الشيء الصغير»، وقد أراد بهذا الوسم نفسه، ومضى في بسط أحواله، ولا أدعو هذا ما يُدعَى في عصرنا «مذكرات» إنه شيءٌ من ترجمة ذاتية، وخواطر أخرى. وقد تبيَّنتُ فيما قرأتُ أنّ عامة الفرنسيين، ومثلُهم سائر الغربيين، لم يعرفوا التَّرَف، ولا السَّعادة في دنيا تحوي فيما تحويه العذاب الذي يألفُه صاحبُه، وقد يكونُ له من إلفه هذا أن يدركَ شيئاً من قيمة الحياة، فيُسَرُّ به وقد يألمُ.

قلتُ:

وقد يكونُ الأمرُ أعظمَ لدى الوافد القادم المحكوم بعَقْد، بآلافٍ من الدنانير، يفرض عليه خطبها، أن يسعى جاداً، ليفوزَ بشيء ويعود، فكأنه اؤتمِنَ على شيء نفيسٍ، فردَّ أمانته بعد أن شَقِي في حفظها وصونها.

وأعودُ إليك صاحبي راجياً ملتمساً ألا تدفَعَني إلى قراءة بعض صفحات سِفْر العذاب، لأخلُص إليك في حديث بغداد.

لقد عُدْتُ، فراجعت شعبة البعثات في وزارة المعارف، وأخبرتهم أني انتهيت من الدراسة، فوفيتُ بما كان عليَّ من التزام بالعقد، وأحرزت شهادةَ دكتورا الدولة. وقد علمت أن كتاب الملحقية الثقافية قد سبق رجوعي إلى البعثات، وفيه تم إخبارُ الجهة المسؤولة بما كان من نتيجتي. انتهى كل ذلك فما الذي ينبغي لي عملُه؟

لقد قصدت كلية الآداب والعلوم، وقابلت الأستاذ جميل سعيد وكيل العميد، فرحَّب بي ترحيباً خاصّاً، وجمع حولي جماعةً من المدرسين، وعَرَّفني بهم، وعرّفهم بي، ثم قال: لقد أعلمني الدكتور الدُّورِيُّ بأمرك،

وطلب أن أسعى لتكونَ معنا في كلية الآداب، وقابلت السيد منير القاضي وزير المعارف، وأظن أن الأمر الوزاري بتعيينك مدرّساً في الكلية يصدرُ اليوم.

ولم يترك الأمر، ويجعلني أتعقب صدور الأمر بالتعيين، بل إنه اتَّصل بالوزارة، فعلم أن الأمر قد صدر بالتعيين، وما هي إلا ساعةٌ حتى تسلَّمتُ نسختي من أمر التعيين، وانتهى كل شيء.

قال صاحبي:

أذكر أني سمعتُ منك، قبل أن يكون لك ما أنت ماضٍ فيه من أحداثِكَ في ماضيك وحاضرك: أنك وجدتَ لدى باعة الكتب في باريس نفائس، اقتنوها مما خلّفه أهلُ العلم الذين رحلوا عن عالمنا، وكنت قد عملت على إرسال كتبك التي جمعتها في باريس، فهل لي أن أعرف ما كان لك من تلك النفائس؟

قلت:

وجدت هذه الكتبَ، وفيها فرنسيٌّ وألماني من أعمال المستشرقين في القرن التاسع عشر، وفيها كتبٌ عربيةٌ نادرةٌ، لأنها مطبوعاتٌ قديمة لدى دار النشر (Maison neuve)، ولدى المدعو كيتنر بقرب حدائق اللوكسمبورك الشهيرة. ومن الكتب العربية.

١- «أمالي ابن الشجري» طبع الدكن.

٢- كتاب «المجتنى» لابن دريد. طبع الدكن.

٣- كتاب «بدائع الفوائد» لابن قيّم الجوزية، طبع مصر.

٤- جملة أعداد من مجلة التربية والتعليم لصاحبها ساطع الحصري وقد صدرت في بغداد سنة ١٩٣٠.

٥- «شرح الشافية» للرضي الإستراباذي، طبع الأستانة.

٦- معجميات عربية - سامية للأب س مرمرجي الدُّومنيكي، طبع مطبعة المرسلين اللبنانية ١٩٥٠.

٧- «التنبيه على غلط الجاهل والنبيه» لابن كمال باشا، طبع مطبعة الترقي سنة ١٣٤٤هـ.

٨- «شرح الطُّرَّة على الغُرَّة على الدُّرَّة» للآلوسي، المطبعة الحنفية بدمشق سنة ١٣٠١هـ.

٩- «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم» لبدر الدين بن جماعة الكناني، طبع مصر.

١٠- «المكافأة وحسن العقبى» طبع الأستانة بمصر.

١١- لغة الجرائد لليازجي، مطبعة مصر بالقاهرة.

١٢- ديوان ابن النبيه، مطبعة جمعية الفنون ببيروت سنة ١٢٩٩هـ.

١٣- أعداد من مجلة دار السلام البغدادية سنة ١٩١٨ - ١٩٢٠.

١٤- أعداد من مجلة «لغة العرب» للأب انستاس الكرملي سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى.

١٥- «بدائع البدائه» لابن ظافر الأزدي، طبع القاهرة.

١٦- معجم الحيوان لأمين المعلوف، مطبعة المقتطف ١٩٣٢.

١٧- كتاب الأقرباذين لمحمد أكبر خان الهندي، مطبعة الفلاح ١٩٢٦م - ١٣٤٥هـ.

١٨- «كتاب الروضتين» لأبي شامة، طبع مصر.

وكتب أخرى غير هذه.

لقد كانت هذه «النوادر» آخر زادٍ تزوّدته في باريس، بل كانت وستظلُّ مع أعلاق نفيسة أخرى متاعاً لي، أبصرُها وأفيدُ منها، وأرى فيها مثاراً

لذكرى ممتعة، تذكرني بأحزان أيامٍ عسيرة ثقيلة.

قال صاحبي:

لك أن تذهبَ إلى هذا، فقد أشار أهلُ العلم إلى أن الإنسان يذكر أيام لهوه وسعادته كما يذكر أيام ضيقه وحزنه، ولكنَّ اللَّهْوَ والسعادةَ لا يبقى من آثارهما إلا اليسير الذي يُلغيه ما يستقبله من ترف وسعادة، في حين يبقى لأيام الضيق والأسى مكانُها في النفس، فالمرءُ ما يفتأُ يذكرُها فيقضي معها السَّاعات الطوال.

ع- (في بغداد)

قلت:

لقد وجدتُ مكاني في قسم اللغة العربية من كلية الآداب، أعطي مادة النحو لطلبة السنة الأولى ومادة فقه اللغة لطلبة السنة الثالثة، واللغة العبرية لطلبة السنة الرابعة، واللغة السريانية لطلبة قسم الآثار، وكان ذلك في الثالث والعشرين من آذار من سنة ١٩٥٦[١].

لقد واجهتُ الطُّلاَّبَ، فلم أرهم كما كنّا قبلهم بما يقرب من ربع قرن، ذلك أنهم وجدوا من الظروف ما دفعهم إلى التحصيل المتقدِّم. لقد توسَّعَ التعليمُ الجامعيُّ، وكان للطالبات مشاركة واضحةٌ في هذا التعليم.

(١) قلت: كان هذا كما أشرت في آخر الشهر الثالث، وهذا يعني أن السنة الدراسية توشك أن تنتهي، فكان عليّ أن أعطي محاضرات إضافية للطلاب تكون تمهيداً لما سيكون لهم في أول السنة الدراسية التي تعقب هذا التاريخ.

قال صاحبي:

لا بُدَّ أن كان لك نظرٌ في الدرس النَّحْوي، ذلك أن الطالب محتاجٌ إلى نظر جديد في النحو غير الذي تعلّمه في الدراسة الابتدائية والثانوية.

قلت:

إن الدرس النحوي في التعليم الجامعي ينبغي أن يُهدَى فيه الطالبُ إلى النهج العلمي في هذا الدرس، وإن كان الكتابُ القديم هو الكتابَ الذي يُعتمدُ في هذا الدرس.

لقد كان لي أن أبسطَ للطالب في هذا الدرس منهج ابن هشام في كتابه «قطر الندى وبَل الصدى». وليس في هذا المنهج شيءٌ جديدٌ سار فيه ابن هشام، ذلك أن مادَّة النحو القديم بعباراتها وما ذهب إليه النحاة فيها لا تختلفُ في شيء عما ورد في «الكتاب» لسيبويه من حيث المراد بالمادة النحوية. وعلى هذا كان ينبغي أن يكونَ لدى الدَّارسين فهمٌ جديدٌ للعربية التي يجدُها المتعلم في الجملة القرآنية، والجملة في الحديث، وسائر كلام العرب.

قال صاحبي:

كأنك استبعدتَ لغةَ الشعر، وجعلتَها لغةً خاصةً، بسبب ما يقتضيه الوزنُ وما تقتضيه القافيةُ، وبهذا تكونُ للشعر لغته التي قد تبتعد عن المسموع كثيراً.

قلت:

نعم، كنت أريد أن أصل إلى هذا. وإني لأقصد أن أضع الطالب في النحو القديم وأسلوب النحوي القديم الذي لا يبتعدُ عن نحونا في الكتب المدرسية الحديثة إلا في عبارته وفي شواهده. غير أني أقول: إن هذا

الدرس في كتاب قديم، لا بُدَّ منه للدارس في قسم اللغة العربية. ولكن المدرِّس لا بُدَّ أن ينتقل بالطلاب الدارسين إلى فهم آخر، يجعلُ النحو في خدمة الدارس لفهم العربية في أدبها.

قال صاحبي:

كأنك تشيرُ إلى ما عرف من تيسير النحو.

قلت:

إنَّ القولَ بـ«التيسير» ينبغي أن يكونَ في هذا الدرس بدءاً بالدراسة الابتدائية، فالدراسة الثانوية، حتى إذا كان لنا هذا النحو الجديد الميسَّر المأخوذ من كلام العرب طوال العصور إلى أن نَصِلَ إلى العربية المعاصرة، وصلنا إلى ما ينبغي أن نَصِلَ إليه. ثم يكون الدرس في التعليم العالي قائماً على أن يطلع الدارسون على منهج القدماء ابتداء مما عرفناه في «الكتاب» لسيبويه.

فإذا كنت قد جريتُ في بسط الفهم النحوي الجديد، فذلك لأني أردت أن أهيّىء أذهانَ الطلاب، فأوطِّنهم على قبول الجديد الذي لم يعرفوه في المدرسة الثانوية، وكان ينبغي لهم أن يعرفوه.

قال صاحبي:

فماذا تقول فيما عُرف لدى أهل التيسير، فيما صنّفوه من كتب؟

قلت:

إن الذين عرضوا للتيسير، ومنهم إبراهيم مصطفى، في كتابه «إحياء النحو» لم يكنْ لهم أن أصلحوا كما ينبغي لهم أن يفعلوه. إنهم أشاروا إلى مسائلَ ثانوية، وقع فيها الأقدمون، حين علَّلوا وتأوّلوا. لقد اهتمَّ النحاةُ الأقدمون بالذي رفع الفاعلَ، ونصب المفعولَ، ولم يهتمُّوا ببناء

الجملة وأجزائها وعلاقة كل جزء بالآخر. وهذا هو ما دُعِيَ لدى المعاصرين من أهل الدَّرْس النَّحْوي بنظرية العامل، وإن كان مصطلحُ العامل قد عُرِفَ في الدرس القديم.

إن هذا التفكير بـ«العامل» وبـ«علّة» الظاهرة النحوية في الرَّفْع والنَّصْب والجَرِّ أبعَدَ النحو من دائرة العلوم اللغوية إلى شيء آخَرَ من النظر العقلي والجَدَل الذي اقتربوا فيه من المنطق المجرّد.

قال صاحبي:

إن منطق النحاة واقترابَهم من المناطقة قد أربَكَ سَيْرَهم في ابتعادهم عن منطق العربية اللغوي الذي اهتدى إليه المعربون في طريقهم. ولنا في نقد أهلِ العلم من الأدباء النُّقَّاد كالجاحظ مثلاً لما ذهب فيه النُّحَاة فائدةٌ لنا في الإشارة إلى أن يكون لنا علم نحوٍ جديد، يخدم العربية.

قلت:

لقد أحسنتَ في قولك: «علم نحو جديد يخدم العربية»، وذلك لأن الكثير من مادة النحو القديم أخذت إما من الأمثلة التي صنعها النحويّ القديمُ من زيد وعمرو، والفعل «ضرب» ومشتقاته، وإما من شواهدَ شعريةٍ ورجزٍ قديمٍ، فيه شيءٌ لم يسمعْ كثيراً في الفصيح المشهور. ألا ترى أن النحوي القديم لم يُفِدْ كثيراً من لغة التنزيل أو لغة الحديث الشريف، ولكنه يجد رجزاً أو بيتاً، لا يعرف قائلهما، فيهما خصوصيَّةٌ من بُعد عن المشهور من الكلام، وقفوا عليه، وأطالوا الكلام، فكان منه قاعدةٌ نحويةٌ، أو رأيٌ نحويٌّ.

قال صاحبي:

لعل من هذا ما صُنع من أقوال، ليست من كلام العرب، فقد قالوا

مثلاً: إنه سمع عن العرب قولهم: «العقربُ اشدُّ لسعة من الزُّنبورِ، فإذا هو هي، أو فإذا هو إيَّاها».

فكان هذا مما دعوه «المسألة الزنبورية» التي قال فيها سيبويه «فإذا هو هي»، وقال فيها الكسائي: «فإذا هو إيّاها». وطال الكلامُ في هذه المسألة، وهي مسألةٌ لا تقتضي الإطالة. ولسنا بيقين أن العبارة من كلام العرب.

ومن هذا الكثيرُ من شواهدهم.

قلت:

لو كان لي أن أذهب في الإشارة إلى ما هو مفتعل مصنوع، لكان لي منها بعض «كتاب».

قال صاحبي:

ألم تصنعْ شيئاً من هذا، في كتاب لك، وَسمتَهُ بـ«النحو العربي بين النقض والبناء»، وكأني بك قد نسيتَ هذا الكتابَ الذي استقريتَ فيه طائفةً من الأبوابِ النحويةِ التي بدا لك فيها صنعةٌ وافتعال.

قلت:

نعم! أذكرُ هذا، وأضيفُ أن الكثيرَ من الخِلاف النَّحْوي فيما أسموه «المسائل الخلافية بين البصريين والكوفيين» ليس من النحو في شيء، بل إنها مسائلُ لا تَتَّصِلُ بأصل من أصول النحو، ولكنها تَمَسُّ أموراً ثانوية.

قال صاحبي:

قرأت هذا في كتاب لك، نقدت المعاصرين الذين غَلَوْا في «الخلاف» وجعلوه مناهجَ ومدارس، فكان من ذهب إلى أن للكوفيين مدرسة، ومثلها

للبصريين، وقد زادوا في هذه المدارس، فزعموا أن للبغداديين مدرسةً، ومضى آخرون، فنسبوا للمصريين مدرسةً، وللأندلسيين مدرسةً، وهكذا وسّعوا ضيّقاً.

قلت:

ولو أنهم استقروا مسائلَ الخلاف، لوجدوا أن الكثير منها، كما قلنا، مسائل ثانوية، كاختلافهم في الفعل والمصدر، واعتماد البصريين أن الفعل أصلٌ يسبقُ المصدرَ، وخالفهم الكوفيون، فذهبوا إلى أن المصدر أقدمُ من الفعل.

قال صاحبي:

وأذكر أنك قلت: إن الفعلَ والمصدَر مادَّةٌ واحدةٌ اشتقاقاً ومعنى واستعمالاً، وأوضحت هذا من شواهد من كلام العرب.

قلت:

وأذكر أني قلتُ: إن القديم الأول للفعل والمصدر هو الاسمُ الجامدُ الذي لا يقربُ من كُلّ منهما، ومن هذا مثلاً أن الكثير من الأفعال ومصادرها أخذت من أسماء معروفة، كالذي نعرفه من أسماء أعضاء جسم الإنسان، وما أفاده المعربون من بيئتهم التي عرفوا فيها الماء والهواء والتراب والرمل والحصى والجبل والأرض والسماء وغير هذا.

ولو أنك تعقبت الأفعال والمصادر، لوجدتها ترجع إلى هذه الأصول المادية الحسيّة.

قال صاحبي:

لقد كان لي أن دخلت في التعليم الابتدائي معلماً للأولاد، في السنة الخامسة، وكان لي أن أبدأ الدرس النحوي، فأشهد أني لقيت نَصَباً في

حمل الأولاد على أخذ مادَّة، لا يُدْركونها، وهي مثلاً في إعراب قولي: «محمدٌ حضر».

قلتُ لهم: إن «محمد» مبتدأ لأنه اسم ابتدأت به كلامي، وقد تقول: إنهم تقبَّلوا هذا، ثم قلت لهم: إن «حَضَر» فعلٌ ماضٍ، لأن «الحضور» مضى قبل زمن التكلم. غير أن الذي لم أستطع إفهامه هو قولي: والفاعل لـ «حَضَر» ضمير مستتر أقدِّره وأجعله «هو» المحذوف، وحذفه واجب، إنّ قولي هذا شيء، لم يفهمه المتعلِّمُ الصغير؛ لأنه يدركُ أن الذي «حَضَرَ» هو «محمدٌ» الذي كان منه الحضورُ، فهو «فاعل»، فكيف أقولُ لهم: إن الفاعل غيرُه الذي جعلتُه محذوفاً وجوباً؟ وهذا المتعلِّم كان قد بدأ تعلُّم اللغة الإنكليزية، في هذه السنة الخامسة، وقد تعلّم فيها نظير هذه الجملة العربية بالإنكليزية، وقيل له: إن الاسم المتقدِّم الأوَّل هو فاعلٌ للفعل بعده، فكيف يتحوّل هذا الفهمُ الذي وصل إليه في الإنكليزية إلى شيء آخر غيرَ مدرَك ولا مقبول؟

قلت:

أحسنتَ فيما ذهبتَ إليه في إشارتك إلى أن فهم الجملة الإنكليزية قد أفسد ما قيل له في إعراب نظير تلك الجملة بالعربية، وحُمل على أن يأخذ بما قلته أنت في الجملة العربية. ومثل هذا الذي قدَّمته للحَدَث الذي بدأ أوَّل ما بدأ الدرس النحوي بهذا الذي لم يُدْرِكْه ويخالف العقل، أمثلة كثيرة يحمَل عليها المتعلم حملاً.

ولي أن أتحوَّلَ إلى المادَّة الأخرى التي كلِّفت بها، وهي «فقه اللغة» فأقول:

كأن اسم «فقه اللغة» بهذه الكلمة الأولى صرفت المتعلّم إلى شيء قديم

هو مادة «الفقه» في الشريعة الإسلامية، وهو العلمُ بمسائل، تتَّصِلُ بالفرائض والواجبات، وابتعدت بتحوّلها إلى هذا المصطلح عن معناها في الأصل، وهو الفهم والإدراك. غير أن تخصيص «الفقه» باللغة في هذا التركيب الإضافي قد أبعدها عما يمكنُ أن يذهبَ إليه الظَّنُّ السَّريع. وكأني بهذا التَّحَرُّز أردتُ أن أقولَ: إن هذه المادَّةَ توحي باسمها هذا أنها قديمةٌ، تَتَّصِلُ بأبوابٍ من العربية، عُرفتْ في الكتب القديمة.

قال صاحبي:

هذا هو الوجهُ الذي يحتمله الطالب متأثِّراً بـ«فقه اللغة» للثَّعالبيِّ الذي هو شيءٌ من معجم للمعاني، أي أن الكتاب ينصرف مثلاً إلى ألفاظ الطعام والشراب، فيكون فيه جمل وأقوال لهذا الباب، وهكذا الأمرُ في أبواب أخرى كثيرةٍ كألفاظِ المطر والسحاب وغير ذلك.

ثم إن الطالب يحتملُ شيئاً آخر من موادَّ لغويةٍ، كالقول بالتَّرادُفِ والتَّضَادِّ والقَلْب وغير هذا مما هو مثبتٌ في كتاب «فقه اللغة» لأحمد بن فارس الذي دعاه «الصاحبي» حين صنَّفه للصاحب بن عبّاد الوزير البويهي.

قلت:

كل هذا مما حَمَل الطالب على فهم خاص لهذه المادة. غير أني ذهبت في هذه المادة إلى معرفة علمية بسطتها في محاضراتي، صرفت الطلاب إلى معرفة أصول الألفاظ في العربية وصلتها بالبيئة الحسية، وصلتها بالأصوات، وإلى أن مجموع أصوات الكلمةِ حكايةٌ لصوت في البيئة العربية القديمة. وإن كنتُ أعرضُ لما دُعي بـ«الترادف»، وما يَتَّصِلُ بـ«البدل» و«القلب» ونحو هذا مما يدخل في صفة الكلمة التي أثبتت في «المعجم».

قال صاحبي:

كأنك بهذا الذي سرتَ فيه، وخالفتَ ما كان من «فقه اللغة» لدى القدماء أردت أن تكونَ مادَّتُكَ جديدةً، لم يعرضْ لها المتقدّمون. ثم إنك بهذه الحدودِ التي رسمتَها، أفردتَ مادَّتَكَ عن شيءٍ جديدٍ آخرَ هو Linguistigue الذي قد يكونُ «علم اللغة» لدى نفر ممن بدؤوا هذا الدرس الجديد في حدود ما رُسِم في اللغات الأجنبية إنكليزية أو فرنسية أو غيرهما. وهذا الدرس اللغوي لدى الأجانب، لا يمكن أن يكونَ مكافئاً لما أنت فيه في اللُّغة العربية.

قلت:

إن «علم اللغة» هذا أو «اللغويات» أو «اللسانيات» أو «الألسنية» شيء جديد، وإن كان فيه درس صوتي للحروف، ودرس آخر لما هو وظيفة الصوت، مما يدعى «فونولوجي».

ثم شيءٌ آخرُ قد يكونُ لي أن أجدَ بعضَه في تراثِنا، وهو «اللفظ والمعنى»، ثم إن في هذا شيئاً مما يدخلُ في النحو، وهو يأتي حكماً، لصلة اللَّفظ باللَّفظ الآخر.

ولا تستطيعُ في هذا العلم بموادِّه وحدودها أن تجدَ مكاناً لدرس اللُّغة العربية ومشكلاتها.

قال صاحبي:

لقد أدركت ما قلته، فلي أن أقولَ: إن «فقه اللغة» الذي كلِّفت ببسطه لطلاب قسم اللغة العربية، في كلية الآداب، يقتضي درساً للمعجم القديم ومشكلاته. وهذا لا يمكنُ أن يكونَ بأي حال من الأحوال من مواد «علم اللغة» المعروف في الدرس الأجنبي لدى الأمريكيين والإنكليز والفرنسيين

وغيرهم. إن مادة المعجم أو المعجميات تندرجُ فيما يُدعى لدى الغربيين Lexicographie، وهذا علم لغويٌّ خاصٌّ أو صنعة خاصة، تتَّصِلُ بالمعجم وحدودِ الكلمة في معناها الحقيقيِّ ومعناها المجازيّ.

قلت:

وقد كان لي في مادَّتي هذه أن حملتُ الطلابَ على درس العربية في نثر الكتاب المعاصرين، لأحملهم على الوصول إلى فهم العربية المعاصرة التي تحوَّلت بفعل الزمان والمكان إلى لغة جديدة، دون أن أحفزَهم على وصلها بما هو شائعٌ من الفهم لدى نفرٍ من المعاصرين، في «الخطأ والصواب».

قال صاحبي:

لعل من المفيد أن يعرفَ الطالبُ علمَ اللغة أو الألسنية في قسم اللغة العربية، وأن يكلفَ بهذه المادَّة مدرس اللُّغة الإنكليزية أو مدرّس اللُّغة الفرنسية، ليكون لدى الطالب إلمام بما جدّ من العلم لدى الأجانب.

قلت:

نعم! كان ينبغي أن يكونَ هذا، غير أن مدرسَ اللُّغة الإنكليزية، بوجه عام، لم يكنْ طُلَعَةً راغباً في أن تزيد بضاعتُه من المعرفة، وتتجاوز آليات الصَّنْعة وبسط النَّص للطُّلاب، مع شرح لمعاني ألفاظه، والذهاب من هذا إلى اليسير من النحو. وفي هذا يرى أن ما يهمُّه قد أتى عليه، فلا يشغلُه شيءٌ آخر من فكر ونظر جديد إلى إدراك المعنى وصلته بالرموز الصوتية.

لا عليك، فهذا كله لا يشغلُني، وهو همٌّ قوم آخرين، ليس لهم منه شيءٌ.

ودعني أفضي إليك بما كان منّي، وما كنت أراه من واجبي، وهو دفعُ الطلاب بعيداً عن الاكتفاء بسماع محاضرتي، وأخذهم منها بحسب اجتهاد كلٍّ منهم. وقد أفلحتُ في مسعايَ، فكان لي منهم نفرٌ غيرُ قليل، يسعى إلى المكتبة، فينظر في المصادر العربية؛ وكان آخرون يفزعون إلى مصادر إنكليزية يستطيعون فهمَها بما حقّقوا من معرفة لُغوية، مكَّنَتْهُمْ من معرفة ما بَسَطَهُ المؤلفونَ الإنكليزُ في فهم الكلمة، وكيف اهتَدَوْا إلى الصنعة المعجمية.

قال صاحبي:

وعلمت أن نفراً آخر من طلابك قد توجَّهوا إلى الألسن الدارجة، ليقفوا فيها على كَلِم وفيرة، لم تعرفها الفصيحةُ المعاصرةُ، بل ذهب أولو العلم إلى أنّها عامِّيَّةٌ، ليس لها مكانٌ في الفصيح. وقد أخبرتني أنت بما كان لك من هذه الألفاظ الدارجة التي عُرِفَتْ في الشعر القديم.

قلت:

كان لي هذا، وكان لي غيره، وقد دفعت نفراً من طلابي إلى أن يدخلوا حَيِّز هذه المعرفة اللغوية. وقد أشرت في محاضرة عامَّة إلى أن العربية المعاصرة حفلت بالدَّخيل الجديد الذي لا يَتَّصِلُ بالألفاظ، بل تجاوزَ هذا إلى الجملة الجديدة.

وإني لأذكرُ أني عرضتُ في محاضرتي طائفةً من جُمَلٍ جديدة، فيها مجازات وإيماءات إلى أصول غير عربية، ولكنها اليوم صارت عربية فاشية.

قال صاحبي:

قرأت من هذا ما كنت تنشره، في مقالات عدَّة، في مجلة المعلم

الجديد، ومجلة كلية الآداب والعلوم، ومجلة الأديب العراقي، وهي مجلةُ اتحاد الأدباء في العراق، ففوجئتُ بما حفلت به العربيةُ الجديدةُ من الاستعمالات التي لم تكن في عربيةِ القرن الماضي. وكنت تثبت أصول هذا الجديد في الاستعمال الفرنسي والإنكليزي.

قلت:

وكنت أشرتُ في محاضرتي التي نوّهت بها إلى أن الجملة الجديدة في عربيتنا المعاصرة قد ذهب فيها إلى أن تكونَ مبدوءةً بالاسم، تلك التي عرفت بـ«الجملة الاسمية». وشاع هذا الجديدُ في لغة المعربين، وفي هذا ما يومىء إلى أن المعربين قد تأثروا بما ينقل من كلام في الأدب والسياسة، ولغة الصحافة عن اللغات الأجنبية فرنسية أو إنكليزية أو غيرهما.

إن في شيوع هذا الضَّرْب في تأليف الكلام في العربية المعاصرة ابتعاداً عن الجملة الفعلية التي تبدأ بالفعل. وهذه الجملةُ هي التي جُعلت لدى أهل العلم من خصائص اللُّغات السَّامية.

قال صاحبي:

وما الأمر في اللغتين السريانية والعبرانية في محاضراتك التي كلفت بتقديمها لطلبة قسم اللغة العربية وقسم الآثار؟

قلت:

سأجيب عما سألتني بعد أن أعرض لشيء، يتصل بحياة، شاء الله أن أتحوّل إليها، فأهتدي إلى صاحبتي وأم مثواي التي لقيت في ظلها الرفه والدفء أنا ذلك المتعب الذي خسر صباه وشبابه حين أغرته داجباتُ الكتاب، فانصرف عن الدنيا وأهلها. ثم ما كان من شقائي في أسرة شَقِيَتْ

واكتوتْ بجحيم دنيا مسعورة.

قال صاحبي:

لقد جادك الغيثُ، بل هو الغَوْثُ من لَدُن رؤوف رحيم. وقد كمل بذلك الاقتران دينُك، واستقامتْ طريقتُكَ، فسلكت بها المَحَجَّة البيضاءَ التي ليلُها كنهارها.

قلت:

على رِسْلِكَ، فلي كلمةٌ أقولها، وأُشهد الله على ما أقول:

لم يكن لي في صباي وشبابي ما كان لأقراني من صبية وشبّان، فقد نشأت صبياً فشاباً، وأنا مثقلٌ، يَعْتَوِرُني الهمُّ والأسى، كما كنت قد تحدَّثتُ في هذا الموجز، لقد شعرت، وأنا أستقبل الدنيا، بما كان من هموم البيت مع أبٍ، انتابته صروفُ الأيامِ واللَّيالي، وأمٍّ ساءت حالُها، ونهكها الداءُ، وقد مرَّ الكلام على هذا.

ومن هنا فلم يبق لي إلا أن أتوجّه للثقيل من العمل، فقد كمل ديني قبل أن تذكر هذه العبارة أخي وصاحبي، لقد لزمتُ المسجد، وحافظتُ على الصلوات، وكنت أرفعُ الأذان إن تخلَّفَ المؤذِّنُ لسبب ما، وأقوم بشيء مما يلزم المسجد كمدِّ البُسُط ونحوها في سطح المسجد، لأداء صلاة المغرب والعشاء في أشهر الصيف. وكنت أقرأُ قسطاً من الآي الكريم قبل خطبة الجمعة وصلاتها، وكان معي يخلفني في التِّلاوة المُلاّ عبد الباقي، في مسجد صغير، في محلة السَّراي، في مدينة العمارة، هو مسجد الحاج سالم المحمود. وقد صمت رمضان في أشهر الصيف، فكابدتُ حمارَّة القيظِ.

وكنت مع كلِّ هذا أؤدي عملاً آخر احتساباً، وهو تعليم السجناء القراءة

والكتابة، فقد كنت أزور السجن الكبير في طرف من البلد ثلاث مرات في الأسبوع، فهل تراني ملزماً بأداء فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، وهي تسقط منّي، لأني لا أملكُ شروطَها، ولي من العمل الصالح وبرّ أبويَّ ما يجزيءُ عن أداء هذه الفريضة، أو ما تراني بعد هذا قد اكتملتُ، واكتمل ديني، واستقمتُ على الطريق؟

قال صاحبي:

ما كان لي شيءٌ من هذا، ولم تكن قد حدثتَني فيما أفضتَ فيه عن هذه «الصالحات» من العمل، أفلي أن أقول: أنتَ نسيجُ وحدِك، رعاك اللهُ وأحسنَ لك العُقبى، فقد لزمتَ الطريق، وذلك هو الفوزُ العظيمُ.

قلت:

لقد كان لي من عبارتِكَ أن دفعتني إلى بَسْط ما نَدَّ عنّي، وأنا أستفرِي أحداثَ أيام خَلَتْ، وأعود الآن إلى حديث اقتراني بزوجتي وأمّ ولدي، فأقولُ: لقد عوّضَتْنِي من كثيرٍ لم أَنَلْه، فقد أحاطتني بحنان أمٍّ نَهِكَهَا الداءُ، فشغِلَتْ به، وهي تتحرّقُ أن تجدَ الصِّبْيَةَ من ولدها قد حُرِموا مَوَدَّتَها.

قال صاحبي:

آمنت بالله، إن الذين آمنوا والذين صبروا هم الفائزون.

قلت:

والله لقد نسي المعربون حقيقة الصبر، ففاتهم علم ذلك، وقد كان لي أن بلوت الصبر، فعرفت أنه حبس النفس عما تريد، بتحملها العذاب، وإلى هذا كان إيماء القائل:

سأصبرُ حتى يعلمَ الصَّبرُ أنّني صَبَرتُ على شيء أمرَّ من الصَّبْرِ

قال صاحبي:

ما تفتأُ تُمِدُّني بفوائدَ، وأنا امرؤ عجول، فقد كان لي أن سألتُك عما كان لك من اللغة السريانية واللغة العبرانية في كلية الآداب، وما زلت أطمحُ أن يكونَ لي منك استجابة.

قلت:

لا تعجل، فسآتيك بالخبر عما كان لي في دأبي فيما سألت، ولكن أما كان لك أن تسألَني تتمّة ما كنت فيه من اقتراني بالصالحة الجوادة التي تؤثرُ غيرَها على نفسها، فتبذلُ وتسخو، وقديماً قيل: كانت السيدة خديجة بنت خويلد الرفيقَ الأمينَ والوزيرَ الذي شدَّ أزرَ الرسولِ الكريم وهو في جهاده، ينازلُ الكفرَ والطغيانَ وحيداً حتى كان له صحبه الميامين.

لقد تم عقد الزواج في ٩/٤/١٩٥٦ فانعقدت بيننا آصرةٌ، ما كنت أعرف قبلَها وشيجة رحمٍ، ملكتْ علي، فتم بهذا الملك لي رأس مالٍ، أنا الفقيرُ المُعْدِم، إلا ما رُزِقْتُهُ من الخير، والباقيات الصالحات أزكى وأوفى.

قال صاحبي:

لا تبتئِسْ من عجلتي، فهي عجلة بني آدم كافة، وخُلقَ الإنسانُ عجولاً. وإني لأسعدُ بما تريدُ أن تبسطهُ قدرَ سعادتي بأخبار العلم.

قلت:

كان لزوجتي ولي أن نسافر شأننا شأن الكثير من الذي قبلوا هذا الجديد في الأنظمة والعادات. فكان لنا أن نبدأ الرحلة إلى بيروت، لنتركها إلى فرنسا. ولم تزل الرحلةُ إلى بيروت بالحافلة الكبيرة إلى دمشق، ومنها إلى بيروت كعهدي بالأمس البعيد حين سلكت هذا السبيل عند التحاقي بالبعثة العلمية.

لقد وصلنا بيروت في نهاية الرحلة، وأمضينا فيها أياماً معدودةً، لنغادرَها إلى مرسيليا ميناء فرنسا الكبير على البحر الأبيض المتوسط. لقد كانت بيروتُ في تلك الحقبة وهي سنة ١٩٥٦ من حواضر الشرق المتقدمة بحركتها ونشاطها. وهذا هو المعروفُ عن اللُّبنانيين من حركة ونشاط وتجارة. ثم أقلّتنا باخرةٌ إلى فرنسا، والرحلةُ في الباخرة ذاتُ شجون، وقد كان لي وصفها في أوّل هذا الكتاب.

وصلنا إلى ميناء مرسيليا، فأخذنا القطارُ السريعُ مساء اليوم، وما هي إلا ليلةٌ أعقبها صباحٌ في مدينة باريس التي سبق لي أن تحدثتُ عنها.

وقد كان لي أن توجهتُ وزوجتي إلى فندق، في شارع هادىء، غير بعيد عن ميدان السوربون الشهيرة.

قال صاحبي:

لقد عدتَ إلى الحيّ اللاتيني عوداً جديداً، فصحبت زوجتَك لِتُرِيَها كيف كنتَ في هذا الحي الذي تعمره المتناقضات من خيرٍ وشَرٍّ، وجِدٍّ ولَعِبٍ.

قلت:

نعم لك أن تذهبَ إلى هذا. لكنك حين تنزلُ هذا الحي، يمكنكُ أن تَشُقَّ لك طريقاً، تأمنُ فيها أنك بمنجىً من غوائل السوء. لقد كان لي أن أفيد زوجتي بكلٍّ نافع في هذا الحي، فبدأنا بزيارات عدَّة، كانت الأولى زيارتنا إلى السوربون التي كان لي إليها غدوٌّ ورواح، لقد شاهدت القاعة التي امتُحنت فيها، فمنحت الشهادة. ثم كانت لنا زيارةٌ طويلةٌ، بدأنا بزيارة مقبرة العظماء «البانتيون» التي إلى جوارها المكتبة الجامعية الكبرى، وكلية الحقوق، ثم عرَّجنا على زيارة كنيسة نوتردام الشهيرة التي ورد ذكرها في

الروايات والقصص، وهذه تقع في الجانب الآخر من الحيِّ بعد عبورنا نهر السين.

وأنت تجدُ في هذه الكنيسة، وفي الميدان الفسيح التي تقعُ عليه، جمهورَ السيَّاح والأجانب، وهم مشغولون بتاريخ الكنيسة وفنّها الغوطي في العمارة.

قال صاحبي:

كأن للفن الغوطي خصائصَ فنية، تخالفُ الفنَّ المعروف في الكنائس الأخرى ذات الأثر الروماني، من حيث العقود والقباب.

قلت:

نعم! هذا ما نعرفه في تاريخ فنٍّ عمارة الكنائس. وكأني شعرت أني أكثرت من هذه الزيارات، فكان لدى زوجتي بعض شعور بالسَّأَم. وكنت كلما كان شيءٌ من هذا، لجأت إلى جلسة مقهى. ومقاهي باريس وما كان من خروجها إلى الأرصفة تطلِعُ الزائر إلى هذه المدينة علىشيء من الرِّفه والغِبْطَة، تلمحُها في وجوه الذين اختاروا أمكنَتَهم للجلوس فيها.

وإذا كان لنا أن ندخلَ في أزقَّة الحيّ اللاَّتيني غيرَ بعيد من الشارع الكبير ذي المقاهي الفارهة، وجدنا الدكاكينَ القديمةَ التي لا تعدمُ أن نجدَ فيها غيرَ الفرنسيين من جزائريين وتونسيين ومغاربة وأتراك وأرمن.

وفي أمكنة هؤلاء الغرباء، ترى ما كان منهم في جذب السائح إليهم في مطعم، يقدِّم الطعامَ الإفريقي أو الطعام الشرقي الآخر تركياً أو أرمنياً أو غير هذا، كما يجد السائحُ طرائفَ من صناعات مَحَلِّيَّة، فيها الحليُّ والنسيجُ وغيرها.

وقد كان لي ولزوجتي أن أمضينا أياماً وأسابيع في باريس، في أحيائها

المختلفة التي اختصَّ كلُّ حي بشيء يميزه، فأنت حين تزورُ متحف اللوفر، وترى الآثارَ الشرقيةَ وغيرها، تخرج من المتحف إلى حدائق التويلري لتنتهي إلى ساحة الكونكورد الواسعة التي تشخصُ فيها مَسَلَّةٌ فرعونيةٌ جميلةٌ، عليها كتابات ونقوش فرعونية. ثم إن هذه الساحة الواسعة تفضي بك إلى شارع الشانزليزيه الذي يشخص في آخره طوق النصر مجتمع السياح من كل حدب وصوب. ثم أنت تنظر من هنا إلى «برج إيفل» الشهير كعبة القصّاد. لقد كان لي ولزوجتي أن زرنا هذا البرج.

أشهد أن رحلتي هذه التي سعدت فيها بزوجتي، أرتني قدراً من معالم باريس لم أكن عرفته في سنواتي العجاف التي أمضيتها في جهاد، في هذه الحاضرة التي قيل فيها: مدينة النور.

قال صاحبي:

ألم يأنِ لسيدي الأستاذ أن يستجيبَ لما شُغِلْتُ به؟

قلت:

على هينتك، لا تعجلْ، فتقطعَ علي خبر الرِّحلة وكيف عدت منها.

لقد عدت أنا وزوجتي، وكأن الشرَّ يلاحقني، رجعنا فوجدنا السيدة أم زوجتي قد عرض لها ما عَرَض من أثر وقوعها. ولم تكن في أحوالها الصِّحِّية ما يعين على دفع ما كان من أثر الوقوع. وإني لأحمِّل الطبيب الذي كان يتولّى علاجها الكثير من المسؤولية، فلم يكن ممن يحملون رسالة الطب الإنسانية، فأساء العلاج، وخرج باستيفاء سُحت حرام. وهكذا كان دأبُهُ مع الآخرين، ليكونَ له من كل ما اقترف وارتكب مستشفى خاص، يقصمُ فيه ظهور المرضى، فيفوز بالمال الحرام. لا أطيلُ فقد انتقلت السيدة إلى بارئها وجِعةً معذّبة.

قال صاحبي:

قد يصابُ الذين أخلصوا السعي، فيصبرون مؤمِّلين أن يكوَن ما أصابهم خاتمة السوء.

قلت:

نعم، لقد حَزِنّا وأسينا، وكنا نأملُ أن تكونَ لنا دنيا جديدة، فهل لي أن أقول: «حُفَّت الجنّة بالمكاره»؟ لقد عدت وانتهت هذه العطلة التي لم يمهلنا فيها القَدَرُ، عدتُ إلى العمل في كلية الآداب، لأعودَ طالباً آخر، ليس على شاكلة طلابي، بل رحت فيها إلى جزازاتي التي بقيتْ لديَّ، ولم يتحْ لي أن أفيدَ منها في الرسالة. لقد كان لي من هذه فوائد جُمَّةٌ، كانت مباحث لي نشرتها هنا وهناك.

قال صاحبي:

لعلك جمعت هذه المباحث في كتابِكَ الذي وسمتَهُ بـ«دراسات في اللغة».

قلت:

نعم! خشيتُ أن تضيعَ هذه المباحث؟ وهي موزعةٌ في مجلات، في العراق، وفي خارج العراق. وكان لي مما ضاع قَدْرٌ، لم أستطع الوصول إليه. وقد يُنسى بعض ما يكون في المجلّات، لا سيَّما من لدن الدارسين الذين لا يجدون المجلة، فإذا كان هذا في كتاب، صار في أيدي طلاب العلم من الدارسين.

قال صاحبي:

لعل من هذا الذي تفرّقَ وحُبِسَ في المجلات ما كان خاصّاً باللُّغَات السَّامِيَّة؟

قلت:

نعم! كان شيءٌ منه في هذه الشؤون الخاصة. وإني لأذكر من هذا شيئاً طريفاً، هو أمر محاضرة عامّة، طلب إلي أن أشاركَ بها، في برنامج للمحاضرات العامة التي كلف بها نفر من الأساتذة من الكلية أو من خارجها. كان عنوان محاضرتي «في الثقافة السريانية»، وقد نُوِّه عن موعدها في الصحف. وقد حدث الشيء الطريف في الإعلان عن «المحاضرة» في بعض الصحف فكان فيها «الثقافة السريالية». وهذا شيءٌ طريفٌ، هُرِع إليه طلابُ الدِّراسات الحديثة الذين يهمُّهُمْ أمرُ الجديد الذي يقذفُ به الغرب إلينا، سواءً كان بنا حاجة إليه أم لم تكن.

ولهذا كان الحاضرون لسماع المحاضرة حشداً من الناس، يشعرُ بالغرابة، إذ كيف اجتمع في هذا الحشد طلاب المعرفة الجديدة، وشيوخ من القُسُس والرُّهبان؟

قال صاحبي:

أما طلاب المعرفة الجديدة فقد جاؤوا لسماع ما يحزبهم من «السريالية» التي عرفت في مذاهب الرسم الحديث وأشتات من الأدب الغربيّ، وأما حضور القسس والرهبان فقد عرفوا الحقيقةَ التي تخصُّهم مما يَتّصِلُ باللغة السريانية.

قلت:

نعم! لقد حدَث هذا، وقد كان في هذا الخليطِ الذي حضر فائدةٌ لمن ذهب به الوهم إلى السريالية التي ظهرت في بعض الصحف، وفائدة أخرى للحاضرين من القسس والرهبان.

غير أن الذين ذهبوا في خطئهم، بسبب ما كان من خطأ الطبع في

إحدى الصحف، وهم طائفة الشُّبَّان من الحاضرين، لم يُسْقَطْ في أيديهم، بل إنهم سمعوا شيئاً لم يعرفوه. إنهم أدركوا أن «السريانية» لغة السريان النصارى العراقيين، وإن غلب تعرُّب هؤلاء ودخولهم حيّز العروبة. وأن كثيراً منهم يجهل هذه اللغة التي انحسر ظلُّها، فانحصرت في نصوص التراتيل في الكنائس. ولم يبق من النصارى من يُعرِبُ بسريانيته إلا أهل قرى في شمال العراق تجاه الموصل وبعض حواضر الأكراد.

قال صاحبي:

كأنك أشرتَ إلى أهل «تلكيف» الذين نعرفهم في بغداد وغيرها من المدن، والذين جلوا عن مدينتهم إلى غيرها من الحواضر الكبيرة.

قلت:

نعم! إن لغة هؤلاء «التلاكفة» سريانيةٌ، وهي السريانيةُ الشَّرقيةُ التي تتميَّزُ عن السُّريانية الغربية لغة السريان في بلاد الشام بأقاليمها الواسعة التي تمتدُّ في الشمال في حواضر تركية.

إن السريانية الشرقية لغةُ النَّساطرة أصحاب المارنسطور صاحب الكنيسة الشرقية، والسريانية الغربية لغة اليعاقبة أصحابِ المار يعقوب الذي انتسبت إليه كنيستُه التي عرفتْ بهذا الاسم.

قال صاحبي:

وهل من فروقٌ لغوية بين فرعي هذه اللغة؟

قلت:

إنهما لغةٌ واحدةٌ، ولكن ذهاب كلٍّ منها إلى مواطن غير مواطن الفرع الأخرى، من شأنه أن أحدث مع توالي العصور فروقاً في النطق، فأنت تجدُ السرياني الغربي يقول مثلاً: «سابا» بمعنى «الشاب» في العربية، في

حين تجد الكلمة في السُّريانية الشرقية تحوَّلَتْ إلى «شابُو»، ففي هذه وتلك اختلاف بين السين والشين، ثم اختلاف آخر في أن الكلمة لدى الغربيين قد كُسِعَتْ بألف كألف الإطلاق في العربية، على أنها لدى الشرقيين قد ختمت بضرب من حركة الضم.

إن ألف الإطلاق التي ختمت بها الكلمة من خصائص الآرامية التي هي الأصل لكلا الإعرابَيْن الغربي والشرقي، ولكن الشرقيين أمالوا هذه الألفَ التي هي فتحةٌ طويلة نحو الضَّمِّ.

قال صاحبي:

لعلي أحمل التغيّر بين السين والشين إلى مسألة الإبدال التي عرفت في العربية فيما ورد بالسين والشين، وانضمّ جملة هذا إلى المعجم القديم. وقد يكونُ لي أن أقرِّر أن الذي يلتزمُ السين في بعض ألفاظه غيرُ الذي يلتزم الشين في بعض ألفاظه.

قلت:

لقد أصبتَ صاحبي الذي لا أَني أكتشفُ فيه كل يوم حذقاً، يدلّ على أصالة. إن الإبدال بين السين والشين، ومثله بين العين والغين، ومثله بين الصاد والسين، وبين الطاء والظاء وغير هذا، كله يعود إلى اختلاف القائلين بحسب مواقعهم في سكناهم. وهذا هو الذي نطلق عليه في حاضرنا «اللهجات».

إنَّ الكثير من هذا قد دخل العربية، بعد أن تمّ لها توحيدُها في لسانٍ عربيٍّ مُبينٍ، كما هي الحال في لغة التنزيل التي قضتْ على الفروع التي عُرِفَتْ في تاريخ العربيةِ.

قال صاحبي:

أليس لي أن أحملَ رسالة المجد الفيروز آباذي في ألفاظ السين والشين على هذا الذي ذهبت إليه؟

قلت:

بَلَى، لك أن تذهب إلى هذا، وأنت ماضٍ في الطَّريق السَّوِيّ.

قال صاحبي:

لقد أشرت إلى أن لغة القرآن قد قضتْ على فروق اللُّغَات الخاصَّة، فكيف القول في «القراءات»، وكيف من هذه نذهب إلى «القراءات الشاذّة»؟

قلت:

إن الكلام على القراءات المشهور منها والشاذِّ بقي شغل علماء القرآن، وهذا بعيدٌ عما يقرأه المسلمون من نصّ القرآن الذي وصل إلينا، والذي وعينا فيه قوله - عزَّ وجلَّ - ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر]. ولنعد إلى حديث السريانية، لأشير إلى أن الذي يُعْرِبُ به السريان النصارى غربيين وشرقيين، ليس إلا ضرباً من لغة دارجة.

قال صاحبي:

وما أمر الآرامية وأنت تَتَحدَّثُ عن الإعراب الشرقي والإعراب الغربي لما يسمى اللُّغَةَ السريانية؟

قلت:

إن الآرامية هي الأصل العريق لهذين الفرعين، وفي هذا الأصل نجد الآرامية التلمودية والآرامية البابلية والآرامية الفلسطينية. غير أن ظهور النصرانية التي دعا إليها السيد المسيح كان حدّاً فاصلاً بين عصرين: الأول القديم الذي قُرن بالوثنية والديانة اليهودية، والثانية آرامية السيد المسيح

التي دعيت «السريانية».

ومن هنا نبز اليهود «السيد المسيح» بالآرامي، وقد أرادوا بذلك «الوثني الكافر».

قال صاحبي:

لا بُدَّ أن كان الطلابُ الذين تَلَقَّوا محاضراتِكَ في السُّريانية لا معرفة لهم بهذه اللغة، فكيف كان عملك معهم؟

قلت:

إن أولئك الطلاب كانوا طُلاَّبَ قسمِ الآثار، وكان ينبغي أن يكونوا قد ثقِفوا شيئاً عن تاريخ اللُّغات السَّاميَّة، غير أني وجدتُهم لم يكونوا قد درجوا في الدرس التأريخي، فقد كان هم مدرس التاريخ القديم أن يعطيَهم محاضراتٍ في حضارة السومريين، ثم حضارة الأكديين في دولة بابل ودولة آشور، ولم يكن لأولئك الأساتيذ معرفة تاريخية بصلة اللغة الأكدية بغيرها من اللغات التي عرفت في بلاد ما بين النهرين، وفي المواطن القريبة منها كبلاد الشام وما يجاورها. وعلى هذا لم يعرفوا الآرامية وفروعها. ثم أتى الدكتور جواد علي، وهو مدرسٌ للتاريخ الأوربي الحديث، ولكنه هجرَ هذا الاختصاصَ، وذهب إلى تاريخ العرب منذ أحقاب ما قبل الإسلام، فتاريخ الدولة الإسلامية. فكان له محاضراتُه في هذا الاختصاص، في دار المعلمين العالية. وقد عَوَّل الدكتور جواد على ما سجله الألمانُ الذين وصلوا تاريخ بلاد العرب بتاريخ الأمم التي عرفت في هذه الدِّيار. وكان من هذا أن ذهبوا إلى الأقوام القديمة، واقتضاهم ذلك أن يبسطوا فوائد في اللغات السَّامية.

لقد كان للدكتور جواد علي جولةٌ طويلةٌ في المصادر الألمانية، أثبتها

في كتابه الذي جعل في «تاريخ العرب قبل الإسلام»، ثم عاد عليه، فوسّعه في كتاب ضمَّ ثمانيةَ مجلدات وسمه بـ«المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، صرف المجلد السابع إلى المادة اللغوية. لقد وجد الدارسون في هذا بعض حاجتهم.

قال صاحبي:

لعلك قد بدأتَ مع الطُّلاَّب بدايةً، عادتْ بك إلى التَّحَوُّل إلى معلِّم، يُعطي طلابَه مادةَ لغةٍ جديدةٍ، لم يكن لهم منها أيُّ شيءٍ.

قلت:

نعم، هو ذاك كما ظننتَ، لقد عمدتُ إلى كتاب بالعربية، بسط فيه مؤلِّفُه المطران يوسف داود مادة اللغة السريانية بدءاً بأصواتها أعقبها مادَّةً نحوية وصرفية كالحال التي نجدها في كتب النحو المدرسية في العربية. غير أن في الكتاب ملحقاً بالنصوص، أفدتُ منها، وقرنتها بما يتم معرفة الطلاب للأصوات وبناء الكلمة. وقد سرتُ في نهجي هذا شوطاً، ثم وجدت «العهد الجديد» بالسريانية الغربية، فرحت أقتبسُ من نصوصه وأجعله في أوراق، أوزّعها للطلاب.

وهكذا كان لي أن قدَّمتُ للطُّلاَّب بعضَ معرفة بهذه اللُّغَة التي كان ينبغي للطلاب معرفتها قبل السنة الرابعة.

لقد قيل لي: إن الكلية حاولت أن تُفيدَ من معرفة أحد الآباء، ليعطي محاضرات في هذه اللغة، فلم تفلحْ لأن الذي كُلِّف ذلك لم يكن قد عَرَفَ التدريسَ.

قال صاحبي:

ولا أرى أنك وجدت غير أولئك الطلاَّب في معرفتهم حين طُلِبَ منك

تقديم محاضرات في اللغة العبرية لطلاب قسم اللُّغة العربية.

قلت:

نعم! لقد كانوا طلبةً بدؤوا هذا الدرس معي، ولكن ربما كانت المهمةُ أيسرَ، ذلك أن الكتب التعليمية كثيرة في العربية وفي اللغات الغربية، ذلك أن دراسة العبرانية كانت ضروريةً لمن أراد أن يتفقه بدرس «العهد القديم».

لقد جئت إلى أصحابي طلاب العبرانية، فوجدتهم عشرة أو أكثر من هذا بقليل، فكانت أوّل محاضرة هي في أصوات اللغة وما يقابلها في العربية. وقد وجد الطلاب أن أصوات العبرية تفتقر إلى أصوات عربية، منها الضاد والظاء. ثم كان لي أن أشرت إلى ما يكون من الصوت في العبرية في كلمة ما، تقابل نظيرتها في العربية أو تقربُ منها، وكيف يتبدّلُ الصوت في هاتين اللغتين. كما أشرت إلى فوائدَ أخرى، يهم المتعلم أمرها.

قال صاحبي:

وكيف كانت النُّصوصُ العبرية التي قدَّمْتَها لطلابك؟

قلت:

فزعت إلى «سفر التكوين» أول أسفار «العهد القديم»، وكان هذا مما اقتضاني أن أبسط للطلاب مادةً مفيدة للتعريف بالتاريخ العبراني وأدب اللغة العبرانية، فلم يكن لدى الطلاب أيُّ شيء يتَّصِلُ باليهود وتاريخهم، مع أن اليهود قد عاشوا منذ قرون مع العرب، وشاركوا في بناء الحضارة القديمة.

قال صاحبي:

وإني لأعرفُ هذا في تاريخ الدولة العراقية التي كان من وزرائها الأوائل

يهودٌ أولو معرفة فنية بشؤون المال وشؤون الصحة. وهذا امتدادٌ لما كان لليهود من حضورٍ حضاري في مجتمع الدولة العباسية.

قلت:

نعم! كان لنا ذلك طوال العصور.

وأعود إلى النصوص التي جعلتها بين أيدي طلابي، ولم أُشِرْ إلى أن «العهد القديم» وفيه التوراة بأسفارها كان مما قمَّشه اليهود، بل اقتصرتُ على الفائدة التعليمية فيه، مشيراً إلى أنَّ اللغة العبرية فيه قديمة، أفاد منها اليهودُ في حاضرنا بعد قيام دولة إسرائيل بما أضافوه من الكَلِم التي وجدوا أنفسهم يفتقرون إليها.

قال صاحبي:

وما الذي أضافوه إلى العبرية القديمة من اللُّغات الأخرى؟

قلت:

إن هذه الإضافات قد بدأها اليهودُ قبل قيام دولتهم، فكان النازحون من وسط أوربا وبلاد البلقان قد شاركوا في هذه الصنعة. ثم قامت دولتُهم، فكان على النازحين الذين ما فتئوا يفدون على فلسطينَ، من بلاد العالم كافةً، يشاركون في هذه الصنعة اللغوية. لقد استقامت لهم بعد هذا الجهد الدائبِ لغةٌ، عزموا أن تكون لغةً تاريخيةً، ولغة جديدة تستوعب مقتضيات العصر.

قال صاحبي:

لقد علمت مما كتبه أحدُ إخواننا الفلسطينيين، أنهم احتاجوا إلى كلمة تقابل المصدر العربي للفعل «مرَّنَ» المضاعف، وهو «تمرين» فأخذوه من العربية، بعد أن حوّلوا بناءه إلى «تَمرون».

قلت:

نعم! كان هذا لهم، فقد ذهبوا في «تَمرون» إلى بناء «تفعول» في العبرانية الذي هو بناء المصدر، ومنه «تلمود» من الأصل «لَمَد» بمعنى «عَلّم».

قال صاحبي:

ألم يكن «تَفعول» من أبنية العربية التي ضاعت، ولم يبق منه إلا ما بقي في بعض الألسن الدارجة مثل «تَعلوم» و«تسلوم» وغيرهما.

قلت:

ولا بد لي من أن أعود إلى «العهد القَديم» لأبسط لك أيها الدارسُ المجتهد فأقول:

إنه شيءٌ كتبه اليهودُ في أسرهم، وهو غير ما أتى به سيدنا موسى - عليه السلام - الذي كان قبل ثلاثة عشر قرناً من ميلاد السيّد المسيح. لقد كتب اليهودُ بعد جلائهم الذي حدث بعد عصر موسى بثمان مئة سنة «عهدهم القديم». وهذا هو الذي بين أيديهم وبين أيدي الدارسين غير اليهود.

وقد كنت أشير في كل كلمة من الإصحاح الأول إلى دلالتها، وإلى الصورة القريبة منها في العربية. وهذا جملةُ ما شَغَلَني من محاضراتي في اللُّغتين السريانيةِ والعبرانية.

قال صاحبي:

كأني بك، أستاذي، ما تفتأ أن تتحوّل إلى جديدٍ كان من قديمك الذي عرفته في درسك في «المصادر» اللغوية والأدبية وغير ذلك.

قلت:

نعم! كان لي هذا، وهو كثيرٌ، غير أني بدأتُ مما تجمّع لديّ من أخبار النَّحْويين واللُّغَويين أن أخرجَ كتاب الأنباري أبي البركات الموسوم بـ«نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء».

قال صاحبي:

أعرف أن لهذا الكتاب طبعتين أولاهما قديمة فيها من التصحيف وإساءة الإخراج ما يُلزم أن يكون للكتاب نشر وتحقيق وعناية، والثانية طبعت بعدها بزمان طويل، ولكنها لم تسلم مما كان في الطبعة الأولى.

قلت:

نعم! وهذا هو الذي دفعني إلى أن أدرسَ الكتابَ، وأجعلَ درسي مقدِّمةً لنشرة جديدة مزوّدةٍ بالفوائد، بعد الحصول على أصل مخطوطٍ، لم أجدْ غيره. لقد كان عملي هذا وأنا في السنوات الأولى من إقامتي في باريس.

ولكني شغلتُ بأمور تتصلُ بدراستي التي هي أشدّ ما يلزمني أمرها، فأرجأت المضيَّ في هذا الكتاب حتى انتهيتُ من دراستي وعدتُ إلى بغداد، ففكرتُ في نشر هذا الكتاب.

قال صاحبي:

استقريت «نزهة الألباء في طبقات الأدباء» فوجدته اشتمل على تراجمَ وسيرٍ، كان الكثير منها سير النحاة الأوائل، ثم من خلفهم من رجال القرون بعدهم إلى القرن السادس الهجري. على أني وجدتُ فيه غير النحاة من اللُّغويين الذين انصرفوا إلى اللُّغة ومعجماتها وما يَتَّصِلُ بها من أدب. لقد كان لي في هذا الكتاب أن عرفتُ الخليل وسيبويه والفَرَّاء والمبرِّد

وثعلب. ثم عرفت الأصمعيَّ وابن السِّكِّيت وغيرهما ممن ليس لهم من النحو أي شيء، لانصرافهم إلى اللغة وأدبها. ثم كان لي أن عرفت الشعراء المتنبي والمعريّ، ومن الأدباء أصحاب المعارف الكثيرة كالجاحظ وابن قتيبة وأبي حيَّان التوحيدي. وليس لي أن أنسى أصحاب القراءات وعلوم القرآن كأبي عمرو بن العلاء وأبي عبيدة، ولن أنسى الذين صنعوا الدواوين والمجاميع الشعرية كابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني وغيرهما.

وكأني أدركت أن وسم أولئك الرجال الذين اختلفوا فيما هم فيه من علم بـ«الأدباء» يأتي من المفهوم الواسع للأدب غير ما نعرفه فيما نذهبُ إليه في الشعر والنثر.

قلت:

نعم، كان «الأدب» صنعة واسعة، يندرجُ فيها النَّحو والصرف واللُّغة والشِّعر والنثر وعامة المعارف القديمة، لا يُستثنى منها العلم بالحكمة والطب والفلسفة وغير ذلك.

وقد يذهب في «الأدب» إلى خصوصيَّة غير هذا الذي أشرتُ إليه، فأنت في كتاب «أدب الكاتب» لابن قتيبة، تدرك معنىً خاصاً للأدب، وهو ما يلزمُ الكاتب من معرفة لُغوية في النُّطْق، وما يلزمُه في صوغ الكلمة في أبنيتها، وما يكونُ من الصواب في الاستعمال. وفي هذا أنت غيرُ بعيد من كتب الخطأ والصواب.

وأنت في «أدب الكتَّاب» للصُّولي، تقفُ على ما يقتضي الكاتبَ من معرفة الورق واستعمال القلم وبَرْيه وما يَتَّصِلُ بالمِداد (الحبر).

وأنت في مثل هذا وأنت تقرأ «أدب العالم والمتعلّم».

وقد يكون لك أن تلمحَ في «الأدب» مصطلحنا الجديد وهو «التربية»

و«التقويم» وإلى هذا تشير كلمة «المؤدّب» لمعلم أولاد الخلفاء والأمراء والوزراء.

وهذا هو الذي تلمحه في «مقدمة» ابن خلدون» في كلامه على «أدب» الصبيان.

قال صاحبي:

ولي أن أضيفَ إلى الدلالة الأخيرة لكلمة «أدب» فأقول: إن المؤلفينَ المغاربة استعملوا كلمة «سياسة» بهذا المعنى، وهو التربيةُ والتعليمُ والتهذيبُ في قولهم «سياسة الصبيان».

قلت:

لقد عُدت بعد رجوعي إلى بغدادَ إلى «نزهة الأَلِبَّاء» فحرَّرْتُهُ مفيداً من الأصل المخطوط ومن طبعتي الكتاب، فقوَّمْتُ الخطأَ، وأثبتُ ما غمضَ من الكَلِم، وعُدل به عن وجهه، كما أثبت الخلاف بين المخطوط والمطبوع. وعَرَّفت بغير المشهور من الأعلام مستفيداً من كتب السير والتراجم. وقد مهَّدت للكتاب بمقدمة، عرضتُ فيها للكتاب ومصادره، كما ترجمت للمؤلف. ثم تحوّلتُ إلى الأصل المخطوط، فوصفتُه، وختمت هذا كله بكلامي على المطبوعتين وما كان فيهما من نقصٍ، حداني أن أصنع نسختي المحقَّقة التي أودعتُها إلى المطبعة.

قال صاحبي:

لقد أفاد أبو البركات، في كتابه هذا، من المصادر التي كانت بين يديه في سير المتقدمين ممن ذكرهم في كتابه، وهذا أمر لا بُدَّ منه، فأنت تَجِدُ تراجمَ رجاله الأوائل في طائفة من المصادر. غير أن من فوائد الكتاب المهمة اشتمالَه على تراجم معاصريه، وفي هذا كان كتابه المصدر الأول

الذي أفاد منه الذين خَلَفوه في إثبات تراجم المتأخرين.

قلت:

لقد أصبتَ في إثبات هذه الفائدة للكتاب وهي إثبات المؤلف لسير المتأخرين.

لقد انتهى طبعُ الكتاب، وكان لي من إنجازه أني عرفت أصحاب المكتبات، كما عرفت طرائف من خُلق الناس وعاداتهم، ومن المفيد أن أعرض لشيءٍ من هذا.

لقد جئت إلى المطبعة، وهي مطبعة المعارف، في شارع المتنبي، ووقفت السيارة بمحاذاة الرصيف، وبدأ العمّالُ يخرجون ما رزموا من نسخ الكتاب التي لا تتجاوزُ عدّتها الألف. وبينا أنا أنتظر انتهاء العمال من إخراج الكتاب، إذا رجل فقير كان من كَنَّاسي أمانة العاصمة في هذا الشارع، قد تَقَدَّم إليَّ على استحياء، ثم ما لبث أن سألني: هل الكتابُ لك سيّدي؟ قلت: نعم، قال: هل لي أن أحصلَ على نسخة منه؟ قلت: وماذا تعمل بها؟

قال: إني أقرأ كثيراً في الصُّحُف التي أراها في المكتبة العامة التي أقصدها بعد انتهاء عملي، كما أقرأ فيها المجلات التي تَرِدُ إلى المكتبة، ثم تجاوزت هذا كله، فرحت أقرأ الكتبَ التاريخية والحكايات. فإن وهبتني كتابك هذا، فسيكونُ لي فيه فائدةٌ جديدةٌ.

قلت:

أنت خيرُ من أهدي إليه أوّلَ كتاب لي، وأنا سعيدٌ بطلبك الذي بصّرني بما لك مما يشغلُكَ من أمر، قلَّ أن أجدَه لدى المتعلِّمين الذين رضوا لأنفسهم ما حصلوا عليه، فانصرفوا إلى حياة أخرى، ليس بينها وبين

الكتاب من صلة.

ثم قال: ولست وحدي، أنا الكنَّاسَ، في دأبي هذا، فذاك صاحبي الكنَّاس في آخر الشارع، قد اقتفى أثري، وأحبَّ القراءة، فصار يصحبُني إلى المكتبة العامة، فهل لك أن تُعْطِيَهُ نسخةً أخرى، أو إني أعيره نسختي بعد قراءتها؟

قلت:

سأعطيه نسخةً كما أعطيتُك، وإنه يسرُّني أن أجدَ هذا النفر من الناس، يُقْبِلُ على القراءة هوىً للكتاب الذي حمد أهلُ الرأي صُحْبَتَهُ.

قال صاحبي:

فهل كان بين المتعلمين وممن زُهُوا بدنياهم كهذين الرجلين اللذين انصرفا عن بؤسهما فجُرِّدا عن زينة الدنيا، فاستبدلا بها زينةَ العلم عملاً بما كان لنا أيّام الطلب من قول القائل:

«العلمُ زينٌ وتشريفٌ لصاحبِهِ»

قلت:

أراك تحفزُني إلى أن أذكر سوأة رجال، زُهوا بما هم فيه من منصب وجاه، وما يدَّعونه من فُتاتِ موائد أهل العلم الذين تَشَبَّثوا بالكتاب، ولم يُفيدوا منه، وسآتيك بخبرِ نفر من أولئك الناس. لقد طلب إليَّ غيرُ واحد من أصحاب المكتبات في سوق السراي، نُسَخاً من الكتاب، ليعرضوها للبيع، فكان مني أن أعطيتُ هذا عَشْرَ نسخ، وذاك خمساً وآخرين هنا وهناك.

وما زلت أذكر أن السيد كاظم الحيدري صاحب المكتبة الأهلية، في سوق السراي، قد استوقفني يوماً، وأنا مارٌّ بالسوق، فجئتُ إليه، وبادرني

بقوله:

قلتَ لي إنّ سعر النسخة نصف دينار، ولكني وجدته بثلاث مئة فلس، فكيف كان هذا؟

أراد السيد كاظم الحيدري أن يُعرِّض بمن جاء إليه بنسخة من كتابي، يعرضها للبيع، فأخذها منه بالسعر الذي ذكره. وقد أطلعني على ما كان في النسخة التي جاء بها هذا الرجل الذي قطع الحاشية العليا من أول صفحة التي كان فيها إهدائي للنسخة للذي طلبها مني بنفسه، ثم ذهب يبيعها.

وقال لي: إنه فلانٌ أحدُ القضاة في زمان مضى، وعرف بمكانته وسمعته.

أقول: كأنّ السيِّدَ الحيدريَّ قد أراد أن ينالَ من هذا القاضي، لحاجةٍ في نفسه، وليُخبرني أن هذا الذي أنزلتَه غيرَ منزلته، وربما احترمتَه ليس جديراً بالاحترام.

قال صاحبي:

هذا بعض ما ينزلُ بالناس من مثالبَ، وهم أهلُ معرفةٍ وفطنةٍ وذكاءٍ، ومن هؤلاء الذين تسوّل لهم أنفسُهم أن يسرقوا الشيءَ، وهم قادرونَ على الحصولِ عليه بثمن بخسٍ.

قلت:

قد يكون هذا، وأضيف إليه أن كثيراً ممن يحرصون على الكتاب، قد يكون منهم نظيرُ هذا، وأن آخرين قد يطلبون الكتاب، وهم لا يقرؤون. ولا تسأل عمن يستعير الكتاب، فلا يردُّه، وأن أحداً قيل عنه: إنه قال: مجنون من يردُّ الكتاب إلى صاحبه.

قال صاحبي:

لقد قيل عن الأستاذ عباس العزاوي - رحمه الله -: إنّه كان لا يعيرُ كتاباً، ولعله ابتلي بنفر من هؤلاء الذين استعاروا منه شيئاً، فلم يردُّوه إليه، ومنهم من استعارَ مخطوطاً، ولكنه أعاده بعد أن صوَّره دون أن يُخْبِرَهُ بذلك.

قلت:

كان للأستاذ عباس العزاوي حكايات وأخبار، عن هؤلاء الذين تجاوزوا وظلموا، وفيهم من استعار، ولم يردَّ ما استعارَهُ، وفيهم من أنكر أنه استعار، وقُضي الأمر. وقد دفع هذا الذي أُوذي به أن يكونَ منه غرائب، منها: أن الأستاذ عباس كان لا يُري الكتاب الذي يحمله، وهو إن حَمَلَه، ستره بورقة من أوراق الصحف. وهو من أجل هذا وغيره قد كان منه أن يشتريَ الكتابَ الذي لا يوجد نظيرُه لدى باعة الكتب، فإن عرض له نسخة أخرى حازها لنفسه واشتراها.

ومن المناسب أن أشيرَ إلى أني كنت ألقاه في غرفة المطالعة، في مكتبة السليمانية بأسطمبول، في إحدى رحلاتي الصيفية. وقد وقفت على مبلغ حرصه على الكتاب حتى لو كان هذا مما يستعيرُه، فكان يستعيرُ جملة مخطوطات، لينظرَ في صفتها، وأذكر أني مرّة سحبتُ أحد مخطوطاته، فضربني على يدي ملاطفاً، لأنه يحرص على ألا يعرف المخطوطَ غيرُهُ. وكان لي أن رأيت رسالة مخطوطة صغيرة، لحاكم عثماني، في ولاية البصرة، كانت تشتملُ على النخيل ومساحة الأرض، وجداوِل البصرة، وأهل البصرة من مسلمين شيعة وسنّة ونصارى ويهود وصابئة، وأقلية إيرانية مستوطنة، فاشتريتها بثمن بخس، فحدثت الأستاذ العزّاوي عنها، فأرادها مني فقدّمتها هدية، فقال لي: كأنك لست سامرائياً، لأنه كان يكره

السامرائيين، لأن جماعة من أشرارهم سلبوا أخاه البصيرَ وقتلوه.

وقد قيل عنه: إنه ضنين بما لديه من كتب مخطوطات أو مطبوعات، حريص عليها. غير أني وجدته يعيرُ الكتاب، وأذكر أن الأستاذ شارل پلا المستشرق الفرنسي أحبَّ أن يزور الأستاذ العزاوي، وهو في بغداد، ليسأله عن أحد مؤلفي الشيعة الذين ردّوا على «العثمانية» للجاحظ. وقد علم الأستاذ المستشرق أن شيئاً من هذا في خِزانة الأستاذ العزاوي، وقد أشعرتُ الأستاذ العزاوي برغبة المستشرق في زيارته، فاستجابَ وذهبنا إليه، وطلب منه ما كان له أن يسألَ عن المؤلف الشيعي الذي ردّ على الجاحظ، فما كان منه إلا أن أحضر شيئاً لابن طاووس وآخر للإسكافي وشيئاً ثالثاً ذهب عني اسمه.

وقد حدّثني الأستاذ الجليل حسن حسني عبد الوهاب - رحمه الله - عن سُرّاق المخطوطات في تونس وبلاد إفريقية الكثير الكثيرَ. كما حدّثني الأستاذ عثمان الكعَّاك التونسي عمّن استولى على المخطوطات من الفرنسيين، من موظفي عهد الحماية.

قال صاحبي:

وقد ذكر فلان وفلان من أهل الأعظمية، أن رجالاً من الإنكليز الحاكمين أيام الاحتلال جاؤوا بمركبتهم، ومعهم الجنودُ المسلحونَ، واستولوا على مخطوطات مما قيل: إنها من خزانة الإمام النعمان بن ثابت أبي حنيفة، أخذوها، ولم يردّوا شيئاً منها.

قلت:

ولا بدَّ لي من أن أشير إلى شيء، أكمل به خبر كتابي هذا، وهو «نزهة الألبّاء...». لقد علم المعنيون بالكتب، ولا سيَّما أهل النحو واللغة بما

كان من تحقيق لهذا الكتاب، وذلك مما ينشرُ من أخبار الكتب في مجلة صغيرة، تصدر عن مكتبة المثنى، لصاحبها الأستاذ قاسم الرجب، وكان يشرف على هذه المجلة السيد مهدي القَزّاز، يخرجها، ويصحح تجاربها، ويثبت ما يصل إليه من أخبار الكتب وشؤون المكتبات، وهي مجلةٌ ذات جِرْم صغيرٍ، عدَّةُ صفحاتها ثلاثون، وقد تزيدُ عن هذا أو تنقص.

وكان أن نشر هذا القزَّاز، لسوء من نيّته وخبث جُبِلَ عليه كما شهد بذلك الأستاذ قاسم الرجب، رسالة، وصلت إليه من أحد المصريين الذين سكنوا بلاد السويد، اسمه عامر عطية، ادّعى فيها أنه كان ينوي نشر الكتاب، ولكنه عَدَلَ عن هذا. وكأني جُرتُ عليه، وسلبتُه ما يملكُه بحسْبِ رسالته وبحسْب تلفيق هذا القزّاز.

قال صاحبي:

وهل نشر عامر عطيّة هذا الكتاب، أوهمَّ بذلك، ليتسنَّى له أن يدَّعِيَ، بل أن يجورَ ويظلمَ، على نحو ما ذهب إليه في رسالته؟

قلت:

لم يكن له شيءٌ من هذا، وقد كان في فرنسا، وحاول أن يبدأَ دراسةَ الدكتوراه مبعوثاً من جامعة الإسكندرية، ولكنه لم يوفَّق، لأنه آثَرَ اللَّهْوَ والانسياحَ في الجانب العابث من الحياة، ثم تَهَيَّأَ له أن يظلَّ في لهوه، فذهب لاجئاً في السويد. وما كنت أظنُّ أن سيسعى في الشَّرِّ إلى هذا الحَدِّ. وقد يكون لي أن أشتد في اللائمة، وأنحي بها على القَزّاز الذي اتَّبَعَ هواهُ واستجابَ إلى حقده الذي يأباه أولو الخلق الكريم.

قال صاحبي:

كان لك أن تبسطَ هذا الذي افتأتَ فيه عطيّةُ المِصْرِيُّ، والقزَّازُ العراقيُّ،

وتنشره في مجلة المكتبة نفسها.

قلت:

لقد فعلت هذا، وبسطتُ في هذه المجلة شرحاً، وقفتُ فيه القارىء على الأمر، ليعلم أن عامر عطية لم ينشر الكتاب، ولم يُسجَّل له في رسالة جامعية. وعلى هذا يكونُ ما لم ينشرْ ملكاً عامّاً، يحقُّ لمن يسعى في نشره أن يبدأ العمل.

قال صاحبي:

إذا كان لنا ما نحفظه من قول أهل العلم: «مَن أَلَّفَ فقد استَهدَف»، فليس لأيٍّ من الناس ولا للقزّاز مثلاً أن يذهبَ إليه، ولكنه «الظلم من شِيَمِ النفوس».

لقد ذهب عامرٌ وخلفه عطيّة، فأيّ شيء كسباه في ظلمهما؟

قلت:

انتهت قصةُ الكتاب، ولا بد أن أكملَ المسيرةَ، فأعودَ إلى الكُلِّية، وقد انفجر الناسُ في العراق، في ثورة الرابع عشر من تموز، وكان ما كان من ظلم، ذهب فيه نظام، وجاء آخرون، وليس لي بعد الثورة والثائرين، والانقلاب والانقلابيين إلا أن أعودَ إلى ما أنا فيه مما أهمني من شؤون العلم وطلاب العلم.

قال صاحبي:

كأنك لم تحمد للثّورة ما كان منها مما حمل الضيم على العلم وعلى أهل العلم، لأني أعلم أن الثورة بسوء نظر من رجالها، ومن رمى بنفسه عليهم تملُّقاً وزلفى، قد صحبها شرٌّ، لحق بالطُّلاَّب من حيث لا يحتسبون.

قلت:

نعم، لقد كان هذا، ومنه: أن أولي الأمر اجتهدوا في تلك السنة التي حدثت فيها الثورة وهي ١٩٥٨، فعدُّوا عامَّةَ الطلاب الذين شاركوا في الامتحانات في شهر حزيران قبيل الثورة ناجحين، فلم يبقَ بينهم راسبٌ ولا مكمل. وفاز بهذا التدبير السيّيء كلُّ خاملٍ أو متخلِّف أو غبي، وتساوى الجميع، وكأنهم لم يؤمنوا بقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٩﴾ [الزمر] فكان العاملون كالقاعدين سواءً بسواءٍ.

قال صاحبي:

وكان هذا التدبير السَّيّيء الذي عدَّه أولو العلم رِشْوَةً، حصلوا بها على رضى الطلّاب، وهم الجماعةُ التي يحسب لها حسابُها، أقول: كان لهذا الاثرُ السّيِّيء لدى الجامعات الأجنبية التي توقَّفت في قبول الطلاب العراقيين لذلك العام، وبقي شيء من هذا الأثر السيىء طوال سنوات عدَّة.

قلت:

ومن المضحك المبكي أننا في كلية الآداب قد تلقَّيْنا جملةَ رسائلَ من طلبةٍ عرب وغيرهم، جاء فيها قول أحدهم:

إني فلان بن فلان السُّوري الجنسية، لم يحالفني الحَظُّ في امتحان هذا العام، وقد بلغني أن الطلاب في العراق قد عُدُّوا جميعاً ناجحين، وهذا ما دُعي بـ«الزَّحف» فهل لي أن أحظى بنعمة هذا الزحف المبارك!!

قال صاحبي:

وأسوأ من هذا أن الكثير من الطلاب انضووا خلف لواء أولي الأمر، إمّا ملقاً وحِرْصاً على الفوائد، وإما جهلاً منهم وتصديقاً لما أُشيع من زوال

عهد بائدٍ، كان فيه للمستعمرين و«أذنابهم» من العراقيين اليدُ الطولى. وقد ذُكرت أقاصيصُ وحكاياتٌ عن سوء أخلاق رجال ذلك العهد.

قلت:

نعم، لقد كان ذلك، وإجمال القول فيه يغنينا عن سَرْد مساوىء، كان منها ذهاب الأمن وسيادة الفوضى والاضطراب وسيطرة الجهلاء والسُّفهاء. وأذكر أن التدريسات أوشكتْ أن تتوقَّفَ، فالخروج على النِّظام هو الذي سادَ، وتهيّؤ الطُّلاب للتَّظاهر واقعٌ كلَّ يوم، ولا أذكر أنّا عرفنا عملاً أيّام الخميس، ذلك أن جمهرة الطلاب تتهيّأ بالأعلام والرايات منذ مساء الأربعاء، ليخرجوا صباحَ كلِّ خميس. ولهم في كلِّ تظاهر حجَّة، وما أكثر الحجج، وقد نال أهلَ الجِدِّ من الطلاب الويلُ، ورُموا بالتآمر على الثورة. وكم لحق الأذى بالأساتذة الذين استنكروا ما يقوم به الطلاب.

قال صاحبي:

وعجبت أن يكون فيما أشرتَ إلى بعضه فُرقةٌ واضطراب، فليس جمهرةُ الطلاب قد اجتمعوا في صخبهم وعبثهم على ما ادّعوا من تأييد للثورة وللعهد الذي خلف الملكية، ذلك أن كثيراً منهم قد أعلنوا أنهم عرب، وأنهم دعاة قوميَّة، وأن رجال الثورة، ومن احتطبَ في حِبَالِهم أهلُ فكر مرتدّ، تنكَّروا للعروبة، وتنكّروا للإسلام، وكان منهم «شعوبيّون» جدُد.

قلت:

لقد كان ذلك كله، فالجمهرة قد فسحت للخصومة والفرقة مكاناً، فكان عداءٌ وكان اعتداءٌ، وكانت تُهَمٌ تُوَجَّهُ لكلِّ من ابتعد عن أيٍّ من الفريقين التماساً للسَّلامة. لقد اجتهدت أن أكونَ مع الحق، وأن أدفعَ الظُّلْمَ الذي يوقعُه الطالبُ بالطالبِ، ولكني لم أسلمْ من أذىً. ولي أن أَحَدِّثَكَ عما

كان لي مما أصابني أنا الذي لم أوذِ إنساناً، بل كنت مِعْواناً لمن يستحقُّ معونتي التي أقدرُ عليها.

أذكر أني قصدت «الأعظمية» التي كانت مركز تجمع الطلبة القوميين الذين دَأَبوا على منازلة الآخرين من خصومهم الذين نعتوا بـ«الشيوعين» أو «الشعوبيين» أو «إخوان اليهود»، وكنت أريدُ أن أُخرجَ دفتراً للنفوس، كما كنا نسمِّيها في تلك الحقبة من عام ١٩٦٠. وقد وصلتُ إلى «دائرة النفوس»، ولكني ما إن هممت أن أدخلَ حتى فوجئتُ باثنين من الأَشِدَّاء الشُّبَّان، نالني أحدُهم بصفعةٍ قوية، طرحتني أرضاً، ثم كانت طعنةٌ من الآخر بسكينٍ في وجهي، ولا أدري أيُّ أذىً شديد قد لحقني من كليهما. ولا أدري ما سببُ ذلك؟ ولم يكن مني إلا أن استعدتُ بعض قواي، وقمت فلاذَ الشَّقيَّانِ بالفِرارِ.

قال صاحبي:

ألم تذهبْ إلى مركز الشرطة، فتسجلَ دعوى اعتداءٍ بما لَحِقَكَ من أذىً؟

قلت:

كأن الشُّرطة ألفت هذه الاعتداءات، فلم تكترثْ، ولم تسجلْ دعوى على مجهول، وذهبت إلى الدَّار، فَهُرِعَ إليَّ الإخوةُ، وتمَّ إسعافي. ولم يكنْ أيُّ مسعى من الكلية في الوقوف أمام هذه الاعتداءات.

وأذكر أن الأستاذ الجواهريَّ الشاعرَ، قد كتب مقالةً، استنكر فيها ما لحقني، وأنحى باللائمة على السُّلطة التي كانت تقفُ إلى جانب أولئك الأشقياء.

لقد أفدت مما كان لي ولغيري ممن لم يشاركوا في شرٍّ، ولكنهم حملوا

على أنهم من أعوان الحكومة.

قلت:

فهل كان لي ولغيري ممّن امتحنوا بتلك الحقبة أن يفكروا في الخلاص، وأن يأووا إلى ركنٍ، يأمنون غائلة هذا الذي كان.

قال صاحبي:

لعلك ابتأست مما كان، ولكنك لم تُشِرْ إلاّ إلى القليل من السوء، فقد عَرَفْنا مما قيلَ لنا ونُشر في الصحف، أن عصاباتِ الطُّلاَّب كانت تملأُ الشوارعَ، يهدِّدون ويتوعَّدون، حاملين عِصِيَّهُم وحبالهم. وكان حملهم للحبال إشارةً إلى أنهم يربطون من يريدون، ويجرُّونهم. وتلك محنةٌ، امتُحِنَ بها الطَّيِّبون.

قلت:

عرفت تلك المساوىءَ، وسمعتُ عما اقترفوا من آثام.

ولم يكن لي إلاّ الانصراف إلى كتابي، أستعينُ به على قهر غائلة القوم، غير أني لم أَخْلُ من طلاب، توسَّمْتُ فيهم الخيرَ، كان منهم هاشم بن سعدون الطَّعَّان الذي رافقني أربع سنوات، ثم عاد مرة أخرى في دراسة الماجستير، وبقي إلى مرحلة الدكتوراه. لقد أفاد مما درس فوائدَ جمَّةً، ولكنه لم يفد من درجاته العلمية شيئاً، وبقي مُدَرِّساً في مدرسة إعدادية، ثم ختمت حياته - رحمه الله رحمةً واسعةً - لقد كان السيد الطَّعَّان من الأصفياء الأحبَّاء الذين تعلّقوا بأصول العلم، وكان له بسبب هذا إخاءٌ ومودَّةٌ مع طائفة من أصحابه الذين دفعهم إلى أن يسلكوا سبيلَهُ.

قال صاحبي:

لقد عرفتُه مدرساً في البصرة، له مع أحد البصريين، هو محمد جبّار

المعيبد، صلة أخوَّة حميمة، وله مع آخرين من البصريين، منحهم ما كان به من هوىً للكتاب.

قلت:

دَعْ عنك هذا، واستمع إليَّ، لأقولَ لك: إنه زارني في بيتي على دَأْب عادته في زيارته لي، وهو في كُلِّ مرَّة يأتي بصحبة أحد من أحبَّائه، فأسعد بهما. غير أنه زارني في المرَّة الأخيرة، يصحبُه رجل طُوَالٌ، قد احتمل من آثار العمر والكدِّ الحثيث ما بدا على وجهِهِ، وكان أقربَ إلى السُّمْنة منه إلى الاعتدال. لقد دخلا داري، ورحَّبتُ بهما ترحيباً خاصّاً، لأني رأيتُ معه رجلاً لا أعرفُه.

قال الطَّعَّانُ: هذا هو أبو الفرزدق صاحبي وصديقي الذي حدَّثتُك عن حبِّه للكتاب القديم، ولا سيما الدواوين وكتب الأدب.

قال صاحبي:

لعلّ أبا الفرزدق هذا من قدامَى المُدَرِّسين، أو ممن ترك التدريسَ بسبب تَقَدُّمِهِ في السِّنِّ، فصحبه الطعانُ أو سعى إليه أو سعى كل منهما إلى صاحبه.

قلت:

ليس أبو الفرزدق، الذي لا أعرفه إلّا بهذه الكُنية، من المُدَرِّسين، ولا من العاملين في التعليم، ولا صاحب مكتبة لبيعِ الكتب، بل إنه في وادٍ آخر، لا يَتَّصِلُ بهذا كلِّه. إنه أبو الفرزدق سائق القطار السريع الذي يسير ما بين بغداد والبصرةِ. وحسبُك أن تُدْرِكَ ما عاناه هذا الرجلُ وهو في هذه المهنة الشَّاقَّة من متاعب، أقلُّها سَهَرُ اللّيالي الطِّوال التي فَرَضَتْ عليه الحذق في مهنته والحذر والحيطة. فليس عجباً أن تبقي هذه المهنة آثارها

فيه.

قال صاحبي:

وكيف كان من هذا الرجل الذي احتمل الحياة الثقيلة وما يصحبُها أن يخلدَ إلى كتاب قديم، يقرأ فيه شعر الشعراء الأوائل؟

قلت:

لقد كان لي أن تساءلتُ عما أنت فيه، فعلمتُ أنه كان له أن سمع الشعرَ في قصائد الرثاء للإمام الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب في المآتم التي تقيمها الشِّيعة في مناسباتهم، وهي كثيرةٌ. وكان له من ذلك أن حفظ في صباه طائفة من شعر شعراء الشيعة، وقد بقي هذا الإحساس بالألم فيه، فاندفع، بعد أن توجَّهَ في عمله وجهةً أخرى، إلى قراءة الدواوين.

قال صاحبي:

لا بد أن يكونَ لهذا خزانةُ كتبٍ فيها الدواوينُ وغيرها من كتب الشعر.

قلت:

نعم! كان له هذا، فقد حرص على جمع الدواوين، وسخا سخاءً في تحصيلها، وله منها الطبعات النادرة، من مطبوعات أوربا وغيرها.

إنه نموذجٌ خاصٌّ، قد تلقى نظائِرَ له في العراق، هنا وهناك.

قال صاحبي:

لعلي أشيرُ هنا إلى السيد عبد الرحمن البَنَّاء الذي اشتهرَ بشاعر الاستقلال، وذلك لأنه انصرف في شعره إلى الأغراض الوطنية، فكان من ذلك جمهرةٌ من الأناشيد المدرسية نظير ما كان لغيره ممن عاصروه ممن

نظم الأناشيد الوطنية، كالزَّهاوي والرُّصافي والشيخ مهدي البصير. لقد قيل: إن عبد الرحمن البناء لم يكن قد وصل إلى صنعة الشعر، بعد درسٍ وكدٍّ، بل كان على نصيبٍ يسيرٍ من الثقافة، لا تتجاوزُ معرفةَ القراءةِ والكتابةِ، ولكنه كان يسمعُ المنشدين في حلقات الذكر، فكان له إحساسٌ بالأوزان والقوافي، سَهَّل له نظم الشعر، وهو في حرفته التي حمل منها شهرته «البناء». إنها حرفة البناء، وهو يشير إلى هذا بقوله:

أنـا البنّـاء مـن غيـرِ افتخـارِ	قضيتُ العُمْر في ماءٍ وطين

و«المـاء والطيـن» كنـايـة عـن هـذه المهنـة فـي عصـر البنـاء «شـاعـر الاستقلال».

قلت:

ولك أن تجدَ آخرين، ما كان لهم تعلّم للقراءة والكتابة، ولكنهم ينظمونَ القريضَ الموزونَ المقفَّى. وكأنَّ الوصولَ إلى النظم يتأتّى من أن الناظم يستجيبُ لشيء، ورثه، أو قل: وُهبه، وهذا هو الذي عبَّر عنه النُّقَّادُ في عصرنا في قولهم «الموهبة الشعرية».

إنها هبة قد تتهيَّأ لصاحبها، إن أسعفته الظروفُ، فينطلقُ مقرزماً بادىء ذي بدء، أو قل: قد ينطلق شاعراً. وقد يكونُ لنا أن نقرَّ هذا، ونحنُ نقرأ كيف كان ما كان للجواهري ابن السادسة عشرة من عمره، أن يأتي بالنَّظْم الجَزْل البديع الذي تحسبُه لواحد من أشياخ الأدب.

قال صاحبي:

إن هذا لهو الحقُّ المبينُ، ومصداقُه ما أخبر به الثِّقَاتُ، من أهل العلم، عن الشعراء العالميين، ومنهم وليم شكسبير وغيره، وما رووا عن عباقرة الموسيقى العالمية من أن هؤلاء جميعاً أتوا بالفنِّ الأصيلِ، وهم صبيةٌ

صغارٌ، لم يتجاوزوا العشر.

ف- أسفار وجولات

قلت:

كأني أدركت أن العمل بدأ يسوء، وأني سئمت المقامَ حين ضعفت الحالُ، وساد شيء من اضطراب، ينذر بشرّ مستطير. وكان القائم بأعمال سفارة تونس ببغداد ممن عرفت من الإخوة التونسيين في باريس أيام الطلب، قد عرض عليّ أن أذهب إلى تونسَ، لأعمل في كلية الآداب، فوافقت، واستأذنت كلية الآداب في بغداد ووزارة المعارف على التحاقي بتونس، فتَمَّ لي ما أردت، وتوجهتُ إلى تونس منذ أكثر من ثلاثين سنة.

أقلَّتني الطائرةُ أنا وزوجتي وابنتي الصغيرة أريج، وقد وصلنا إلى تونس، فنزلنا في فندق، يقرب من المدينة القديمة. كان ذلك في يوم من أيام الآحاد، ويوم الأحد يومُ عطلة رسمية، درج عليه التونسيون منذ أن كانت في حماية فرنسا. وتوجَّهْتُ في اليوم الثاني إلى كلية الآداب قبل أن يكونَ لدى التونسيين جامعة، ورأيت السيد عميد الكلية وأصحابي الأساتذة الذين عرفتُ كثيراً منهم في باريس. وقد أُعِدَّ لي برنامجٌ في جدول المواد، وكان موضوعُه «اللغة في مصادر التراث».

وقد بدأت عملي، ولم تكن ساعاتُ العمل كثيرةً، فهي ستُّ ساعات، كان علي أن أنتهيَ منها في يومين فيكون لي فراغ كافٍ في أربعة أيام، أفيد منها في الدرس والذهاب إلى المكتبات.

قال صاحبي:

كيف كان لك أن تواجِهَ طلاباً غيرَ عراقيين، وهل وجدتَ فيهم أهلَ

سَعْي، أنْسَوْك ما كنتَ قد ضقتَ به في بغداد؟

قلت:

نعم، وجدتُهم كما ظننتَ، وإنهم ألفوا أن يكونَ منهم عمل، يكملون به ما سمعوه من المحاضرات، وكان لهم من معرفة الفرنسية ما يُعينهم على قراءة المصادر فيها والإفادة منها. وقد أنهى كثيرٌ منهم سني الطَّلَبِ في تونس، فالتحقوا بجامعات فرنسا، ثم عادوا كما علمتُ بعد ذلك أساتذةً أولي بحث.

غير أني لم أجد فيهم من عَرَف كتاب سيبويه، ولا الكامل للمبرد، ولا أمالي أبي علي القالي، وكأنّ أكثر انصرافهم كان للدرس الأدبي، فقد عرفوا كتاب الأغاني، وعرفوا كتب الجاحظ، وعرفوا كتب أبي حيّان التوحيدي. ولم يكن لهم درسٌ في النحو القديم، واكتفوا من مادة النحو بما أخذوه من درسه في المدرسة الثانوية.

أقول: إن المادَّة النحوية والصرفية في المدرسة الثانوية تكفي الدارسَ، وتقوِّم لسانَه وقَلَمَهُ. ولكننا نحن في بلدان المشرق العربي نعوِّلُ فيما نُعوِّلُ عليه في مادَّة النحو على أن يعرفَ الطالبُ أسلوبَ الدرس لدى النحاة القدامى، وكأننا قد افترضنا أن يكونَ لدى الطالب بعد الثانوية ذخيرةٌ كافيةٌ من مادة النحو. ولسنا على حقٍّ في هذا الذي افترضناه، ذلك أن تدريس النحو منذ التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي لا يضمنُ بلوغَ ما نأمُلُ، ويبقى الطالبُ ضعيفاً، ليس له الكثير مما هو ضَرُوريٌّ يقوِّمُ لسانَه وقلَمَهُ.

قال صاحبي:

فكيف كان لك في هذا الدرس؟

لقد أشرتُ على طلابي أن يعرفوا المصادرَ، وسألتهم عنها، فلم أوفَّقْ

إلى الحصول منهم على شيءٍ، يشيرُ إلى ما اكتسبوه منها. وقد بدأتُ درسي بـ«لسان العرب» نقرأه، فأحملُ الطلاب على الوقوف على الكلمة القديمة، وكيف تصرَّفَ بها المعربون القدماء، فكان لها ما كان من دلالات قديمة.

قال صاحبي:

لعلك وقفت طلابك على الأصول الحسيّة، والذهاب من هذه الأصول إلى دلالات أخرى، تبتعد قليلاً أو كثيراً عن تلك الأصول الحِسِّية، وقد يبقى في الذي تَحوَّلَتْ إليه إيماءة إلى الأصل القديم. لقد وقفت على هذا الذي استقريته، فوجدتُه مثلاً في أسماء أعضاء الجسم التي كان منها في العربية فوائد كثيرة.

قلت:

نعم! كان لي هذا الذي أشرتَ إليه، ولكني قبل أن أباشر هذا الدرس فأبسط ما كان لي مع الطلاب، أفيدك عن شيء يَتَّصِلُ بشؤون أخرى، مخافةَ أن أمضي في درسي، فلا أجدُ بعد ذلك مناسبةً أو فرصةً تتصِلُ بشأن ابنتي الصغيرة «أريج» التي صحبتُها أنا وأمُّها إلى مدرسة خاصة للأطفال، فكان لنا من ذلك متعةٌ كبيرةٌ، وكان لي من ذلك ما أذكَرَني بوحشة أيّام صباي، وقد انتقلت من «الكُتَّاب» إلى المدرسة الابتدائية القديمة البائسة في مدينة العمارة. لقد قضينا أنا وزوجتي ساعة مع «أريج» لنطمئنَ على إلفتها للمدرسة، ثم عدنا إلى دارنا التي استأجرتها في حيٍّ جديد، في أحد أرباض مدينة تونس، دُعي «المنزه». لقد كان الحيُّ مكاناً نَزِهاً، ولكنه مفتقر إلى سَعَةِ الناس في الخُلُق والعيش.

قال صاحبي:

كأنك استشعرت الوَحْشَةَ في مقامك، فلم يكنْ لك أحدٌ ممن تعرف،

وليس بينك وبين جارك من صِلَةٌ، وما كان لك أن تبتئسَ، فالناسُ في عصرنا كأنما لبسوا غيرَ جلودهم، فكان منهم من يشنؤك وأنت لا تعرفُهُ ولا يعرفُكَ، لقد جهلوا التواصُلَ، وابتعدوا عن إنسانية، كانت طبعاً، جُبِلَ عليه من سبقونا. لقد نسوا بل جهلوا ما ورد في الأثر الشريف من قول الرسول الكريم: «ما زال جبريلُ يوصيني بالجار حتى ظننتُ أن سيُورِّثُهُ».

قلت:

لا عليك، فالأمرُ أعظمُ من هذا، فهل تدري أني قد رأيت أصحابي الأساتذةَ في الكلية، في أوّل مرة قصدتُ فيها الكلية، ثم لم أشهدْ أحداً منهم بعد ذلك!!

قال صاحبي:

وهذا عَجَب من العجب، نَفَرٌ عرفتهم أيام الطلب في باريس، وكان منهم من كنت تراه في بعض المحاضرات في السوربون، ثم تهبطُ عليه في داره، فيولِّي عنك ولا يراك، أفبعدَ هذا من عجب؟ أليس لي أن أنكرَ اليوم ما كنت قد ثقفته في كتاب قديم، درسنا فيه في السنة الخامسة الابتدائية وهو قول أهل الفلسفة القديمة، وأظنه قول أفلاطون: الإنسان مدنيٌّ بالطبع.

قلت:

لنقف على هذا الذي قيل: إنه قول أفلاطون، لأشيرَ إلى أن «إنسان» في العربية كان منه الفعل «أنِسَ» ومصدره «الأنس»، ومنه أيضاً بناء «أفعَلَ» وهو «آنَسَ»، فإن قلتَ: إن هذا المزيد قد جاء بمعنى «وَجَدَ» مستفيداً ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴿١٠﴾﴾ [طه]، قلتُ: لعل «وَجَدَ» بما نعرفه من دلالاته، لا يعطيك الدلالة وما توحي إليه، ومن هنا أضاع أهل الألفاظ

الكثير من أسرار الدلالة، لأنهم سلبوها عنصر الحياة. إن في الفعل «آنَس» شيئاً آخر، لا نلقاه في «وجد».

قال صاحبي:

كنت قد قرأتُ في شيء من نوادرك، أنك ذهبتَ إلى أن «الإنس» حكاية في الأصل للصوت، وإن الصوت يكون من صوت السين أو الصاد. وإن «إنس» من «إس» وفي هذا ما يشعرُ الصوت الذي ارتبط بمن يحدثُ الصوت وهو «الإنسان». و«النون» قد جاءت من فك الإدغام أي من السين المشدّدة. وأما الألف والنون فهو تكملة للبناء، كالألف والنون في «حيوان» وغير هذا.

وقد أشرت إلى «إيسان»، وهو صورةٌ أخرى لـ«إنسان»، والياء جاءت من فكِّ الإدغام أيضاً.

قلت:

أحسنتَ، لقد صَرَفْتَني إلى ما كنتُ ذكرته لطلبتي التوانسة، وهو أن «إيسان» تومىءُ إلى نظيرها في اللغة العبرانية وهو «إيش» بمعنى الرجل، والإبدال بين السين والشين كثير في اللغتين العربية والعبرية، والشواهد كثيرة.

كان هذا الدرسُ متعةً لي وللطَّلَبَةِ التونسيين الذين كانوا دونَ العشرة، فكنت أنا وإيَّاهم نَتَّخِذُ من غرفة المصادر في مكتبة الكُلِّيَّة مكاناً لعملنا. وقد كانت محاضراتي ضَرْباً من حوار بيني وبينهم مفيدين مما لدينا من معجمات.

قال صاحبي:

ألم يكنُ هذا البحث اللغوي محتاجاً أن يكون للطالبِ فيه بعضُ معرفة

في اللُّغات السَّامية؟

قلت:

لقد كان من درسي هذا إثارةٌ للطُّلَّاب، فراحوا يسألون عن اللغة العبرانية، ودفعني سؤالهم إلى أن أبدأَ معهم في ساعات إضافية، لم يُشَرْ إليها في جدول المواد التدريسية، في اللغة العبرانية. وقد بدأتُ هذا الدرسَ بشيء من كلمات ثنائية هي: ابن وبنت، واسم، وأب وأخ وأخت وغيرها، وكنت أكتبها بالحروف العبرية، وأشيرُ وأنا أكتب إلى الرسم العبري وإلى نطْقِ الكَلِمة، هكذا كان لهم يتعلّموا الرسم. ثم بدأتُ بكلمات أخرى عليها الحركات، وهم بذلك أدركوا أن الحركة وسيلة لوصل الحرف بالذي يليه كما هو الأمر في العربية.

قال صاحبي:

لقد أصبتَ في اختيار الكلمات التي بدأتَ فيها درسَكَ، ذلك أنها كلماتٌ مشتركةٌ، عُرفت في العربية والعبرية.

قلت:

وكنت أشيرُ إلى أنها في عامّة اللُّغات السَّاميّة، وأدلّهم على ذلك. وقد حملتهم على إدراك قيمة هذا الدرس الذي يبسط الحقائق للدارسين في اللُّغة والنحو، إذا ما صيرَ فيه إلى ما سُمِّيَ في عصرنا بـ«النحو المقارن».

وكنت قد قدمتُ أن درسي هذا مع نخبة من طلاب دون العشرة، أحبّوا ما كنت قد صرفتُهم إليه، فكان ذلك ذا أثرٍ في مسيرتهم العلمية.

قال صاحبي:

وما حديثُ الكُتُب التي انصرفتَ إليها، وسلكت السبيل إليها؟

قلت:

أما حديث الكتب فذو شجون، أبدؤه بزيارة مفيدة لمكتبة في «نهج الزيتونة» دعيت «المكتبة العتيقة» وصاحبها تونسي، أكرم وفادتي، وفسح لي من مجلسه، عرفته مما سمعت من خطاب حرفائه، أنهم كانوا ينادونه «سي محمد» يريدون «سيدي محمد».

قال صاحبي:

عرفتك فيما عرفت أنك رجلٌ تجدُ في الكتاب وقاءً لك، تركنُ إليه وإلى أصحابه، فتبتعد عن دنيا، جاش فيها أهلها الساعون إلى منافعها. ألم تهجر الإدارة والعمل فيها حين طُلب إليك أو قد فُرض لتكون مديراً للتأليف والنشر في الوزارة التي أعقبت ثورة تموز، وعُدت إلى مكانك في كلية الآداب؟

قلت:

سبقتني إلى شيء فاتني، بل أشياء عدّة، فلك الخيرُ كل الخير أن دفعتَني إلى حقبة، سَبَقَتْ ما أنا فيه الآن. لقد طُلب إليَّ أن أشغل وظيفة في وزارة المعارف هي «إدارة النشر والتأليف والترجمة»، ولم يكن الطلبُ في تلك الحقبة إلا شيئاً من إلزام، يفرضه الطالب عليك، فيقول مثلاً: إننا جنودُ الثورة، فينبغي لنا أن نكونَ صَوْناً لها ودِرْعاً واقياً. وليس عليَّ إلاّ الاستجابة.

التحقت في اليوم الأول من الشهر، وأظن ذلك في سنة ١٩٥٩، وبقيت أنتظرُ العمل الذي قيل لي أن سيأتي به العهد الجديد، وطال انتظاري أياماً، لم أجدْ فيها غيرَ أوراق، كانت تردُ إليَّ تِباعاً، في هذه إشارة إلى تعيين مدرِّس، وفي أخرى إحالةٌ لآخرَ على التقاعد، وفي ثالثة نقلٌ لموظف من وزارة الداخلية إلى وزارة المعارف. ولم يكن لي من

عمل إلاَّ أن أثبت في كل من تلك الأوراق عبارة «اطّلعت» مع إثبات إمضائي والتاريخ.

وليس في الوزارة من شيء يمكنُ أن يكونَ تابعاً لمهمتي في النشر والتأليف والترجمة إلاّ مجلة «المعلّم الجديد». وهذه مجلةٌ قديمةٌ، دَأَبَتِ الوزارةُ على إخراجها شهرياً منذ سنينَ، يقوم على إخراجها موظفٌ، أدرك عمله، ومعه لجنةٌ تجتمعُ كلَّ شهرٍ، لتنظرَ فيما يردُ إلى المجلة من مقالات.

فأيُّ شيءٍ لي فيها؟ ليس من شيءٍ، وهكذا كنت من غير عمل أقوم به، فكيف أصنعُ؟

قال صاحبي:

لعلك استعنتَ بالكتاب، تلفي فيه وسيلةً لدفع السَّأم الذي فُرِضَ عليك.

قلت:

لا شيء غير ذلك، وبقيتُ حتى أمضيتُ شهراً كاملاً من غير عمل أؤديه في وظيفتي هذه التي يُفترضُ فيمن يشغَلُها أن سيكونُ له أعمال كثيرة مفيدة وممتعة. ثم مرَّ أسبوعٌ تلاه آخرُ، فلم أجد إلاَّ الذهابَ إلى السيد الوزير، وكان هو الأستاذ هديب الحاج حمود، فبادرتُه بقولي، بعد التَّحية وما يقتضيه الأمرُ: أيجوزُ أن يستوفيَ موظفٌ راتِبَه الشَّهريَّ، في عهد حكومة الثورة، وهو لا يؤدِّي أي عمل؟ قال: لا، لا يجوزُ هذا، فمن ذا الذي كان منه هذا؟، قلت: أنا... لقد طُلب إليّ أن أكونَ هنا، فاستجَبتُ لما قيل، ظنّاً مني أن عملاً للنشر هو حاصل، وآخر يُتوقَّع أن سيكونُ.

ثم قال: فكيف ترى أنت؟ قلت: أن أعودَ إلى عملي في كلية الآداب،

أؤدي ما يُرادُ مني وأكثر من ذلك. فقال: قدِّم طَلَبَك، وإنّي موافقٌ، وكان معي الطَّلَبُ، فرسم عليه: يعودُ إلى كلية الآداب، وصدر الأمرُ الإداريُّ بذلك، فعدتُ إلى عملي.

قال صاحبي:

ألا تَرَى كيف ذهبتْ بُنَيَّاتُ الطريقِ، فرمتْ بنا من تُونَس إلى بغداد عَوْداً على بَدْء.

قلت:

ليس من ضَيْرٍ في هذا، فإني مُحدِّثُكَ عن صاحبي التُّونسي صاحب «المكتبة العتيقة» التي وجدت فيها ذخائرَ مما طُبع في بلدان إفريقية عامَّة، من كتب عربية وغيرها، مما كتبه المستشرقون عن العروبة والإسلام. وكان لي أن اشتريتُ شيئاً من هذه النفائس التي لا نعرفها، أذكر منا ما يتصلُ بـ «قراءة وَرْش» التي التزم بها المغاربةُ وشيئاً من «شرح موطَّأ» الإمام مالك في طبعة مغربية، ونسخة عتيقة من «الأجرومية» لمحمد بن محمد بن آجروم الصِّنْهاجي، وديوان كُثيِّر عزّة في طبعة جزائرية، أخرجها المستشرق الفرنسي «پيريس»، وكتب أخرى بخطوط تونسية ومغربية.

وقد تعجبُ أن حظيتُ بعدد من مجلة «اليقين» البغدادية التي كان يصدرُها محمد الهاشمي الشاعر البغدادي، وفيها بحثٌ عن شريعة حمورابي.

قال صاحبي:

لقد أثنيتَ على صاحبك صاحب المكتبة العتيقة، وأشرتَ إلى أنه صاحب خُلُق ودين، فهل لي أن أسألَكَ: أشعَرتَ في شيء من هذا، وأنت تماكسُهُ في السعر؟

قلت:

إن التاجر، وإن أحسن في تجارته، لا بُدَّ أن يكون له شيء مما توجبهُ هذه الحرفة، وإن كنت لم أشعر أن «سي محمد» هذا كغيره ممن أُخِذوا إلى غيرِ ما يُحْمَدُ. ولا أراني إلاَّ أن أتذكر ما استظهرتُه من الأثر «يُحشرُ التاجرُ يوم القيامة فاجراً إلاّ من اتّقى اللهَ».

ولك أن تسألَني عن خصوصيّة صاحبي «سي محمد» فأقول: كنت أُحِسُّ فيه الحَرَجَ وأنا أبتاعُ منه كتاباً عتيقاً، ولا أدري أكان يؤثرُ أن يحتفظَ به لنفسِهِ؟

قال صاحبي:

لعله أدركَ أنك طارىء في تونس، ولا بد أن تُغَادِرَها مهما طال فيها مقامُكَ، وستأخذُ معك هذه النفائسَ...

قلت:

لعلّ هذا كان مما يَحِيكُ في ذهنِ هذا الرّجلِ. وإني لأحمدُ لك هذا النَّفَاذَ في عقلك الذي يدركُ الشيء وما وراءَه. وإني لأحْمَدُ لك مواقفَ عِدَّةً، ذكّرتني بشيءٍ نسيتُه أو أنْسِيتُهُ.

قال صاحبي:

وماذا بعدَ هذا مما أفدته في هذه الخضراء التونسية؟

قلت:

رأيت في هذه المكتبة رجلاً طُوالاً ذا هيبة وسمت، من منزلة رفيعةٍ، أقبلَ من بعيد، كان الناس يمرُّون به، فيحيُّونه تحيةً فيها أدبٌ وإكبارٌ. وصل إلى المكتبة، فحيًّا وجلس، وتفضل «سي محمد» فعرّفه بي، فحيّاني وأدناني من مجلسه، وسألني عن بغدادَ وأهلها، ذلكم هو الأستاذ حسن

حسني عبد الوهاب الصُّمَادحي. وقد أشار إلى معرفته بالأستاذ طه الراوي، والشاعر الرُّصافي، كما أشار إلى عبد العزيز الثعالبي التونسي الذي هاجر إلى بغداد وشارك في جامعة آل البيت.

وقد حدّثتُه عن صلة الرصافي بالثعالبي، فقد مدحه، ونَوَّه بفضله في قصيدة له في ديوانه.

وقد وجدت لدى الأستاذ عبد الوهاب معرفة بعامَّة المشارقة من أهل العلم، ممن لقيهم في القاهرة وبلاد الشام.

قال صاحبي:

ولا بُدَّ أن يكون لك شيءٌ غير هذا مع الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب...

قلت:

كان لي أن ربحتُ من معرفتي تلك فوائدَ جَمَّةً، تَتَّصِلُ بتاريخ تونس وأدبائها، وما صنّفوا وما تركوا من أثر في الثقافة المغربية. وقد وقفت في خِزانته على شيء من مخطوطات نفيسةٍ أندلسيةٍ، كتبت بالرسم الأندلسيِّ، أذكر منها «المسائل والأجوبة» لابن السِّيد البَطَلْيُوسِيِّ، ومخطوطة «الصلة» لابن الأبّار. وقد دأبتُ على زيارته في بيته، وعلى لقائي به في المكتبة العتيقة، ولي من كل هذا زاد ومتاع سعدتُ بهما في تونس التي قصدتُها وأحببتُها وأنا قريبٌ من أولي المعرفة ذوي المكانة الرفيعة.

قال صاحبي:

وقد قرأت فهرساً لمخطوطات الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب الذي نشر في «حوليات الجامعة التونسية» فكان لي منه فائدةٌ عظيمةٌ.

قلت:

نعم، لقد رأيتُ هذا الفهرست في «الحوليات» التي أشرتَ إليها بعد إهداء تلك المخطوطات إلى الجامعة التونسية، ولكني لم أرَ فيها المخطوطات التي كنت قد رأيتها، بل أرانيها الأستاذ نفسُه - رحمه الله -. لم أرَ «المسائل والأجوبة» ولا «الصلة»، ولا «الاقتضاب في أدب الكتاب» لابن السِّيد أيضاً.

قال صاحبي:

لعل يداً أثيمةً نالَتْ ذلك، واستحوذتْ عليه وعلى غيره، وهذا ما نسمعُ نظائِرَهُ في عصرنا.

قلت:

وكان ممن عرفتُ فسعدتُ به، وأفدتُ من علمه وسَعَةِ اطِّلاعه الأستاذ عثمان الكَعَّاك، الذي عرفته في مكتبة «سي محمد»، ثم قادني إلى «دار الكتب التونسية» التي يشغلُ فيها منصب المدير. لقد كان منهجي قبل أن أعرف الأستاذ الكَعَّاك أن أخرج كلَّ يوم، فأطويَ مسافةً طويلةً بسيارة صغيرة قديمةٍ اشتريتُها، إلى حيِّ الجامعة، فأتوقفُ قليلاً قبل أن أذهبَ إلى مكتبة الجامعة عند صاحبي «سي محمد» في المكتبة «العتيقة» فأفيد منه مما هو فيه من أمر الكتب وغيرها مما يحدث في البلد. غير أني بعد أن عرفت الأستاذَ الكعَّاكَ ودارَ الكتبِ، غيَّرتُ منهجي، فجعلت إقامتي في هذه «الدار» بعد أداء محاضرتي في كلية الآداب.

في دار الكتب التونسية

تلك دارٌ نفيسةٌ إلى جوار الجامع الأعظم جامع الزيتونة، وهي دارٌ عتيقةٌ، يدخلُ القاصدُ إليها من باب واسع في سوق نهج الزيتونة. لقد كنت أقصدُ قبل الذَّهَاب إلى شعبة المخطوطات مكتب الأستاذ الكعّاك. وقد كان لي أن وجدتُ في مكتبه، من فهارس الدار، وهي فهرس المخطوطات العربية، وفهرس الكتب العربية والمصادر، وفهرس للدراسات والأبحاث، وهذه في الأغلب كانت مما كتبه الفرنسيونَ مستشرقون وغيرهم.

لقد أفدت من درسي في هذه الفوائد، وسجلتُ لدي أسماءَ المخطوطاتِ وأسماءَ الكتبِ التي عزمت على رؤيتها. وهذا شيءٌ لا بُدَّ منه قبلَ البدء والشروع في الدرس.

قال صاحبي:

لعلك فيما أَصَبْتَ من فوائد في «دار الكتب» أن حظيتَ في مكتب الأستاذ الكعاك بفوائد هي مما يَتَّصِلُ بالكتب التونسية والمخطوطات التونسية. ولا بُدَّ أن تكونَ قد لقيتَ في مجلسه نفراً من أهل العلم، من التونسيين وغيرهم.

قلت:

نعم! لقد كان لي الكثير من هذا، مما دوَّنته في كتاب لي، لمّا يتَسَنَّ لي نشرُه، أسميته «التذكرة التونسية». جاء فيه شيءٌ عن خصوصيّات تونسية، لا نعرفُها نحن المشارقة، ولا يعرفها المغاربة الآخرون.

وكان لي أن لقيتُ في هذا المجلس الممتع طائفةً من أهل العلم، من التونسيين وغيرهم من الأجانب، فقد عرفت فيمن رأيتُ الأستاذ «رزيتانو» المستشرق الإيطالي أستاذ الأدب والتاريخ الإسلامي في جامعة بالرمو. أفدت من هذا الكثير مما تركه العربُ في صقلية من الآثار، في الحياة العامة، من عادات وغيرها، نجد شيئاً منها في اللُّغة الصقلية الإيطالية.

وإني لا أنسى إضافات الأستاذ الكعَّاك في كل مسألة بالأدب والتاريخ وما يَتَّصِلُ بهما من مخلَّفات في العادات وضروب السُّلوك. إنه يُعطيك فوائِدَه مُستعيناً بالمصادر، يسترسلُ في ذكرها عن ظهر قلب، وكأنه يُعطيكَ ما يقرؤُه في كتاب. وقد يجدُ المرءُ لدى الأستاذ الكعّاك فضائلَ، لا تجتمعُ في رجل واحد.

قال صاحبي:

لقد عوَّضكَ هذا النَّفَرُ الذي حظيتَ به في تونس عن آخرين، كان ينبغي أن يخفُّوا إليك ممن عرفتَ في باريس أيّام الطلب.

قلتُ:

نعم، لقد عُوِّضتُ كما أشرت، ولكن من المفيد أن أعودَ إلى شيء في الكلية التي أقصدها ثلاث مرّات كلَّ أسبوع. لقد كان لي أن قابلتُ عميد الكلية في ممرٍّ طويلٍ في الكلية، كنتُ أتطلَّعُ فيه للإعلانات المُلْصَقَة هنا وهناك، ولم يكن منه إلا أن بدأني بتحيَّتِهِ، ثم قال: ماذا رأيتَ في جولتِكَ هذه؟ قلت: رأيتُ شيئاً، جعلني أنشد قول المتنبي:

ولكنّ الفتى العَرَبِيَّ فيها غريبُ الوَجهِ واليَدِ واللِّسانِ

فقال: كيف كان هذا؟ فقلت: عجبتُ أن أكونَ في كلية أدبية، يُدَرَّسُ

فيها الأدبُ العربيُّ، في بلد عربيّ مسلم، ولا أجد فيها حرفاً عربياً؟

وكأنه لم يوافقني، وعزَّ عليه أن يسمعَ شيئاً من هذا، يُوجَّهُ إليه من غريبٍ، رمى به الزمن، فجاء إلى أشقّائِهِ، لعله يجدُ بعض العزاءَ عما لحقه. . .

ثم قال: كيف يكونُ هذا، أنت في تونس الذي لا ينسلخُ عن تونسيته وعروبيته ودينه، فقلت: انظر إلى هذه الورقة والأوراق الأخرى مثلها، في هذه الورقة يطلبُ السيد مسجل الكلية طلاباً، يحثُّهم على استكمال وثائقهم. كل هذا قد حُرِّر بالفرنسية؛ وهو شيء يسير، لا يَتَّصِلُ بعلم أو بمصطلح فنيّ، أليس لنا أن نحرّر هذا المطلب بالعربية؟ ثم ما قولُك في أسماء الطلاب التي كان ينبغي أن ترسَمَ بالحرف العربي، قد وردت بالأحرف اللاتينية؟

أليس هذا عجباً؟ انتهى الأمرُ، وانصرف العميدُ، وانصرفت إلى محاضرني التي جئت من أجلها.

قال صاحبي:

دع عنك هذا، ودع النَّفَرَ الذين عَرَفْتَهُمْ في باريس من طلاب الدرس الذين استكانوا لنعمةِ العَيْش، بعد أن حصلوا على وُرَيْقةٍ تدعى «إجازةَ التبريز» L'aggrigation، أو إجازة الدكتوراه، وانتهى بهذا الذي حصلوا عليه كل جهد لهم، واندرجوا مع القاعدين هنا وهناك، وهل يستوي القاعدونَ والعاملونَ درجةً؟ وخلِّنا في دأبك الذي جريتَ فيه.

قلت:

لقد كان لي أن اطلعت على كتاب، لزين العابدين التونسي، وسمه بـ«تاريخ الأدب التونسي في القرن الرابع عشر الهجري» وقفت في هذا

الكتاب على جملة من التونسيين، من رجال الحقبة التي أشار إليها صاحب الكتاب، وكان أولهم أحد التونسيين الذي وسمه التونسيون كما أشار المؤلف ـ «أمير الشعراء» وهو الشاذلي خزنه دار، ورأيت آخرين، منهم الهادي المدني وغير هذا، ولا أنسى بين هؤلاء شاعر تونس الذي لا يُذكر الأدب التونسي إلا ذكره ونوّه به وهو «أبو القاسم الشابي».

لقد كانت قراءتي لهذا الكتاب حافزاً لي أن أكتبَ شيئاً في هؤلاء الذين لم يكنْ لهم شيء من الفن الشعري، بل كان جلُّهم نظّامِين، ليس لهم فيما ذكره المُؤَلِّفُ إلا الكَلِم الذي لم يَنَلْ من الوزن والقافية أي حسنة، ترقى به عن الترسّل الجافي.

فأما من وسم بـ«أمير الشعراء» فكأن التوانسة نالهم أن يكون للمشارقة في جلبة المصريين أميرُ الشعراء هو شوقي، على ما كان منه من شاعريته التي جَوَّد فيها، ولا يكونُ لهم أميرٌ للشعراء كالمصريين، فعمدوا لصاحبهم خزنه دار الذي ما وجدتُ له فيما اختارَهُ زين العابدين التونسي شيئاً من أدب أصيل. إنه نظمٌ احتفظ بميِّزة القافية والوزن، ولم يقترفْ فيه شيئاً مما كان لدى الآخرين من شعراء هذا الكتاب الذين ليس لهم طاقةٌ على الحِفَاظِ على آلة النَّظْم من الوزن والقافية.

قال صاحبي:

لعلك تشيرُ إلى ما نشرتَهُ في تونس في مجلة «الحضارة» لصاحبها محمد ابن الخوجة، وفي مجلة «الفكر» لصاحبها محمد مزالي...

قلت:

نعم، لقد كان لي ذاك، ولكنك لم تَرَ ما تَرَكَ الذي كتبته في أولئك النَّظّامين لدى التونسيين الذين ساءهم أن يهبطَ عليهم مغتربٌ لم يَحْظَ منهم

إلا بمودة نفر جليل من أهل العلم، فيقول في هذا وذاك من رجالهم ما لا يُرضيهم، وهم قد شمخوا بهذا النفر الذي صدّروه بأمير للشعراء منهم هو الشاذلي خزنه دار.

لقد طَلَعَ أحدُ الذين ساءَهم ما قلتُ وما كتبتُ وهو محمد الهادي العامري، فكتب مقالةً خصيمةً، نالني فيها بقلمه الذي كأنه غمسَهَ في خلٍّ، فساء عملُه، وأخطأَ مسعاه، وابتعد بعيداً عن حَيِّز الأدب. لقد وسم كلمته بقوله: «ماذا يريدُ هذا الوارش»؟ نشرها في مجلة الفكر، في أحد أعداد سنة ١٩٦٢.

كأنه أراد أن يُفهِمَ التونسيين معنى «الوارش» الذي يحضرُ مائدة القوم بغير مَدْعُوٍّ لها.

لقد أجبتُ رادّاً على هذا «العامري» الذي لا يعرفُه الكثيرُ من التوانسة، وبينتُ له وللمجلة أني لست «الوارش» الذي زعم، بل أنا ذاك الذي سعى إليَّ سفيرُ تونس ببغداد، أن التحقَ بالجامعة، وقد تصرَّف السفيرُ، فدعاني، لما بلغه من رغبة وزارة المعارف في تونسَ أن أكونَ في كليتها للآداب.

لقد رأيت صاحبَ الفكر السيد محمد مزالي، بعد أن دعاني إلى مكتبه واعتذرَ، وتخلَّص مما كان فأنحى باللوم على البشير بن سلامة الذي كان يصرِّف أمر مجلة الفكر.

قال صاحبي:

لقد حدّثَتني بعدَ رجوعِكَ إلى بغداد في أوّل سنة ١٩٦٣ عما كان لهذا الاعتداءِ من أثرٍ بَيْن التونسيين من أهل العلم الذين استنكروا فَعْلَةَ المجلة، وكان من هؤلاء الشيخ الفاضل بن عاشور عميد كلية الشريعة. فهل لك أن

نعودَ إلى هذا الشيخ، فنعرف صِلَتَكَ به.

قلت:

عرفتُ الشيخ وأنا في بغداد، فقد تسلَّمْتُ منه رسائلَ، يُوصيني بطالب تونسي، من ذوي قرابته، هو محمد محسن. وآل محسن من كرام التونسيين ذوي الشرف والجاه، وهم بعضُ الأندلسيين الذين تفرَّقوا في أفريقية، بعد أن أفلت شمسُهم في إسبانيا.

وكان علي أن أذكره في أول أيامي في تونس، ولكنك صاحبُ الفضل في تذكرتي بما ينأى عني وأنا ماضٍ بسرد أحداث، طال عليها الزمنُ. لقد احتفى بي هذا الشيخ الجليل، ودعاني أن أكون ضيفَه أنا وزوجتي على مائدة الإفطار في رمضان. أتى عليّ وأنا في فندق صغير كما أشرتُ، ليأخذَني أنا وزوجتي إلى داره العامرة في بليدة إلى جوار تونس هي «المرسَى». ذهبنا في سيارته، ووصلنا الدار على ساحل البحر، نطل منها على منظر ساحرٍ جميلٍ بعيدٍ عن صَخَب الحواضر. وقد فوجئنا أن الشيخ يحيا حياةً جديدة، فيها سعادةٌ وتَرَفٌ، إلى جانب ما فيها من حِفاظٍ على الجِدِّ والعلم. جلسنا أنا وزوجتي وطفلتي يحفُّ بنا الشيخُ وزوجتُه وأولادُه، وكان لنا من ذلك متعةٌ لا أنساها.

ولا أنسى أنَّا سعدْنا ببركة السيد الوالد هو الشيخ العلاَّمة الطاهر بن عاشور صاحب المصنفات الكبيرة، ومنها تفسيرُه الجليل للقرآن العظيم، وشرح ديوان بشَّار الذي زوَّده بفوائدَ من شروح، تشير إلى سَعَةِ علمِهِ.

قال صاحبي:

لا بُدَّ أن عرضتم لفعلة الهادي العامري وما كان منه؟

قلت:

لقد عرضنا لما كان، وساءهم أنه ينالني من صاحبهم ما شطح به قلمُه، فدعاني «الوارش» وهو الذي لا يعرف كيف يكون الوارشُ، أتأسَّى بالمثل القديم: «خرقاءُ ذات نيقة». وقد قال أيضاً مثلي الشيخ الطاهر - رحمه الله -: «المتشبِّع بما لا يملكُ كلابس ثوبي زور». لقد صدق الرسول الكريم في هذا الأثر الشريف. وهل لي أن أختمَ هذا، فأقول لقالة السوء قول الشاعر القديم:

إذا رَضِيَتْ عنِّي كرامُ عشيرتي فليس بشيء أن تَهِرَّ كِلاَبُها

كان هذا كلُّه ما كان لي في تونس الخضراء التي ودَّعْتها في أوائل سنة ١٩٦٣ عائداً إلى بغداد.

قال صاحبي:

لقد عدتَ، وما هي إلا أيام معدودات حتى وقعتْ الواقعةُ، وزلزلت الأرضُ وسُفِكَتْ دماء، فكانت ثورةٌ أخرى، أطيحَ بها بعبد الكريم قاسم الذي خَلَفَ الملكيّةَ، وأقام جمهورية تموز فبَدَأ الشَّرُّ، وانقضَى عهدٌ حملنا عليه سوآتِنَا كَذِباً وافتئاتاً.

قلت:

لقد جئتُ إلى بغداد، وأيام بغداد يومئذ محزنةٌ، فأنت فيها محاصَرٌ، تخشى أن يُحْمَلَ عليك السوءُ فتتَّهَم بما يوحي السُّعاة الدَّاعون إلى الشَّرِّ. لقد احتملت واحتمل الطيبون معي ما كان. وبدأ الجامعيون - عفا الله عنهم - في تصنيف القوم، فهذا وذاك... وأنا من بعض هذا وذاك من أعداء الثورة، وليس لأعداء الثورة إلاّ الموتُ، وكان ما كان، حتى إذا استوفى أهلُ الشَّرِّ غاياتِهم، عادوا إلى فصل الأساتذة وسجنهم وإلحاق

الأذى بهم.

وكنت ممن سيأتيه نصيبُه من السوء، بعد انتهاء العام الدراسي. وكأنهم وجدوا في نهاية العام أنهم أتَوْا على أصول ما حسبوه شرّاً. وهكذا انتهى ما امتُحنتُ به عائداً إلى ما كنت فيه من عملي الذي كنت أحسبه وقاءً لي. ولعل ما أنا مشغولٌ به قد جرَّ عليَّ الويلَ حَسَداً وحقداً، وقد قيل: يؤتَى الحَذِرُ من مأمنه.

قال صاحبي:

فهل لي أن أقولَ في الحسد شيئاً مما بدا لأبي عثمان الجاحظ، في رسالته في الحسد والحُسَّاد التي وصل فيها إلى قرارة النفس الإنسانية، وأوجز، فأنشد قول أبي تمام:

وإذا أرادَ اللهُ نشــــرَ فضيلــــةٍ طُوِيَتْ أتاحَ لها لِسَانَ حَسودِ

لا عليك، فأنت في مَعْزِلٍ عن القوم، لست منهم، لم تذهبْ إلى السياسة، ومع ذلك فقد اكتويتَ بنارها. وهل لي أن أعرفَ ما أفدتَ من أسفارك الأخرى؟

قلت:

كان لي عدة أسفار قصيرةٌ بين سنة ١٩٦٥ وسنة ١٩٧٥ هي إلى بيروت وعمّان وبنغازي والجزائر والرباط.

ففي بيروت أمضيت أسبوعاً، ألقيت فيه ثلاث محاضرات في الجامعة اللبنانية عما صنعه اللبنانيون من صنعةٍ معجميةٍ، وعما أضافه من أكمل المسيرة، فنقل إلى العربية شيئاً من مجازات فرنسية، درج عليها عامَّةُ العرب. وفي عمّان حضرت ندوةً، دعا إليها اتحادُ المجامع، ألقيت فيها محاضرة عن واقع العربية في العراق. وفي بنغازي كانت ندوةٌ أخرى في

مشكلات تعليم العربية لأبنائها ولغير الناطقين بها. وفي الرِّباط شاركت في ندوةٍ، دعتْ إليها مؤسسةُ المواصفات العربية، في المصطلح الجديد الذي تقتضيه «المواصفات».

وأما في الجزائر فقد قضيت شهراً، جلتُ فيه في الحواضر الكبيرة الجزائرية، وألقيت محاضرات، وقفت في كثير منها على أن في اللغة إحقاقاً للهُوِيَّة الوطنية، ثم إن في العربية سَعَةً، نستطيعُ بها أن ننقلَ مواد الحضارة الحديثة في العلوم والفنون والآداب كافة.

قال صاحبي:

لا بُدَّ أن تكونَ قد أفدتَ في رحلتك إلى الجزائر شيئاً، لا ندركُه فيما نسمعُ ونقرأُ.

قلت:

نعم! لقد كان لي أن زرتُ الحواضر القبائليةَ التي يدرجُ أهلُها بلغتهم ذات الأصول البربرية، وكثير منهم لا يعرفُ العربية، ولكن العربية هي اللغةُ الرسميةُ، وهي اللغةُ التي شعرتُ أن أهل هذه الحواضر يحبونَها، ويعكفونَ على تعلُّمها. ومن هذه حاضرةُ «تيزي ووزو» وحاضرة «باتنة» وفي كلتيهما جامعة، أسّستها الحكومةُ الجزائريةُ.

لقد كان من سعادتي أن أرى الناسَ في هاتين الحاضرتين، وفي غيرهما يَتَتَبَّعون محاضراتي، ويَسْعَوْن إلى حضورها، وتلك نعمةٌ جليلةٌ، لو أن الحكومة الجزائرية أحسنَتِ السبيل في الإفادة منها.

قال صاحبي:

وقد أعجبُ مما تقولُ، لأني علمتُ بأخَرةٍ فيما تنقلهُ الأخبارُ ويُسجَّل في الصُّحُف من أن أهلَ هذه الحواضر قد انقلبوا أعداءً للعربية، وللإسلام

أيضاً الذي حمل إليهم العربية، وراحوا يهاجمون في تجمعاتهم كُلَّ عربيٍّ، وكل ما كُتِبَ بالعربية، فكيف الحالُ، إنا لله وإنا إليه راجعون.

قلت:

كأني أعرف كيف آل الأمر إلى ما ذكرت. لقد أغفل أولو الأمر في الجزائر طبيعة الجزائريين ومسألة انتمائهم إلى جنس غير عربيٍّ، ولكنهم أصرُّوا على أن تكون هذه الملايين عرباً، وهي لا تعرفُ العربية، فهل لهم أن يُدركوا شيئاً ينكرُهُ واقع بشريٌّ؟ وهل لهم أن يُلْغُوا أصولاً، كان لها طَوالَ عصور التاريخ حضورٌ فاعلٌ؟

فلو أن أولي الأمر قد سَعَوْا إلى ما أرادوا، فنادوا بالشِّعار الإسلامي الذي يمكِّن للعربية على أنها لغةُ القرآن، لكان لهم شيئاً فشيئاً أن يبلغوا غايتهم، ويُعرِّبوا جمهوراً واسعاً كحال الأمم الأخرى التي أسلمت، فكان لها أن ظفرت بلغة الإسلام. ومع كل هذا تَجِدُ شيئاً مما بقي من الأصول القديمة في لغة مدنٍ صغيرةٍ في تونس وأن أهلها أسلموا، وحسُنَ إسلامُهم.

قال صاحبي:

لنا أن نذهبَ إلى هذا، غير أن أولي الأمر في الجزائر لم يكن لهم هذا النَّظَرُ، وهم أنفسُهم لا يعرفون العربيةَ، فقد سمعت الرئيس أحمد بن بلاّ يتكلمُ في بغداد، ووجدته لا يُطيقُ إخراجَ العربيةِ، وليس له منها قَدْر يُعينه على الإفصاح بها.

قلت:

وأكثرُ من هذا أن فرنسا سَعَتْ إلى أن تثيرَ لدى الجزائريين إحساسَهم بتاريخهم، وأنهم جنسٌ غيرُ العرب، وأن الإسلامَ أتى لهم بالعرب غزاةً،

حملوا إليهم العربيةَ، فلم يكنْ منهم ميلٌ لها.

وقد جعلت فرنسا في «إعلامها» بثّاً إذاعياً طوالَ اللَّيْل والنَّهار بالقبائلية البربرية مؤكدة أنَّ هذه لغتُهم، وأن هذا تراثُهم وقَدَرُهم، وليست العربية إلاّ لغةَ الغازي الدخيل. وأنهم بلغتهم مستعينينَ بالفرنسيةِ قادرونَ على اكتسابِ الحضارة الجديدة.

قال صاحبي:

لقد أشرتَ غيرَ مرَّة إلى أن الغربيين عامة قد أوحوا إلى العرب، أن ليس في طوقهم أخذ الحضارة الجديدة، إن استعانوا بعربيتهم، ولم يعتمدوا لغة غربية.

قلت:

نعم، كان هذا للغربيين، وقد أفلحوا في مسعاهم، فأنت تجدُ عامَّة أهل العلوم في بلداننا العربية مؤمنين أن لا غنىً عن الإنكليزية مثلاً في الوُصول إلى العلم الحديث، وأن العربية، في زعمهم، لغةٌ قديمةٌ، تفتقرُ إلى الجديد الكثير.

قال صاحبي:

هلاّ نظر هؤلاء إلى اليهود في إسرائيل الذين ما إن احتلوا الأرضَ في سنة ١٩٤٨ حتى كان منهم سعيٌ إلى أن تكونَ العبريةُ لغةَ اليهود في كل مِرْفَقٍ من مرافق الحياة المعاصرة، فاجتهدوا وسعوا وزوَّدوا لُغَتَهُمْ التي لم يكن لها في تلك الحقبة سوى ٧٠٠ كلمة، بكلماتٍ جديدةٍ إما أن يكونوا قد ولَّدوها من العبرية، وإما أن يكونوا قد استعاروها من الإنكليزية أو غيرها، فحققوا لأنفسهم ما أرادوا.

قلت:

أعود إلى الجزائريين، فأجدُ حالهم، وما كان من سَعْيِ فرنسا، ثم أجدُ خيبةَ أولي الأمر في الوصول إلى غايتهم. إنهم استعانوا بالمشارقة، ولا سيما المصريين والشاميين، فلم يسعفهم هؤلاء، لأنهم يجهلونَ الحقيقة التاريخية للجزائريين.

لقد نظر الجزائريون إلى حالهم، ورأوا خيبة الحاكمين، وأنهم لم يحقِّقوا لهم رخاءً كما زعموا وأرادوا، فانكفؤوا على أنفسهم، ووجدوا أن حكم الفرنسيين لهم أفضلُ وأكثرُ عائدةً. ماذا كان منهم؟ لقد أظهروا استياءَهم، فظهر منهم العنف، وأعلنوا كرهَهُمْ للتعريب، وأشاعوا شعاراً لهم وهو قولهم: «عُرِّبت خُرِّبت».

قال صاحبي:

وليس المغرب أحسن حالاً من الجزائر، ولكن الأمر يختلفُ في المغرب عنه في الجزائر، ذلك أن أولي الأمر في المغرب موقنون أن العربية لا تطعم خبزاً، ولا بُدَّ من الرجوع إلى الفرنسية.

غير أني عرفتُك لا تحِبُّ السَّفَرَ، فكيف ذهبتَ إلى الكويت، ولم يكن من مغريات في هذا البلد غير ما يُدفَع من أجرٍ وافٍ للعاملين.

قلت:

وإني على كرهي للرحيل ومغادرة الدار، وجدتَني مدفوعاً أن أتوجَّه إلى الكويت، فقدَّمْتُ طلباً إلى جامعة الكويت، فأسرعتْ هذه إلى إجابة طلبي، فكان علي أن أحصلَ على موافقة كلية الآداب، ثم جامعة بغداد، فكان لي هذا. لقد توجَّهْتُ إلى الكويت وحدي، لأني لم أستطعْ أن أصحبَ أسرتي، فكان لي ما يمنعني عن ذلك، فاضطُرِرتُ إلى أن أكون وحدي،

ولم يكن هذا سهلاً، فقد وجدتُ أن الحياة صعبةٌ، وليس في عصرنا سَعَةٌ يجدُ فيها المرء يسراً من صديق أو قريب. لقد تقاطع الناسُ حتى الأهلون والأقربون.

فلم يكن منّي إلاّ أن أقضيَ السَّنَةَ لأعودَ بعدها إلى بغداد. وقد أخبرتُ المسؤولين في جامعة الكويت، أني معهم سنة واحدة، فأسفوا، وطلبوا مني أن أتريَّثَ، فأخبرتُهم أن ليس في طاقتي المضيُّ في الكويت وأنا بعيدٌ عن الأسرة.

لقد تكلَّم في أمري العاملون من المدرسين وغيرهم، لأنهم لم يجدوا أحداً حلَّ في الكويت وغادرها بعد سنة واحدة، فعامَّة المدرسين غير الكويتيين قد جاؤوا ليَتَهَيَّأَ لهم أن يُوَفِّروا مما يتسلَّمون من رواتبَ يستعينون بها على أيامهم المقبلة. لقد أمضى نفرٌ منهم عشرين سنة بل أكثر من ذلك.

وليس في الكويت ما يدعو إلى إطالة المقام فيها غير هذا الرَّاتب الذي لا يَجِدُه العاملون في كثيرٍ من البلدان، فهم يحتملون ما فيها راضينَ بما يتسلَّمون من أجرٍ.

قال صاحبي:

هذا هو الذي عرفناه ممن ذهب إلى الكويت، فلم يكن له إلا أن يكونَ ذا بَسْطَةٍ في العيش، وله من الطاقة المالية ما يستطيعُ أن يوفِّرَ له ولأسرته كافةَ ما يبتغون. لقد أتيحَ لأولئك أن يرسلوا أبناءهم للدراسة في الخارج، وهم يُنفقون عليهم المبالغَ الكبيرةَ.

قلت:

انتهى العامُ الدِّراسيُّ، وعدت حيثُ كنت في كلية الآداب إلى عملي في

الدرس والتأليف. لقد كان في هذه الحقبة الطويلة بين ١٩٦٥-١٩٧٥ أن نشرتُ مباحثَ كثيرةً في المجلات العلمية ومجلات المجامع اللُّغوية. وقد صنّفت كتباً، وحقَّقت أخرى من كتب اللغة والأدب.

قال صاحبي:

وكنت قد قرأتُ في مجلة عربية، أن أحدَهم صنع فهرساً لما ألّفتَ وحقّقتَ، فأثبتَ كتباً كثيرة، تجاوزَ فيها الأربعين. وإني لأعرفُ أن شيئاً قد فاتَ هذا الدارسَ.

قلت:

لقد وقفت في الكويت على حقيقة، في الكويتيين، دفعهم إليها سلوكُ الوافدين إليهم والنازلين في أرضهم، من العرب، وربما من غيرهم. إن سلوك هؤلاء في تملُّق الكويتيين وموافقتهم حتى إن كانوا بعيدين عن الحق، وإشعارهم أنهم على حقٍّ، وأنهم أكثرُ العرب تقدُّماً، وأحسنُ منهم معرفة في فهم الحياة، دفع هذا كلُّه الكويتيين أن يشعروا أنهم القمة التي لا يرقى إليها طامحٌ. لقد ساء سلوكُ الوافدين إلى الكويتيين، فأبعدوهم عن سماحتهم وبداوتهم النقية.

وقد رأيتُ أن من ذلك ما كان من أحد أصحابنا العراقيين الذي قصد الكويتَ منذ سنين، وأقام مدرساً في الجامعة، وقد أدرك السبيلَ إلى مرضاة الكويتيين، فكان منه ما كان من الوافدين الذين غُروا بما أصابوا من متاع الدنيا. قلت: لقد أدرك صاحبُنا السبيلَ، فصار عميدَ كلية الآداب، ولم يكن منصب العميد أن يسمح له فينزل من عليائه، فيسعى إلى من أتى إلى الكلية من الوافدين إليها، وأيُّ فائدةٍ يجدُها عندي أو عند غيري، ما دام قد لزم رأس العين الثرّة.

قال صاحبي:

لعلي عرفته وهو من عُرف في صحف العراق كاتباً ذا حركة... ولا تعجب، فصاحبنا مثل غيره من الوافدين.

قلت:

نعم، هي النعمة الوفيرة، تلقّفها أولئك، فخسروا، ولم ينالوا إلاّ الزبد يذهب جفاءً.

وقد أفيدُك عن سلوك الوافدين، إني عرفتُ صاحب دكّان صغير لإصلاح الساعات، فلمحتُ من صفته أنه أحد الوافدين للعمل، وعلمت أنه بصريٌّ، فكلفته بالنظر في ساعتي، فأصلَحها لي في الحال، وبينا أنا في دكانه الصغير، إذا أقبل رجل، فسلَّم وجلس، فقال لي الساعاتيُّ البصريُّ: إن هذا الرجلَ الذي قدم إلينا من أصحابي، وهو من أقاربك، إنه سامرائيّ كويتي، فقلت: كيف يكون هذا؟

فقال: إنه اكتسبَ الجنسيةَ الكويتيةَ لإقامته الطويلةِ في الكويت، وهذه «الجنسية» من الدرجة الثانية. ولكني لاحظتُ أن هذا الذي جاء، وقرَّبه الساعاتي مني، بزعمه أنه سامرائيٌّ، لم ينبَسْ ببنت شَفَة، وظلّ صامِتاً كأنه خشي أن أكونَ قد عرفت عنه حقيقةً تؤذيه وتُلْحِقُ الضَّرَرَ به.

قلت في نفسي: لا بدّ من إثارته، لأتبينَ صمتَهُ، أخشية مني، أم هَرَباً من أمر ليس له فيه مصلحةٌ؟

فقلت له، وأنا أوجه قولي إليه: تكلّم يابنَ عمّي، لِمَ أحرجك صاحبُنا، فرحتَ بعيداً عنه وعنّي، كأنك لعنتَ الساعة التي حملَتْك إلينا؟

قال: إني سامرائي، تركت سامراء منذ ثلاثين سنة وأنا حَدَثٌ صغيرٌ، وجئتُ إلى البصرة، وكان لي فيها ذوو قرابة لي، ثم حانت زيارة لي إلى

الكويت، فبقيتُ. لم يذكر اسمَه، ولكنه اكتفى بقوله منتسباً إلى آل العابد في سامرّا من عشيرة «ألبودرّاج».

ولكني زدتُ فقلت له: أتخشاني، وقد فزتَ بجنَّة الكويت، واكتسبتَ جنسيَّتَها، ولكنه ما لبثَ أن ودَّعنا، كأنّما لاذَ بالفِرار.

ثم قال الساعاتيُّ صاحبي: لو أن هؤلاء الوافدين قد ساوَوْا الكويتيين في الجنسية، لقلتُ: ليس في ذلك من ضير، فالعرب كلهم أمَّةٌ واحدةٌ. غير أنهم اكتسبوا «مِسخاً» من جنسية، سميت «الجنسية ذات الدرجة الثانية» فهم مواطنونَ من الدرجة الثانية، وهم ليس لهم حقٌّ المشاركة في الانتخاب، ولا ينتخبون أيضاً.

فقلت: هل يجري هذا على كل وافد اكتسب الجنسية الكويتية؟ قال: نعم! قلت: ولكني أعرف أن من هؤلاء من يشغلُ منصباً عالياً في وزارة الخارجية، قال: وإن كان هذا، فالوظيفةُ العاليةُ قد تكون من حاجة الكويتيين إلى التماسِ فائدتِهِم من كفاية الوافدين ومهاراتهم.

قال صاحبي:

وأيّ شيء ساءَكَ في الكويت؟

قلت:

إني رأيت العراقيين في الكويت من أهل البصرة، قد حلّوا في الكويت خَدَماً وعمّالاً غير مَهَرَةٍ، لدى التجار الكويتيين والأجانب. وقد وجدتُ جمهرةً منهم يأتون قاصدين البيت الحرام، لأداء فريضة الحج، ولكنهم يظهرون للكويتيين وغيرهم بمظهر المتخلِّفين، فهم ينامون في الشارع، ويأكلون ويشربون ويقضون حاجاتهم في الشارع. وكنت أشدّ ما أكون غضباً وحزناً مما أرى، وأتساءلُ: كيف سمح لهؤلاء أن يخرجوا، ويكون

منهم هذا الذي كان!!

وهكذا، انتهى مقامي في الكويت، وكان لي مما نُشر لي في الكويت «كتاب في الأمثال» وهو درس لمادة المثل العربي القديم.

وعدت إلى بغدادَ، واستأنفتُ عملي في كلية الآداب.

قال صاحبي:

وقد علمتُ أنك كنتَ تسافرُ في الصيف مع أسرتك، فهلا حَدَّثْتَني عن ذلك؟

قلت:

لم أدخلْ هذه الرّحلات الصيفية في هذه السيرة، ذلك أنها مما يقومُ بها الكثيرُ من الناس التماساً للراحة وهَرَباً من صيف بغداد. وليست هذه الرحلاتُ التي كنت أقومُ بها دليلاً على تَرَف أتطلَّبُه، ذلك أني وكثيرٌ مثلي من العراقيين نلجأ إلى الاقتراض من مصرف الرُّهون مبلغاً، يعادل ثلاثة رواتب، نؤدّيه بعد ذلك مع فوائده أقساطاً.

لقد استبعدتُ هذه الرحلات، وإن كنت في أثنائها أحملُ معي كتباً، أراجعُها أو مخطوطات، أقابل بين نسخها، أو أني في أثناء بقائي أقصدُ المكتبات كما كان لي من هذا في رحلة إلى اسطمبول.

السفر إلى مصر

قلت:

لقد خصصتُ مصرَ بمادة خاصّة، أفردتها عن أسفاري في هذه البلدان العربية، وذلك لأني قصدتها مرّات عدَّة. قصدتُ القاهرة أربع مرات، اختلفت في تواريخها، لألقيَ محاضرات في «معهد البحوث والدراسات العربية العليا» التابع للجامعة العربية، وكانت تلك بين سنة ١٩٦٢ وسنة ١٩٧٢. وكان لي من محاضراتي أربعة كتب هي:

«التوزيع اللُّغوي الجغرافي» و«التَّطوُّر اللُّغوي التاريخي» و«تنمية العربية في عصرنا» و«الأب أنستاس ماري الكرملي».

قال صاحبي:

والكتب الثلاثة من هذه قد صُوِّر بل زوِّر لدى الناشرين في بيروت.

قلت:

لو أني عمدت أن أذكرَ ما كان لي مع الناشرين في لبنان، لكان أن أثبتُ حكاياتٍ هي أعاجيبُ، ذلك أن بعضَ الناشرين قد ذهب بهذه الحرفة الجميلة إلى شيء نظير الاحتيال والسرقة، وأجتزىء عن ذكرها، فأقول: حسبُكَ من شَرٍّ سماعُهُ.

قال صاحبي:

ذكر لي أحدُ المعنيين بالكتاب وتجارته ان السُّوءَ طغى على هذه الصنعة، فقد أكَّدَ اللبنانيون أن مسرحيّة لكاتب مصري كبير، قد ظهرت

مسروقةً مزوَّرَةً في بيروت قبل ظهورها في القاهرة بيوم واحد. وهذا يعني أن السارق قد كان له ما كان في المطبعة المصرية، وربما ساعده آخرون، وكل قد قبض أجرَهُ في هذا العمل السَّيِّءِ. ومن غير شكٍّ أن إخراج الكتاب ونوع الورق في لبنان أحسن مما هو في القاهرة، وكان من هذا الكثير الكثير.

قلت:

وقد قصدت القاهرة مرّات عدَّة أخرى، ذلك أني كنتُ عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية، منذ سنة ١٩٨٠، وكنت أذهب وألقي ما أُعدُّ من مباحث، فيما تقتضيه مؤتمرات المجمع السنوية، وقد نُشِرت في مجلة المجمع. ثم انتُخبتُ عضواً عاملاً سنة ١٩٩٠.

قال صاحبي:

وماذا يعني العضوُ المراسلُ والعضو العامل؟

قلت:

ليس من فرقٍ كبير، ذلك أن كليهما يشاركُ فيما يشاركُ فيه الأعضاءُ كافَةً، غير أن العضو العامل يتصل بنظام المجمع، وهو أن لكلِّ بلدٍ من البلدان العربية عضوينِ عاملينِ، وما زادَ عن ذلك فهو عضو مراسلٌ. وأن العضو العامل يشغله صاحبه انتخاباً من بين الأعضاء المراسلين من كل بلد، وهو يحتل مكانَ عضوٍ سابق من بلده، انتقل إلى رحمة الله.

قال صاحبي:

لعل بي حاجة أن أسألَ أو أتساءل عما يخصُّك في «مجامع اللغة» الأخرى؟

قلت:

إني عضوٌ في المجمع الأردني، وعضوٌ في مجمع اللغة العربية في دمشق، وعضو في المجمع العلمي الهندي، ولي انتساب قديم إلى الجمعية اللغوية الفرنسية، وعضوٌ في لجنة المعجمية التونسية...

قال صاحبي:

ولم تشر إلى «المجمع العلمي العراقي»، فما شأنك في هذا؟

قلت:

دع هذا الأمرَ، فهو مشكلٌ، والكلام فيه يقتضيني أن أبسطَ الأمرَ فيه، فأعرضَ للمجمع يوم كان في أيدي قِلّة من أعضاء، يحتجزُ كلٌّ مكانَهُ فيه دون أن يكون له أهلاً، حتى إذا استقرَّ به موضعُهُ، نظر إلى أن يكون معه صديقٌ له، فيسعى إليه، وهو القويُّ المكينُ، فيأتي به. ولكني أستثني من أولئك الأعضاء نفراً صالحاً من أهل الفضل، ومنهم الشيخ الشَّبِيبي - رحمه الله - والأستاذ منير القاضي، والأستاذ مصطفى جواد، والأستاذ أحمد سوسة. رحمهم الله أجمعين.

ثم تغيّرتِ الحالُ، فصار «المجمعُ العلميُّ العراقيُّ» مؤسسةً من مؤسسات الحكومة، فلا يأتيه إلاّ الذين تُعَيِّنُهم الحكومةُ. ومنذ ذلك الحين حفل المجمعُ بجماعة وصلوا إليه وليس لهم مشاركة تؤهلهم لما صاروا فيه، ولكنهم عُدّوا أعضاءً عاملين.

قال صاحبي:

وقد سمعتُ أنهم جاروا وظلموا وتنكَّبُوا عن السبيل.

قلت:

ولي أن أسمعك شيئاً مما أشرتَ إليه، وهو أن أحدَ الأساتذة الفرنسيين

كان لي به صِلَةٌ، وأراد أن يكتب لي شيئاً، وقد ظنَّ أني في «المجمع» فجعل العنوان في رسالته «المجمع العلمي العراقي - الوزيرية».

ولما وصلت الرسالةُ إلى «المجمع» رُدّتْ إلى البريد مكتوباً عليها عبارة دارجة: «المومَى إليه لا يوجد عندنا»، وأنا يومئذ ببغداد، وكنت قد طلبت إحالتي على التقاعد، فتمَّ لي ذلك. ولو أن أصحاب المجمع - سامحهم الله - أوصلوا الرسالة إلى كلية الآداب، لكان لي أن أتسلَّمها، لأني تركتُ لأخٍ لي في الكلية أن يوصلُ إليَّ ما يرد من بريدٍ ونحوه. لقد علمت بخبر تلك الرسالة من مرسلها الفرنسي الذي لقيته في القاهرة، في مؤتمر المجمع، فأراني الرسالةَ المنكوبةَ وعليها عبارةُ المجمعِ العراقي.

قال صاحبي:

كأني أدركتُ أنك بعيدٌ عن «المجمع العراقي» وأنهم بعيدونَ، فما الأمر؟

قلت:

هو ما أدركتَهُ، وذلك أمرٌ مفهومٌ، إذا ما عرفتَ أن المجمع قد ضمَّ إليه نفراً لم يكونوا أهلَ وفاء، وهم في هذا كما قيل:

يـا أيُّهـا السـائـل عـن دِينِنـا   نحن على دِين «أبي شاكرِ»

وأذكر فيما بلغني، وصاحب الخبر الأستاذ كوركيس عواد - رحمه الله -: أن المجمع في الحقبة التي سبقت كان الأعضاء القدامى هم الذين يُرَشِّحون من يَرَوْنَهُ أهلاً لعضوية المجمع. ثم يُؤيَّد الترشيح من عضو أو عضوين، ليكتسبَ المرشحُ الصِّفَةَ الرَّسْمَيَّةَ المطلوبةَ. وكان للأستاذ كوركيس أن رَشَّحَنِي، ولم يؤيدْ هذا الترشيح أيُّ عضو، فلم يوفَّق أخي فيما أراده، وانتهى الأمرُ. وأما في الحقبة التي تلت، فليس من ترشيح، بل إن أحداً من أهل النفوذ يُشعر ذوي الأمر باسم مَنْ يُرادُ للمجمع،

فيصدرُ الأمر من الجهة العُليا بتعيينه.

قال صاحبي:

وهل لي أن أفيدَ من هذه الأخبار الشوارد، وكنت أظنُّ أن المجمعَ من الجهات القليلة التي لم يَصِلْ إليها هذا؟

قلت:

لقد كان هذا، وقد يكون لي أن أفيدَك شيئاً، وقعَ في مؤتمر المجمع في القاهرة سنة ١٩٨١ وأنا قد حضرتُ ذلك المؤتمر أوّل مرّة، لأني انتخبتُ فيه عضواً مراسلاً. لقد كان في المؤتمر عضوٌ عراقيٌّ، هو أحد الوزراء في تلك الحقبة، وقد ألقى بحثَه في أصول طائفةٍ من الألفاظ العربية. وما إن انتهى من إلقائه حتى تَصَدَّى له أحدُ الحاضرين، وكنت لا أعرف الكثيرَ من الأعضاء، لأني قادمٌ أوّل مرّة، فقال هذا المتصدّي: إن الكثيرَ مما كان في البحث قد ذكره إبراهيمُ السَّامرائيُّ في كتابه «فقه اللغة المقارن»، بل إنه توسَّع فيه، وأتى بأشياءَ خفيت على كثير من الدارسين.

غير أن نفراً آخر ردّوا على هذا الذي تصدّى، فذكروا أن ما في البحث غير ما في «الكتاب»، وهؤلاء من غير شكٍّ قد ذهبوا فيما ذهبوا إليه، لينقذوا العضو الوزير الذي يرجى خيرُه.

ثم أدرك هذا المتصدِّي المعترض أني كنت حاضراً في جلسة المؤتمر، فجاءني متعجّباً قائلاً: كان كل هذا، وأنت ساكتٌ، لا يعرفُ عن حضورك إلا القليلُ منا.

قال صاحبي:

وما زلت أقول: مهما عم السوءُ وسادَ الباطلُ، فلا بُدَّ أن يبقى للحق حَيِّزٌ صغيرٌ وحاشية ضيّقة، تشير إلى أن بريق الخير لا يخبو.

الرحلة إلى الأردن

قلت:

لا بد لي أن أشير إلى أن الذي دفعني إلى الرحيل والرضى بالاغتراب الذي يخرجك عن دنياك وعن دنيا الناس، فأقول: لقد شعرتُ أنا وجملة من أصحابي يومئذ، في مطلع سنة ١٩٨٠ أن البقاء حيث أنا في كلية الآداب أمرٌ عسيرٌ، ذلك أن الكلية قد تحكَّم فيها غيرُ أهل العلم. كان العميد ذلك الذي استطالَ فيها وعلا وتجبّر، لمكانه في الحكم، وأنّه أحاط نفسه بأعوانه فتقوّى بخَيله ورَجله.

قال صاحبي:

دعنا من الرحيل، فهو التَّوَجُّهُ للمجهول، ولستَ من اغترابك طالباً جاهاً ولا نَشَباً، ولا أراني أقول قول أبي الطيب:

.... وكـلُّ مكـانٍ يُنْبِتُ العِـزَّ طَيِّبُ

فأين «العز» وأنت قد اقتُلعْتَ عن منبتك، ورُميتَ بدار، لا أهل ولا مرحب؟

قلت:

دَعْني أحدثك عن كلية الآداب، وفيها عميدُها، وما كان لنا منه.

لقد جاء أوّل تسميته «عميداً» بشرٍّ ابتدعه، لقد شرع باجتماعات خاصَّةٍ مع أساتذة كُلِّ قسم، لم يستمع إليهم، ولكن ليلقي عليهم، أو ليصبَّ زواجرَ وعظهِ ونواشز لفظه، ينالُ منهم، ويحطُّ من منزلتهم، فمنهم من يَردّ

عليه، وهذا قليلٌ، ومنهم من يفرُّ من بين يديه. يُنحَي باللائمةِ عليهم ويتَّهِمُهُمْ بالتَّقْصير، وأنهم لا يقومون بما كُلّفوا به من واجبات.

وكان للعميد - غفر الله له - أن اجتمع بأعضاء قسم اللغة العربية، وقد كان هو أَحَدَهُمْ، وبعضهم كان من أساتذته، ولكنه لم يَرْعَ شيئاً مما يعرفُهُ ذوو المروءة، فانطلقَ في تأنيبهم وتوبيخهم والتشهير بما زعم أنه من عيوبهم. وانتهى من خطبته غير البليغة، لأنها لم توافقْ مقتضى الحال كما صرّح أهلُ البيان، وقال: هل من سؤال؟

فقال الأستاذ جميل سعيد - رحمه الله -، وهو أحد الحاضرين يومئذٍ، وهو أحد أساتذة هذا العميد: لم يكن من قصدي الكلام، غير أني توسَّمتُ في الحاضرين، فلم أجدْ فيهم فلاناً وفلاناً، وذكر اسمي، فحسدتهم أوَّلَ مرَّة، لأنهم لم يحضروا هذه الجلسة، وهكذا انتهى الاجتماعُ.

قال صاحبي:

وهل بعدَ هذا مِنْ زيادةٍ؟

قلت:

لا تعجلْ، فالأوراق كثيرةٌ، والكتابُ مستحقٌّ أن نستقريَه، لنعرفَ فصولَه وأبوابَه. لقد كان من فصول الكتاب أن العميد أتى بأحد الفرّاشين، وجعله «ضابط ارتباط»، هكذا أشار اللوح على باب هذا الفراش القديم. لقد كان من واجباته الرّقابة على «ملفّات» الأساتذة، لأن هذه لا يراها حتى أصحابها. وقد احتجتُ يوماً أن أحصل على صورة لكتاب رسمي، أصله في «ملفتي» فجئت إلى هذا الفرّاش القديم، وهو يعرفُني، فقد سبق له أن خدم مدرّسي قسم اللغة العربية، وطلبتُ إليه صورة من «الكتاب»، وكان إلى جانبه جهازُ التّصوير، فردَّ عليَّ: هل أنت موظَّفٌ في الكلية، فقلت

له: كنت موظفاً، وأنا الآن متقاعد، فقال: هذا الجهاز لخدمة الموظفين لا المتقاعدين، وانصرفت عن ضابط ارتباط الكلية فرّاشنا القديم.

قال صاحبي:

لقد علمتُ مما ذكرتَ أنَّكَ متقاعدٌ، فهل لي أن أعرفَ كيف كان لك هذا؟

قلت:

لقد سعيت إلى الحصولِ على التقاعد في أوائل سنة ١٩٨٠ بعدما كان لي مما أسلفتُ بيانَه. ولم يكن هذا الطلَب ممكناً، ذلك أن وزير التعليم العالي وغيرَهُ من الوزراء ذهبوا إلى أن طلب الإحالة إلى التقاعد مرهونٌ بموافقة الجهة المختصَّة، وإن كان مستوفياً لشروط الإحالة. وعلى هذا تشفَّعْتُ بأحد الذين يعرفون الوزيرَ، فَرَجَاه، فوافقَ.

جاء أمر إحالتي على التقاعد إلى الكلية، فجاءني فلانٌ وفلانٌ... قائلين: لقد تعجَّلْتَ، فأبقيتنا نواجهُ المِحَنَ، ونصارعُ الشرَّ، فقلت: لا أُطيقُ بعدما كان وما يكونُ. وهكذا انتهتْ مسيرتي، ولزمتُ الدارَ. وقد بدا لي أن أكتبَ إلى الأستاذ عبد الكريم خليفة، وهو رئيسُ قسم اللغة العربية في كلية الآداب، في الجامعة الأردنية، أسألُه: هل لي من عملٍ لديهم في القسم، فلم يكنْ منه إلا أن عمل على تعييني، فصدرت بذلك إرادةٌ ملكيةٌ.

قال صاحبي:

وهل لهذا بدأت رحلتك إلى عمّان؟

قلت:

لقد تأخَّرَتْ بسبب تقديمي طلباً إلى مكتب رئاسة الجمهورية، ألتمسُ

موافقة الرئاسة على عملي، ولو كنت متقاعداً، في كلية الآداب من الجامعة الأردنية.

وقد تأخّر صدور هذا الأمر، واستغرق في مكتب الرئاسة سنةً كاملةً، ثم صَدَرَ...

وكنت قد أخبرت بهذا كُلِّه الأستاذَ عبد الكريم خليفة الذي أخبرني أن جدول محاضراتي قد أعلن للطلاب، وقد صرفَ العمل به لتأخري.

قال صاحبي:

لقد انتهى كلُّ شيء، فلا بُدَّ أن تكونَ قد تهيَّأْتَ للسَّفَر.

قلت:

ويَحْكَ صاحبي، قلتَ «التَّهيُّؤ»؟! وفي التَّهَيُّؤُ للرَّحِيل إثارةٌ لأَسىً لا أُطِيقُه، كان عَلَيَّ أن أَنقلَ كتبي إلى غرفة في الدّار، استعنتُ بغيري على رزْمها وإلقائها في الغرفة حتى كان منها أكداسٌ، وقد حشدنا في غرفة بعض متاع الدار، وتركنا شيئاً إلى قريبٍ لنا، يسكنُ في الحي نفسه.

ثم أذن موعدُ الرحيل، فتركنا الدار...

قال صاحبي:

كأنك أدركتَ، وأنت تهمُّ على الرَّحيل ما كان من مواجعِ غَيْلان ذي الرُّمَّة، وقد وقف على الدار فقال:

وقفتُ كأني من وراء زُجَاجَةٍ إلى الدّار من ماء الصَّبَابَة أنظرُ

وقوله:

وأبكيه حتى كاد مما أبثُّه تكلِّمُني أحجارُه وملاعِبُهْ

قلت:

لقد كان لي بعضُ ما كان لذي الرُّمَّة، وإنّي لأدركُ أن من خير من وقف على الدار والطَّلَل هو ذو الرُّمَّة، وإن أنكر الأصمعيُّ عليه إخلاصاً لبداوة فقال: إنه جرمقاني من أهل الموصل، إذ طالما أكل البقلَ والمالح في حوانيت البقّالين.

قال صاحبي:

وفات أصحابَنَا المُعاصرين علم كثير، في زعمهم أن الوقوف على الدار في الشعر القديم تقليدٌ، فُرِّغ من أصالة الفن، فنعتوه بـ«المقدمة الطَّلليّة»، كأنهم انساقوا وراء أبي نواس الذي سخر من الوقوف، وتهكَّم وهو مأخوذ بسَوْرة الخَمْرَة التي حجبتْ عنه نظرةَ الإنسان وصلته ببيئته.

قلت:

وقد عقّب المتنبي على ما قيل وزُعم من أمر الوقوف على الدار فقال:

إذا كان مَدْحٌ فالنَّسيبُ مقدَّمُ أكلُّ فَصِيحٍ قال شعراً مُتَيَّمُ

ولا أكتمُ عنك ما كان لي، وقد خرجتُ من الدار متوجّهاً إلى المطار، فأحسستُ أن داعياً يستوقِفُني، فالتفتُّ، وكان لي من ذلك شعرٌ، أثبته في أوراقي، فهل لي أن أنالَ، كما صنع غيري من النُّقَّاد، من الحماسي القديم في قوله:

تَلَفَّتُ نحو الحَيِّ حتى وَجَدتَني وَجِعْتُ من الإصغاءِ ليتاً وأخْدَعا

قال صاحبي:

ولو لم يكن للشريف الرَّضِيِّ غيرُ مقطوعاته التي وُسمت بـ«الحجازيات» لظلّ الشاعر المبدع، ألم يكن هو القائل:

ولقد مررتُ على ديارهُمُ　　وطُلُولُها بيد البِلَى نَهْبُ
فبكيتُ حتى ضجَّ من لَغَبٍ　　نِضْوي ولَجَّ بعذْلِيَ الرَّكْبُ
وتلفتتْ عيني فمذ خَفِيَتْ　　عنِّي الطُّلولُ تَلَفَّتَ القَلْبُ

قلت:

خَلِّ عنا أمرَ الرحيل، ولا تعجلْ عليَّ، فتثيرَ في شَجَناً لا أُطِيقُه، وادْنُ منّي أسمعْك شيئاً، ذكرته في كتابي «إعلام الورى فيما نُسب إلى سامرا» مما أفدتُه من ترجمة الشريف التي أثبتَها ابن خلكان في «الوفيات» قال رواية عن بعض الفضلاء: إنه رأى في مجموع، أن بعض الأدباء اجتاز بدار الشريف الرضي «بسُرَّ من رأى» وهو لا يعرفُها، وقد أخنَى عليها الزمانُ، وذهبت بهجتُها، وأخلقت ديباجتها، وبقايا رسومها تشهد لها بالنَّضَارة وحسنِ الشارة، فوقفَ عليها متعجّباً من ظروف الزمان وطوارق الحَدَثان، وتمثَّل بقول الشريف الرضي:

ولقد مررتُ على ديارهُمُ　　وطلولُها بيد البِلَى نَهْبُ
....　　.....................
....　　.....................

فمرّ به شخص، وهو يُنشدُ الأبياتَ، فقال له: هل تعرفُ هذه الدارَ لمن هي؟ فقال: لا، فقال: هذه الدار لصاحب الأبيات الشريف الرضي، فعجب كلاهما من حسن الاتفاق.

قال صاحبي:

وكنت قد قرأت هذا في مقدمة الشيخ محمد عبده، في مقدمته على «نهج البلاغة».

قلت:

وأعود إلى مأساة الرحيل التي شعرت فيها أني أقصد التيه، وسيكون لي وجود آخر أنا الذي جُرْت على نفسي، فأكرهتها على الضيم، والغريب عن أهله مجاهد مغبون.

وصلنا إلى الطائرة، وما هو إلا بعض زمن يسيرٌ حتى نزلنا في مطار عمان، فتوجهنا إلى فندق صغير، في جبل اللويبدة، من أحياء عمان القديمة، يدعى «فندق سيلكت» فبقينا فيه أياماً، انتقلنا بعدها إلى شقة قريبة منه.

قال صاحبي:

لقد أدركتُ تعلُّقَ الأردنيين بالكَلِم الأجنبي، فأنت في عَمَّان تجد من هذا عجباً، فالكلمة الأجنبية ثمرةٌ حلوةٌ في أفواههم.

قلت:

وكيف تقولُ، إذا حدثتك أني رأيتُ في الجامعة الأردنية عبارةَ «ورشة لتعليم العربية لغير الناطقين بها». كان هذا في رقعةٍ، تشيرُ إلى ندوة في هذا الشأن. وحديثُ هذا طويلٌ، وليس هذا مقصوراً على الأردن، فأنت تجدُ نظائِرَهُ وأشباهَهُ في كثير من بلدان العرب والمسلمين.

قال صاحبي:

وكيف اهتديتَ إلى هذا الفندق الذي نزلت فيه؟

قلت:

لقد عرفته، لأني نزلتُ فيه قبل سنة، جئت إلى عمَّان فيها مدعوّاً لقضاء شهر، ألقي فيه محاضرات، في قسم اللغة العربية. وكان لي أن عرفتُ هذا من بغداد، فقد زارني الأخ عبد الحميد الدُّوري الصَّيْدَلِيُّ - رحمه الله -،

وكان قد علم أني سأذهبُ إلى عمانَ. لقد طلب إلي أن أحملَ شيئاً إلى الأستاذ عبد العزيز الدُّوري الذي يسكنُ في هذا الفندقِ، فكان لي ذلك.

قال صاحبي:

وكان لك أن تبدأ مسيرةً جديدةً هي «مسيرةُ الاغتراب» الذي كان لكَ فيها شعرٌ كثيرٌ.

قلت:

نعم! هي مسيرةٌ، نُقلت فيها إلى غيري، فكان علي أن أُهيِّىءَ نفسي لجديد، لم يكنْ لي فيه تجاربُ كثيرةٌ، وقد تقول: لقد عَرَفْت الاغترابَ أيَّام الطَّلَب، في باريس، في سنوات سبع عجاف. ولكني أقول: إن تلك السنوات على ما كان فيها من خطوب، كان فيها شيءٌ من لَذَّةٍ ومتعة، يأتيان من حياة طالبٍ، جرَّبَ تَجرِبَةَ العَيْش وحيداً، ولكنه يتأسَّى بما يكونُ من ذلك لدى جمهرة لا حصْرَ لها من طلاب، من كل بلاد الدنيا.

لقد كان لي في عمَّان أن أستقبل الطُّلَّاب، فأعود إلى شيء خبرته طوال ربع قرن مع مجتمعات الطلاب، سُعدتُ بينهم وشقيتُ. وأفلحت في صلتي بالناس ولم أفلح.

وقد ذكرت في كتابي هذا بعض ما كان لي من شؤون.

قال صاحبي:

وكان لي ولمن يقرأ هذه الخواطر متعةٌ، وإن كان فيها أسىً مما يعرضُ لكل ذي مروءة في عصرنا.

قلت:

وهل في عمان نجاة عما كنت فيه، فأنا غير بعيد عن الدار. أأنت قريب من يأسٍ، فيه بعض راحة؟

ربما كان في انصرافي إلى الدرس والكتاب وِقاءٌ لي عما قد يكونُ لي من أذىً، ولجوئي إلى المكتبة يبعدني عن الناس الذين لم يكن لي معهم سوى أن العمل يقتضيني بين الحين والآخر أن أراهم.

ولا أقولُ هذا عاتباً، أو منحازاً إلى نفسي، لائماً لغيري، فللنّاس في عصرنا مشكلاتٌ، لم تكن لمن سبقونا، فقد حُملت على أن آلَفَ البعد أو القطيعة.

وأذكر أني لزمتُ مكتبي في القسم، وهو غرفةٌ صغيرةٌ، ودفعت البابَ كلما كنت فيها، فلم أشعر أن أحداً يحاول أن يفتحها أو يضرب عليها. بقيتُ في تجربتي هذه أسبوعين، فأيقنتُ أن القوم لهم ما يَشْغَلُهم، وليس بهم حاجة إلى مزيد.

قال صاحبي:

وربما كنت تجدُ في المكتبة ركناً تأوِي إليه، فتبتعد عن دنيا الناس.

قلت:

نعم! وقد أتيح لي أن أشاركَ في مؤتمرات مجمع القاهرة، محاولاً أن أعوِّض طلابي عن الساعات التي أغيب فيها عنهم.

قال صاحبي:

وكيف عزمتَ على ترك عمَّان واللَّحَاق بصنعاءَ، وكأني أنشدتُ حين بلغني خبر ذهابك إلى اليمن قول الشاعر:

ما آب من سفرٍ إلا وأزعجه   عَزمٌ على سفر بالرَّغْمِ يُزمعُهُ

قلت:

لك أن تنشدَ هذا البيت، ولكني أقولُ لك: إن شيئاً حفزني إلى تقديم

استقالتي والذهاب إلى اليمن، وهو أني سمعت أن أولي الأمر في الجامعة، تحدّثوا في التَّقَشُّف، وأنهم ينظرون في هذا إلى التخفُّف من المسنّين الوافدين. وقد قيل لي: إن اسمي كان من الأسماء التي ذكرت، فقلت: لا بُدَّ أن أخفِّفَ عنهم قبل أن يتخفّفوا مني.

قال صاحبي:

ومن أدراك أن ما نُقِلَ إليك غيرُ صحيح؛ وأن الناس قد يستقبلون الشرَّ، ويُشَمِّرون فيه؟

قلت:

لقد أصبتَ، ذلك أن رئيس القسم قد جاءني وآخرون غيرُه، وقالوا: لم تكن مقصوداً فيما كان لدى أولي الأمر بشأن الوافدين. ولكني أمضيتُ الاستقالة، واتصلت برئيس جامعة صنعاء الذي لم أكن أعرفه إلا من رسائل بيني وبينه. لقد كان هذا يطلبُ إليَّ في كل رسالة أن أكون في صنعاء، وأن يكون من خير جامعته أن أكونَ فيها.

قال صاحبي:

وهكذا طويتَ صفحات أردنية، كان لها أثرُها فيما كان من آثارك.

قلت:

لا بد لي وأنا أغادر عمان أن أقول: لقد تركت فيها نفراً من المدرسين، عرفتهم طلاباً لي ببغداد، ثم غيرهم طلاباً في القاهرة في معهد البحوث والدراسات العربية، وكان من هؤلاء أخي الذي لا أنساه الدكتور عبد الجليل عبد المُهدي الذي أدركت نبله ومروءته وأخي السمح الذي آمنت بمودّته.

قال صاحبي:

وقصدت صنعاء، أفعرفت عنها شيئاً، وهلا أنشدت مع جمهرة غيرك قول الشاعر القديم؟

قلت:

إن الذي أعرفه ما وعيته وقرأتُه في سورة النمل ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢﴾ [النمل] وهل لي اليوم أن أَحظى ببعض النبأ اليقين، فأجيئك به؟

قال صاحبي:

إنها اليمنُ النَّضِرَةُ الخضراءُ، وليتها كانت كذلك كما في قوله عزّ من قائل: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۝١٥﴾ [سبأ]، فأين أرضُ الجنتين؟ وهل صنعاءُ حاضرنا هي صنعاء الجنتين؟ ليتها كانت، ليحق لمن يقصدها أن ينشد مع القائل:

لا بـدَّ مـن صنعـا وإن طـالَ السَّفَـرْ

قلت:

لا تعجلْ فيذهبَ بك الظَّنُّ إلى خلافِه، وتأسَّ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۝١٢﴾ [الحجرات]. وأنا أذهب في أيامنا إلى «بعض الظن» وما أراني مخطئاً، ألا ترى أننا ثقفنا في درس التاريخ العربي مادة، لا نُحققها فيما نرى ونعلم، أين «الهلال الخصيب»؟ ألنا أن نقول غير بَرمين ولا متهكّمين: إن «الخَصيب» من ألفاظِ الأضداد كالبصير والسَّليم وغيرهما؟

ولست أرمي بك، صاحبي! في فَلَوات من التِّيه، وأنت تنتظرُ أن أحَدِّثَك عن صنعاءَ وأهلها. لقد كان لي أن أحتملَ ثلاث ساعات، فتهبط بي الطائرة في مطار، يشيرُ إلى فقره وفقر أهله، فلا أُبَّهة كالتي رأيتها في مطار

عمّان وغيرها من بلاد الله، أفلي بعد هذا أن أقول بما يردِّدهُ الناسُ «اليمن السعيد»، وأين السعدُ والسَّعادةُ؟

قال صاحبي:

كأني مع الشاعر القديم الذي قال:

قد كانَ ما كانَ ممّا لستُ أذكرُهُ وظُنَّ خيراً ولا تسألْ عن الخَبَرِ

قلت:

نعم، قد يسهو المرءُ، فيظنُّ الخيرَ، وخيرٌ له أن يظلَّ في سعادة الظن.

لقد كان في استقبالنا عميدُ كلية الآداب الذي استقبلنا، وصحبنا إلى السَّكن الذي أعِدَّ لنا، حتى إذا وصلنا، استأذَنَ وانصرفَ، ولو أنه تريَّثَ قليلاً، لكننا نُفيدُ منه ما بنا حاجة إلى معرفته، فتركنا، وكان لنا أن دَبَّرْنا أمورَنا، واستقرَّتْ بنا النَّوَى.

قال صاحبي:

كأني بك، وقد وصلتَ على هذا النحو، قد شقيتَ في الوصول إلى ما يحزب القادم الجديد من شجون، ولكنك لا بدَّ أن توطِّن نفسَك على الجديد، لتنصرف بعد ذلك إلى العمل.

قلت:

نعم! كان لي هذا، وكنت قد ألفتُ احتمال الصعب الذي تفرضُه علي الظُّروفُ، ولن يكونَ لي أن أتغلَّبَ على الصِّعَاب، فذلك مما لا أُطيقُ.

قال صاحبي:

لقد حقَّ ما قُدر إليك، وكم يأتيك ما لم تحتسبه، والمرء في كثير مما يكون له غير قادر على تغييره.

قلت:

دعْك، فقد انتهيت إلى طلاّبي، وما أراهم أقلَّ انصرافاً للدرس ممّن عرفتُ في بلاد عدَّة. وإني لأنظر في قولي هذا إلى أنّ اليمني متعبٌ مكدودٌ، ثقلت عليه الحياةُ، فهو يتطلَّعُ إلى أحسن مما هو فيه. ومن هنا كان الدرس مما يحفزُه إلى سعيه ودأبِهِ وهو لا يحرزُ إلا القليل من متاع دنياه.

قال صاحبي:

وهل لنا أن نتجاوزَ الطُّلاَّبَ إلى غيرهم من اليمانيين الذين لقيتَهم، فأصبتَ مما كان لهم؟

قلت:

أذكر أني نزلت فيهم، فوجدتهم محتفلين بثورتهم التي أَلغَتْ حُكَم الأئمة، وأحلت العهدَ الجمهوري، وكأنهم توسموا الخير العميم مما يأتي به حكمٌ جديد، خرجت فيه اليمنُ المرمِيّة في القديم بخيره وشرّه، فصاروا يعدّون كلَّ جديد حُمل إليهم إنجازاً للثورة والثائرين.

قال صاحبي:

ليس اليمنيون بِدْعاً في هذا، فقد كان لبلاد عربية أخرى أن عرفت الثورات، فزُهي أهلها بما كان لهم، وكأنهم لا يُبصرون لما غشيت أبصارهم من غشاوة، وكل فتاةٍ بأبيها معجبة، كما قيل.

قلت:

نعم، لقد كان هذا لنا جميعاً نحن العرب، ولكنَّ الحالَ في اليمن ذاتُ خصوصيَّة، وإني لأذكرُ أن نفراً من اليمنيين، لقيتهم في مجلس في الجامعة، ولعله في مكتب رئيسها الدَّمْث الذي يفتحُ بابَه لصاحب الحاجة،

فيدخل عليه نفرٌ آخر، لا حاجةَ له، فيكون حديث، وسؤال وجواب حتى يوشكَ أن يخرجَ صاحب الحاجة، لم تقضَ له حاجته. لقد سُئِلتُ في ذلك المجلس: كيف رأيت صنعاء؟ فقلت: إن كان أن أجيبَ على غير ما أجابكم به الآخرونَ من أصحابِنا الذين وَفدوا إليكم، ولا سيَّما العربُ، فإني لا أسرّكم.

لقد بدا لي في صنعاء من رسومها وأحيائها ودروبها، أنها بلدٌ، يفتقرُ للكثير من العمل، ذلك أن فيها أشياءَ لم أرَها في بغداد، في عهود صباي قبل أكثر من خمسين سنة. ما زال الكثير من الدروب والطرق غير مكسوّة بالإسفلت، فهو ترِبٌ، تذرو فيه الرياحُ وتنشرُ فيه بقايا عبث الإنسان مما يرميه فيها. ولكن إخوانَنا الوافدين يغضُّون الطَّرْف عن هذا حين يقابلونكم، فيذهبون في كذِب وزور من أقوالهم، مشيرين كما زعموا إلى ما حقَّقتم وأنجزتم، وأنه من نِعَم الثورة عليكم. لم يقولوا شيئاً فيما يشكو منه الغَيارَى من أهل صنعاءَ، ولم يقولوا: إن البلد لو اجتمعت له كلُّ وسائل إزالة ما يُدعىَ «القمامة» من سيَّارات ومركبات أخرى، لاستغرق رفع هذه الأقذار أسابيعَ بل أشهراً.

قال صاحبي:

لقد سمعتُ هذا، وقيل لي عنه، وأخبرني العائدون ممن عملوا في اليمن في أوائل سني الثورة بالذي يسودُ حواضر اليمن عامّة وقراه، من مظاهر الإهمال. ولا أراني أنشد قول أبي تمام الذي آثر «ربع ميّ» على «عمورية» التي أخبر عن سوئها في قوله:

ما رَبْعَ ميّة معموراً يُطيفُ به   غَيْلانُ أبهى رُبىً من خدِّها التَرِب

ولكن إخواننا في اليمن قد زُهُوا بالثورة، فراحوا في ضلالٍ، فلم يدركوا

السبيلَ السَّوِيَّ.

قلت:

لقد كان لي وأنا أعتزمُ السفرَ إلى صنعاء، أن أنشدتُ: «لا بدّ من صنعا وإن طال السفر». ثم كان لي أن أنشدت هذا، حين سئلت في المجلس الذي أشرت إليه، فردَّ علي أحد من كان في المجلس، وهل اطمأن بك المقامُ في صنعاء، بعد أن «طالت أسفارك»؟

قلت: نعم! لأني وطّنت النفسَ على ما ساقته إليَّ المقاديرُ. لقد وعيت هذا البيت أيام الطلب، وأدركت ما فيه من إغراءٍ يشعر به المتعَبُ الذي أضناه الرحيلُ بما سيكونُ له من بعض الرَّاحة. غير أني لم أكن أعرفُ إلا هذا المصراع، ولكني بحبّ من المعرفة، عرفت المصراع الذي يتمّ به.

قال صاحبي:

وإني ما زلت لا أعرف من هذا الرجز إلاّ المصراع، وأظنّ جمهرةً ممن أعرفُ مثلي، ولعل أصحابك اليمنيين ممّن عرفتهم في مجلسك ذاك، وفيهم من فيهم من عِلْيَةِ القوم، من متأدّبين وشعراء وغيرهم، لا يعرفون إلا ما شاع لدى الناس.

قلت:

نعم! إنهم كما ذهب بك ظنُّك. لقد طلب إليَّ أحدهم أن أنْشِدَ المصراعَ الثاني فقلت:

«لا بُدَّ من صَنْعا وإن طالَ السَّفَرْ»
«وإن تحنَّى العَوْدُ فيها وَدَبِرْ»

فكان أن أخرجَ نفرٌ، ممّن كان في المجلس وَرَقَتَهُ وسجَّل ما سمعه، لأنه يجهلُ هذا المصراع، ولأن أصحابنا اليمنيين قد حفظوا ما فيه بعض

التنويه بصنعاء. وقلتُ لهم: إنكم تحفظون ما يسرّكم، ولم تحفظوا قول من ذمّ صنعاءَ من الشعراء الأقدمين، فأراد بعضُهم أن أتلوَ ذلك، فأنشدت قول زياد بن منقذ:

لا حبذا أنتِ يا صنعاءُ من بَلَدِ ولا شَعوبُ هَوىً مِنّي ولا نُقُمُ

فكان هذا من حيرتهم، فأمليتُه عليهم وكتبوه.

قال صاحبي:

وأعود إلى المصراع الأوّل، لأقفَ عند «العَوْد» وقول الشاعر «دَبِر» فأقول: العَوْدُ هو الجملُ المُسِنُّ، وهو غير «العَوْد» في العربية المحكية في بلدان الخليج في عصرنا الذي ذُهب إلى الرجل المسنّ. وأما الفعل «دَبِرَ» ومصدره «الدَّبَرُ» كمصادر الأدواء والأعراض نحو العَمَى والصَّدَى والفَرَح والعَوَر والحَدَب والقَرَع وغيرها. والفعل من هذا كله «فَعِلَ» مثل «فَرِحَ»، و«الدَبَرُ» معروفٌ في عامِّيَّة العراق.

قلت:

لك الخير صاحبي! فما زلت الدَّارس القديم الذي فقدناه في عصرنا، وإني لحفيٌّ بك في هذا الذي يأتيك من أبوابِ العلم. وإني لأفيدُك، فأشيرُ إلى أن «شَعوب» ما زالت معروفةً لاسم حيٍّ من أحياء صنعاءَ، و«نُقُم»: الجبلُ المشرف عليها.

قال صاحبي:

كأنك وجدتَ غير مجتمع طلابك نفراً آخر ممن ترضاهم ويَرْضَوْنَكَ، وتجد فيهم متاعاً للنفس وزاداً، تتزود به من معرفة الناس.

قلت:

نعم! كان لي شيء من هذا، ولكني عدمتُ وسائلَ التواصل، ذلك أن

الصِّلات في عالمنا تحكمُها مصالحُ النَّاس. وقد ذهب الزَّمانُ الذي كان أهلُه يَسْعَوْن بعضُهم إلى بعض للإفادة من علم أو نحو ذلك. لقد عرف أهلُ قرون سلفت «الرحلة» لطلب العلم و«تحمُّله» فشقوا في ذلك، ولكنهم عادوا بزادٍ وفيرٍ.

قال صاحبي:

انتهى كما أشرت، زمانٌ، كان التَّزَوُّدُ بالعلم «تحمُّلاً»، وفي مصطلح «التحمل» ما فيه من إيحاء إلى أنه ثقيلٌ، لا يتحمَّلُه إلا الذي رُزِقَ الطَّاقَةَ، فاحتملَ الصَّعْبَ.

قلت:

لقد عرفت ممن عرفت السيد رئيس جامعة صنعاء، وكان لي به صِلَةٌ قبل أن أتوجَّهَ إلى صنعاء. لقد رأيته، وصدق ظني فيه، وليس الخبْرُ كالخَبَرِ. إنه رجلٌ من الأخيار الذين أحبُّوا العلم وأهله، بما كان له من فطنةٍ وذكاء، يدرك بهما أقدار الرجال.

وعرفت ممن عرفت الشيخ الجليل محمد بن علي الأكوع الذي كنت قد رأيته ببغدادَ، حين جاء زائراً زيارةً خاطفةً، وكأنّي قد نسيتُ أني عرفتُه منذ سنين لتقادم العهد. وأذكر أني حدَّثته عن «الإكليل» في أجزائه التي حققها غير اليمنيين ومنهم محبُّ الدين الخطيب، وكنت قد وقفتُ فيها على أشياءَ معدولةٍ، وقد أيَّدْتُ هذا بما رأيتُه من الصوابِ في الأجزاء التي أنجزها الأكوعُ.

وعرفت أخاه القاضيَ إسماعيلَ، وهو يومئذٍ رئيسُ هيئة الآثارِ، فأفدتُ من علمه مما يَتَّصِلُ بالمواضع اليمنية التي لا يمكنُنَا أن نعتمدَ فيها على ما قُيِّد في كتب البلدان.

قال صاحبي:

غير أنك لا بُدَّ أن كنت على صِلَةٍ حَسَنَةٍ بأصحابك الأساتذة من عراقيين وغيرِهم.

قلت:

نعم! ولكن لم يكن في جامعة صنعاء حين ذهبتُ إليها غير اثنين أنا، وآخرُ سبقني إلى الجامعة بسنتين، ولكنَّ الكثير من العاملين في هذه الجامعة كانوا من المصريين، وقليل من السوريين والفلسطينيين وسواهم.

وقد يكونُ لي أن أقولَ: إن الوافدين من المُدَرِّسين قد يشغلون بما هم فيه من شؤون دنياهم، والنظر في أمر يومهم وغدهم، فلم أجدْ مثلاً من عُنِيَ بالتراث اليمني، من أصحاب التاريخ الإسلامي، أو التاريخ القديم، من الوافدين إلا من أخلص قلبه إلى هذا السَّعي، وقليلٌ ماهم.

قال صاحبي:

إن لم يكن هؤلاء على صلة بأهل العلم، فليس لهم إلا أن يعرفوا السُّوقة من التُّجَّار وأرباب المصالح، والكثير من هؤلاء من ساقة خلق الله الذين لا يُحسنون غيرَ ما هُم فيه. وهم من أجل ذلك أهلُ منافع، لا يجد أولو العلم فيهم إلا ما تفرضه عليهم الحياة من معرفتهم.

قلت:

كأنك توشكُ أن تقولَ ما يردِّده أهلُ العلم في التُّجَّار، وهو مما أثر بينهم: «يُحشَر التاجرُ يوم القيامة فاجراً إلاّ من اتّقى الله».

قال صاحبي:

قد يكونُ لي شيء من هذا، ولكني لا أذهبُ إلى هذا الحَدِّ، فأحكم على عامَّة هؤلاء بما في هذا القول الذي أُقِرُّه أن يكون حديثاً، لأني أعلم

أن ممن عرفناه من رجال سلفنا الصَّالح من شغل بالبيع والشراء، ولكنهم ممن حسنت سيرهم، وكانت صفحاتهم بيضاءَ من غير سوء.

قلت:

دعْ عنكَ هذا، فالحديث في سِيَر النَّاس ذو شجون، وكأني أوثر أن أحُدِّثَك عما كان لي من دأب، قضيت فيه سنوات في تعقُّب المصادر اليمنية. لقد أحسستُ، حين لزمتُ مكتبة كلية الآداب في صنعاء أن الأمر يقتضي أن أسدَّ خللاً لدي، فأكتسب من المعارف اليمنية ما أدركه مما لم أجده في العراق، ولا في البلاد التي أقمتُ فيها.

قال صاحبي:

لقد عرفت فيك هذا الذي شغلك في كل بلد عرفته، فقد قرأت لك شيئاً مما كتبته في تونس، مما هو خاصٌّ بها، فلا يتصدَّى له غيرُ التونسيين إلا العصبةُ أولو القُوَّة الذين حُملوا على الصَّعْب، فكان لهم منه زادٌ لا يُنكرُ.

قلت:

نعم! كان لي ذاك، وأنا في صنعاء، فقد رأيت مَنْ كتب في «مصادر الدراسات اليمنية» ومنهم عبد الله بن محمد الحبشيّ، والدكتور حسين العمري وغيرهما. لقد كان لي في هذه المصنَّفات معرفةٌ بالمُصَنِّفين، وبأهل العلم كافة، ودَفَعني ذلك إلى معرفة ما استطعتُ الوصول إليه من المصادر المطبوعة، وقد أفدتُ الكثيرَ، وعندي من ذلك ما قيدتُه في أوراقي.

قال صاحبي:

كأنك اقتصرتَ على ما هو مطبوعٌ من الكتب اليمنية، ولا أدري أعزفتَ عما هو مخطوط، وهذا كثير. لقد رأيتُ فهارسَ المخطوطات التي أعدها

اليمنيونَ لخزانة الجامع الكبير، وفهرس مخطوطات الأوقاف وغيرها. وأذكرُ أن غيرَ واحد من أهل اليمن وغيرِهم قد كتب في المخطوطات اليمنية مقالاتٍ، نشرت في مجلة معهد المخطوطات. وأضيفُ إلى هذا أن المخطوطات العربية في مكتبة ميلانو وتورينو، في إيطاليا، اشتملت على قَدْر كبير من المخطوطات اليمنية.

قلت:

قد تكونُ على حقٍّ، ذلك أني وجدتُ الوصولَ إلى المخطوطاتِ صعباً، فالذهابُ إلى خِزانة الجامع الكبير يقتضيك أن تقابلَ الخازن الذي لا يُبدي لك بعضَ المروءة، فهو لا يستجيبُ، وكأنه يَشُكُّ في القادم إليه يطلبُ المخطوط، فهو يحاسبُه في قوله وفعله، وكأنه يحسبه من الذين أَحلّوا سرقة العلم.

فإذا أردت تصوير مخطوط، فرض عليك أن يصوِّرَ من المخطوط نسختين، يُعطيك إحداهما، ويحتفظ بالأخرى. وأنت تدفعُ ثمن النسختين على حساب الورقة الواحدة التي قدَّر لها سعراً عالياً.

قال صاحبي:

لعله يحتفظُ بما يستوفيه من ثمن النسخة الأخرى كما حدَّثني أحدُهم ممن عاشوا في صنعاء.

قلت:

ليس لي أن أذهب إلى هذا، فإن بعضَ الظنّ إثمٌ، والناسُ يُهْرَعُون إلى تصديق مقالةِ السوء، فقد قيل:

مقـالـةُ السُّـوء إلـى أهلِهـا أسـرَعُ مـن مُنحـدِرٍ سـائـلِ

ما علينا، فالمخطوطات في كلِّ مكان أعلاقٌ نفيسةٌ، وإن كان فيها شيءٌ

من أساطير الأولين وعبثهم، يحرص عليها مالكُها وخازنها، وكثيرٌ من هؤلاء لا يدركُها، ومَثَلُه كمَثل الحمار يحمل أسفاراً.

قال صاحبي:

وكنّا نحفظ أيّام الطلب قول القائل:

وعنـد الشيـخِ كُتُـبٌ مـن أبيـه ولكن في الخِزَانة ما قَرَاها

قلت:

كأنّ ادّعاءَ العلم والتَّظَاهُرَ به مما حدا الكثيرين من أصحاب الثراء إلى أن يكونَ له في داره مكتبة، وهو يجهل ما في كتبه التي حَرَصَ على أن تكون ذاتَ أغلفةٍ مزيَّنة. وقد علمتُ أن من هؤلاء من لا يعرف القراءة والكتابة، ولكن هذا الذي حَرَصَ عليه، يُضفي على صاحبه مظهرَ العلم، فيكونُ له تمامُ السعادة.

قال صاحبي:

لعلّ هذا قد جاءنا فيما جاءنا من الغرب وسلوك أهل الثراء فيه، فقد حدّثني رجل سوداني أنه اقترن بفرنسية صالحة، فكانت له نعم الزوجُ. وهي من أسرة ذات جاه ومال، وأبوها تاجرٌ من تجّار الجملة، ولكنه عاميٌّ لا يعرف سوى القراءة والكتابة مما تعلّمه في المدرسة الابتدائية. ولكنك تجدُ في داره ديوانًا فخماً أنيقاً لاستقبال ضيوفِهِ، وفي صدره خِزانَةٌ حافلةٌ بنماذج مزوَّدة من الكتب، وهي أغلفة فارغةٌ بعضُها من فن تجليد القرن الثامن عشر، وبعضُها من فن تجليد القرن التاسع عشر، وهي أغلفةٌ فارغةٌ أنيقةٌ، فانظرْ كيف يكون التشبُّه لدى الغربيين بالطبقة التي يدعونها «الطبقة البورجوازية».

قلت:

غير أني وجدتُ في صنعاء مظهراً، لم أجدْه في البلاد العربية الأخرى وهو كثرةُ المكتبات لديهم. وقد يكون هذا عَجَباً، ذلك أن اليمنيين في الأغلب الأعمِّ فقراءُ، ولكنهم يحبُّون أن يتزوَّدوا بالعلم. إنك تجد المكتباتِ موزعةً في أحيائها، وهي تحوي الكُتُبَ القديمةَ، من مطبوعات كثيرة قديمة وحديثة، طبعت في البلاد العربية كافة.

وقد كان لي أن شهدتُ معرضاً للكتاب هو الحادي عشر الذي أقيم في صنعاء منذ سنوات، ورأيت جمهرةَ النَّاس يحملون الكتبَ التي اقتنوها من المعرض في أكياس كتلك التي تُعَبَّأُ بالقمح ونحوه. وأذكر أني سألت أحد أولئك ممن لا يوحي مظهرهم أنهم أهلُ علم: هل أنت صاحبُ مكتبة للبيع؟ فأجاب: لا، ولكني أقرأُ، وبي حاجة إلى الكتب التاريخية وما يَتَّصِلُ بالفِرَق.

قال صاحبي:

ومن الخير أن أُفيدَ منك مما كان لك من حديث الكتب ونشرها، والدخول اضطِراراً في بعض ما كان لك مع نفرٍ من الناشرين.

قلت:

إن الحديثَ مع الناشرين ذو شُجُون، على أنِّي أستثني منهم نفراً، أدركوا أن حِرْفتهم لا بد أن تسلم من عَبَث التجارة وما يكون فيها من دروب، يضلُّ سالكها، فيقترف الإثم.

لقد كان لي مع بعض الناشرين، ولا أراني أُعَيِّنهُم، صلاتٌ، لا تحمَدُ، فمنهم من أنكر حقي، ونشر لي كتباً، لم أنل منه غير ثلاث نسخ، فأمّا ما يَتَّصِلُ بحقِّي أنا صاحب الكتاب، فليس لي منه شيءٌ، وقد كان مثل هذا أو

نحوه مع غير واحد منهم.

ومنهم من صوَّر كتباً لي، طبعتْ هنا وهناك، فتصدَّى لها مَرَدَةٌ من هؤلاء، وصوَّروها، بل سرقوها، ولا أعلم. وأذكر أني وجدتُ من هذا الذي سُرق كتباً في بيروت، وأخرى في عمَّان، وشيء في مدينة «قُم» الإيرانية.

فضاعَ حقٌّ، وسُرق كدٌّ مضنٍ، كابدتُ فيه ما كابدتُ.

قال صاحبي:
لا بُدَّ أن تكونَ «عقود» قد حُرِّرت، فلِمَ لا تقيم الدَّعوى على هذا النَّفَر الظالم؟

قلت:
كأنك تجهل ما كان وما يكونُ من ضياعِ الحَقّ، فهل لي أن أتحمَّلَ نَصَباً في مراجعة القضاء والمحاكم؟ هذا ما لا أُطيقُه. وإني لأتأسَّى بتجربة جهات «رسمية» عَرَض لها مثل هذا، فأقامت الدَّعوى، وراجعت المحاكمَ، فلم تفلحْ، ولم يُرَدَّ لها شيءٌ.

ومن هذا ما كان لمجمع اللغة العربية في الأردن من تجربةٍ محزنةٍ، فقد نشر المجمع كتباً علمية، لفروع العلم في الكيمياء والفيزياء والأحياء وغيرِها، مما هي كتب تدريسية، عَرَّبتها لجانٌ، ألّفها المجمعُ من الأساتذة المختصِّين، وأخرجت إخراجاً حَسَناً. وقد منح المجمعُ حقَّ توزيعها إلى صاحب مكتبة شهيرة في عمّان، فما كان من صاحبِ هذه المكتبة إلا أن صَوَّرها، وراح يبيعُ ما صوَّره، مبقياً نسخَ المجمع، ومدَّعياً أنها لديه، ولم يستطعْ تصريفها.

قال صاحبي:

لقد حدَّثني عن هذا الأمر صديقٌ أردنيٌّ، وعجبتُ أن يحدثَ هذا لجهةٍ رسمية هي «مجمع اللغة العربية»، وأفاد أن صاحبَ المكتبة كان قد حجّ واعتمر غيرَ مرَّة، فكيف يكون حالنا مع الآخرين؟!

قلت:

لقد صرفت النظر عن كثير من هؤلاء، ولزمت آخرين منهم، قد يكون لي معهم بعض فائدة يسيرة. وحيثما أكون فإنّي رضيت لنفسي الكتاب أنيساً، آثرتُه على غيره، فقد انصرفت إليه.

وأذكر أني قصدتُ مكتبة كلية الآداب، حين جئتُ إلى اليمن في آخر الشهر الثامن من سنة ١٩٨٧، كان ذلك صبيحة يوم، بدأ به الشهر التاسع، فلم أجدْ أحداً غير العاملين من الفرّاشين. لقد سلمت عليهم، وكانوا ثلاثةَ نَفَرٍ، فلم يردُّوا السلام إلا بتمتمة، لم أتَبَيَّنْها، وتلك عادةٌ لليمنيين الذين رَضُوا لأنفسهم بالقليل. ومضيتُ في المكتبة، فدعاني أحدُهم، لأني لم أخبرهم بأمري وما أريدُ، وكأني تجاوزتُ ما يكونُ من العادَة الجارية.

وما هي إلا أيّامٌ حتى عرفتهم وعرفوني، وعرفت ناظرَ المكتبة والعاملين معه، ولكني لم أجدْ لديهم علماً بما في المكتبة. وكنت كلما سألتهم عن كتاب، هُرِعوا إلى خزانة فيها «البطاقات» بأسماء المؤلفين، أو أخرى فيها عناوين الكتب. وربما تعذَّرَ عليهم أن يجدوا الكتاب في موضعه من «الرفوف»، لأن العَبَثَ في المكتبة كثيرٌ من الطلاب والعاملين.

قال صاحبي:

وقد يكونُ هذا من أن كتباً كثيرة استعارها المُدَرِّسُون أو الكبار من رجال الجامعة، فلم يردُّوها إلى المكتبة، وهي لديهم منذ سنوات، وقد

عرفت هذا في بغداد. وقد قيل: إن فلاناً من كبار موظفي وزارة المعارف قد استعار كتباً كثيرة، ولم يَرُدَّها طوالَ سنين، فلم يكنْ من ناظر المكتبة إلا أن أزالها من فهرس الكتب بعد أخذ موافقة العميد.

قلت:

لقد قيل في مكتبة كلية الآداب بصنعاءَ شيءٌ من هذا. غير أني سعدتُ بما لم أعرفه من الكتب والمصادر اليمنية، فكان لي من ذلك منهج أتبعه في الإفادة المنظمة من هذه المصادر. لقد أعددت دفاتر لهذا الغرض، فكان الدفتر الواحد يشتمل على الفوائد اللغوية والأدبية والتاريخية. وكان لي من ذلك كله فوائدُ جمَّة، وقد نظرتُ فيها، ورجعت إلى ما لديَّ من محصول قديم، فكان لي منها مسائل، نشرتها في مجلة الإكليل، ومجلة كلية الآداب، ثم كان لي منها كتاب، وسمته بـ«التذكرة اليمنية».

قال صاحبي:

ولا بد أن تكونَ قد عرفت نفراً ممّن عمل في المكتبة، وارتضيتَ ما وجدته لديه، فقد حدَّثتني عما كان لك في تونس من صلتك بالأستاذ عثمان الكعّاك - رحمه اللهُ - وما أفدتَه منه عن مصادر المكتبة التونسية.

قلت:

نعم، لقد كان لي شيءٌ من هذا في صنعاءَ، في مكتبة كلية الآداب التي عرفت الأستاذَ عبد الله السريجي الذي وجدتُه صاحبَ معارفَ كثيرة تَتَّصِلُ بالتَّاريخ، ولا سيَّما ما كان منه خاصّاً باليمن والمراحل القديمة، وما له صِلَةٌ بالزيدية من الفرق الإسلامية. وهو عارف بما في المكتبة من كتب نادرة، وجدتُه حريصاً على صيانتها.

وكنت أجدُ بين حين وآخر الأستاذ عبد الله الحبشي صاحب «مصادر

الفكر الإسلامي في اليمن» الذي عرف الكتب والمخطوطات، وشارك في صنع فهارس المخطوطات لخزانة الجامع الكبير وغيرها من المكتبات.

وهو صاحب مصنّفات كثيرة في التراث اليمني، بين تأليف وتحقيق. إنّه أحدُ العاملين في المكتبة، ولكنه لا يحضرُ إلا حين تقتضيه حاجةٌ للرجوع إلى كتاب لا يملكُه.

قال صاحبي:

وكيف يكونُ أنْ يتركَ العاملُ عَمَلَهُ، فلا يأتي إلى مكتبه، وهو محسوبٌ على هذا، وقد يَظَلُّ يستوفي أجرَه كلَّ شهر؟

قلت:

قد يكونُ هذا معروفاً في اليمن، فأنت تقصدُ أحياناً مكتباً، في دائرة أو وزارة، ولكنك لا تَجِدُ الرجلَ العاملَ فيه، وتسألُ: أمجازٌ هو أم غيرُ هذا؟ ولكنك لا تقفُ على جلية الأمر.

قال صاحبي:

وأذكر من هذا أن بعضَ العاملين في المكتبات، لا يسعفون طالب الدرس فيكون لهم شيء من خلق غير رضي إزاء الدارسين من أهل العلم، فقد يحجبونَ الكتابَ، لحاجةٍ في أنفسهم، ويمنعونه عن أهل الجِدِّ من الطلاّب.

قلت:

هذا مما عُرف في بلادنا العربية، ولكنه غيرُ معروف لدى الغربيين، ذلك أن الدارسين في الغرب يقدرون على الوصول إلى الكتاب إلاّ أن يكونَ أمرٌ مانعٌ يحولُ بين الدارس والكتاب. ولكنك قد تجدُ في مكتباتنا العربية نفراً جُبِلَ على طبع لئيمٍ، فيحجبُ الكتبَ الخاصّة عن فلان وفلان ممن لا

يحبُّهم.

وقد كان لي في صنعاءَ زيارةٌ لدار الكتب، وهي خزانةٌ عامَّةٌ، تتبعُ هيئةَ الآثار، قصدتُها لما علمت أنها تحوي طائفة من خزانة الإمام يحيى حميد الدين، جيء بها بعد أن استحوذت حكومةُ الجمهورية على مخلّفات الإمام مما سَلِم منها. لقد وجدتُ في هذه المكتبة ناظرها وهو شيخ يعتمر عِمّةً لم يكن له منها إلاّ المظهر الديني. لم يستقبلْني هذا الشيخ استقبالاً جميلاً، ذلك أنه كلّمني بلغة المالك الذي يَتَصَرَّفُ بملكه، فكيف يسمحُ لدخيل مثلي لم يكن من أهل اليمن أن يدخل حَرَم هذه الخِزانة، فيطلب شيئاً من كتبها؟ فلم يكنْ رقيقَ الحاشية بل كان فظّاً غليظاً، لقد أمرني ألا أُدْخِلَ معي حقيبَتي مخافةَ أن أخفِيَ فيها شيئاً. لقد تركتُ حقيبتي لدى الفرَّاش، ورجوتُه أن يبقيَها لديه حتى أنتهيَ من عملي.

قال صاحبي:

وهل جئت لترى كتاباً قصدته فيها؟

قلت:

نعم، فقد علمتُ أن في خزانة دار الكتب شيئاً من كتب الإمام. وقد وقفتُ على هذا حين طلبت «ديوان مهيار»، وجيءَ به إلي، فوجدتُ فيه إشارات تشير إلى أن الكتاب تملّكه الإمام يحيى بتاريخ كذا.

وأردت أن أصوّر جملة قصائد من الديوان، فلم يسمح الشيخُ، فانصرفتُ. ثم كان لي هذا بعد استعارة الكتاب من ناظر مكتبة كلية الآداب، فصوَّرت القصائدَ التي أردتها.

قال صاحبي:

لعلك حدَثتني في زمانٍ مضى أنك استعرتَ جملَة كتبٍ من مكتبة كلية

الآداب في جامعة الخرطوم، وجئتَ بها معك حين عدتَ إلى بغداد، فأفدتَ منها، وأعدتَها بعد ذلك، ولم يكنْ في تلك الحقبة أمر أجهزة التصوير معروفاً.

قلت:

نعم! أذكرُ ما كان من هذا، وقد نبَّهتني إلى أن أعودَ إلى ما مضى مما كان لي من سفر، فقد دُعيت إلى السودان «ممتحناً خارجياً» وذلك بعد سنة ١٩٦٤ ووصلت الخرطوم، فوجدتُ في استقبالي من صحبني إلى فندقٍ قديمٍ في طَرَفِ المدينة، في أرض على النيل، فيها خضرةٌ وشَجَرٌ وليس من الأبنِية الشاخصة غير هذا المنزل. وكأني بهذا الفندقِ شيء مما تركه الإنكليز بعد رحيلهم، وكان حافلاً بالوافدين من أجانب وعرَب.

وعُذري أنّي تحوّلت إلى السُّودان، وأنا في حديثي عمّا كان لي في صنعاءَ، ما يكون من الاستطراد يأتي إليه المرء لحاجة، والشيءُ بالشيء يُذكرُ.

قال صاحبي:

لا ضير أن تذهبَ هنا وهناك بين الحين والحين، ففي كل ذلك متاعٌ لي ولغيري من جمهرة القرّاء. وسنجدُ في استطرادِنا هذا حاشيةً، تعيدُنا إلى ما كنا فيه من شُجون اليمنِ.

قلت:

لن أُطيلَ عليك من أمر ما كان لي في الخرطوم، فقد لقيتُ أحد أصحابي فيه وهو محمد وَلَد دادا، من أهل موريتانيا. وقد حدثني عن العروبة في بلاده التي عرَفتها باسم شَنقيط. وأن لي كتاباً اقتنيتُه مما اقتنيت من نوادر في بغداد وُسم بـ«الوسيط في تراجم أدباء شنقيط» لأحمد بن

الأمين الشنقيطي، وقد طبع في مصر ١٣٢٩/١٩١١ وقد تزوَّدتُ من هذا الكتاب بفوائدَ جليةٍ، كان لي منها أن أهلَ شنقيط أهلُ حِفاظٍ على عربية سليمةٍ، ولم يكن من أثر لفرنسا في «فرنسة» لغتهم كما عرفنا ذلك في الجزائر فالمغرب فتونس.

وقد حدثني صاحبي هذا الشنقيطي، ولا أقول الموريتاني، عن العربية المحكية في عصرنا في شنقيط، فأفادني أن في هذه العربية ذخيرةً فصيحةً كثيرةً، فذكر لي ألفاظاً فصيحةً قديمةً، لا نجدُها في بلداننا في المشرق بدءاً بمصرَ.

قال صاحبي:

ولا بد أن تكونَ قد أفدتَ شيئاً وأنت في كلية الآداب في الخرطوم.

قلت:

كان لي في الخرطوم أصحابٌ، أبدؤهم برئيس الجامعة، وهو الأستاذ عبد الله الطيب الذي عرفتُه زائراً في بغداد. ولا بد من الإشارة إلى أنه أبصرُ من رأيت في الشعر القديم، يحفظه ويقف على معانيه ورموزه. وهو في غير هذا ذو معرفة بالتاريخ والرجال، يصل هذه المعارف القديمة بما يكون من نظائرها في عصرنا. رأيته في الخرطوم، وهو في رئاسة الجامعة، علماً كبيراً له منزلته بين علية القوم.

وكان لي معرفةٌ بغيره في كلية الآداب، وأخص منهم الأستاذ محمد عبده غانم اليمني الذي سعدت بمعرفته، وهو الشاعر الأديب الناقد.

وسألت عن أصحاب لي، كنت معهم في باريسَ أيام الطلب، كان منهم محمد ياجي الذي عُيِّن سفيراً في وزارة الخارجية، وآخرين توزّعت بهم الديار.

وهكذا تغيرت بنا الدنيا، ودار بنا الزمانُ، وكنت أنا الذي أكرهُ الرَّحيلَ محمولاً عليه، ينتهي بي المطاف في صنعاء، كأني ذاك الراحل القديمُ الذي أنشد بيته، فسارت به الركبان تردّد قوله:

لا بُـدَّ مِـنْ صَنْـعا وإنْ طـال السفـر

وصلتُ صنعاء، وإذا أنا بصاحبي محمد عبده غانم في جامعة صنعاء نائباً عن رئيس الجامعة، فكان لنا نحن الاثنين أن ننشد ما أنشده أهل الأدب:

وقد يجمعُ اللهُ الشتيتينِ بعدَ ما يَظُنّـانِ كُـلَّ الظَّـنِّ ألاَّ تـلاقيـا

قال صاحبي:

ألم أقل إننا قد نلقى ونحن نُطوِّف فيما نُطوِّف فيه حاشية تعيدُنا إلى ما كنا، وقد حقّت كلمتي، ولا بد أن نعودَ إلى حديث الكتب.

قلت:

كان لي اهتمام بالتُّراث اليمني مما قرأت من قِطَع من «شمس العلوم» لنَشْوَان الحِمْيَري التي نشرت في ليدن وغيرها من أوربا. عرفت هذا في بغداد، ولم أكن أعلم بنشرة الجرافي اليمني التي وجدتها في كلية الآداب بصنعاء. هذه النشرةُ غيرُ كاملةٍ، ومن أجل ذلك أرادت جامعةُ صنعاءَ أن ينشر الكتاب كاملاً، فألّفت لجنة منذ أكثر من عشر سنوات، ولكنها لم تصنع شيئاً.

وقد قرأت ما نشر من «الإكليل» الذي شارك فيه جملةُ أعلام، منهم الأب أنستاس ماري الكرملي، ونبيه فارس، ومحبُّ الدين الخطيب. ثم أتى الشيخ محمد بن علي الأكوع، فأعاد بعض ما نشر أولئك الأعلام، وزاد عليها أجزاءً أخرى.

قال صاحبي:

غير أني لم أجدْ فيما نشر من «شمس العلوم» خصوصِيَّةً يمنيةً، بل وجدت الحِمْيَرِيَّ كغيره ممن صنّف في الأدب واللغة. وقد خيِّل إليَّ وأنا أجيلُ العين في «شمس العلوم» أني أقرأ الكامل للمُبَرِّد وأمالي القالي، لولا شذرات يسيرة، أجد فيها أثراً يمنياً.

قلت:

لك أن تذهبَ إلى هذا، ولكنَّك في «الإكليل» تجد مادَّة تاريخيةً يمنية، وأخرى أدبيةً، وأنت في كل ذلك تدخل في تراثٍ، لا تلقاهُ في تراثنا الأدبي واللغوي. وكأن الهَمْداني كان يشدو شيئاً من لغة سبئيّةٍ، أشار إلى شيء من نقوشِها.

قال صاحبي:

كأن العرب الأوائل لم يعرفوا مصطلح السبئية حضارة ولغة، بل كان هذا يندرجُ لهم في مصطلحهم «الحميرية». ولم تكن كلمة «سَبَأ» لديهم إلا ما أشارت إليه لغة الذكر من أنها حضارة، ازدهرت، ثم فنيت، في قوله تعالى: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [النمل]. وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ].

قلت:

لقد كان هذا للأوائل من علماء العربية، فقد ذهبوا إلى أن «الحِمْيَرِية» خاليةٌ من العربية والتعرّب، فقد أثر عن أبي عمرو بن العلاء قوله: «ما لغة حمير بلغتنا، ولا لسانهم بلساننا». وقيل: «من أدرك ظَفَارَ فقد حَمَّرَ».

قال صاحبي:

لقد أشرتَ أنت فيما تعقبتَ فيه من الأصول اليمنية في العربية التي وصلتْ إلينا، ومن ذلك ما كان من «الميم» التي ذُيِّلت بها الكلمات اليمنية، وما كان من هذا في فصيح العربية كما في كلمة «فَم» التي هي «فو»، ثم أتتها الميم التي أفادتْ ما دعوتَهُ «التمييم» ليؤدّيَ التنوين في العربية التي نعرفُها.

قلت:

نعم! كان لي هذا، وأحبُّ أن أقولَ: إن علماءَ العربية لم يُدْركوا المعرفة التي ثقفناها، مما جاء به الغربيون من علماء اللغات، الذين صنّفوا لغاتِ العالمِ إلى المجموعة التي فيها العربية، ودعوها المجموعة السامية أو «اللغات السامية».

قال صاحبي:

وكيف لنا أن نقولَ في الدعوى الأخيرة إلى أن هذه اللُّغات هي عربيةٌ، فقد قال غيرُ واحد في العراق وبلاد الشام ومصر: إن ما نعرفهُ من لغة بابلية آشورية هي عربيةٌ قديمةٌ، وكذلك الآرامية التي أعطتنا اللغةَ السريانية. ولكن هؤلاء لم يذهبوا إلى العبرانية، فيدرجوها في حَيِّز العربية القديمة.

قلت:

كان لنفر من أهل العلم قد دفعوا إلى ما أشرت إليه إرضاءً لهوىً خُيِّل إليهم أنَّه يُقَرِّبُهم من أهل السُّلطان، ولكنهم لم يستطيعوا أن يرضوا أهلَ العلم.

وأعود إلى «الحميرية»، وهو مصطلحُ العرب، فأجدُها عربية خاصَّة جنوبية.

قال صاحبي:

وفي هذا السبيل ذهب المستشرق الإنكليزي «سارجنت» في كتاباته، فدعا ما يدرجُ فيه أهل جنوبي اليمن بـ«العربية الجنوبية».

قلت:

ولم يرد في هذه العربية الجنوبية أو الحميرية أدبٌ فصيحٌ، على نحو ما عرفنا من الشعر القديم قبل الإسلام.

ولم يُشِرِ اللُّغويون اليمنيون إلى شيء من هذا، فأنت تجدُ مثلاً عبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي شديداً في آرائه النحوية التي استوحيت من الأدب القديم.

قال صاحبي:

كأن لغة القرآن وحَّدت اللُّغات التي كانت معروفةً لدى القبائل والجهات البعيدة، من أطراف بلاد العرب، فكان لنا عربية واحدة، أوشكت أن تذوبَ فيها الفروق اللُّغوية والخصائص الإقليمية.

قلت:

نعم، كان هذا الذي ورثناه، وحثَّ على الالتزام به أولو الأمر، وإن بقي شيء منه فيما دُعي بـ«القراءات الشاذة» أو تلك التي وسمت بـ«غير العالية». إن النَّصَّ القرآني الذي ورثناه، أنسانا ما أثر في مصادر اللغة من القراءات التي نسبت في عصرنا إلى «اللهجات».

قال صاحبي:

لقد كان لك كتابٌ في هذه القراءات ودِلالتِها، وكنت قرأتُهُ، ووعيتُ أن شيئاً من تاريخ العربية قد جهله أهلُ الدرس، فذهبوا إلى أن هذه الفصيحة هي الفصيحةُ التي نتلوها في السُّوَر، وفاتهم العلم بالأصول التي أقرّها

أهلُ اللُّغة، وتنكَّرَ لها الفقهاءُ الذين ذهب نفرٌ منهم إلى تحريمِ القراءةِ بالشَّوَاذِّ.

قلت:

نعم، لقد كان لي شيءٌ من هذا، وأنا أسعى إلى بسط صفحات من تاريخ العربية، أجدُ فيه أن للفصيحة إشارات، نجدُها في الألسن الدّارجة. ولم أردْ في سعيي هذا أن أقرِّب بين العَامِّيِّ والفصيح، ولكني رميت إلى عظمة لغة القرآن التي وحَّدَت العَرَبَ، ثم توشكُ أن توحِّدَ المسلمين، ولو نطقوا بألسنة أعجمية، ومن أجل هذا أحبَّ أولئك الأعاجمُ العربيةَ حتى استبدلوها بلغاتِهم، لولا ما ثارت فيهم ثائرةٌ، حَفَزَتْهُمْ إلى العَوْدة إلى ألسنتهم.

قال صاحبي:

وأيُّ شيء شاركتَ به اليمنيينَ في الدراسات اليمينية؟

قلت:

عمدتُ إلى ما في العربية الموحدة من أصول يمنية، ورجعتُ إلى ما كتبه اليمنيونَ من فوائدَ، شاركوا بها الدَّارسين في الدَّرْس اللُّغوي. وقد كان لي من هذا جملةُ فوائد، أسميتها «التذكرة اليمنية».

قال صاحبي:

وقد رأيتُ في مجلة مجمع اللغة العربية، في القاهرة، أنك نشرتَ طائفةً من الكلِم، وجدت في العاميّات اليمنية، وهي مما ورثه أهلُ اليمن من السَّبَئِيَّة، وهي شيءٌ، أشرت فيه إلى ورودها في النقوش القديمة. ولكن قرأتُ كتاباً لأحد اليمنيين، استدرك فيه على القاموس، دعاهُ «فلك القاموس»، كنت قد حققته، وطبع في بيروت. وأذكر أن رسالةً أخرى

يمنيةً لابن الأمير، نشرتها في إحدى المجلات العلمية.

قلت:

لقد بدأت هذا التوجُّه إلى التراث اليَمَني، قبل أن آتيَ إلى اليمن بسنين. لقد كان لي في باريس أن أقف على كتيّبٍ لـ«إغناطيوس كويدي» الإيطالي، يشتملُ على عدَّة محاضرات في تاريخ اليمن قبل الإسلام، وقد بدا لي أن أنقله إلى العربية، فكان لي ذلك، ثم ألحقت شيئاً مما لديّ عن اليمن. لقد فكّرت أن يتوَلّى «مركز الدراسات اليمنية» في صنعاء نشره، فاتصلت بالدكتور عبد العزيز المقالح مدير المركز، فكتب لي بموافقته، فأرسلت ما لديَّ، وتم طَبْعُ الكتاب.

قال صاحبي:

لعل هذا كان قبل أن تتوجَّهَ إلى اليمن في أواخر عام ١٩٨٧، وكان سبباً في عقد الصِّلَة بينكما.

قلت:

نعم! لقد كان هذا الأمرُ أوَّل صِلتي بالدكتور المقالح مدير مركز الدراسات اليمنية ورئيس الجامعة. وكان من هذه الصِّلَة أن طلب إليّ أن أكونَ في كلية الآداب، فقدِّر لي ذلك، وبقيتُ فيها.

قال صاحبي:

لقد كانت حكومة الكويت تَتَوَلَّى الإنفاقَ على جامعةِ صنعاءَ حتى شهر تموز، حين وقعت الواقعة بدخول الجيش العراقي الكويت واحتلالِها، ثم ما كان من حرب الكُويت التي استنفرَ لها الغربُ بزعامة أمريكا جيوشاً عدة من غربيين وعرب وغيرهم. وقضي الأمرُ، واتهم الكويتيون أهلَ اليمن بأنهم شاركوا العراقيين في الاعتداء، وغضِبوا عليهمْ، فقطعوا ما كانوا

يمدُّون به أهلَ اليمن، ومنه الإنفاق على جامعة صنعاء.

قلت:

لقد كان ذلك، وقد كان لي ولغيري من العاملين الذين جاؤوا إلى صنعاءَ أن نبقى نقدِّمُ العمل الجاد إلى طلابنا في صنعاء.

وأعودُ إلى ما كنتُ فيه من صحبتي للكتاب فأقول: لقد لزمتُ مكتبة كلية الآداب، أقبلُ عليها كل يوم، حين يبدأ العمل في الساعة الثامنة صباحاً عدا يومين، يكون لي فيهما محاضراتي التي أبدؤها في الثامنة حتى الساعة العاشرة إلا ربعاً، ثم أجيءُ إلى المكتبة التي أمضي فيها الوقتَ، في القراءة والكتابة حتى إذا كانت الحادية عشرة والنصف، غادرت المكتبة إلى مساكنِ الجامعة إلى مسكني الذي لا أفارقُه إلا لحاجةٍ ضرورية.

قال صاحبي:
وأين نشاطُكَ في غرفة قسم اللغة العربية؟

قلت:

ليس من ضرورة إلى حضور القسم إلّا أن يكونَ اجتماعٌ مُهِمٌّ للقسم فأحضره، فأما ما عدا ذلك فإني على ما أنا فيه في المكتبة، والطلاب وأصحاب الحاجات يقصدونني في المكتبة.

وأنا في المكتبة أقدّم الفوائد التي أعرفها للطلاب في السؤال عن مصدر في اللغة والتاريخ والأدب.

وأذكر يوماً جاءني فيه رجلٌ صغير الجِرْمِ، يتحدث بلسانٍ مصري، يسأل عن مادة أدبية، هي ما كان من أدب في أوّل هذا القرن الذي يشتمل على رسالة وطنية في تنبيه الشبان وحثهم على المشاركة في العمل الوطني، ولا سيما في مصر وبلاد الشام.

فلم يكن لي إلاّ أن أشيرَ عليه بالرجوع إلى «تاريخ الأدب العربي» لجرجي زيدان، في الجزء الأخير. ولم يكن منه إلا أن سجّل في دفتر له اسم الكتاب وإلى جنبه «جرج زيدان» (كذا)!!

فعجبت من أمره، وظننته أحدَ الطلاب وإن كان سِنُّه يتجاوز ما نعرف من أحوال الطلاب، فقلت له: أنت طالبٌ مستمعٌ في الكلية، فأجابني: لا، إني مدرِّس في مركز اللُّغات التابع للكليّة، وأنا الدكتور فلان، وأبتغي أن أصنع كتاباً في المادة التي حدَّثتُك عنها، لأتقدّمَ به إلى الترقية إلى رتبة الأستاذ المساعد.

فقلت له: وأين أنجزتَ رسالتَكَ، وأصبحتَ الدكتور فلان، فقال: في كلية الآداب في الأزهر الشريف!

فقلت: إذن أنت مصريٌّ، ولا تعرفُ من يكون «جرجي زيدان»، فأجبني من هو، فلم يكن منه شيءٌ، فقلت له: اتركْ مركز اللغات، وعُد إلى القاهرة، وانتسب فيها إلى مدرسة، لتفوزَ بالثانوية العامة، فتعرف من يكون «جرجي زيدان» وليس «جرج زيدان».

قال صاحبي:

وقد يعجبُ المرءُ أن يبلغَ الدرسُ في الأزهر هذا الحدَّ فيجهلَ الدَّارِسُ الذي وَصَل إلى أعلى درجة في التحصيل العلمي، «جرجي زيدان» العَلَم المشهور الذي تمصَّر وعرفته مصرُ طوال نصفِ قرن، ولم يبق من «شاميته» إلاّ الأصلُ القديم. وهو منشىءُ «الهلال» من أعظم مجلات مصر التي كان يكتب فيها عِليةُ القومِ. وهو صاحبُ «تاريخ آداب اللغة العربية» في مجلدات، ومثله «التمدّن الإسلامي». وصاحب الدراسات الأدبية واللغوية، ومن ذلك كتابه «فلسفة اللغة العربية». وهو العلم المشهور لدى الدارسين

للرّوايات التّاريخية، فقد ألّف في هذا الفن جملة روايات منها: «غادة كربَلاَء» و«عذراء قريش» و«العبّاسة أخت الرشيد»و«الظاهر بَيْبَرْس» وغيرها. أليس عجيباً أن يأتيك أزهريٌّ مزهوٌّ بلقب الدكتور، وهو لا يعرف «جرجي زيدان»؟

قلت:

لا تعجبْ، فالأزهر اليوم غيرُ الأزهر في سنوات خَلَت، فهو جامعةٌ جديدةٌ، يشمخُ أساتذتُه بألقابهم التي لا تجد فيها «الشيخ» بل تجدُ الأستاذ الدكتور. ويشمخ طلابُه الذين حازوا لقب الدكتور، وفيهم من يعتمرُ العِمَّة، ولا يرضى أن تخاطبه بـ«الشيخ فلان».

ولي مع أحدهم، ممن جاء إلى صنعاءَ بعمامته، قد أحرز لقب الدكتور في «الشريعة»، ولكنه يأبى أن تدعوه الشيخ فلان. وكأني مرّةً قد أغلظتُ له القولَ، لأني دعوته الشيخ فلان، فامتعضَ وابتأسَ، فقلت له:مالك؟ فقال: ألستُ «دكتوراً» فكيف تدعوني الشيخَ؟

فقلت: لا غفرَ اللهُ لك، فما هذه العمامةُ؟ أضمير مستترٌ هي، أم لبوسٌ مفيدٌ، يأتيك بالمغانم، فيحسبُك الذي لا يعرفُكَ من أهل الخير والصَّلاح؟!

قال صاحبي:

هذه لغة الخواجات التي كان الأزهريون يرفضونها، وهم في أنفسهم يتمنَّونها، فهل لي أن أنشد:

أُكْنيهِ حينَ أُنادِيهِ لأُكْرِمَهُ ... ولا أُلقِّبُهُ والسَّوْأةُ اللَّقَبا

قال صاحبي:

ولعل صلتك بالطلاب تُغنيك عن الأساتيذ الذين ضَلّوا سعيهم، فخسروا

صفقتَهُمْ وآبوا بالنَّفع حين عزفوا عن العلم.

قلت:

لا تذهب إلى هذا، فالطُّلَّاب قد لحقهم مما كان فيه أساتذتهم، وحمل هؤلاء الضَّيْمَ عليهم. وقد كان لي أن رأيت في صنعاء عجباً من أمر الأساتذة الذين تحوّلوا إلى باعةٍ أصحابِ متاجرَ ومشاغِلَ، ذلك أن العلم لدى هؤلاء بضاعة مزجاةٌ، هي كتاب أعدَّه الأستاذ الدكتور، فصار يسوِّقه على طلّابه. وهم لا بُدَّ من أن يشتروه، ليضمنوا النجاح، وقد يكون له أكثرُ من كتاب، فقد حدّثوني عن واحد من هؤلاء السماسرة، كان قد «سوَّقَ» ستة عشر كتاباً، ألّفها للطلاب في موضوعات شتى من أصول التَّدريس للعربية إلى علم الاجتماع الإسلامي، وأنه مختصٌّ بكل العلوم الإنسانية، وتعهَّد لصاحب دار النشر أن يتكلَّفَ ببيعها. وهل تدري أخي الكريم أن جمهرة الطلاب لا تجدُ فيهم من له بعض طاقةٍ ماليةٍ، فكلُّهم فقراءُ مكدودونَ، فانظر - رعاك الله - هذه الحال، وأين ولَّت رسالةُ المعلم؟

قلت: لقد لحق الضيمُ بالطلاب، فوطّنوا أنفسهم على «الملازم» التي يبيعُها السيد الدكتور، وقد دفعهم هذا الأسلوبُ إلى الاحتيالِ. لقد أعمل الطلابُ فكرهم، ليشاركوا أساتذتهم السوء، فقد سألوا أحدَهم أن يضعَ لهم مادة الامتحان في سؤالات، لا تتجاوزُ العَشْرَ، وأخذوا منه أجوبتها، وسألوه كم يأتي من هذه الأسئلة في الامتحان، فقال: ثلاث سؤالات، فعمد أحدهم، وهو طالب رُزِقَ بعضَ الحيلة مما ثقِفَهُ من أستاذِهِ، فأثبتَ لكلِّ سؤالٍ جوابَهُ، وصنع من هذا «ملزمة» في السؤالات العشر، وراح يبيعُ الملزمةَ للطُّلّاب. فانظر - أعانك الله - كيف آل الأمرُ بنا.

قال صاحبي:

لقد أحسنتَ في اختيار مصطلح «التسويق» من أهل التجارة والاقتصاد. وكأن «التاجر» اليوم هو نفسه الذي قيل فيه: «يحشرُ التاجرُ يومَ القيامة فاجراً إلّا من اتّقى الله»، وأين ذاك الذي يتّقي ربه من أهل التجارة؟

قلت:

لم يكن لي حين كنت في الجامعة الأردنية أن وقفت على خَطْب لهذا الذي يحتربُ فيه الدَّارسون بين أستاذ وطالب في صنعاء. لقد ضاع العلم، وإني لمُحَدِّثُكَ عن شيء آخرَ، هو أن الطُّلَّاب في كلية الآداب وغيرها من الكليات الإنسانية صنفان: «منتظم» يباشر الدَّوَام، ويحضرُ لسماع المحاضرات، وآخر دُعي «منتسباً» لا يكلَّف بالحضور، بل يحضر في الامتحانات، وهو يأخذُ العلم من «المَلاَزم» والكتب التي يأخذها في أوّل الفصل الدراسي، وينصرف إلى عمله إما موظفاً لدى الحكومة أو عاملاً في السُّوق، أو محتالاً في تصريف العملة (الدولار). إن هذا «المنتسب» الذي لا أدعوه طالباً، يأتي قبيل الامتحان بيوم أو يومين، ليعرف مواعيد الامتحانات. وقد يأتي إلى المكتبة، وفي المكتبة طائفة من «ملفّات» في كلِّ «ملفّ» أسئلة مع أجوبتها لسنوات عدَّة. يأتي هذا «المنتسب» الذي «انتسَبَ» إلى العَبَث واللهو، ليفيد من هذه «الملفَّات»، وهكذا يشاركُ في الامتحانات، وهو يعرف السبيل إلى استمالة عواطف الأستاذ ورضاه، فينجحُ، وهو جاهلٌ لا يعلمُ شيئاً، ولكنه حمارٌ يحملُ أسفاراً.

قال صاحبي:

وكيف السبيل الذي يلجأ إليه في استمالة عواطف الأساتيذ؟

قلت:

إن الطالب يسعى إلى تحقيق مطالبه، فهو يجدُ مثلاً أن للأستاذ حاجات

في السُّوق أو في الدوائر الرسمية، فيسعى هو إن كان يعرفُ صاحب السوق أو صاحبَ المكتب الرسمي، أن يحقِّق للأستاذ ما لا يمكنُه تحقيقه. وقد حدَّثني أحد الطلاب اليمنيين، بعد أن تخرَّج في الكلية الطبية أن سمع الأستاذ مرَّة يتوجَّه إلى الطلاب، في غرفة الدرس قائلاً بلغته المصرية «مين معه عَرَبية» أي مَنْ يملكُ سيارةً؟ ليعرف أسماءهم وأرقام «هواتفهم» ليفيدَ منهم في إيصالِهِ إلى الأمكنة التي يراجُعها.

على أني لا أقول: إن هؤلاء الأساتيذ مصريون، فقد حمل إلينا الزمن طائفة من العراقيين، لم يكونوا خيراً من المصريين والشاميين، بل إنهم أَبَرّوا عليهم وتجاوزوهم.

ولا ينبغي لك أن تحملَ هذا على العاملين من مصريين وعراقيين وغيرهم كافَّة، ذلك أن بين أولئك عامة نفراً أولو خُلُق كريمٍ وسلوك حسن يأبى أن ينخرطَ في سلك أولئك المنحرفين.

قال صاحبي:

«رحم اللهُ امرأً جبَّ الغيبةَ عن نفسِهِ». ولنعد إلى ما كنّا فيه من حديث مشاركتك في التراث اليمني.

قلت:

لقد حدَّثتُك عن الأستاذ عبدالله الحبشي وعنايته بالمخطوطات ومعرفته بالرجال من أصحاب المصنّفات اليمنية. وأذكر أنه حدثني عن رحلة لمغربيّ، حمل نفسَه من المغرب إلى حضرموت، فحرّر رحلته هذه، وهو ابنُ عابدٍ الفاسي من رجال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين. وقد كان لنا أن وقفنا على الأصلِ الوحيدِ في خِزانةِ حفيدِ المؤلِّفِ، وعلى ما كان منها من نُسَخٍ. وتم الاتفاق بيني وبين الحبشي على إخراجها، فتمّ لنا

ذلك.

قال صاحبي:

ولي أن أضيفَ ما كنتَ قد سَجَّلْتَه من فوائدَ في «السيرة الذاتية» التي بسطها عمارةُ اليمنيُّ في «النكت العصرية»، وما كان من هذا الفنِّ في كتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ. وكان أهلُ الأدب على شِبْهِ يقينٍ أن فنَّ «السيرة الذاتية» قد ثقفناه من الغربيين، وعلى هداهم سار طه حسين وتوفيق الحكيم وأحمد أمين وغيرهم.

قلت:

نعم! لقد كان لي ذلك وشيء آخر، عرفته في كتاب، نشره الحبشي وجدت فيه لوناً عامياً، كتبه أحد المتأخرين في اليمن، فاستعمل «لغته الصنعانية».

قال صاحبي:

لا بد أن تكونَ في صنعاء، أو في اليمن عامَّةً، قد وقفتَ على غرائبَ، تَتَّصِلُ بالنَّاسِ وسلوكِهم.

قلت:

لا تعجلْ، فما زال لديَّ شيءٌ، لم أشركْكَ به، مما يتَّصِلُ بالكُتُب والمكتبات. ذلك أن القيِّم الجديد في المكتبات رجل أو امرأة ممن كان لهم درسٌ جديدٌ هو «علم المكتبات». لقد عرف الأمريكيون هذا العلم، ثم أخذه الغربيون عامّة، فكان لهم فيه أصولٌ ومبادىءُ، حفزت الجامعات على فتح دراسات فيه، يمنحُ الدَّارِسُ بها الدَّرَجَات العلمية، وقد كان لنا نحن العرب أن نحذوَ حَذْوَهُمْ، فكانَتْ لنا أقسامُ المكتبات في كلِّيات الآداب والتربية.

قال صاحبي:

لقد رأيتُ من هذا النفرِ الجديد ذي الثقافة المكتبية الجديدة من يعملُ في المكتبات الجامعية هنا وهناك، ولكني لم أجدْ بينهم من له صلةٌ حميمةٌ بالكتاب العربيِّ القديمِ. أذكر أني مرَّةً سألت أحدهم عن كتاب «النوادر» لأبي زيد، فدلّني على الكتب الجديدة التي صرفها أصحابها إلى «النكات» و«الطرائف» وما يدعى لديهم بـ«الفولكلور» أي الأدب الشعبي. فانظر كيف لنا أن نفيدَ من هؤلاء مع «دبلوماتهم» الجديدة في علم المكتبات والتوثيق؟

قلت:

لقد أحسنتَ فيما ذهبتَ إليه. وأضيفُ أن مكتبَتَنا العربيةَ تشتملُ على طائفةٍ كبيرةٍ من كتب التراث، في النحو واللغة والأدب والتاريخ والمعارفِ القديمة عامَّة. وأن هذه الأصنافَ تتطلَّبُ قيّماً يعرفُها، ليدركَ الفروقَ الدقيقةَ فيما بينها، ومن ثَمَّ يهتدي إلى تصنيفها.

قال صاحبي:

إن العلمَ الجديد في التوثيق مفيدٌ، ولكنه لا يكفي للعاملين في مكتبتنا التي تحوي فيما تحويه موادَّ قديمة، ينبغي لهم أن يعرفوها معرفةً جيِّدةً. وليس يكفيهم أن يعرفوا ما أتى به «ديوي» الأمريكي في تصنيفه ونقاطه العشر.

قلت:

على رِسْلِكَ، ولا يَذْهَبَنَّ بك ظَنُّك أننا لم نملكْ ما اهتدى إليه «ديوي»، فلو قرأت «الفهرست» لابن النديم، أدركت أن هذا الذي أتى به «ديوي» قد حاك في نفسِ أبي الفرج محمد بن إسحاق الذي اشتُهر بكُنيته «ابن النديم»، فكانَ منه حضورٌ في الفِهْرست. إنّ ابنَ النديم «صاحب كتاب» أو

«كتبيّ» أو «ورّاق» كما عُرِفَ في تاريخنا، فهو يدركُ التصنيفَ للمعارف عامَّة في عصره.

قال صاحبي:

وللعرب مشاركةٌ في علم التَّوثيق والمكتبات، فكتاب «إحصاء العلوم» يشيرُ إلى هذا، وللخُوَارزمِيِّ معرفةٌ بتصنيف العلومِ، عرفها الدَّارسون لهذه المَوَادِّ التاريخية.

قلت:

فهل لأقسامِ علم المكتبات، في كلياتنا، أن يكونَ لهم أساتيذُ، يقودون الطُّلَّابَ ويهدونهم إلى معرفة الكتاب القديم، يكون ذلك شيئاً يُهيِّئهم للعمل المفيد في المكتبات.

ولا أرى أن مادَّة «الكتاب القديم» في أقسام اللُّغَةِ العربية تنصرفُ فيما تنصرفُ إليه لشيء من هذا العلم القديم الجديد.

قال صاحبي:

هل استطعنا أن نَجِدَ بين حملة شهادة علم المكتبات والتوثيق أحداً، يذكِّرُنا بالعالم الجليل فؤاد السيد، والبارع الألمعي رشاد عبد المطلب، وبالمجتهد الضليع كوركيس عواد وغيرهم؟

وأنا أجيبُ عما تساءلت عنه فأقول: لم يكن لنا شيءٌ من ذلك، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد].

قلت:

لقد تغيّر الناسُ، وجدّت بيننا أحداثٌ، ظاهرها الرحمةُ، وباطنها غيرُ ذلك من عَبَثَ العصر. لقد تأثرت اليمنُ بما اضطربتْ به بلدانُنا، ولكن في اليمن ظروفاً خاصَّةً، استقبلت الوافد الجديد من الفكر بقبول حسن،

فالنَّاسُ لما هم فيه من حِفاظٍ، يتقبّلون الجديدَ الذي يدعو إلى عودة للسلف الصالح. وليتنا وعينا الخيرَ الذي كان سلفُنا فيه، ونتجنَّب الشَّرَّ الذي كابدوه.

قال صاحبي:

كأنك مضيتَ إلى الإيماء عما أردتَ، وتحوَّلت إلى شيء، يكادُ يَنْطِقُ عن هُوِيَّتِهِ، وكأنك تريدُ بقول من قال: الكناية أبلغُ من التَّصريح. كأني أدركتُ ما كنتَ ترمي إليه. أفليست «الصحوة» خيراً، وإن العَوْدَ إلى الإسلام يكفينا شرَّ هذا العصر؟

قلت:

سأسعى إلى أن أجيبكَ فأقول: لم يكن لليمنيين ولا لغيرهم أن يعودوا إلى الإسلام النقي، فيكونوا في «صحوة» بعد غفلة؛ ذلك أن العصرَ بخيره وشرِّه مفروضٌ عليهم، وأن الذي يستقبلونه من عصرهم مُغرٍ، لا بد أن يكونوا من فرائسه. ألا تَرَى أن الذين يظهرُ من أمرهم، بل قلْ يتظاهرون بالإسلام أهلُ معصية، لا يستطيعون أن يبتعدوا عنها؟ إن التُّجَّار والذين يَتَصَرَّفون بعيش النَّاس وخبزهم وسائر حاجاتهم، ممن يقيمون الكثيرَ من الفرائض التي لا تُكَلِّفُهم عناءً، منها إقامة الصلوات الخمس، والحجِّ والعمرة والصوم، ولكنك لا تراهم يؤدُّون زكاةً لأموالهم، وهم إن فعلوا ذلك، تَظَاهروا وادَّعَوْا. وهم «المطفِّفون» الذين أنذرهم الله بالويل ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين] كأنّ هؤلاء ومعهم نفرٌ، لم يستكملوا العلمَ، شاخوا وتصدّروا للإفتاء، فعمَّ المجتمع الإسلامي الجديد انحدارٌ لهُوّةٍ من جهل. أفندري ما الذي كان من هذا؟

لقد ظهر الأتباعُ وهم المُخَلَّفُون الذين أوحِيَ إليهم أن لا بُدَّ للمسلم

الجديد من رسوم، تبدو في إرسال اللِّحَى وتقصير الأُزُر وإهمال الشعر وترك الدنيا، كما يظنّون بهذه الرسوم. وقد عرف أهلُ الخبرة بالاحتيال أن هذا الضَرْب من الناس محتاجٌ إلى معرفة جديدة، فظهرت الكراريس والكتب، فصرت ترى فيها من صنّف، ليحرزَ النفعَ الحرام، فيكون له مثلاً:

«إنزال الصواعق على من أكل بالملاعق»!!؟؟

قال صاحبي:

لو أنهم أدركوا أن الإسلام صدق وعمل صالح ونفع للناس كلِّ الناس، لكان لهم أن يُفهموا من يُخيَّل إليهم أنهم أعداء الإسلام، أن هذا الدينَ منذ أن بَشَّر به الرسولُ الأمينُ سبيلُ خير ومحبّة، وأنه لا يُفرّق بين من أحسن عمله وصدقَ ففاز بالحسنيين.

ألم يقل الرسول الكريم: «إنّما بُعثتُ لأُتَمِّم مكارِمَ الأخلاقِ»؟

قلت:

لو كنّا كما ذهبت إليه، لبقينا أهلَ خَيْرٍ وصلاحٍ، ولم يكنْ ما نشكو منه من فساد، من أننا أضعنا إسلامَنا. لقد أَضَعنا إسلامَنا بأيدينا وإني لأَتَأَسَّى بقوله - عز وجل - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ ﴿١١﴾﴾ [الرعد].

ألا ترى أن حماسةَ أصحابِنا في إسلامهم، تلك الحماسةُ التي لم يسلكوا فيها الصراط المستقيم، هي التي دفعتْ من لا خَلَاق لهم من عمل ورأي أن يذهبوا في الشرِّ، فيسيئوا إلى قوم أبرياء، ففجّروا «قنابلهم» وسفكوا دماءَ قومٍ ليسوا من أهل الشَّرِّ، واعتدوا، فكان من فرائسهم رجالٌ أبرارٌ ونساءٌ كرائمُ وأطفالٌ. ولِمَ قتلوا غير المسلمين هنا وهناك ولم يكن منهم سوء قَصَدوا به المسلمين، ونحن وإيَّاهم أهلُ ديار واحدة، احتملنا

واحتملوا، وعملنا خيراً وعملوا؟

قال صاحبي:

كأنّي أحملُ على من رُزِقَ الفَهْمَ من المسلمين الغَيَارَى من المشايخ وغيرهم، فأقسو عليهم جميعاً، لأنهم لم يستنكروا عبث هؤلاء الطَّغَام، فيكفّروهم لأنهم «أهلُ ظلم وسَفْك دماء»، قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة].

قلت:

نعم، وما زال الشَّرُّ ملتهبَ الأوَار، فلم يستطعْ أولو الأمر أن يقضوا عليه أو ينالوا منه. لا أدري كيف يستحلُّ هؤلاء أن يسفكوا دَمَ شرطيٍّ، في باب مكتب الشرطة؟ وهل كان الشرطيُّ من رجال الشَّرِّ، وهل صنع شيئاً يَحِلُّ به دمه؟

قال صاحبي:

على رِسْلِك شيخي الأجلّ، فإني أخشَى عليك أن يغلِبَكَ الخَطْبُ، فتأسى، وليس فيك طاقةٌ أن تحتمل هذا الذي يحتربُ به الناس. ولعلّي أُنحي باللَّوم والتقريع على أصحاب الأمر الذين لم تُحْمَدْ سيرَتُهم، فلم يُشيعوا عدلاً، ولا استقاموا على الطَّريق، فاطمأنَّ المستضعفونَ إليهم، فهل يكافَح الشَّرُّ بشَرٍّ مثله أو أقسى منه.

قلت:

نعم، كلُّنا ظالمٌ لقد ظلم أولو الأمر فأساؤوا العمل، وظلمنا نحن، لأنَّا قصَّرنا في عملِنا، فلم نُنَبِّهْ، ولم نحذّر، فعمَّ البلاءُ، وتوالت الخطوبُ.

وكأننا شاركنا أعداءنا من مستعمري أمسنا، الدَّاعين اليومَ لحقوق

الإنسان في أباطيلهم ودعاواهم التي عمّت الأرضين من أن الإسلام يعني الإرهاب.

قال صاحبي:

كان على مشايخ العلم أن يبصّروا المسلمين بأن الإسلامَ تسامح ومحبّةٌ وسَعَةُ نَظَرٍ، وأنه لم يعادِ أهل الكتاب من اليهود والنصارى. وكان لهم أن يَبْسُطوا أمامَهم أن دولةَ الإسلام استعانتْ بغير المسلمين في بعض شؤونها، ولا سيّما في طائفة من العلم التي حذق فيها النصارى والصابئةُ. لقد كان لِحُنَيْن بن إسحاق مكانٌ في الحضارة الإسلامية، وهو نصرانيٌّ، اشتهر بمعرفته للتُّراثِ الإغريقي. وكان لآل قُرَّة حضورٌ في كيان حكم بني العباس.

قلت:

لقد غابَ عنك مكانُ أبي إسحاق الصابي في حكم آل بُوَيْه في ديوان الإنشاء. ولم تُشِرْ إلى صِلَةِ الشريف الرضي نقيب الطالبيين وأمير الحج بأبي إسحاق هذا الذي بقي صَابئياً ولم يُسْلِم حتى توفّاه اللهُ. وقد كان لهذه الصِّلَةِ الحميمةِ أن رثاه الشريفُ الرضيُّ بداليّته الشهيرة التي قال فيها:

أرأيتَ من حمَلوا على الأعوادِ ... أرأيتَ كيف خَبا ضِيَاء النادي
جَبَلٌ هَوَى لو خَرَّ بالبحر اغتَدَى ... من هَولِهِ مُتَلاطِمَ الإزْبادِ
ما كنتُ أعلمُ قبل حَطِّك في الثرى ... أنَّ الثرى يعلو على الأطوادِ

فانظر إلى هذه الصلة الصميمة بين الشريف نقيب الطالبيين وأبي إسحاق غير المسلم. وللشريف الرضي قصيدةٌ أخرى، بكى فيها صديقَه الحميم، حين مرَّ على قبره بعد خمس سنوات من وفاته.

أقول: كان ينبغي لمشايخنا أن يُبَصِّروا من يستمعُ إليهم بما كان من

صِلاَتٍ إنسانية بين المسلمين وأهل الكتاب. وكان ينبغي للجماعات التي حملت الألقابَ والأسماءَ في انتماءاتها الدينية والسياسية، أن تقتفي أثر أهلِ العلم في آخر القرن المنصرم وأوائل هذا القرن، كالشيخ محمد عبده الذي عُرف بسَعَةِ نظره وفهمه لمركزالإسلام بين الأديان.

ولو أن شيئاً كان من هذا، ما كان لنا أن نرى العَجَبَ فيما يقترفُه الضَّالُّون من اعتداء وقتل وسفك دماء مُدَّعِينَ أنهم يُدَافعونَ عن الإسلام.

قال صاحبي:

ومَن يدري لعل العقل الغربي المُدَبِّر قد صَنَعَ ما صَنَعَ، ليدفعَ هؤلاء إلى ما هم فيه من ضلال؟ فتنطلق ألسنة الغربيين في تجريح الإسلام ونسبة الإرهاب إليه.

قلت:

ولنذهبْ إلى شيء آخر مما صَحِبَ هذا الحقبةَ التي وسمتْ بـ«حقبة الصحوة» فنجد الأبالسة قد استمرؤوا صحوةَ القَوْم، فقادوهم إلى «حوانيتهم» يبيعونهم كلامَ الله مَتْلُوّاً مُجَوَّداً، وقد يمتدّ هذا التجويد وهذه التِّلاوة إلى غناءٍ وتطريبٍ.

أذكر أني دخلتُ إلى أحد هذه «الحوانيت» قريباً من الجامعة، وهو واضعٌ هذا الذي يدعى الشريط المسجَّل على الجهاز، مع أداة لرفع الصوت إلى حدٍّ، يصعبُ عليك أن تفهمَ كلام الإبليس صاحب الحانوت حين تساومُه على سعر الشريط (الكاسيت)، وأنت تراه طوال الساعات مشغولاً بدنيا قبيحةٍ من بيع وربح وتجارة، وهو لا يأبه لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف] وكذلك الأمرُ في المقاهي وغيرها من حوانيت ومخازن يُدخَل الشريط في الجهاز، ويطلق الصوت

والناس في لهوهم وعبثهم. ولم يتنبّه مشايخ «الصحوة» إلى هذا العبث بكلام الله.

أهؤلاء الذين ألهَتْهم تجارتهم وبيعهم عن ذكر الله خيرٌ أم ذاك النصراني الذي عرفتُه في إحدى قرى جبل لبنان إما في بحمدون أو حمّانا الذي كنت أستمعُ من مكتبه في الفندق الجبلي تلاوة جميلة للشيخ أبي العينين شعيشع فقلت له مرة: يا معلم جورج، إني لأستمع صوت الشيخ شعيشعٍ يأتي من مكتبك بعد ساعة الغَداء، فقال: نعم، تعالَ اليوم واستمعْ معي، ففعلت وذهبتُ إلى مَكتبه، فرأيته يستمعُ وهو طَرِبٌ مسترخٍ بصوت الشيخ وتطريبه وهو يتناولُ النبيذَ، فقلت له: كيف يكون هذا؟

فأجاب بلبنانيته: «في أحْسَنْ من هَيْك»؟ يستمعُ الناس للزِّعران (يريد المغنين الأولاد) وللمغنيات في صراخهن وزعيقهنّ، ولا يستمعون مثلي.

هذه طرفةٌ كانت لي منذ أكثر من ثلاثين سنة، حين كنا نذهب في الصيف إلى لبنان هَرَباً من حرّ بغداد وسعيرها. ولا تَظُنَّنَّ أنا كنّا أولي تَرَف لأني ومثلي الكثير من المدرسين والموظفين كنا نسافرُ، فنستدين مبلغ راتبين أو ثلاثة من مصرف الرُّهون، ثم يستقطعُ منا أقساطاً مع الفائدة بعد رجوعنا من السفر.

وقد كان لنا أن نفعلَ هذا، ونرتكب إثمَ التعاملِ بالفائدة.

لقد أسرفتُ عليك في ذكر ما أتت به «الصحوة» من هذا العَبَث الذي أطبقَ على صنعاءَ. ألا ترى أخي وصاحبي كيف سعى الغربُ إلى إفسادنا حين تدفَّقت علينا مبتكراتُهُ في السُّوء والعَبَث؟

قال صاحبي:

وأكثر من هذا أن من «أشرطة» العَبَث والفساد رقوقٌ فيها أفلامٌ قبيحة،

وجدت سبيلها إلى بيوت المسلمين. وليس من شكٍّ أن بيوت هؤلاء فيها أجهزةُ التلفزيون التي تعرض سوءات بني البشر في كل مكان، فيراها المسلمون هم ونساؤُهم وأولادُهم وبناتُهم، فكيف الخلاصُ؟ وهل أدرك أهل الصحوة هذا الشرَّ الذي غزانا في عُقْر دارنا؟

هذا في كل مكان، ولا أستبعدُ أن يكونَ في صنعاء. ثم إننا قد نحتالُ على ما ابتلينا به من سوء فرحنا ندعو اللعب واللهو والرقص فنوناً، وأنها من هنا تَتَّصِلُ بالثقافة، فيقامُ لها المهرجانات هنا وهناك.

قلت:

كان هذا ونحن مقبلونَ على غدٍ مُخيفٍ، ما أرانا نكافحُه بالرسوم الجديدة لدى المُتَظَاهرين بالإسلام في تقصير جلابيبهم وإرسال لحاهم، وإهمال شعورهم، وقد عُزف عن العمامة، واستبدلوا بها قطعةً من قماش، يُلقونها على رؤوسهم. وأنت قد تَجِدُ من يُظهِرُ سروالاً أبيضَ تحت جلبابه.

ليس في هذا اللّبوس عَوْدٌ إلى الإسلام دين الجدّ والعمل الذي نشر الساعون الجادُّون من الأوائل حضارتَه، فعَمَّتِ الدنيا شرقاً وغرباً.

قال صاحبي:

وهل لك ما تزيدُ في هذا الذي شَقِيْتَ به من أحوال الناس؟

قلت:

كان ينبغي أن تسألَني عن أصحابنا الوافدين إلى صنعاء، إنهم جمهرة من مصريين وعراقيين وشاميين، ولكني سأتحدّث عن نفر من العراقيين، ممن عرفت، ذلك أنهم كثيرون، وليس لي أن أدرجَ جَمْهَرَتَهُمْ في كلامي. ولا أتحدّث عن المصريين وغيرهم ففيهم من غير شَكٍّ أهلُ صلاح وخير،

وآخرون لم يكونوا ممن تحمد سيرتهم. وقد عرفت من العراقيين نفراً، لم يكن من أهل التقوى، ولكنهم حين جاؤوا إلى صنعاء، وقد عَلَتْ فيها صيحة الدين من أرباب الدَّعْوة وغيرهم، رأوا أن من مصلحتهم التَّظَاهُرَ بالدين، فعمدوا إلى الذهاب إلى المسجد، يؤدّون الصَّلَوات، ولم يكن لهم علمٌ بها. وقد تجاوزوا، فأرسلوا لحاهم، وتصدَّر غيرُ واحد للإمامة والخطبة، وليس له من شرائط الإمامة أي شيء.

أفنجحوا في مسعاهم وعبثهم؟ لا، لأن الإنسان لا يستطعُ أن يُغَيِّرَ ما جُبِلَ عليه، فهؤلاء الذين تظاهروا وادّعوا سَرْعَانَ ما عرفهم اليمنيون، وعابوا عليهم جَشَعَهُمْ وحرصَهم على أخذ الساعات الإضافية. لقد قيل عن فلان: إن له أكثر من أربعين ساعة في الأسبوع، ونصابُ المدرِّس لا يزيدُ عن اثنتي عشرة ساعة، فكيف يكونُ هذا؟

قال صاحبي:

ألا ترى أن اليمنيين قد شاركوا أصحابَنَا في هذا النفع الحرام، وأن هؤلاء وهؤلاء يتقاسمون شرَّ هذه الدنيا.

قلت:

وها أنذا آتي إلى نهاية هذه الرحلة، وأنا في صنعاء مع غيري من العراقيين الذين حوصروا بما صنعه الغربُ، بعد أن وقعت الواقعةُ في الكويت وغيرها، كما حاصرهم العربُ كافَّةً، فعزّ علينا أن نبرح إلاّ إلى اليمن وليبيا والأردن. ولا شكَّ أن الحصار سيبقى، وأن هذه الدِّيار التي تؤوينا قد ضاقتْ بنا فبدأ منها ما يُشعر أنهم قد يفرِّطون بالضيف الثقيل، ونحن مع كل هذا محمولون على الضَّيْم سائرون إلى ما يُشبهُ التِّيه.

قال صاحبي:

وهل كان شيءٌ من هذا لدى اليمنيين؟

قلت:

لقد بدأ العراقيون يغدون على صنعاء، وكثر عَدَدُهُمْ حتى أربى على المصريين، وكأن اليمنيين أحسُّوا أن قد ثقلتْ عليهم وطأةُ هؤلاء، فقابلوهم بشيء من غِلْظةٍ وجفاء. وصاروا يجهرون أنهم تحمَّلوا بسبب قربهم من العراقيين الأذى، وهكذا انتهى العراقيُّ ضيفاً ثقيلاً غيرَ مرغوب فيه. أفيكون لي أن أردِّدَ ما كنتُ قد قلتُه منذ سنوات:

إن كنتَ في بَلَدٍ شقيق ... ورَويتَ من وادي العَقِيقِ
فلأنت أضيَعُ من تكونُ وأنت في البَلَد الشقيق

قال صاحبي:

لقد ذهب زمانٌ خلا بأهله، كان يقول شاعرُهم:

متى تملك القلبَ الذَّكِيّ وصارماً ... وأنفاً حِمَيّاً تجتَنبْكَ المَظَالمُ

قلت:

دَعْ عنك «الصارم»، وأنَّى هذا للمستضعفين الغرباء، وهل لي أن أردّد دعاء الرسول الكريم: «طُوبَى للغرباء».

نعم، قد نملك «القلب الذكيّ» و«الأنف الحمي»، وهل يجدينا هذا؟

لقد بدأتُ أشعرُ أن وطأتي ثقلتْ على كثيرين، وتخوّنني شيءٌ من بلىً، أورثنيه عبءُ السنين، وأقول:

وما ثَقُلَت كِبَراً خُطْوَتي ... ولكنْ جَرَرتُ ورائي السِّنينا

وإني لأختمُ رحلتي هذه بشيء، كلّما هممت أن أبدأ فيه، وجدتني ضيِّق

الصَّدْر، فكيف أقوى الصعب؟

قال صاحبي:

كأنّي مدرك لبعض ما يحزبك مما لقيتَه في صنعاء، ولا أراك قد قلت وقد يمّمتَ وجهك شطر هذه ما قاله المتقدمون: «لا بُدَّ من صَنْعا وإن طال السَّفَرْ».

وكأني أشعرُ أن هذا صدر بيت ذهب عجزه، ولم يعرفه إلا الثقات من أهل الشعر. لقد اجتزؤوا بهذا الصدر، وهو حسبُهم، وقد قيل: «يكفيك من الزاد ما بلَّغَكَ المحلّ».

قلتُ:

- أصلحك الله - لقد صَرَفْتني عن أسىً، لا أدري كيف أُداريه، وعُدتَ بي إلى الدَرْس. ولك أن تقولَ: إن عامَّة أهلِ الأدبِ في عصرنا يجهلون عجز البيت، لأنهم قنعوا بحاجتهم من «صدره»، ودونكَه:

«وإنْ تَحَـنَّى العَـوْدَ فيهـا ودَبِـرْ»

وأعودُ إليك فأقول: ما زلتَ على دَأْبِكَ، تصرفني عمّا أنا، ولكن في بعض هذا حاجةٌ، تعودُ علينا بفائدة. لقد أصاب أبو عثمان الجاحظُ في «استطراداته» فأفادَ كثيراً، وكأنه كان يَسعى إلى هذا.

قال صاحبي:

لقد أشرت غير مرَّة إلى ما دعوتَه «بُنَيَّات الطَّرِيق»، وأنا أرى أن هذا الذي قد يترك ما هو فيه قليلاً، ليذهبَ إلى شيء آخر، يكونُ كمن اجتمعتْ لَدَيْهِ الفوائد الكثيرة، أو قلْ: ازدحمتْ في ذهنه حتى إذا عَرَضَ لشيء منها، وجد أنها تومىء في بعض جوانبها إلى فائدة أخرى.

قلت:

كأني أدركتُ أن هذا يكونُ لدى أهل السَّعَةِ في العلم، ولا سيَّما المكفوفين الذين ليس لهم إلا ما وعته الذاكرةُ. إن هؤلاء قد يمضونَ في بسط شيء مما اختزنوه في ذاكرتهم، حتى إذا اجتذبوه إليهم خرج معه شيءٌ آخر، فيكونُ هذا وذاك، ويحفل هذا الكفيفُ بزادٍ وافر، لا يكون من نظائره لدى كثيرٍ ممن رزق نعمةَ البصر.

قال صاحبي:

وإني لأقرن ذاكرة هذا الأعمى بما جدَّ في عصرنا من هذه الأجهزة الجديدة التي تُدعَى «الكومبيوتر». إن هذا الجهاز الجديد الذي يحفظ العلم في «رقوقه» يَصِلُك بالمادة التي تريدُها وما يَتَّصِلُ بها من قريب أو بعيد.

قلت:

ولِمَ لم تقل «الحاسوب» الذي ابتدعه أهل التعريب الذي يقابلُ «الكومبيوتر» سواءً بسواء.

قال صاحبي:

كلاهما مُعوز، ذلك أن الجهازَ يتجاوزُ الحسابَ والأرقامَ وجمْعها وما يكونُ من غير الجمع في علم الرياضة. إنه يخزن المعلومات، ويصنِّفها، ويرتّبها، ويعطي النتائجَ والمعلوماتِ عامّةً، مما تتصِلُ بالعلوم وغيرها.

وقد أحسنتَ كل الإحسان حين أشرت إلى ما اختزنته ذاكرة العميان، فهذا المَعَرِّي يعطيك من الفوائد، في كثير من تصانيفه، قدراً كبيراً، وكأنها جاءته وعَرضت له، فلا يستطيعُ أن يَحْجُبَها عن القارىء، وهو يذكرها، ليشيرَ إلى ما له من فوائدَ، لا تجتمعُ لدى المبصرين من أهل العلم.

قلتُ:

ألم أقل لك غير مرة أنك تصرفنا كثيراً عما نحن فيه، فأين أنا وضيقي بـ«السنوات العجاف» التي قضيتُها، بل قاسيتُ منها في «صنعاء» التي كانت آخر مطافي في «مسيرتي». وقد أدركت أني لم أقلْ وأنا سائر إليها «لا بُدَّ من صنعا وإن طَالَ السَّفَرْ».

قال صاحبي:

وما أظنُّكَ بعد أن نزلت فيها، ورأيت محاسِنَها التي قد تحجبها سوآتُها كما حدَّثتني، قد أنشدت قول الشاعر القديم الذي حلَّ في صنعاءَ، فاستوبَأها، فحنّ إلى بَلَده في «وادي أشيّ» في نجد، فقال فيما قال:

لا حبَّذا أنتِ يا صَنْعَاءُ مِنَ بَلَدِ　　　ولا شَعُوبُ هوىً مِنّي ولا نُقُمُ

قلت:

عفا اللهُ عنك، كم تفتشُ عن «النّكات» في بطون المطوّلات. لم يكن هذا البيت، من شعر زياد بن منقذ، مما يعرفه اليمنيون في عصرنا، وقد يعجبونَ أو يكتئبونَ أنْ كان هذا من شعر شاعرٍ جاهليٍّ قديمٍ.

قال صاحبي:

وهل جهلَ أصحابُنا اليمنيّون قولَ نابغة بني ذبيان، في خِطاب له لأحدهم:

وأنــت وزيــرهُ إن لــم تَكُنْــهُ　　　ولكــنْ لا أمــانَــة لليَمَــانــي

قلت:

لا تسرفْ في القول، إنّ الله لا يُحِبُّ المسرفين، ولا تذهبَنَّ مع الشُّعراء، فقد يمدحون ويذمُّون، ولك فيما قاله أبو الطيب في مصر فائدةٌ. ألم تقرأ ما أثبته ياقوتٌ في «البلدان» من شعر كثير في مدح بغداد

والبصرة، وما قاله آخرون في ذمّهما.

قال صاحبي:

أنا موقنٌ بهذا، ويكونُ لي أن أُفيدَ مما قاله ربُّنا - تباركت كلماته - في الشعراء الذين يتبعهم الغاوون.

قلت:

وأعود إليك فأقول: لقد هبطت في مطارِ صنعاءَ، فوجدتُه غير ما أعرفه في مطارات عواصم البلدان العربية، وكأني في مطار إحدى الحواضر الصغيرة.

قال صاحبي:

قد يكون هذا بسبب أن اليمن دولة فقيرة، وأنها تتلقَّى العون من كثير من البلدان في الشرق والغرب، غير أني علمت أن فيها ثراءً، فقد عرف فيها البترول، وأنها تصدِّر منه قَدْراً، كان ينبغي أن تكونَ في مأمَنٍ مما هي فيه.

قلت:

وفيها الأرضُ المعطاءُ التي تُخْرِجُ الطَّيِّباتِ بقليل مما تسعفُ به السَّماءُ، وفيها الشواطئُ الطويلة التي تزخر بالأسماك. ولو أنهم أفادوا من كل هذا، لكانوا في سَعَةٍ وغضارةِ عيْشٍ.

قال صاحبي:

لقد أشرتَ شيخي الجليل إلى أنّا قد نجولُ في حواشٍ، تبعُدنا عما نحن فيه من بسط «السيرة الذاتية»، وإني لأجدني مدفوعاً إلى أن أعرضَ لفلان وفلان، ولهذا الأمر وغيره، مما لا بُدَّ أن يكونَ لنا فيه بعضُ علاقة.

قلت:

إن مصطلح «السيرة الذاتية» ليس مما ورثناه في أدبنا وتاريخنا، ذلك أنه أُرِيدَ به أن يقابلَ المصطلح الفرنسي autobiographie. غير أن هذا يعني لدى الفرنسيين وغيرهم سيرة من يكتبها في نشأته وسائر مراحله، وما كان له في سيرته من صِلاَتٍ بغيره من الناس سلباً وإيجاباً.

قال صاحبي:

وهذا هو الصحيحُ، فسيرةُ الرسول المصطفى تتجاوز الحد الضيق الذي يقتصرُ على ميلاده ونشأته ثم نبوّته، إنها فصولٌ في جهادِه، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، وفصولٌ أخرى في صِلاته بمن أسلم ومن بقي في عناده وكفره. ومن هنا كان لنا أن نقولَ ما التزمْنا به في هذه «المسيرة».

قلت:

نعم، لقد كان عليَّ أن أقولَ: إن الذي صُعِقتُ به أوّل رؤيتي لليمنيين هو فقرُهم وما كان من سوء المظهر للفقراء المُعْدِمين، وهؤلاء جمهورٌ، تلقاهُ في كلِّ مكان في صنعاء.

قال صاحبي:

فكيف كان إخواننا اليمنيون في عهود أئمة اليمن؟ لقد قال الثائرون والموالون لهم: إن تلك العهود عهودُ ظلامٍ وظلمٍ، وإن الناسَ يتصرفُ بهم الإمامُ وحكامُه ورجالُه تَصَرُّفَ الرجل بعبيدِه. فهل أفلح الجمهورُيون في دفع غائلة الفقر، وهل أنصفوا المتعبينَ الكادِحينَ؟ وهل بسطوا القليل من السعادة لهؤلاء الذين حُرِمُوا منها؟

قلت:

لقد جاء الجمهوريونَ الذين قضوا على إمامة الإمام الجائر، بهذه الدَّعوة

إلى الإصلاح ورد المظالم وإعادة الحقوق إلى أهلها، ولكنهم لم يفلحوا، لأنهم جاؤوا، ولم يسلموا من عيوب عصر التَّخَلُّف وأوضاره. ألا تراهم لم يُحَرِّموا «القات» الذي أفاد أولو العلم أنَّه ورقٌ لشجرةٍ خبيثةٍ ملعونةٍ، حُمِلتْ إليهم من بلاد في شرق إفريقية.

قال صاحبي:

ولِمَ وصفتَ هذه الشجرة بالخبثِ فحقَّت اللَّعْنَةُ على ماضغي وَرقها. وقد ذهب إلى هذا شاعرُ الثورة في اليمن محمد محمود الزبيري.

قلت:

وكأنك لم تُدْرِكْ شرّ هذه الشجرة التي هي أخبثُ من شجرة الزَّقُّوم التي ذكرها الله - سبحانه - في كتابه العزيز. إن هذه الشجرة التي سَلَبَتْ عقولَ اليمنيين في مَضْغِ أوراقِها، لتحمل إليهم كلَّ شرّ. لقد اطمأنّ أهل العلم إلى أن في ورق القات مضارَّ صحيّة، فكانت منظمة الصحة العالمية قد أدرجتها في مواد «المخدّرات» ومنعت التداوُلَ بها، فليس يُسمَحُ بإدخالها في أيِّ بلدٍ من البلدان.

قال صاحبي:

لقد علمت أن للقاتِ مَضَارَّ أخرى، ذلك أن اليمنيين يخلدون إلى مضغه ساعات عدة، من بعد ظهيرة كل يوم في بيوتهم وحوانيتهم ومتاجرهم ومحلاّتهم العامة، فلا يعملون أو يؤدُّون عملاً من أعمالهم. وقد حدَّثني من زار اليمنَ ممن عرفتُ من أصحابي وغيرهم، أن صاحبَ سيارة الأجرة الذي يعمل ويقود سيارته لنقلِ المارَّة من مكانٍ إلى آخر، يقوم بعمله، وهو يمضغُ هذا الورقَ الخبيثَ، وهو في عمله في قيادة السيارة، يختارُ من الوَرَق ما يعرفُه منه لمضغه.

قلت:

نعم، كان ذلك لهم في كل مكانٍ تدخل فيه من أمكنتهم العامّة. وهم من أجل ذلك يحملونَ معهم أكياساً، فيها الأغصانُ الصغيرةُ من هذه الشجرة الملعونةِ، ليختاروا ما يشاؤون من الوَرَقِ، ويرمون بغير ما يحتاجونه من الأغصانِ والورقِ في الشوارع.

وأذكر من نِكاتِ أحد إخواننا المصريين من أهل الأدب، قد رأى بقايا الأغصان والأوراق في طريقه، وهو يدوسه، فأنشد ساخراً بيت أبي نواس:

مساحبُ من جَرِّ الزِّقاقِ على الثَّرَى وأضغـاثُ رَيْحـانٍ جَنِـيٌّ ويَـابِـسُ

فأينَ هذا من ذاك.

قال صاحبي:

وأدهَى من هذا كلِّه أن الحصولَ على هذا الزاد الخبيث في كلِّ يوم الذي يقتضي صاحبه أن يُنْفِقَ فيه مالاً وفيراً، يدفع الموظف في مكتبه والعامل في عملِه إلى أخذ الرَّشوة من النَّاس لقاء أدائِه الخدمَةَ لهم: لقد كثر الرائشُ والمرتَشي بين اليمنيين، وهم لا يخْشَوْن العِقَابَ، فكلُّهُمْ في عمله لا يفكّر أن أيّاً من أصحاب الأمر يبعدُه عما هو فيه.

قلت:

وعدِّ عن هذا إلى أولئك الذين يعتدون على المال، فينهبون ما ينهبون من خزائن الدولة وغيرها ما يستطيعوَن مما اؤتمِنوا عليه. وهذا هو شأنُ كثير من المحاسبين الذين احتجنوا لأنفسهم الملايين، وأنت تسمعُ هذه الفضائحَ في كلِّ مكان، وصاحب الفضيحةِ آمِنٌ في سِرْبِهِ، لا يخشى أيَّ نوعٍ من عقاب.

قال صاحبي:

ولعل هذا هو الذي دفع كثيراً من العاملين إلى التَّبَاطؤ في عمله، بل قُلْ إلى الإهمال في كل شيء.

قلت:

وأذكر غير مرَّة أنهم أعلنوا عن بدء حملات للنظافة، ولكنك تُلفي القُمَامَة والمخلّفات في كُلِّ موضع من مواضع صنعاء، في أثناء الأسابيع التي دعوها أسابيعَ خاصّةً لرفع القمامة. وأذكر فيما أذكرُ أن ما يُدعَى «حاويات» للقمامة قرب سفارة فرنسا، أجدها ممتلئةً في كل يوم، وقد انتشرت أكوامٌ منها في الشارع، ولا تعجبْ إن قلت لكَ: إن مباني جامعة صنعاء تحوي من هذا الكثير الكثير.

قال صاحبي:

فأيُّ عملٍ يظلُّ لما يُسمّى أمانةَ العاصمة؟ وكيف لا تزخرُ صنعاءُ بالمرضى من ذوي العاهات ومن المُعَوَّقين، وممن يحملُ الأمراضَ السارية كالجَرَب وغيره؟

قلت:

ودع هذا واستمع إليَّ، وأنا أخبرك بالعجب، فقد دُعينا نحن العاملين في الجامعة من غير اليمنيين إلى تسلّم مرتّباتِنا في عصر أحد الأيام، وجاءتْ جموعنا، وانتظرنا المحاسب وأعوانه ساعات إلى ما يقرب من منتصف الليل، ولم يأتِ أيٌّ منهم، ورجعنا بخُفَّيْ حُنَين. وقد يكون موعدٌ آخرٌ وثالثٌ، ولا يَتِمُّ تسلّم المرتّبات.

ولا بد أن تعلم أنهم حين يُسَلِّمون هذه «المرتّبات» يقتطعون لأنفسهم قَدْراً من كل واحد منّا، فيجتمع لديهم مبلغٌ عظيمٌ وهو أجرُ المحاسب

وأعوانه الذين حملوا إلينا أجرنا. ولو أن أحداً منّا تأخر عن الحضور، لكان له أن يتحمَّلَ المَشَاقَّ في استرداد «مرتّبه».

قال صاحبي:

وأذكر أنك أنشدتَ في هذا أبياتاً حزينة، قلتَ فيما قلتَ:

يا ويحَ «جمهرة» تُقادُ وقد تُسامُ لها الأجورُ.

قلت:

وقد يصعبُ علينا أن نحصلَ على كتابٍ من العاملين اليمنيين في الجامعة، لمصلحةِ تخصُّنا، فكلُّ شيء صعبٌ عسيرٌ.

قال صاحبي:

لقد قيل: «حسبُكَ من شَرٍّ سماعُهُ». غير أن الشَّرَّ هو السَّائدُ، وسطوة الشَّرِّ هي الغالبة. ألم تحدِّثني عما كان من اعتداء على نفر من الوافدين الذين احتملوا الشَّرَّ وأمِن المعتدي؟ أفليس إلينا أن نذهبَ إلى العلم، فتحدّثني عن مكتبة كلية الآداب وكتبها؟

قلت:

لقد أحسنت في صرفنا عن السوء، في ذهابنا إلى العلم. لقد كان لي أن ذهبت إلى هذه المكتبة في أوّل يوم بدأت فيه الدراسة، في الشهر العاشر من سنة ١٩٨٧ فرأيت فيها شاباً، هو المسؤول عن شؤونها، ومعه عاملون، ولكنهم يفتقرونَ إلى الصَّنعة المكتبية. وأشهد أني رأيتُ لدى هذا الرجل حذقاً ومهارةً وإخلاصاً في العمل، ولكن هل له أن يُحَقِّقَ الكثيرَ، وليس له من العاملين من يُعينُه أو يخففُ من مشكلاتِهِ. ثم إنه يشكو أمرَّ الشَّكوى من موظفي الجامعة الكبار الذين لا يُنفقون ما في أيديهم، مما خُصِّصَ في الموازنة لشراء الكتب، بل يعبثون ويسرقون، وهم آمنون.

ثم ماذا؟ ذلك هو العَجَبُ العُجَابُ، فقد مررت في «حمّام» المكتبة أي المغاسل، وإلى جوارها «المراحيض» التي شممت من سوأتها ما لا يوصفُ، لأنها طافحةٌ بالسوء، فذهبتُ في اليوم الثاني إلى العميد، وهو رجلٌ حديثُ المجيء إلى كلية الآداب، بعد رجوعه من دراسته في أمريكا، وشكوت له، وبسطتُ الأمر، فأقرّني، وأيقنتُ أنه سيصلحُ الحال، ولكن هذا لم يقُمْ بشيء، وبقيت المأساةُ والخطبُ كبير، ولو أنك فكرتَ في الإصلاح، لاحتملت العَنَاءَ.

قال صاحبي:

لقد كنت أطمحُ أن سيكونُ لي متعةٌ، وأنت تُحَدِّثُني عن كتب هذه الخِزَانة التي قيل: إن حكومة الكويت التي كانت تُنفقُ على «الجامعة» قد زوَّدتها بآلاف الكتب والمصادر.

قلت:

نعم، كانت حكومة الكويت سخيةً في الإنفاق، فقد أَمَدَّت المكتبةَ بالكثير الكثير من المصادر والكتب، حتى إذا انقطعتْ الجامعةُ عن الاعتماد على الكويت في النفقة والمال، بدأت المكتبة فيما تعانيه من نقصٍ، يزدادُ يوماً بعد يوم.

لقد رأيتُ في مدير المكتبة الذي حدَّثتكَ عن إخلاصه واستقامته غيرة على الكتب وصيانتها، ورأيته مُلِمّاً بصنعته، فهو من محبِّي الكتاب، وهو يقرأ كثيراً، فوجدتُ لديه سَعَةً في الاطلاع على مصادرَ التَّاريخ والدراسات الإسلامية. ولن يفوتَه ما يَتَّصِلُ بعصرنا من معارف.

قال صاحبي:

وهل عرفتَ من حديث الكُتُب ونوادر الدَّارسين مما كنت أسمعه منك

في بغداد وعمّان وغيرهما؟

قلت:

كنت أحضرُ كلَّ يوم إلى المكتبة، ولي فيها غرفةٌ خاصَّةٌ، أجلسُ فيها، وأقرأ، وأنا أستعين بصاحبي مدير المكتبة. وقد كان لي أن عَرَفْتُ من مشكلات الدَّارسين من الطلاب، فكان لي مشاركةٌ في إعانتهم وبَسْط ما يعسُرُ عليهم في الرجوع إلى المصادر.

قال صاحبي:

لقد عرفتُ منذ أن سعدت بقربك، أنك تَتَعَقَّبُ أخبارَ الكتاب وما كان من نوادر محبّته، وقد حدَّثتني مرّة عن «كنّاس» يكنسُ قمامة شارع المتنبي في بغداد، وكنتَ تخرجُ أوّل كتاب نشرته في بغداد، وهو «نزهة الألباء» لأبي البركات الأنباري.

لقد تقدَّم إليك ذلك الكنَّاسُ الذي كفَّ عن الكنس، وقصدك يسألُ عن الكتاب، فعرفت أنه يقرأ، وأنه من محبّي الكتب، وأنه هو وصاحبُه في ركن آخر من الشارع، ممن يقصدون المكتبة العامة في شارع الرشيد، فيقرؤون فيها ما يرغبون من كتب الأدب والتاريخ. لقد كان صاحبُ هذا الكنّاس مولعاً بكتب التراجم.

لقد طَلَب إليك هذا نسخة من «الكتاب» فأهديتَه هو وصاحبَه ما أراد، وكان لك بذلك سرورٌ، لا يعدلُهُ سرورٌ. وقد قلتَ لي فيما قلت:

أين هذا الكنّاسُ من الأديب فلان وفلان وفلان، ممن يطلبونَ الكتابَ، ولا يقرؤون، وأين هذا من آخر من أصحاب الأسماء الذي يستهديك الكتابَ، فتهديه إليه، ثم يذهب من فوره يبيعه بثمنٍ دون ثمنِهِ، بعد قطع طرف الصفحة الأولى التي فيها «الإهداء»!!

قلت:

لقد عرفت في مكتبة كلية الآداب طرفاً آخر، وهو أن ثلاثة أو أربعة من عمَّال، يعملون في إصلاح الكراسي المعدنية وغيرها في الجامعة، يقصدون المكتبة للاستعارة. وقد وجدتُ في صفحة كل منهم لما يستعيرونه، أنهم قد استعاروا كتباً مترجمة كتبها الغربيون في رحلاتهم إلى الشرق، كما استعاروا كتباً في التاريخ، ولا سيَّما تاريخ الأديان.

وقد زاد عجبي بهؤلاء الذين أحبّوا المعرفة، واستدركوا بما لجؤوا إليه ما فاتهم من الدرس الذي حُرموه، بسبب من فقرهم وحاجتهم، فتركوا المدرسة الابتدائية، وتوجّهوا إلى العمل، بسبب لقمة العيش.

فأين هؤلاء من جمهرة المدرسين في الجامعة الذين لم أر منهم أحداً يقصدُ المكتبةَ إلا حين تحزبُهُ حاجةُ، لا بُدَّ له منها؟ وهذا لا يكونُ إلّا في ظروفٍ نادرةٍ.

وإني لأقطعُ أن كثيراً من أصحابي، في قسم اللغة العربية، من اليمنيين والوافدين، لم يدر أين هي المكتبة. وأن عامَّة من يعملُ في قسم التاريخ وقسم الدراسات الإسلامية وغيرهما، كالفلسفة وعلم النفس، وسوى ذلك، مَنْ قصد يوماً المكتبة.

قال صاحبي:

لقد شُغلوا بالداءِ الجديد، وهو بيعُ ما يَدْعونه «المَلازم» للطلاب، أو غير ذلك مما يقمشون لهم من كتب المحاضرات وكراريسها.

وقد سمعتُ أن أحدهم أخرج كتباً عدّة، كلُّها جمعٌ واقتباسٌ من عمل غيره، وصار يضطرُ الطلّاب الفقراءَ إلى شِرائها، ولا يهمُّ العميد مثلاً أن يقفَ في ردِّ هذا الظلم.

قلت:

وهل تعرفُ أن كثيراً من هؤلاء المُدَرّسين تجاوزوا في عددَ ساعات الدَّرْس معلم المدرسة الابتدائية، فكان لبعضهم ثلاثون أو أربعون ساعة إضافية. إن هذا العبث ما عرفته إلا في جامعةِ صنعاءَ، فإلى أين المصيرُ؟

لقد تصدَّى أحدُ هؤلاء العابثين لموضوعات كثيرة، لا يفهمُها، ولكنه يقمِّشُ «مَلازمه» من الكتب سرقةً واضحةً، ثم يكونُ له من ذلك تجارةٌ رابحةٌ.

قال صاحبي:

أفليسَ لي أن أتلو ما قرأتُه في السُّنّة الشريفة: «يُحشَر التاجرُ يوم القيامة فاجراً إلا مَن آمَنَ وبرَّ وصَدَق». فأين هذا التاجرُ الذي آمن وبرَّ وصَدَق!!

قلت:

ومن المؤلُم أنك تجد هؤلاء الكذّابين الذين جاؤوا إلى جامعة صنعاء، قرأوا أن لدى اليمنيين صيحةً دينيةً وحماسةً، لا أدري مبلغَ الحقِّ فيها، فلم يكنْ منهم إلاّ الاستجابةُ لهذه الصيحة، فلبسوا اللُّبوسَ، وأطلقوا اللِّحَى، ونبذوا لباسَهم الإفرنجي، فكان للجلابيب والطاقية والسراويل الظاهرة ما عرفوا به، فتهيّأ لهم بذلك أحسنُ ما لهم من «استثمار» للدين، قاتلهم اللهُ أنّى يُؤفكون.

ومنهم نفرٌ آخرُ، ترك الانتماء الحزبي في بلده، فجاء إلى صنعاء، فرجع «طائفياً» لا يعرف غير ما هو شيعي وسُنّي، وكل رابحٌ منتفعٌ.

فهل ترى بعد هذا أن أزوِّدَكَ بأكْثَرَ من هذا الزَّادِ البغيضِ.

لقد أنهيت تسعَ سنوات قلت فيها:

تسعاً لقيت بها العذابَ كأنه العَذْبُ النَّمِيرُ.

كُتب في الشهرين التاسع والعاشر من سنة ١٩٩٥م في صنعاء

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

حديث السنين

سيرة ذاتية

دار عمار

عمان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء

تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ ص.ب ٩٢١٦٩١ عمان - الأردن

دار البيارق

لبنان: بيروت - ص.ب: ٥٩٧٤ / ١١٣ - الحمراء

الأردن: عمان - ص.ب ٨٦٤ - الرمز ١١٥٩٢